

Qur'anic Studies (2)

دروس قرآنية (٢)

القرآن والكتاب

The Qur'an and the Book

يوسف درة الحداد

Professor Youssef Durrah al-Haddad

الكتاب الثاني : أطوار الدعوة القرآنية

(القسم الأول : الفصل الأول – الفصل الخامس) (ص ٢٨١ – ٥٣١)

Book Two : The Stages Of The Qur'anic Mission

(The first part: 1st chapter- The 5th chapter (pp 281- 531)

www.muhammadanism.org

November 4, 2011

القرآن والكتاب

* بيئة القرآن الكتابية

** أطوار الدعوة المكية

دُروسٌ قرآنيّة

٢

القرآن و الكتاب

*

٢ - أطوارُ الدَّعوةِ القرآنيّة

الأستاذ الحداد

القِسْمُ الثَّانِي

أَطْوَارُ الدَّعْوَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

((و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على النَّاس))
(سورة البقرة ١٤٣)

تقديم

((هذه سبيلي أدعو فيها إلى الله))

بالقرآن الكريم أنشأ النبي العربي أمة وديناً ودولة، لم يزل لها جميعاً شأنها العظيم في العالم ، و إلى ما شاء الله .

و كان القرآن داعي الدعوة إلى التوحيد، على هدى الكتاب ((الإمام)) : ((و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً)) (سورة هود ١٧ ، أحقاف ١٢) ، ((قل : آمنت بما أنزل الله من كتاب)) (شورى ١٥) ((أولئك الذين هدى الله ، فبهدهم اقتد)) (أنعام ٩٢)

فما بين القرآن الكريم والكتاب المقدس انتساب و نسب، تطوّر من ((أمة واحدة)) مع أهل الكتاب في مكة (مؤمنون ٦٣ ، أنبياء ٩٢) إلى ((أمة وسط)) بين الموسوية والمسيحية في المدينة (البقرة ١٤٣)

ندرس في هذا الكتاب ذينك الانتساب والنسب في ((أطوار الدعوة القرآنية)) بحسب ترتيب سور القرآن التاريخي الذي وضعه أئمة المسلمين .

فنفهم القرآن على ضوء القرآن و السيرة الصحيحة، لاندماج الرسول بالرسالة ، في تحليل منطقي جديد لسور القرآن جميعها .

و هكذا نتضح لنا جيداً معالم الرسالة والرسول، و تتجلى ((أطوار الدعوة القرآنية)) في عهدها الخمسة. و كل عهد له :

تمهيد تاريخي من أحداث السيرة النبوية في تلك الفترة

وعرض تفصيلي موجز لسور العهد ، بحسب تاريخ نزولها

و تحليل لتعاليم العهد وأساليبه ، و ميزاته القرآنية ومظاهرها.

لذلك نرى أن تطور الدعوة القرآنية يجري كله - على محاربة الشرك العربي - في محور التوحيد الكتابي، التوراتي والإنجيلي. و يتحدّد، عهداً بعد عهد، موقف القرآن من الكتاب، و إسلام القرآن من إسلام الكتاب (الحج ٨٧)

((هذه سبيلي أدعو فيها إلى الله)) .

فهرست القسم الثاني

صفحة		
٢٨١	تطور طرائق الدعوة في القرآن	تمهيد الكتاب :
٢٨٣	ترتيب القرآن التاريخي	الفصل الأول :
٢٨٥	واقع القرآن الحالي	بحث أول :
٢٩٠	ضوابط لترتيب القرآن التاريخي	بحث ثانٍ :
٢٩٩	ترتيب المسلمين التاريخي	بحث ثالث :
٣٠٦	تعليق على الترتيب الإسلامي	
٣٠٩	مقابلة بين ترتيب المسلمين و ترتيب المستشرقين	بحث رابع :
٣١٣	تعليق على المقارنة بين الترتيبين	
٣١٧	نظم القرآن	الفصل الثاني :
٣١٧	الإعجاز البياني في سلم الإعجاز المطلق	بحث أول :
٣١٨	في كيفية التنزيل و الوحي : أباللفظ أم بالمعنى ؟	بحث ثانٍ :
٣١٩	لغة القرآن	بحث ثالث :
٣٢٤	كيفية نزول القرآن و تأليفه	بحث رابع :
٣٢٦	روابط الآي و السور	
٣٢٨	من الأعجاز في نظم القرآن	بحث خامس :
٣٢٩	في معرفة الوجوه و النظائر والأفراد	أولاً :
٣٣٠	في الضمائر . في التذكير و التأنيث	ثانياً :
٣٣١	في مقدّمه و مؤخره	ثالثاً :
٣٣٣	في عامّه و خاصه	رابعاً :
٣٣٥	في مجمله و مبينه	خامساً :
٣٣٨	في مشكله و موهم الاختلاف و التناقض فيه	سادساً :
٣٤٠	في الآيات المشابهات	سابعاً :

صفحة		
٣٤١	في المحكم و المتشابه من القرآن	بحث سادس
٣٤٤	من المتشابه آيات الصفات الإلهية	أولاً :
٣٤٥	من المتشابه فواتح السور بالحروف المتقطعة	ثانياً :
٣٤٥	القرآن أسس و وسائل	ثالثاً :
٣٤٩	في الناسخ و المنسوخ	بحث سابع :
٣٥٣	أساليب نظم القرآن و فنونه	بحث ثامن :
٣٥٤	السور المسجعة أو الموزونة	
٣٥٥	هل في القرآن شعر ؟	
٣٥٦	فواصل القرآن	
٣٥٩	أربعون حكماً مخالفاً للأصول مراعاةً للفواصل	
٣٦٢	فواتح السور عشرة أنواع	
٣٦٣	تطور الأساليب القرآنية في فواتح السور	
٣٦٨	عهود القرآن بارزة في تطور أساليبه	
٣٦٩	الإعجاز ما بين الإنجيل و القرآن	خاتمة :
٣٧٣	العهد الأول في مكة : ((العهد المسيحي))	الفصل الثالث :
٣٧٣	أحداث العهد و ميزاته	تمهيد :
٣٧٦	السورة الأولى : العلق . السورة الثانية : القلم	
٣٧٧	السورة الثانية : المزمل	
٣٧٨	الرابعة : المدثر	
٣٧٩	الخامسة : الفاتحة	
٣٨٠	السادسة : المسد أو تبت	
٣٨١	السابعة : التكوير . الثامنة : الأعلى . التاسعة : الليل	
٣٨٢	العاشرة : الفجر . الحادية عشرة : الضحى	
٣٨٣	الثانية عشرة : الشرح . الثالثة عشرة : العصر	
٣٨٤	الرابعة عشرة : العاديات . الخامسة عشرة : الكوثر	
٣٨٤	السادسة عشرة : التكاثر . السابعة عشرة : الماعون	
٣٨٥	الثامنة عشرة : الكافرون . التاسعة عشرة : الفيل . العشرون : الفلق	

صفحة		
٣٨٦	الحادية و العشرون : الناس. الثانية و العشرون : الإخلاص... النجم	
٣٨٨	الرابعة و العشرون : عيس . الخامسة و العشرون : القدر... الشمس	
٣٨٩	السابعة و العشرون : البروج	
٣٩٠	الثامنة و العشرون : التين . التاسعة و العشرون : قريش	
٣٩١	الثلاثون : القارعة. الحادية و الثلاثون : القيامة ... الهَمزة	
٣٩٢	الثالثة و الثلاثون : المرسلات	
٣٩٣	الرابعة و الثلاثون : سورة ق	
٣٩٤	الخامسة و الثلاثون : البلد	
٣٩٥	السادسة و الثلاثون : الطارق	
٣٩٦	تعليق : العهد المسيحي في القرآن	الفصل الرابع :
٣٩٦	أسلوب الأقسام القومية و الجمال الفني	بحث أول :
٤٠٣	الدعوة القرآنية الأولى أقرب إلى المسيحية	بحث ثان :
٤٠٣	الظاهرة القرآنية العامة : انتساب إلى الكتاب في أمة واحدة	
٤٠٤	بيئة محمد قبل بعثته : حنيفية كتابية مسيحية	أولاً :
٤١٣	هداية محمد في سورة الضحى	ثانياً :
٤١٧	دعوة القرآن الأولى مسيحية في موضوعها	ثالثاً :
٤١٧	(١) الإصلاح الاجتماعي على الطريقة المسيحية	
٤٢١	(٢) دعوة القرآن ليوم الدين دعوة مسيحية	
٤٢٢	أ - يوم الدين في الإنجيل	
٤٢٤	ب - يوم الدين في القرآن	
٤٢٩	دعوة القرآن الأولى مسيحية أيضاً في طريقتها	رابعاً :
٤٢٩	(١) الدعوة القرآنية الأولى للزهد مسيحية رهبانية	
٤٣٠	(٢) الدعوة القرآنية الأولى للتوبة مسيحية رهبانية	
٤٣١	صلاة محمد الأولى مسيحية رهبانية	
٤٣٢	دعوة القرآن الأولى مسيحية في أحداثها	خامساً :
٤٣٥	المتشابه في أوصاف اليوم الآخر	بحث ثالث :

صفحة		
٤٣٩	العهد الثاني بمكة : ((العهد الإسرائيلي))	الفصل الخامس:
٤٣٩	أحدث العهد و ميزاته	تمهيد :
٤٤٧	فترة الانتقال بين عهدين	البحث الأول :
٤٤٧	السورة السابعة و الثلاثون : القمر	
٤٤٨	الثامنة و الثلاثون : سورة ص (داود)	
٤٥٠	التاسعة و الثلاثون : الأعراف (سورة متبَعضة)	
٤٥٦	السورة الأربعون : الجن . الحادية و الأربعون : يسن	
٤٥٨	الثانية و الأربعون : فاطر	
٤٦٠	الرابعة و الأربعون : سورة مريم : القصص المسيحي الأكبر	
٤٦٩	القصص القرآني التوراتي	البحث الثاني :
٤٦٩	الخامسة و الأربعون : سورة طه (حديث موسى)	
٤٧٢	السادسة و الأربعون : الواقعة	
٤٧٤	السابعة و الأربعون : الشعراء	
٤٧٧	الثامنة و الأربعون : النمل	
٤٧٩	التاسعة و الأربعون : القصص	
٤٨٢	السورة الخمسون : الإسراء	
٤٨٧	الحادية و الخمسون : يونس	
٤٩٢	الثانية و الخمسون : هود	
٤٩٥	الثالثة و الخمسون : يوسف	
٤٩٧	الرابعة و الخمسون : الحجر	
٥٠٠	الخامسة و الخمسون : الأنعام (سورة متبَعضة)	
٥١٠	السادسة و الخمسون : الصافات	
٥١٢	السابعة و الخمسون : لقمان	
٥١٣	الثامنة و الخمسون : سبأ	
٥١٦	التاسعة و الخمسون : الزمر	
٥١٩	((الحواميم))	البحث الثالث :

صفحة

٥١٩	السورة الستون : حم غافر (أو المؤمن)
٥٢١	الحادية و الستون : حم السجدة (أو فصلت)
٥٢٢	الثانية و الستون : حم عسق الشورى
٥٢٤	الثالثة و الستون : حم الزخرف
٥٢٧	الرابعة و الستون : حم الدخان
٥٢٨	الخامسة و الستون : حم الجاثية
٥٢٩	السادسة و الستون : حم الأحقاف

٥٣٢	تعليق : العهد الإسرائيلي في القرآن	الفصل السادس :
٥٣٣	العهد الإسرائيلي في القرآن	بحث أول :
٥٤٤	بقاء التأثير المسيحي قائماً	بحث ثانٍ :
٥٤٦	ميزات العهد الثاني بمكة	بحث ثالث :
٥٤٦	الظاهرة الأولى : الاستفتاح بذكر الكتاب و القرآن	
٥٤٨	الظاهرة الثانية : الدعوة للتوحيد الخالص	
٥٤٨	أولاً : التوحيد محور الدعوة في العهد الثاني	
٥٥٠	ثانياً : براهين التوحيد	
٥٥٢	ثالثاً : المنطق الوجداني في الجدل القرآني	
٥٥٣	رابعاً : هل براهين التوحيد من متشابه القرآن ؟	
٥٥٤	خامساً : هل العلوم الكونية القرآنية من متشابه القرآن	
٥٥٩	سادساً : هل تفصل التوحيد من المتشابه في القرآن ؟	
٥٦٠	سابعاً : كيف ينسجم الإعجاز و المتشابه في « الكونيات » القرآنية؟	
٥٦١	الظاهرة الثالثة : القصص القرآني	
٥٦١	أولاً : أغراض القصص القرآني	
٥٦٣	ثانياً : أسلوب القصص القرآني	
٥٦٦	ثالثاً : التكرار و الإعجاز في القصص القرآني	
٥٦٩	رابعاً : هل القصص القرآني للتاريخ أم للتمثيل	
٥٧٠	خامساً : صلة القصص القرآني ببيئته العربية أو الكتابية	

صفحة

٥٧٣

سادساً : هل القصص القرآني من متشابه القرآن ؟

٥٧٤

سابعاً : هل من تعارض في القصص القرآني ؟

٥٧٧

العهد الثالث بمكة : عهد ((الأمة الواحدة))

٥٧٧

أحداث العهد من السيرة ، و ميزاته

٥٨٧

فترة الفتنة و الارتداد عن الإسلام بمكة

٥٨٧

السابعة و الستون : الذاريات

٥٨٩

الثامنة و الستون : الغاشية

٥٨٩

التاسعة و الستون : الكهف

٥٩٤

السورة السبعون : النحل

٥٩٩

الحادية و السبعون : نوح

٦٠٠

الثانية و السبعون : إبراهيم

٦٠٢

الثالثة و السبعون : الأنبياء

٦٠٥

الرابعة و السبعون : المؤمنون

٦٠٨

الخامسة و السبعون : السجدة

٦١٠

سورة الإنذار الأخير للمكذابين

٦١٠

السادسة و السبعون : الطور

٦١١

السابعة و السبعون : الملك

٦١٢

الثامنة و السبعون : الحاقة

٦١٣

التاسعة و السبعون : المعارج

٦١٥

السورة الثمانون : النبأ

٦١٥

الحادية و الثمانون : النازعات

٦١٧

الثانية و الثمانون : الانفطار

٦١٧

الثالثة و الثمانون : الانشقاق

٦١٧

الرابعة و الثمانون : الروم

٦١٩

الخامسة و الثمانون : العنكبوت

٦٢٢

السادسة و الثمانون : المطفين

الفصل السابع :

تمهيد :

البحث الأول :

البحث الثاني :

٦٢٤	أربع سور مختلفة	البحث الثالث : ملحق:
٦٢٤	السابعة والثمانون : الإنسان أو الدهر	
٦٢٥	الثامنة و الثمانون : الرحمان	
٦٢٧	التاسعة والثمانون : الزلزلة	
٦٢٨	السورة التسعون :الرعد	
٦٣٣	تعليق على العهد الثالث بمكة : عهد الأمة الواحدة	الفصل الثامن :
٦٣٤	الظاهرة الأولى : أمة التوحيد المنزل واحدة	
٦٣٦	الظاهرة الثانية : الاستطلاع للاستقلال عن أهل الكتاب	
٦٣٨	الظاهرة الثالثة : عهد الأمثال في القرآن	
٦٤٦	نظرات عامة في القرآن المكي	الفصل التاسع :
٦٤٦	الدعوة القرآنية في مكة كتابية	بحث أول :
٦٤٦	في مصادرها	أولاً :
٦٥٠	في موضوعها	ثانياً :
٦٥٢	في طريقتها	ثالثاً :
٦٥٤	في أساليبها	رابعاً :
٦٥٥	في جدلها	خامساً :
٦٥٧	الدعوة القرآنية بمكة بدائية لا لاهوتية	
٦٥٨	الدعوة القرآنية بمكة عملية لا فلسفية	
٦٦٠	الدعوة القرآنية بمكة إصلاحية لا إنشائية	
٦٦٠	الدعوة القرآنية بمكة أخلاقية لا تشريعية	
٦٦١	الدعوة القرآنية بمكة أخلاقية لا عقائدية	
٦٦١	هل درس محمد الكتاب؟	ختام البحث :
٦٦٤	موقف القرآن السلبي من المعجزة	بحث ثانٍ :
٦٦٦	نظرية الأستاذ دروزة في الموضوع	
٦٦٩	الإعجاز القرآني و المعجزة	بحث ثالث :

٦٧٩	القرآن ((أسلوب جديد)) في النبوة و المعجزة	بحث رابع :
٦٨٥	شخصية النبي في مكة	بحث خامس :
٦٨٥	مثال البطولة الصامدة في دعوة الحق	
٦٨٨	مثال الإخلاص في إعلان بشرية النبي المحدودة	
٦٩٠	أزمات النبي النفسية	
٦٩٧	أزمات النبي الإيمانية	
٧٠٥	موقف محمد من الوحي القرآني	بحث سادس :
٧٠٥	سبع ظواهر من القرآن	
٧٠٩	سبع شبهات من الحديث	
٧١٢	الرسالة و الرسول في مكة	بحث سابع :
٧١٢	الرسالة القرآنية في مكة حجازية	أولاً :
٧١٧	الرسول في مكة ((نذير))	ثانياً :
٧٢١	القرآن المكي تعريب التوحيد الكتابي	خاتمة :
٧٢٣	العهد الأول في المدينة : عهد ((الأمة الوسط))	الفصل العاشر :
٧٢٣	ثورة و انقلاب في الرسول و الرسالة	تمهيد :
٧٢٤	أسباب الهجرة	مطلب أول :
٧٢٨	مشاكل الجماعة الجديدة بعد الهجرة	مطلب ثان :
٧٣٠	آثار الهجرة في الرسول و الرسالة	مطلب ثالث :
٧٣٠	الانقلاب في سيرة محمد و شخصيته	أولاً :
٧٣١	الانقلاب في الوحي و التنزيل و الدعوة	ثانياً :
٧٣٢	الانقلاب في الدين إلى دولة دينية	ثالثاً :
٧٣٣	الانقلاب في طريقة الدعوة	رابعاً :
٧٣٦	الاستقلال عن أهل الكتاب	خامساً :
٧٣٨	تأسيس الإسلام أمة وسطاً	سادساً :
٧٣٩	أسلوب القرآن المدني	مطلب رابع :
٧٣٩	ميزاته العامة	

صفحة		
٧٤٠	أسلوب النظم في القرآن المدني	
٧٤٣	أسلوب التشريع في القرآن المدني	
٧٤٤	أسلوب التاريخ في القرآن المدني	
٧٤٥	أسلوب الجدل في القرآن المدني	
٧٤٦	تخطيط السور في العهد المدني	خاتمة :
٧٤٧	أول العهد بالمدينة : تأسيس « الأمة الوسط »	البحث الأول :
٧٤٧	سورة البقرة (١ / ٩١) فذلكة : ميزاتھا	
٧٤٩	سورة البقرة : القسم الأول منها : الدعوة للأمة الوسط	
٧٦٤	سورة البقرة : القسم الثاني منها : شريعة الأمة الوسط	
٧٧٩	سورة البقرة : القسم الثالث منها : الجهاد في سبيل الأمة الوسط	
٧٨٥	الصمود لقريش : توطيد الأمة الوسط	البحث الثاني :
٧٨٥	أحداث الفترة من السيرة	تمهيد :
٧٩٣	السورة الثانية (أو ٩٢) : الأنفال (في نصر بدر)	
٧٩٨	السورة الثالثة (أو ٩٣) : آل عمران (في هزيمة أحد)	
٧٩٩	القسم الأول منها : سلسلة جديدة من جدال اليهود	
٨٠٢	القسم الثاني منها : سلسلة خطابات	
٨٠٣	القسم الثالث منها : في هزيمة أحد	
٨٠٦	القسم الرابع منها : غزة بدر الآخرة	
٨٠٧	السورة الرابعة (أو ٩٤) : الحشر (في جلاء بني النضير)	
٨٠٩	السورة الخامسة (أو ٩٥) : النساء	
٨٠٩	الفصل الأول منها : استفتاءات في الأحوال الشخصية	
٨١٥	الفصل الثاني منها : خطابات توجيهية	
٨١٧	الفصل الثالث منها : تحريض على الجهاد	
٨١٨	الفصل الرابع منها : استفتاءات في بعض الأحوال	
٨٢٠	الفصل الخامس منها : حملة على المنافقين و اليهود	
٨٢٤	السورة السادسة (أو ٩٦) : محمد	

صفحة		
٨٢٦	السورة السابعة (أو ٩٧) : الأحزاب (في وقعة الخندق)	
٨٣٠	ميزات النبي من شريعة الزواج القرآنية	
٨٣٥	الانتقال من الدفاع إلى الهجوم	البحث الثالث :
٨٣٥	أحداث الفترة من السيرة	تمهيد :
٨٤٠	السورة الثامنة (أو ٩٨) : الطلاق	
٨٤١	السورة التاسعة (أو ٩٩) : البيّنة	
٨٤١	السورة العاشرة (أو ١٠٠) : المنافقون	
٨٤٢	الحادية عشرة (أو ١٠٢) : النور	
٨٥٠	تعليق : عهد ((الأمة الوسط)) في الدعوة القرآنية	الفصل الحادي عشر:
٨٥٠	ما بين القرآنيين و الدعوتين و الرسولين	بحث أول :
٨٥٣	الإسلام ((أمة وسط)) بين الموسوية و المسيحية	بحث ثان :
٨٥٤	الإسلام ((أمة وسط)) في عقيدته	مطلب أول :
٨٥٥	الإسلام ((أمة وسط)) في شريعته	مطلب ثان :
٨٥٥	في أركان الإسلام	أولاً :
٨٥٧	في الأحوال الشخصية	ثانياً :
٨٦٠	في الدستور الأخلاقي (وصايا الله)	ثالثاً :
٨٦٤	في الخطيئة و الكبائر و الشرك	رابعاً :
٨٦٥	الإسلام ((أمة وسط)) في صوفيته	مطلب ثالث :
٨٧١	الإسلام دولة دينية	بحث ثالث :
٨٧٦	الجهاد لحماية الأمة و الدولة	بحث رابع :
٨٧٦	تشريع الجهاد و الدعوة إليه	أولاً :
٨٧٨	غاية الجهاد إخضاع العرب لدولة الإسلام	ثانياً :
٨٧٩	السياسة و الدين	ثالثاً :
٨٨٠	الله هو إله الجهاد في القرآن	رابعاً :
٨٨٢	هل من معجزة في ((الغيبيات)) القرآنية ؟	خامساً :

٨٨٣	العهد المدني هو عهد التشريع في القرآن	بحث خامس :
٨٨٣	ظواهر التشريع القرآني الذاتية	أولاً :
٨٨٧	ظواهر التشريع القرآني الخارجية	ثانياً :
٨٩٠	ميزات التشريع القرآني	ثالثاً :
٨٩٢	جوهر التشريع القرآني	رابعاً :
٨٩٣	هل التشريع ((وجه من وجوه الإعجاز في القرآن ؟))	خامساً :
٨٩٦	((النبي الأمي)) و اليهود	بحث سادس :
٨٩٧	((صفة النبي)) الأمي	أولاً :
٨٩٩	جدال النبي لليهود	ثانياً :
٩٠٥	دعوة اليهود إلى الإسلام و قتالهم	ثالثاً :
٩٠٩	العهد الثاني في المدينة : ((العهد الإسلامي))	الفصل الثاني عشر :
٩٠٩	أحداث هذا العهد	تمهيد عام :
٩١٢	توطيد هيبة الإسلام بصلح الحديبية وفتح شمال الحجاز	البحث الأول :
٩١٢	أحداث الفترة من السيرة	تمهيد :
٩١٥	الثالثة عشرة (أو ١٠٣) الحج	
٩٢٠	الرابعة عشرة (أو ١٠٤) التحريم	
٩٢١	الخامسة عشرة (أو ١٠٥) التغابن	
٩٢٢	السادسة عشرة (أو ١٠٦) الجمعة	
٩٢٣	السابعة عشرة (أو ١٠٧) الفتح	
٩٢٥	الثامنة عشرة (أو ١٠٨) الحجرات	
٩٢٧	التاسعة عشرة (أو ١٠٩) الممتحنة	
٩٢٨	العشرون (أو ١١٠) الصف	
٩٣٠	فتح مكة أو جنوب الحجاز	البحث الثاني :
٩٣٠	أحداث هذه الفترة	تمهيد :
٩٣٤	الحادية و العشرون (أو ١١٠) الحديد	
٩٣٦	الثانية و العشرون (أو ١٢٢) المائدة	

صفحة		
٩٣٧	السورة الأولى منها : تشريعات في عمرة القضاء	
٩٤٤	السورة الثانية منها : تشريع و تعليم من بعد فتح مكة	
٩٤٦	السورة الرابعة منها : مجادلة وفد نجران	
٩٤٨	تابع : فاتحة آل عمران : ((تعالوا إلى كلمة سواء))	
٩٥٥	فتح الجزيرة من اليمن إلى الشمال	البحث الثالث :
٩٥٥	الأحداث الأخيرة من حياة النبي	تمهيد :
٩٦٥	الثالثة و العشرون (أو ١١٣) براءة أو التوبة	
٩٦٥	سورة براءة : وصية القرآن الأخيرة لأمته	
٩٦٩	سورة التوبة : في ملابسات غزة تبوك	
٩٧٤	الرابعة و العشرون (أو ١١٤) النصر	
٩٧٦	تعليق : ((العهد الإسلامي)) في الدعوة القرآنية	الفصل الثالث عشر :
٩٧٦	العهد الإسلامي في الدعوة القرآنية	البحث الأول :
٩٨٤	((أحمد)) يدعو النصارى إلى ((كلمة سواء))	البحث الثاني :
٩٨٤	نظرة تاريخية أثرية	مطلب أول :
٩٨٩	تطور موقف القرآن من النصارى في العهد النبوي	مطلب ثان :
١٠٠٤	الرسالة القرآنية في المدينة قومية عربية	البحث الثالث :
١٠٠٨	المبادئ المكية التي تؤيد ذلك	
١٠٠٩	المبادئ المدنية التي تؤيد ذلك	
١٠١٢	الآيات المتشابهات في عالمية الدعوة	
١٠١٥	((النبي الأمي و الرسول البشر)) في المدينة	البحث الرابع :
١٠١٦	بشرية الرسول في حياته العامة و الخاصة	
١٠٢٠	بشرية الرسول في حياته العسكرية الجهادية	
١٠٢٦	المعجزة و الإعجاز في القرآن المدني	البحث الخامس :
١٠٢٦	التيار المتطرف عند المسلمين	
١٠٢٨	التيار المعتدل	
١٠٣٠	قول المعتزلة : إن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوة	

صفحة		
١٠٣٤	موت النبي العربي	الفصل الرابع عشر :
١٠٣٤	موت النبي العربي	البحث الأول :
١٠٤٠	المعجزة القرآنية الإسلامية	البحث الثاني :
١٠٤٢	الخلاف على الخلافة	البحث الثالث :
١٠٤٤	حروب الردة	البحث الرابع :
١٠٤٦	المعجزة العربية في حروب الفتح	البحث الخامس :
١٠٥٣	إسلام القرآن و إسلام الكتاب	خاتمة القسم الثاني :
١٠٥٥	الواقع القرآني النبوي :	أولاً :
١٠٥٥	الإسلام في القرآن	
١٠٥٦	بيئة القرآن و النبي كتابية	
١٠٥٨	ترجمة التوراة و الإنجيل إلى العربية	
١٠٦٠	اتصال محمد بأهل الكتاب للبحث في الدين	
١٠٦١	فهل كان محمد أمياً ؟	
١٠٦٢	و هل عرف محمد الكتاب المقدس ؟	
١٠٦٥	هل للقرآن من مصادر ؟	ثانياً :
١٠٧١	شخصية النبي العربي	ثالثاً :
١٠٧٥	أخلاق النبي العربي	رابعاً :
١٠٧٧	القرآن العربي ((وحي الفطرة))	خامساً :
١٠٧٩	إسلام القرآن	سادساً :
١٠٨١	القرآن كتاب التوحيد الخالص	سابعاً :



تمهيد

تطوّر طرائق الدعوة في القرآن

من يتلو القرآن الكريم، بحسب ترتيبه التاريخي، يلحظ تطوّر واسعاً في طرائق الدعوة، في أساليبها ومضامينها.

وإنه لبحث طريف أن ندرس طرائق القرآن في تطور دعوته وأساليب هذه الدعوة. وهذا الدرس يتطلب تحليلاً سريعاً موجزاً لسور القرآن، نكتفي فيه خشية الإسهاب، لنرى مدى العبقرية والمعجزة في دعوة النبي العربي.

في العهد المكي الأول، نلمح في سور قصار، بروقاً ووعوداً من الوعد والوعيد في الدعوة لليوم الآخر، يستفتحها بأقسام غريبة مورثة عن بيئته.

وفي العهد المكي الوسيط، بين الهجرة الجماعية إلى الحبشة والهجرة الشخصية إلى الطائف، نرى - وقد تروّض النبي على الخطابة - عنصراً جديداً يصبح محور السور البياني: القصص القرآني عن الأنبياء الأولين عبرةً للقوم الآخرين، في دعوة التوحيد؛ واسم الله فيها ((الرحمان)) ثم يتوارى اللقب في المدينة.

وفي العهد الأخير بمكة، بين الهجرة إلى الطائف والهجرة إلى المدينة، تمتزج المطالع والأساليب والمواضيع: إنها فترة تردد واستطلاع إلى الاستقلال الطائفي والقومي عن أهل الكتاب، تمتاز بظاهرة الأمثال التي حاول فيها النبي الاقتداء بأمثال الإنجيل والتفوق على أمثال العرب والعجم.

كل هذا في ((وحدة تامة)) مع أهل الكتاب، طيلة العهد بمكة.

ثم كانت الهجرة الأخيرة والكبرى إلى المدينة بعد معاهدة العقبة ((على حرب الأحمر والأسود من الناس)) : كان الإسلام في مكة دعوة دينية، فصار في المدينة دولة دينية. تطوّر القرآن من دعوة للدين إلى دعوة للدولة: فكان لا بد له لبنائها، من داخل، بتحديد أركان الإسلام، وإصدار تشريع له، ولبنائها، من خارج، بإعلان الحرب المقدسة، الجهاد.

في العهد الأول المدني، عهد الدفاع المسلح، يستقلّ القرآن عن أهل الكتاب بإنشاء الإسلام ((أمة وسطاً)) (بقرة ١٤٣) بين الكتابيين والمشركين، وبين اليهود والنصارى أنفسهم، وسطاً في عقيدتها (آل عمران ١-٧) ووسطاً في شريعتها (نساء ٢٥-٢٧).

وفي العهد الثاني المدني، يتم تأسيس دولة الإسلام بالهجوم المسلح على كل الجبهات، منذ فتح الحديبية إلى موت الرسول: في هذا العهد يدعو أهل الكتاب جميعاً إلى ((كلمة سواء)) (آل عمران ٦٤) في توحيد الحنيفية الإبراهيمية الكتابية (البينة ٦) كما جاء بها ((النبي الأمي)) ((خاتم النبيين)) ، من إسلام إبراهيم إلى موسى إلى عيسى إلى محمد، ((في التوراة والإنجيل والقرآن)) (توبة ١١١).

طرائق خمس تتتابع، وقد تتداخل، والأساليب فيها تتطور بحسب ظروف وملابسات الدعوة القرآنية في عهودها الخمسة.



الفصل الأول

ترتيب القرآن التاريخي

« لو اجتمعت الأنس والجن لما أمكنهم أن يجمعوا القرآن، الأول فالأول، كما أنزل »
حديث لعلي بن أبي طالب

القرآن الحالي مرتب على طريقة الأقدمين، بحسب مبدأ الطول والقصر، في سورة أي فصوله: يبدأ بالسبع الطوال، فالمئين، فالمثاني، فالمفصل أي السور القصار^١. وهناك خلاف في أحاديثهم على تعيين سور كل مجموعة من المجموعات الأربع.

وفي تاريخ جمع القرآن نجد بين الصحابة نزعتين: نزعة آل البيت بزعامة علي بن أبي طالب، كانت تجمع القرآن بحسب تاريخ النزول؛ ونرى ذلك في ما تواتر من أخبار عن علي وعمّ أخذ عنه مثل حفيده، جعفر الصادق، وتلميذه ابن عباس، في مصحفيهما. ونزعة سائر الصحابة بزعامة بني أمية والخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان، في ترتيب مصاحفهم على نسق الطور والقصر، كما ورد في مصحف أبي بن كعب ومصحف ابن مسعود. وفازت النزعة « الأموية » في طريقة جمع القرآن على النزعة « العلوية » في «المصحف الأميري» كما فازت بالخلافة. وقد أبعدت خلافة آل البيت كما أسقط ترتيبهم للقرآن.

(١) الطوال : ما فوق المئة آية ؛ والمئين : ذات المئة آية أو ما حولها ؛ والمثاني : التي تلي المئين في العدد، وهم ما دون المئة ، والمفصل : كثير الفصول وهي السور القصار حتى ثلاث آيات . وفي سابعة الطوال خلاف : فالمصحف العثماني يجعل الأنفال والتوبة واحدة بحذف البسملة بينهما ؛ وابن مسعود يجعلها بونس؛ وعن مجاهد أنها يوسف، وعن الحاكم أنها الكهف. قابل القرآن المجيد ٦٨ والإتقان ١ : ٦٥ .

وذلك التنازع المزدوج يرقى إلى زمن النبي: أخرج الترمذي والحاكم عن الحسن بن علي أن النبي ص. أرى بني أمية على منبره فساءه ذلك، فنزلت سورتا الكوثر والقيد (إتيان ١ : ١٤).

ولكن ترتيب المصحف ((العثماني)) يوافق ترتيب المصحف ((العلوي)) في عدد السور وعدد آياتها، وإن خالفه في مراعاة تاريخ النزول وأسماء السور، على ما نقل ابن النديم في الفهرست^١ والسيوطي في الإتيان. ونلاحظ اتفاقهما على جمع بعض الأقسام معاً، وإن اختلفت في الترتيب، مثل ((الحواميم)) السبع^٢ والمفصل^٣ على خلاف في تحديد البدء به؛ واتفاقهما على فواتح السور التي تبدأ ببعض ((حروف التهجي)) وقد ظهرت في فترة من مكة، وفي أول العهد بالمدينة^٤. ويمتاز مصحف ابن مسعود بجمع ((الممتحنات)) في قسم واحد^٥.

وما فازت الطريقة ((الأموية)) في ترتيب القرآن، على الطريقة ((العلوية)) إلا لاستحالة الترتيب التاريخي، بعد أن تفرق القرآن على حروف مختلفة وقراءات مختلفة ولغات مختلفة قد تنقلها أحياناً بالمعنى دون اللفظ، أدت به إلى الفوضى واقتتال المؤمنين عليه. ولذلك نقلوا على لسان الإمام وغيره قولهم: ((لو اجتمعت الأنس والجن لما أمكنهم أن يجمعوا القرآن الأول فالأول كما أنزل)) .

وكان يحدهم في ذلك رغبة جامحة في إظهار إعجاز القرآن، وتفوقه في السبع الطوال

-
- (١) قابل الأستاذ عبد المتعال الصعيدي : النظم الفني في القرآن ٢١ - ٢٦ وفيه ((كان العلويون يتوارثون مصحف علي . وقد ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست أنه رأى عند أبي يعلى ، حمزة الحسني ، مصحفاً سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب ر. يتوارثه بنو حسن على مر الزمان)) ص ٢٤ .
- (٢) ((الحواميم)) : هي السور التي مطلعها حرفا التهجي ((ح م)) وهي : حم المؤمن (غافر) ، السجدة (فصلت) ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، حمسق ، الأحقاف . وذكر الإتيان والفهرست أنها: المؤمن الزخرف السجدة حمسق الأحقاف الجاثية الدخان . فالخلاف على الشورى .
- (٣) المفصل : اختلف في أوله على اثني عشر قولاً (الإتيان ١ : ٦٥) يبدأ في رواية البخاري بالجاثية، وعلى قول بالصفاءات ، وعلى قول بسورة ق ، وعلى قول بالحجرات ، وعلى قول بتيبارك ، وعلى قول بالفتح، وعلى قول بالضحي (دروزة : القرآن ٦٨ حاشية) .
- (٤) بعض فواتح السور تبدأ بحروف تهج ، وهي تسع وعشرون ، منها في المدينة البقرة وآل عمران : ((والمختار فيها أيضاً أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى)) (الإتيان ٢ : ٨) .
- (٥) ((الممتحنات)) هي : الفتح الحشر الحديد تنزيل السجدة ق الطلاق القلم الحجرات الملك التغابن المنافقون الجمعة الصف الجن نوح المجادلة الممتحنة التحريم)) (قابل النظم الفني في القرآن ١٩) .

على الشعر الجاهلي، ديوان العرب، وعنوان فخرهم، في ((المعلقات السبع)) . ولذلك أجمعوا على تصدير المصحف بها. وأخرج ابن أثنه في (المصاحف) قال: أمرهم عثمان أن يتابعوا الطوال، فجعلت سورة الأنفال والتوبة في السبع الطوال مع حذف البسمة بينهما^١.

وفي السبع الطوال أيضاً خلاصة خلاف الكتابيين والمشركون على نبوة محمد ودعوته، ومجمل عقيدة القرآن وشريعته، أي الصورة الكاملة للتنزيل القرآني في أفضل سوره.

ولذلك نقلوا عن النبي هذا الحديث: ((أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المثني ومكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلْتُ بالمفصل^٢).

*

بحث أول : واقع القرآن الحالي

قام جدل بين المسلمين في هل الترتيب العثماني ((توقيفي)) أي بأمر الرسول وهدايتة، متواتر عنه، أم ((توقيفي)) باجتهاد الصحابة.

قال السيوطي في (إتقانه ١ : ٦٦) وعليه أجمعت الأمة: ((أما ترتيب الآيات في السور فهو توقيفي؛ وبلغ ذلك مبلغ التواتر^٣. أما ترتيب السور، فهل هو توقيفي أيضاً؟ أم هو باجتهاد الصحابة؟ - خلاف. فجمهور العلماء على الثاني)) . ومن الواضح الثابت أنه بتوفيق الصحابة لاختلافهم في ترتيب مصاحفهم: ((والقول الراجح إن ترتيب السور وتسميتها هو من فعل الصحابة؛ ومما يدل أنه ليس بتوقيفي اختلاف مصاحفهم في الترتيب^٤)) فترتيب السور الحالي هو إذن باجتهاد اللجنة العثمانية.

(١) الإتيان : ١ : ٦٣ . وقد سقط أول براءة مع البسمة .

(٢) دروزة : القرآن المجيد : ٦٨ .

(٣) قابل : ابن الخطيب : الفرقان ٤٦ والصعيدي : النظم الفني ٧ .

من المتواتر أن ترتيب الآيات في السور توقيفي عن النبي . وشذ عن هذا القول ما أخرجه ابن أبي داود في (المصاحف) وأيده فيه ابن حجر : إنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم . ومن المعقول الذي يثبت المنقول أن يكون ترتيب الآيات في السورة بإرشاد النبي . ولا يبعد أن يكون فيه من اجتهاد الصحابة عندما يُشكل عليهم الأمر كما كان يشكل عليهم في لغات القرآن فيكتبونه بلغة قريش . يشهد بذلك (١) وجود آيات مدنية في سور مكية ، وبالعكس ، وهذا لا يرجع إلى التوقيف بل الاتفاق (٢) ومن المتواتر أن الأنفال من أول العهد بالمدينة والتوبة من آخر العهد بها ، وجمعها معاً لا يؤيده تاريخ ولا يدعو إليه منطق حتى يُنسب إلى النبي ، لا سيما وقد اختلفوا في سابعة السبع الطوال ففضى بها عثمان في المصحف الإمام ؛ كذلك نقلت الأخبار عن آخر الآيات نزولاً أنها آية الدين أو الربا ، ومع ذلك فقد وضعوها في سورة البقرة من أول العهد بالمدينة . وقد أجاب على هذه الشبهات أمثال الأستاذ دروزة (القرآن المجيد : ١٠٨) بما لا يزيل الشبهة: لأن تعارض الآيات والحالات النفسية التي تصفها يتنافى مع السيرة والمنطق .

(٤) الإتيان ١ : ٨ - ١٢ .

ونجد في ما بقي لنا من ترتيبات الصحابة أنها كانت، في زمن جمع القرآن، على أربعة أنواع: منها ما كان على حسب ترتيب النزول مثل مصحف علي الذي أخذ عنه جعفر الصادق وابن عباس. ومنها ما كان على حسب ترتيب النسق في الطول فالقصر مثل مصحف أبي.

ومنها ما كان على حسب ترتيب النسق، ولكن في مجموعات مستقلة، بأسماء تميّزها، مثل مصحف ابن مسعود: الطوال فالمئون فالمثنائي فالحواميم فالمتحانات فالمفصل.

ومنها على حسب ترتيب النسق في مجموعات تستفتح بإحدى السبع الطوال، ويسمى الجزء باسمها: جزء البقرة، جزء آل عمران، جزء النساء، جزء المائدة، جزء الانعام، جزء الأعراف، جزء الأنفال. وينسبون هذا الترتيب إلى الإمام علي. والمعروف أن ترتيبه كان على تاريخ النزول^١.

وهذه المصاحف تختلف في الترتيب، وتتفق في عدد السور، دون الأسماء، سوى مصحف ابن مسعود الذي كان في قراءته يسقط المعوذتين والفاتحة؛ ولذلك جعلهما عثمان في أول المصحف الإمام وفي آخره، وسوى مصحف أبي الذي كان يزيد سورتي الخلع والحفد، ولم تجمع عليهما الأمة فأسقطهما عثمان.

والإصدار العثماني، الذي ((أعادوا فيه كتابة المصاحف على لغة قريش وحدها^٢)) ورتبوا السور على النسق الحالي، قد أضاع على الناس الترتيب التاريخي إلى غير رجعة. وكل محاولات المسلمين والمستشرقين لمعرفة ترتيب النزول التاريخي كانت تقريبية لم تصل إلى الحقيقة التاريخية. لقد كان في ترتيب عثمان على النسق الحالي أفدح خسارة وأبرع شطارة: لقد أضاعوا علينا إلى الأبد الوسطة الوحيدة الأكيدة التي كنا نقدر بها أن نتفهم تطور الرسالة المحمدية؛ وبهذه الطريقة الماهرة الماكرة أظهروا إعجاز القرآن وفوائده، وستروا متشابهاته ومبهماتة، وأضاعوا المتشابهة في المحكم، والمنسوخ في الناسخ، وتطورات العقيدة والشريعة في القرآن.

وقد شعر القوم منذ البدء باستحالة ترتيب القرآن حسب النزول. ونقلوا لنا في ذلك حديث الإمام علي السابق، وحديث عكرمة، من كبار الرواة: ((قال محمد بن سيرين:

(١) قابل عبد المتعال الصعيدي : النظم الفني في القرآن . يعطي هذه الترتيبات من ١٦ - ٢٥ .

(٢) قابل عبد المتعال الصعيدي ص ٣٧٦ .

ألفوه كما أنزل، الأول فالأول؛ قال لو اجتمعت الأنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا^١. لذلك تنوعت ترتيبات الصحابة وترتيبات أتباعهم؛ فعمد عثمان إلى ترتيبه وفرضه باتفاق زعماء الصحابة، ورضيت به الأمة تخلصاً من الفوضى.

نجد في ما وصل إلينا من نسخ المصحف العثماني ((أن بعض المصاحف تذكر في فواصل السور^١ ترتيب نزول كل سورة أي أن السورة قد نزلت بعد السورة الفلانية^٢ ٢ صفة كل سورة أنها مكية أو مدنية^٣ عدد آيات كل سورة^٤ رقم الآيات المدنية في السور المكية، ورقم الآيات المكية في السور المدنية، إذا كانت السورة احتوت آيات مكية ومدنية معاً^٥ رقم كل آية بعد كتابتها في السورة. في حين أن بعض المصاحف لا تذكر شيئاً من هذا وتكتفي بذكر اسم السورة. وإن بعضها تذكر بعض هذه الأمور دون بعض. وإن بين المصاحف التي تذكر هذه الأمور جميعها أو بعضها **اختلافاً** في ما تذكره، حيث يذكر بعضها سورة ما مكية بينما يذكر بعضها مدنية. وحيث يكون عدد الآيات المكية والآيات المدنية في السور المكية والمدنية وأرقامها، في مصحف، مغايرة لعددتها وأرقامها في مصحف آخر. وحيث توضع فاصلة وراء آية ما، في بعضها، بينما لا تكون مفصولة في بعضها. وحيث تكون الفواصل بين الآيات في بعضها صمماً بينما تكون في بعضها تحمل رقم الآيات المتسلسل. فالواضح من كل ذلك أن هذه الأمور هي عمل تنظيمي متأخر، وليس له أصل في المصحف العثماني^٦ .

وقد تساعد تلك الإشارات مع غيرها على ترتيب تاريخي معقول.

وقد نهتدي، في السور المدنية، من بعض الآيات التي تشير إلى بعض حوادث من السيرة النبوية، إلى بعض تلقينات تساعد على ترتيب السور المدنية. ولكن ((من العسير معرفة تاريخ السور والمجموعات القرآنية المكية معرفة صحيحة؛ وإن كان ممّا يخفف هذه الصعوبة بعض التخفيف ما هناك من روايات ماثورة لترتيب نزول السور؛ وما من مضامين السور والمجموعات من قرائن تلهم صحة كثير من هذه الروايات أو من مقاربتها للصحة^٣)).

(١) الإتيان: ١ : ٥٩ .

(٢) دروزة : القرآن المجيد ١٢٠ .

(٣) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٣٣ .

ونقلت لنا كتب المحققين القدماء نماذج ترتيبات بعض الصحابة، مثل الفهرست لابن النديم، والبرهان للزركشي، والاتقان للسيوطي. ولكن ((بين هذه الترتيبات تخالف يسير أو كبير. مع التنبيه على أن مضامين بعض السور المكية والمدنية تسوغ التوقف في ترتيبها الوارد في هذه الترتيبات. وتحمل على القول أنها لا تمثل الحقيقة تمثيلاً صادقاً. وإته ليس هناك ترتيب يثبت على النقد والتمحيص بكامله أو يستند إلى إسناد وثيقة متصلة بالعهد النبوي)) .

ومما يزيد الصعوبة اختلاف القوم على مكية أو مدنية بعض السور، قال ابن الحصار: ((المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة؛ وما عدا ذلك مكّي باتفاق)) . واختلافهم على الآيات المدنية في السور المكية، وقال أيضاً ابن الحصار: ((كل نوع من المكّي والمدني منه آيات مستثناة؛ والمكي في المدني نادر)) . وفسر البيهقي بقوله في (الدلائل) : ((في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة فألحقت بها)) . وهذا المزج يعني أنه من عمل الصحابة لا من عمل النبي. وأخرج ابن أبي داود

(١) دروزة : القرآن المجيد ١٢٢ .

(٢) الإتقان ١ : ١٢ ((فصل في تحرير السور المختلف فيها)) . وهي : الرعد القمر الرحمان الجن الصف التغابن المطففين القدر الزلزلة الإخلاص المعونتان . قال دروزة معلقاً : ((وهي مما ورد روايات بمكيته ؛ والصف والحديد لا يتحملان هذا البتة؛ والزلزلة والإنسان والرحمان والحج (؟) تتحملة مع الرجحان ؛ والبيئنة والتغابن يمكن أن تتحملاه ولكن مدنيته هي الراجحة)) (السيرة ٢ : ٩) .
(٣) الإتقان ١ : ٦٣ . وإليك جدول بهذه الآيات المدنية في السور المكية :

مريم	مكية إلا الآيات ٥٨ ، ٧١	فمدنية	الأنعام مكية إلا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ،
طه	١٣٠ ، ١٣١	فمدنية	١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣
الفرقان	٦٨ - ٧٠	فمدنية	الأعراف مكية إلا الآيات ١٦٣ - ١٧٠
الشعراء	١٩٧ و ٢٢٤ - إلى	فمدنية	يونس ٩٤ ، ٩٦
آخر السورة (٥ آيات)		فمدنية	هود ١١٤ ، ١٧ ، ١٢
القصص مكية إلا الآيات ٥٢ - ٥٥		فمدنية	يوسف ٧ ، ٣ ، ٢ ، ١
(الآية ٨٥ نزلت بالجحفة في الهجرة) فمدنية		فمدنية	إبراهيم ٢٩ - ٢٨
العنكبوت مكية إلا الآيات ١ - ١١		فمدنية	النحل ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
الروم	الآية ١٧	فمدنية	(في منصرفه من أحد)
لقمان	الآيات ٢٧ - ٢٩	فمدنية	الإسراء مكية إلا الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
السجدة	١٦ - ٢٠	فمدنية	٥٧ ، ٧٣ - ٨٠
سبأ	الآية ٦	فمدنية	الكهف مكية إلا الآية ٢٨

(المصاحف) عن محمد بن إسحاق: أتاني الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر سورة براءة، فقال: أشهد أنني سمعتهما من رسول الله ص. ووعيتهما. فقال عمر: وأنا أشهد لقد سمعتهما؛ ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة فانظروا آخر سورة من القرآن فألحقوها في آخرها. قال ابن حجر: ظاهر هذا أنهم كانوا يؤلفون آيات السور باجتهادهم وسائر الاخبار تدل على أنهم لم يفعلوا ذلك إلا بتوقيف. فالشبهة قائمة على أن ترتيب الآيات في السور كان أيضاً باجتهاد: واختلافهم على أوائل السور نزولاً، وضمهم إلى مطالعها مواقف من زمن متأخر تعوق تحديدها، واختلافهم على آخر السور نزولاً، قرائن تدل عليه.

مع ذلك فقد شعر القوم منذ القدم بضرورة الترتيب التاريخي لفهم القرآن فهماً صحيحاً. قال الحسن البنسبوري في كتابه (التنبيه): « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي، وما يشبه نزول المكّي بالمدني؛ وما يشبه نزول المدني في المكّي ... والآيات المدنيات في السور المكّية والآيات المكّيات في السور المدنية؛ وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة؛ وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة. وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مكّي وبعضهم مدني: فهذه خمسة وعشرون وجهاً من لم يعرفها ويميّز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى)) .

يسن	مكية إلا الآية ٤٥	فمدنية	القلم	مكية إلا الآيات ١٧ - ٣٣ ثم ٤٨ - ٥٠ فمدنية
الزمر	الآيات ٥٢ - ٥٤	فمدنية	المزمل	الآيات ١٠ - ١١ ثم ٢٠
(في وحشي قاتل حمزة)		فمدنية	المرسلات	إلا الآية ٤٨
الحج	مكية إلا الآيات الثلاث : هذان	فمدنية	الماعون	منها الثلاث الأولى مكية، والباقي مدني
خصمان		فمدنية	والآيات المكّية في السور المدنية :	
التغابن	إلا آيات من آخرها	فمدنية	الأنفال	مدنية إلا الآيات ٣٠ - ٣٦ فمكية
غافر	إلا الآيات ٥٦ - ٥٧	فمدنية	التوبة	إلا الآيتين الأخيرتان
الشورى	الآيات ٢٣ - ٢٥ ثم ٢٧	فمدنية	الحج	إلا الآيات ٥٢ - ٥٥ أثناء الهجرة بين
الجاثية	إلا الآية ١٤	فمدنية	المدينة ومكة	
الأحقاف	إلا الآيات ١٠ ، ١٥ ، ٣٥	فمدنية	محمد مدنية إلا الآية ١٣	أثناء الهجرة بين المدينة
ق	إلا الآية ٣٨	فمدنية	ومكة	
النجم	الآيات ٣٢	فمدنية	التحرير	مدنية إلا من ١١ فما فوق (عن كتاب النظم
القمر	إلا الآيات ٤٤ - ٤٦	فمدنية	الفني في القرآن	١٦ - ٢٥ قابل الإتقان ١ : ١٥)
الواقعة	الآيات ٨١ - ٨٢	فمدنية		

(١) الإتقان ١ : ٨ .

وقد اجتهدوا أن يضعوا ((ضوابط)) لمعرفة ترتيب القرآن التاريخي. تجد مثلاً على ذلك في (إتيان) السيوطي^١، ولكنها قليلة، لا تروي غليلاً.

لذلك أبدى المستشرقون لهذا البحث كل اهتمام. وبينما كان جلّ اعتماد المسلمين على النقل، يظهر جلّ اعتماد المستشرقين على التحليل العقلي. فقد اعتمدوا في تحليل وترتيب سور القرآن مبدأ التطور السيكولوجي الذي يترك أثره في تكوين السور، وتتفاعل وتتطور معه. فالدعوة النقوية تأتي قبل الدعوة إلى التوحيد الخالص؛ والدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر تأتي قبل تشريع الحلال والحرام ووضع أركان الإسلام النهائية. والأسلوب الناري في السور القصار يناسب البدء بالوعظ أكثر من السور الطويلة ذات الآيات المرسلة. وحالة محمد النفسية بين صعود وهبوط، تسبق حالة الطمأنينة فالاستقرار، وهو ظاهرة السور الكبرى. ومحاولة إيلاف قريش تأتي قبل مهاجمتهم. والاتفاق مع أهل الكتاب يسبق الاختلاف معهم والاستقلال عنهم ثم الاقتتال.

تلك المبادئ وغيرها كانت أساس الترتيب Chronologie الذي وضعوه. ولا بد من التفاوت بين ترتيب وآخر لأن الميزان شخصي. ولكن هناك ترتيب أوشك أن يكون إجماعياً أو ((كلاسيكياً)) : بدأ فيل Weil سنة ١٨٤٤ وأكمله نلدكه Noldeke المستشرق الكبير ١٨٦٠، وصححه صحبه Schwally شواليّ ١٨٧٢ وهو المعروف باسم ((ترتيب نلدكه)) وقد اعتمده المستشرقون من كل الأقسام، مثل بلاشير M^r Blachère في ترجمته الجيدة للقرآن مع بعض تعديلات^٢ ومثل باريجا Pareja في موسوعته^٣.

*

بحث ثان : ضوابط لترتيب القرآن بحسب تاريخ النزول

بعد الاستقراء الطويل لمؤلفات المسلمين والمستشرقين، وتلاوة القرآن الكريم مراراً، توصلنا إلى وضع هذه ((الضوابط)) التي تساعد على فهم القرآن التاريخي، وضبط سوره بحسب زمن نزولها. قال الإمام فخر الدين الرازي عن هذا العلم: ((أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط^٤)) .

(١) الإتيان ١ : ١٧ .

(٢) Blachère: Introduction au Coran 1948 - وفي كتابه Le Problème de Mahomet الذي ظهر ١٩٥٣ يقول عن ترتيب نلدكه: « C'est elle qui doit servir de base à un reclassement des sourates coraniques » p. 251.

(٣) Pareja Islamologia

(٤) الإتيان ٢ : ١٠٨ .

١- ميزة سورة البقرة :

سورة البقرة هي صلة الوصل بين القرآن المكي والمدني: إليها تنتهي أساليب الدعوة في مكة، ومنها تبدأ أساليب الدعوة في المدينة.

لذلك فالاستشهاد بها على شاذ في ضابط من الضوابط لا يقوم: فالضوابط قواعد عامة لا ينفبها الشاذ.

٢- الدعوة والتشريع :

في حديث عن عائشة: « في أول القرآن يذكر الجنة والنار؛ ولما دخل الناس في الإسلام جاء ذكر الحلال والحرام » قال السيوطي: « لم يكن بمكة حد ولا نحوه » . وقال الجعبري: « كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية » .

لذلك ما كان في القرآن دعوة فهو من مكة، وما كان تشريعاً فهو من المدينة: كان القرآن في مكة دعوة دينية، فصار في مكة دولة دينية لها تشريعها.

٣- الدعوة لله واليوم الآخر :

الدعوة لله واليوم الآخر من مكة بين المشركين؛ ووضع أركان الإسلام وفرائضه في المدينة للمسلمين.

والدعوة لليوم الآخر بالوعد والوعيد سبقت الدعوة للتوحيد: فدعوة الآخرة من العهد الأول، ودعوة التوحيد الخالص من العهد الثاني بمكة.

الدعوة التقوية من العهد الأول بمكة؛ والدعوة العقائدية من العهد الثاني بمكة.

٤- الجدل القرآني :

« لم يقم في مكة جدلٌ مع أهل الكتاب » (الزمخشري): فكل جدل مع أهل الكتاب فهو من المدينة. وكل جدل مع المشركين فهو من مكة.

لذلك، مهما كانت السورة، فالآيات التي تحمل جدلاً مع المشركين فهي مكية؛ والتي تحمل جدلاً مع الكتابيين فهي مدنية.

٥- ذكر الجهاد والقتال :

كانت الدعوة القرآنية بمكة ((بالحكمة والموعظة الحسنة)) . ولم يشرع القرآن الجهاد والقتال إلا في المدينة. لذلك كل دعوة سمحاء فهي مكية؛ وكل دعوة عسكرية فهي مدنية. وكل سورة أو آية تدعو إلى الجهاد والقتال فهي مدنية؛ وكل آية أو سورة فيها عفو أو صفح فهي مكية.

وكل سورة فيها دعوة عسكرية دفاعية فهي من العهد الأول بالمدينة؛ وكل سورة فيها دعوة عسكرية هجومية فهي من العهد الثاني بالمدينة بعد صلح الحديبية.

٦- القصص القرآني :

قال الجعبري: ((كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية. وكل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية^١)) . وأخرج البيهقي: ((كل شيء نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون فإنما نزل بمكة - سوى البقرة؛ وما كان من الفراض والسنن فإنما نزل بالمدينة^٢)) .

وكل سورة فيها على الخصوص قصة آدم وإبليس فهي مكية (هن ست) - سوى البقرة. يفترن القصص بالهجرة إلى الحبشة، مع سورة مريم ((وقد صح أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النجاشي)) فما كان من سور بلا قصص فهو من العهد الأول بمكة؛ والسور التي فيها قصص فمن العهد الثاني بمكة.

٧- ذكر الهجرة إلى المدينة :

كانت الهجرة إلى المدينة، بحسب معاهدة العقبة، ((لحرب الأحمر والأسود من الناس)) : فكل سورة أو آية تدعو إلى الصبر وتحمل الأذى والتأسي بمصير الأنبياء الأولين فهي من مكة؛ وكل سورة أو آية فيها ذكر القتال، أو ذكر المهاجرين والأنصار فهي من المدينة.

٨- ذكر المنافقين :

كان الإسلام في مكة مضطهداً؛ فصار في المدينة مسيطراً، والمقاومة فيها له خفية؛ لذلك كل سورة أو آية فيها ذكر النفاق والمنافقين فهي مدنية. مثال ذلك سورة العنكبوت مكية بالإجماع، مع ذلك مطلعها ١- ١١ مدني لذكر الجهاد والنصر والمنافقين.

(١) الإتيان ١ : ١٨ .

(٢) الإتيان ١ : ١٩ .

قال مكي: ((كل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية ^١)) .

٩- موقف القرآن من آلهة قريش :

جاء في السيرة: ((كان لا يعيب آلهة قومه فأصبح يعييبها)) .

لذلك فالسور التي فيها حملة على ((شركائهم)) فهي من العهد الثاني بمكة؛ بينما التي فيها دعوة من وعد ووعد فهي من العهد الأول بمكة.

١٠- أقسام القرآن :

كثرة الأقسام من أساليب العرب. وتخف عند أهل الكتاب.

لذلك فالسور التي فيها أقسام فهي مكة.

والسور التي فيها أقسام على طريقة العرب فهي من العهد الأول بمكة؛ بينما الأقسام بالكتاب والقرآن والرحمان فهي من العهد الثاني بمكة.

١١- اسم الجلالة :

اسم الجلالة الشائع في الحجاز هو ((الله)) ، واسم ((الرحمان)) غريب عنهم قاوموا ذكره في القرآن المكي؛ ولا يظهر في المدينة. وظهوره يقترب بالهجرة إلى الحبشة.

لذلك كل سورة أو آية فيها اسم الجلالة ((الرحمان)) فهي مكية، ومن العهد الثاني بمكة

١٢- اسم يهود وبني إسرائيل :

((لم يقم في مكة جدال مع أهل الكتاب، وحيث يقوم جدال معهم يدعوهم ((باليهود)) بينما في مواقف المواعدة والتودد يدعوهم ((بني إسرائيل)) .

لذلك كل سورة فيها تودد أو استشهاد باليهود فهي مكية، وكل سورة فيها مواقف لهم تدل على الدس والتفرقة والجحود والتشكيك فهي مدنية. وكل حملة عليهم فهي مدنية.

(١) الإتيان ١ : ١٩ .

(٢) سورة الرحمان يكثر فيها اسم الجلالة هذا ؛ وعلى مكيتيه خلاف ؛ والجمهور على أنها مكية (إتيان ١ : ٢٠) لهذا السبب - وفي القرآن مجموعة سبع وعشرين سورة تبدأ برموز من حروف التهجي، يكثر فيها ذكر الرحمان (اسم الجلالة في الجنوب) ورب العالمين (اسم الجلالة في الشمال) يُظن أن هذه الرموز من أسماء الجلالة ، وعلى كل حال فهي من العهد الثاني بمكة لاستعمالها اسم الرحمان .

والسور التي يدعوهم فيها ((بني إسرائيل)) على العموم سوى الزهراوين فهي مكية والتي يدعوهم فيها ((اليهود أو الذين هادوا)) فهي مدنية.

١٣- ذكر السجدة :

جاء في (كامل) الهذلي: كل سورة فيها سجدة فهي مكية.

١٤- ((المفصل)) - ومبدأ الطول والقصر في الآيات والسور :

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: نزل المفصل بمكة فمكثنا حُججاً نقرأه ولا ينزل غيره^(١) وجاء في السيرة أن محمداً خاف من لقاء الوحي؛ وعند فتور الوحي فكر بالانتحار. ثم جاءت الطمأنينة، وطول النفس في الآيات والسور.

لذلك فالسور القصيرة التي تدعي ((المفصل)) فهي على العموم من العهد الأول بمكة، خصوصاً إذا تخللها أسلوب ناري متقطع. والسور التي تطول ويظهر عليها الهدوء فهي من العهد الثاني بمكة. وفي المدينة يزيد الطول في الاستقرار والآيات والسور.

١٥- حالة محمد النفسية:

كان الاتصال الأول بالوحي انفجاراً بركانياً في نفس ((النبي الأمي)) ، ما بين تصعيد وتصويب؛ حتى فترات اليأس والانتحار ثم تعود الطمأنينة والسكينة، يزعجها الاضطهاد من حين إلى حين فتعلو وتهبط حتى الهجرة. حينئذ يسود الاستقرار والسيادة المطلقة. وهذه الحالات النفسية أثرت دون شك على تطور الدعوة القرآنية، وظهرت عليها أماراتها.

فكل سورة أو آية على العموم تصف حالة نفسية حادة فهي من مكة، سوى مشاكل النساء، كما يظهر في ((الممتحنات)) ، وكل سورة أو آية فيها لهجة السيادة الشخصية فهي من المدينة.

وكل مقطع أو آية في السور المكية تصف القلق والاضطراب فهي من أوائل التنزيل؛ وكل سورة أو آية تشع منها الطمأنينة فهي من العهد الثاني بمكة.

١٦- أسلوب القرآن :

رأينا أن الأقسام القومية من العهد الأول بمكة، والأقسام الكتابية من العهد الثاني، ويغيب هذا الأسلوب في المدينة.

(١) إتقان ١ : ١٨ .

وقال الجعبري: « لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي وقياسي؛ فالسماعي ما وصل إلينا نزوله في أحدهما. والقياسي: كل سورة فيها « يا أيها الناس » فقط، أو « كلا » أو أولها حرف تهج، سوى الزهراوين والرعد (٤) فهي مكية ». وأنشد الديرني:

وما نزلت « كلا » بيثرب فاعلمن
ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

وأخرج الحاكم في (المستدرك) والبيهقي في (الدلائل) والبخاري في (المسند): « ما كان « يا أيها الذين آمنوا » أنزل في المدينة، وما كان « يا أيها الناس » أو « يا بني آدم » فبمكة ». وأضاف مكي: « ذلك إنما هو في الأكثر » - لا بل مضطرب لأن ما يذكر من شواذ (نساء ١ و ١٣٣ والحج ١٧ و ٧٧ مقابل ١ و ٥ و ٤٩ و ٧٣) ناتج من إقحام آيات مدنية في سور مكية، أو آيات مكية في سور مدنية، وقد تكون السورة كلها متبعضة، مثل الحج، فيما سوى البقرة لأنها على هامش المكي والمدني^١.

١٧- نظم القرآن^٢:

قال الأستاذ دروزة^٣: إن أسلوب القرآن يساعد بنطاق ضيق على التمييز بين السور المكية والسور المدنية، بل الآيات المكية والآيات المدنية أيضاً:

« فالسور المكية أولاً تنحو في الأغلب نحو التسجيع والتوازن؛ أما القرآن المدني فالتسجيع فيه قليل بل نادر؛ وطول نفس الآيات غالب فيه (بعكس المكي).

« وثانياً تنكشف في المكية الدعوة إلى الله وإثبات استحقاقه وحده للخضوع والعبادة ومحاربة الشرك؛ أما المدني فقد اصطبغ فيه المبادئ والتكاليف التعبديّة والأخلاقية والاجتماعية والقضائية والسلوكية بصبغة التقنين والتعقيد.

« وثالثاً إن أسلوب المكية، المتصل بالدعوة إلى المكارم الاجتماعية والروحية والإنسانية، وبالتحذير من الآثام والفواحش، أسلوب دعوة وحض وتشويق وتنديد وتنويه. بينما المدنية، فيها تشريع الجهاد ووقائعه؛ وظروفها؛ وفيه أبطال عادات وتقاليده قديمة، وأقرار عادات وتقاليده قديمة أخرى مع الإصلاح والتهديب.

(١) إتيان ١ : ١٨ قابل البرهان ١ : ١٨٩ - وهذا الضابط الخامس عشر يجعلنا نقطع في الخلاف على مكية أو مدنية سورة الحج بأنها متبعضة من أسلوبها المذكور ومضمونها (القتال والتشريع) .
(٢) في ما نقله هنا إعادة بعض الضوابط مجموعة لإظهار نظم القرآن في أسلوبه ومضمونه .
(٣) دروزة : القرآن المجيد ١٢٤ و ١٢٥ معاً .

« ورابعاً إن القصص ومشاهد الآخرة، والحديث عن الملائكة والجن، وحكاية أقوال الكفار وجدلهم وافتراءاتهم ونسبهم المختلفة للنبي قد كثرت وتقررت في المكي؛ بينما المدني نقل فيه فصول القصص ووصف مشاهد الآخرة والجن والملائكة والجدل فيها، ووصف مشاهد الكون، أو تقتصر ويكتفي من ذلك بالتذكير والإشارات الخاطفة.

« وخامساً من مميزات الأسلوب المكي اللهجة الخطابية القوية النافذة إلى الأعماق والقارعة للأسماع والقلوب، واللهجة المحببة الاستشهادية التي يُذكر بها الكتابيون أولو العلم؛ والأسلوب المدني فيه الاستفتاءات والأسئلة القضائية والاجتماعية والأخلاقية والأسروية، وأجوبتها التشريعية؛ ولهجته عن اليهود لهجة شديدة في الدعوة والتعنيف والتنديد » .

وهكذا بدأ القرآن أقرب إلى الشعر وانتهى أقرب إلى النثر؛ بدأ بجوامع الكلم وانتهى بالطويل المرسل؛ بدأ حكماً كالشهب الثواقب، وانتهى أحكاماً كالرجوم السواقط. وهذا التقرير قد يساعد على تقدي زمن السورة أو الآية.

١٨- مقومات الوحدة في السور القرآنية :

- أ - المبدأ العام: « السورة قطعة لها أول وآخر، أقلها ثلاث آيات » ولذلك في المجموعات القرآنية من السور الطويلة قد توجد سور متعدّدة جُمعت في وحدة قرآنية يدل عليها تنوع مضمونها، وأحياناً تنوع فواصلها.

وقد تكون الوحدة القرآنية الطويلة أي السورة، تمثل وحدة زمانية مهما طالت مدتها مثل سورة البقرة، وقد تكون من أزمنة مختلفة يدل عليها تعارض الأسلوب والفاصلة وتعارض المضمون، وتعارض الحالات النفسية المحكية.

- ب - ومن المأثور أن القرآن كان ينزل نجوماً حسب الظروف الطارئة، وقد لا تتعدى الوحدة القرآنية في الوحدة الزمانية، الآيات العشر. لذلك فاختلاف المقاطع في الأسلوب والمضمون من السورة الواحدة يشكل سوراً في سورة.

- ج - وهكذا تقوم وحدة السورة على وحدة النظم والأسلوب والفاصلة، لا على وحدة الموضوع والمواقف والمضامين.

(١) تفسير الجلالان على البقرة ٢٣ .

ولنا على ذلك قرينة عصرية من زمن القرآن، في المعلقات السبع من الشعر الجاهلي، التي كانت سبباً ومثالاً لتصدير القرآن بالسبع الطوال تحدياً تجاه أفضل ما أنتجته الجاهلية. فوحدة المعلقة لا تقوم على وحدة الموضوع، وانسجام المواقف، وتسلسل الأفكار المنطقي؛ بل تقوم على وحدة النظم ووحدة الأسلوب ووحدة القافية.

كذلك القول في سور القرآن: لا تقوم وحدة السورة على وحدة الموضوع فالموضوع في القرآن كله واحد: الإيمان بالله واليوم الآخر، ووسائل بيانه متشابهة في أوصافه وقصصه؛ بل تقوم وحدة السورة على وحدة الأسلوب ووحدة النظم ووحدة الفاصلة؛ وحيث يختلف الأسلوب والنظم، وخصوصاً الفاصلة، تنقطع الوحدة وتتعدد السورة.

لذلك نقرر بأن الوحدة القرآنية بيانية أكثر مما هي منطقية.

فالوحدة في السورة تقوم على وحدة الموضوع والأسلوب والفاصلة: وكلما تنوع الموضوع والأسلوب والفاصلة، تعددت السور في السورة الواحدة.

مثلاً، تغيير الفاصلة في سورة البقرة دليل على إقحام آيات عليها من زمن متأخر لتفسير موقف (بقرة: آية النسخ) أو تعديله (مريم ٣٤-٤٠) أو نسخ شريعة أولى (بقرة ١٨٤-١٨٥ و ١٩٠-١٩١ و ٢٢٢-٢٢٣ و ٢٨٤-٢٨٦).

ومثلاً آخر، يأتي النسق في السورة الواحدة توحيداً فقصاصاً فترغيباً أو ترهيباً بالوعد والوعيد؛ ومتى تكرر هذا النسق المثلث في السورة الواحدة، تعددت السور في السورة الواحدة.

١٩- ردّ البيئنة على الدعوة القرآنية :

كان في مكة مقاومة من المشركين، وفي المدينة مقاومة من الكتابيين اليهود.

وكان ردّ المشركين استخفافاً ((سحر يؤثر)) ، ((أساطير الأولين)) ؛ فاتهاماً وتشنيعاً: ((درست)) ، ((تقوله وأعانه عليه قوم آخرون)) ؛ فاضطهاداً أعقبته هجرات.

وكان ردّ اليهود نفاقاً، فجداً وخصاماً، فقتالاً أدى إلى القتل أو النفي.

وفي هذا كله قرائن على ترتيب السور والآيات في السور.

لذلك فالاستشهاد بأهل الكتاب من مكة؛ والحملات عليهم وعلى معتقداتهم من المدينة.

٢٠- صفات محمد النبوية :

كان محمد في مكة موضوع خصام واضطهاد وتشريد: فاتخذ من أوصاف النبوة ما تستسيغه البيئة المكية المشركة والكتابية مثل ((بشير ونذير)) ولم يتخذ صفة ((نبي ورسول)) .

وكان في المدينة السيد المطاع، رغم دس المنافقين والكتابين، فاتخذ دون معارض صفة ((النبي والرسول)) .

لذلك فالسور أو الآيات التي فيها الأوصاف الأولى فهي من مكة، والتي فيها الأوصاف الأخرى فهي من المدينة. مثلاً وصف ((النبي الأمي)) في سورة الأعراف المكية (١٥٦) هو من المدينة أقحم في سورة مكية إقحاماً.

٢١- تفصيل أسماء ((الكتاب)) ، وأهل الكتاب :

يسمى القرآن ((صحف)) أو ((زبر الأولين)) التي نزلت قبله ((الكتاب)) إجمالاً دون تفصيل في القرآن المكي^١. وفي المدينة يفصل أسماء الكتاب: التوراة، والزبور، والنبين والحكمة والإنجيل.

لذلك فالآيات التي فيها تفصيل أسماء أسفار الكتاب فهي من المدينة، ولو أقحمت في سور مكية؛ مثل آية ((النبي الأمي)) وآية ((رسول من بعدي اسمه أحمد)) فهي آيات مدنية أقحمت في سور مكية.

ويسمى القرآن الكتابيين عادة ((أهل الكتاب)) أو ((أهل الذكر)) أو ((أولو العلم)) في مكة والمدينة؛ ولكن متى سمّاهم ((الذين هادوا أو أهل الإنجيل)) فالتخصيص من المدينة ولو أقحمت في سور مكية.

(١) يظهر ذلك جلياً في سورة مريم : فهي مكية بالإجماع مع ذلك يستفتح ذكر مريم والمسيح بقوله: ((واذكر في الكتاب مريم)) بدلاً من الإنجيل .

العدد التاريخي الرسمي	المصحف العثماني	ابن عباس	جعفر	عكرمة	جابر	الخازن	مجمع البيان	السيوطي	مصحف فؤاد	ملاحظات
١٧ = ١٠٧	الماعون	الماعون	الكافرون	الماعون	الماعون	الماعون	الماعون	الماعون	الماعون	
١٨ = ١٠٩	الكافرون	الفيل	الفيل	الكافرون	الكافرون	الكافرون	الكافرون	الكافرون	الكافرون	
١٩ = ١٠٥	الفيل	الكافرون	الفلق	الفيل	الفيل	الفيل	الفيل	الفيل	الفيل	
٢٠ = ١١٣	الفلق	الإخلاص	الناس	الفلق	الفلق	الفلق	الفلق	الفلق	الفلق	
٢١ = ١١٤	الناس	النجم	الإخلاص	الناس	الناس	الناس	الناس	الناس	الناس	الماعون مختلف فيها : مكية أم مدنية (الزمخشري)
٢٢ = ١١٢	الإخلاص	عبس	النجم	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص	
٢٣ = ٥٣	النجم	القدر	عبس	النجم	النجم	النجم	النجم	النجم	النجم	٢٠ - ٢١ الفلق و الناس اسمها المعوتتان و هما خاتمة القرآن. وهما مختلف فيهما (الزمخشري) و ابن عباس لا يعدهما من القرآن
٢٤ = ٨٠	عبس = الأعلى	الشمس	القدر	عبس	عبس	عبس	عبس	عبس	عبس	
٢٥ = ٩٧	القدر	البروج	الشمس	القدر	القدر	القدر	القدر	القدر	القدر	
٢٦ = ٩١	الشمس	التين	البروج	الشمس	الشمس	الشمس	الشمس	الشمس	الشمس	٢٢ الإخلاص مختلف فيها (الزمخشري)
٢٧ = ٨٥	البروج	قريش	التين	البروج	البروج	البروج	البروج	البروج	البروج	٢٣ النجم ((أول سورة أعلنها رسول الله بمكة)) فقبلها كانت الدعوة سرّة (إتقان ١ : ٢٥)
٢٨ = ٩٥	التين	الفارعة	قريش	التين	التين	التين	التين	التين	التين	٢٤ عبس تسمى الأعلى
٢٩ = ١٠٦	قريش	القيامة	الفارعة	قريش	قريش	قريش	قريش	قريش	قريش	٣٦- ٣٧ الزهري يجعل الرحمان ٣٦ و الإنسان ٣٧ و هذا أقرب إلى الواقع و في مجمع البيان رقم الإنسان ٦٤
٣٠ = ١٠	الفارعة	الهمزة	القيامة	الفارعة	الفارعة	الفارعة	الفارعة	الفارعة	الفارعة	
٣١ = ٧٥	القيامة	المرسلات	الهمزة	القيامة	القيامة	القيامة	القيامة	القيامة	القيامة	
٣٢ = ١٠٤	الهمزة	ق	المرسلات	الهمزة	الهمزة	الهمزة	المرسلات	الهمزة	الهمزة	٣٩ الأعراف : شبه إجماع على جعلها من العهد الأول و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
٣٣ = ٧٧	المرسلات	البلد	ق	المرسلات	المرسلات	المرسلات	الهمزة	المرسلات	المرسلات	
٣٤ = ٥٠	ق (القرآن)	الطارق	البلد	ق	ق	ق	ق	ق	ق	
٣٥ = ٩٠	البلد	القمر	الطارق	البلد	البلد	البلد	البلد	البلد	البلد	
٣٦ = ٨٦	الطارق	ص	القمر	الطارق	الطارق	الطارق	الطارق	الطارق	الطارق	
٣٧ = ٥٤	القمر	الأعراف	ص	القمر	القمر	القمر	القمر	القمر	القمر	
٣٨ = ٣٨	ص (داود)	الجن	الأعراف	ص	ص	ص	ص	ص	ص	

العهد المكي الثاني	العدد التاريخي الرسمي	المصحف العثماني	ابن عباس	جعفر	عكرمة	جابر	الخازن	مجمع البيان	السيوطي	مصحف فؤاد	ملاحظات
	٣٩ = ٧	الأعراف	يسن	الجن		الأعراف	الأعراف	الأعراف	الأعراف	الأعراف	٤٣ فارطر اسمها أيضاً الملائكة
	٤٠ = ٧٢	الجنّ	الفرقان	يسن	الجنّ	الجنّ	الجنّ	الجنّ	الجنّ	الجنّ	٤٤ مريم حملت إلى الحبيشة و تليت عند النجاشي فهي ذروة العهد الأول و نموذج الثاني
	٤١ = ٣٦	يسن	فاطر	الفرقان	يسن	يسن	يسن	يسن	يسن	يسن	٤٥ - ٤٩ تسمى ((الطواسين)) لأربع و النمل اسمها ايضاً سليمان
	٤٢ = ٢٥	الفرقان	مريم	فاطر	الفرقان	الفرقان	الفرقان	الفرقان	مريم	الفرقان	٤٥ - ٤٩ تسمى ((الطواسين)) لأربع و النمل اسمها ايضاً سليمان
	٤٣ = ٣٥	فاطر = الملائكة	طه	مريم	الملائكة	الملائكة	فاطر	فاطر	فاطر	فاطر	٤٥ - ٤٩ تسمى ((الطواسين)) لأربع و النمل اسمها ايضاً سليمان
	٤٤ = ١٩	مريم	الشعراء	طه	كهيصص مريم	كهيصص مريم	مريم	مريم	مريم	مريم	٤٧ - ٥٠ الإسراء: شبه إجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و اسمها الأو قبل الحجاج ((بني إسرائيل))
العهد المكي الثاني	٤٥ = ٢٠	طه	النمل	الواقعة	طه	طه	طه	طه	طه	طه	٤٧ - ٥٠ الإسراء: شبه إجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و اسمها الأو قبل الحجاج ((بني إسرائيل))
	٤٦ = ٥٦	الواقعة	القصص	الشعراء	الواقعة	الواقعة	الواقعة	الواقعة	الواقعة	الواقعة	٥١ يريد عكرمة وجابر بالتاسعة سورة يونس (البيهقي)
	٤٧ = ٢٦	طسم الشعراء	الإسراء	النمل	طسم الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء	الشعراء	٥٤ الحجر: تصبح الدعوة عامة ((اصدع بما تؤمر))
	٤٨ = ٢٧	طس النمل	يونس	القصص	طس النمل	طس سليمان	النمل	النمل	النمل	النمل	٥٤ الحجر: تصبح الدعوة عامة ((اصدع بما تؤمر))
	٤٩ = ٢٨	طسم القصص	هود	الإسراء	طسم القصص	طسم القصص	القصص	القصص	القصص	القصص	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥٠ = ١٧	الإسراء = بني إسرائيل	يوسف	يونس	بني إسرائيل	بني إسرائيل	الإسراء	الإسراء	الإسراء	الإسراء	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥١ = ١٠	يونس	الحجر	هود	التاسعة	التاسعة	يونس	يونس	يونس	يونس	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥٢ = ١١	هود	أنعام	يوسف	هود	هود	هود	هود	هود	هود	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥٣ = ١٢	يوسف	الصفافات	حجر	يوسف	يوسف	يوسف	يوسف	يوسف	يوسف	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥٤ = ١٥	الحجر	لقمان	الأنعام	الحجر	الحجر	الحجر	الحجر	الحجر	الحجر	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥٥ = ٦	الأنعام	سبأ	الصفافات	الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام	الأنعام	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة
	٥٦ = ٣٧	الصفافات	الزمر	لقمان	الصفافات	الصفافات	الصفافات	الصفافات	الصفافات	الصفافات	٥٥ الأنعام: شبه اجماع على جعلها من العهد الثاني بمكة ، و هي مجموعة متبعضة من عهود مختلفة

العدد التاريخي الرسمي	المصحف العثماني	ابن عباس	جعفر	عكرمة	جابر	الخازن	مجمع البيان	السيوطي	مصحف فؤاد	ملاحظات
٥٧ = ٣١	لقمان	غافر	سبأ	لقمان	لقمان	لقمان	لقمان	لقمان	لقمان	
٥٨ = ٣٤	سبأ	فصلت	الزمر	سبأ	سبأ	سبأ	سبأ	سبأ	سبأ	٥٧ لقمان : آخرها مدني (الإلتقان)
٥٩ = ٣٩	الزمر	الشورى	غافر	الزمر	الزمر	الزمر	الزمر	الزمر	الزمر	٦٠ — ٦٦ ((الحواميم السبع)) مجموعة مستقلة و هي ذروة الدعوة بمكة ، يتفقون على جمعها في زمن واحد ، و على البدء بها و على ترتيبها مع اختلاف يسير
٦٠ = ٤٠	حم غافر = المؤمن	الزخرف	فصلت	حم المؤمن	حم المؤمن	غافر	غافر	غافر	غافر	
٦١ = ٤١	حم فصلت = السجدة	الدخان	الشورى	حم الدخان	حم السجدة	فصلت	فصلت	فصلت	فصلت	٦١ حم السجدة تسمى أيضاً فصلت
٦٢ = ٤٢	حم عسق الشورى	الجاثية	الزخرف	حم السجدة	حم الزخرف	الشورى	الشورى	الشورى	الشورى	٦٢ جابر يؤخر الشورى إلى ما بعد الكهف
٦٣ = ٤٣	حم الزخرف	الأحقاف	الدخان	الشورى	حم الدخان	الزخرف	الزخرف	الزخرف	الزخرف	
٦٤ = ٤٤	حم الدخان	الذاريات	الجاثية	حم الزخرف	حم الجاثية	الدخان	الدخان	الدخان	الدخان	٦٥ الجاثية تسمى أيضاً الشريعة
٦٥ = ٤٥	حم الجاثية	الغاشية	الأحقاف	حم الجاثية	حم الأحقاف	الجاثية	الأحقاف	الجاثية	الجاثية	٦٦ الأحقاف يجعلها الزهري متباعدة أي بعضها مكى و بعضها مدني
٦٦ = ٤٦	حم الأحقاف	الكهف	الذاريات	الأحقاف	الأحقاف	الذاريات	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف	
العهد المكي الثالث										
٦٧ = ٥١	الذاريات	النحل	الغاشية	الذاريات	الذاريات	الذاريات	الجاثية	الذاريات	الذاريات	٦٩ الزهري يضع هنا <u>الأنعام</u> و عنده أيضاً آخر <u>الكهف</u> مدني
٦٨ = ٨٨	الغاشية	نوح	الكهف	الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية	الغاشية	٧٠ مجمع البيان يؤخر <u>طه</u> إلى هنا
٦٩ = ١٨	الكهف	إبراهيم	النحل	الكهف	الكهف	الكهف	الكهف	الكهف	الكهف	٧٢ ابن عباس يذكر هنا <u>الرعد</u> و هو أقرب إلى الواقع
٧٠ = ١٦	النحل (النعيم)	الأنبياء	نوح	النحل	آلم السجدة	النحل	النحل	النحل	النحل	٧٢ جابر يجعل أول <u>النحل</u> مكياً (٤٠ آية) و آخرها من المدينة
٧١ = ٧١	نوح	المؤمنون	إبراهيم	نوح	الأنبياء	نوح	نوح	نوح	نوح	
٧٢ = ١٤	إبراهيم (الخليل)	<u>الرعد</u>	الأنبياء	إبراهيم	<u>النحل</u>	إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم	

ملاحظات	مصنف فؤاد	السيوطي	مجمع البيان	الخازن	جابر	عكرمة	جعفر	ابن عباس	المصنف العثماني	العدد التاريخي الرسمي
										العهد المدني الأول
		البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	البقرة	الأنفال	الحشر	البقرة	٢ = ٩١
٩٢ عكرمة يقدّم آل عمران على الأنفال	الأنفال	الأنفال	البقرة	الأنفال	آل عمران	آل عمران	آل عمران	الأحزاب	الأنفال	٨ = ٩٢
٩٣- ٩٥ ابن عباس يقدم النور والفتح والأصح تأخيرهما، على روية جعفر و عثمان	آل عمران	آل عمران	آل عمران	آل عمران	الأنفال	الأنفال	الأحزاب	النور	آل عمران	٣ = ٩٣
٩٣ الزلزلة: عند ابن عباس و عثمان و جعفر	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	الأحزاب	المتحنة	المتحنة	الأحزاب	٣٢ = ٩٤
٩٥ عكرمة و جابر يذكران أن هنا المائدة	المتحنة	المتحنة	المتحنة	المتحنة	المائدة	المائدة	النساء	الفتح	المتحنة	٦٠ = ٩٥
٩٧ الحديد مدنية (هل صدرها مكي؟)	النساء	النساء	النساء	النساء	المتحنة	المتحنة	الزلزلة	النساء	النساء	٤ = ٩٦
عند عثمان و جعفر و الخازن و مصنف فؤاد هنا * الرعد والرحمن و الإنسان * ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و مكيتها راجحت	الحديد	الحديد	الحديد	الحديد	النصر	النساء	محمد	الحج	الحديد *	٥٧ = ٩٧
هنا * يذكر عكرمة الزلزلة رقم ٩٨	محمد	محمد	محمد	محمد	النور	الحديد	الرعد	الحديد	محمد= القتال	٤٧ = ٩٨
١٠٠ هنا يذكر عكرمة الرعد والرحمان و الإنسان	الطلاق	الطلاق	الطلاق	الطلاق	الحج	محمد	البينة	البينة	الطلاق *	٦٥ = ٩٩
١٠١ جعفر و الخازن يذكران هنا النصر و ابن عباس يؤخرها إلى ١١٠ بينما عثمان و السيوطي يجعلانها الأخيرة وهو الأرجح لأنها من عام الوفود ((يدخلون في دين أفواجاً))	البينة	البينة	البينة	البينة	المنافقون	الطلاق	الحشر	الجمعة	البينة *	٩٨ = ١٠٠
١٠٥ ابن عباس يجعل النصر بعد المجادلة	الحشر	الحشر	الحشر	الحشر	المجادلة	البينة	النصر	السجدة	الحشر	٥٩ = ١٠١
١٠٨ ابن عباس يقدم إلى هنا المائدة و التوبة و هما بالإجماع آخر ما نزل	النور	النور	النور	النور	الحجرات	الحشر	النور	المنافقون	النور	٢٤ = ١٠٢
	الحج	الحج	الحج	الحج	التحريم	النصر	الحج	المجادلة	الحج	٢٢ = ١٠٣
	المنافقون	المنافقون	المنافقون	المنافقون	الجمعة	النور	المنافقون	الحجرات	المنافقون	٦٣ = ١٠٤
	المجادلة	المجادلة	المجادلة	المجادلة	التغابن	الحج	المجادلة	التحريم	المجادلة	٥٨ = ١٠٥
	الحجرات	الحجرات	النصر	الحجرات	الحجرات	المنافقون	الحجرات	التغابن	الحجرات	٤٩ = ١٠٦
	التحريم	التحريم	الحجرات	التحريم	الحواريين	المجادلة	التحريم	الصف	التحريم (النبي)	٦٦ = ١٠٧
	التغابن	التغابن	التحريم	الفتح		الحجرات	الصف	المائدة	التغابن	٦٤ = ١٠٨

العدد التاريخي الرسمي	المصحف العثماني	ابن عباس	جعفر عكرمة	جابر	الخازن	مجمع البيان	السيوطي	مصحف فؤاد	ملاحظات
٦١ = ١٠٩	الصف = الحواريون	التوبة	الجمعة التحريم	التغابن	التغابن	التغابن	الصف	الصف	١٠٨ ١١١ التغابن مدنية، وقيل مكة إلا آخرها
٦٢ = ١١٠	الجمعة	النصر	التغابن	الصف	الصف	الصف	الجمعة	الجمعة	١٠٩ الصف تسمى أيضاً الحواريين
العهد المدني الثاني									
٤٨ = ١١١	الفتح	الواقعة	الفتح	الجمعة	الجمعة	الجمعة	الفتح	الفتح	١١١ - ١١٤ من الغريب أن يجعل أن عباس (الواقعة و العاديات و الفلق و الناس) من آخر العهد المدني و مكيها ظاهرة من أسلوبها ومضمونها
٥ = ١١٢	المائدة	العاديات	التوبة	التغابن	التوبة	النصر	الفتح	المائدة	١١٣ يريد جابر بخاتمة القرآن المعوذتي
٩ = ١١٣	براءة = التوبة	الفلق	المائدة	الفتح	خاتمة القرآن	التوبة	التوبة	التوبة	١٤١ النصر ((خر سورة نزلت)) (الإتيان ٢ : ١٠٧) نزلت عام الوفود و لما يتم نزول براءة
١١٠ = ١١٤	النصر	الناس	براءة	المائدة	التوبة	النصر	النصر	النصر	

نعلق على ترتيبات المسلمين بما تيسر :

إنها تتقارب كلها بالإجماع.

ترتيب عثمان يقرب كثيراً من ترتيب جعفر الصادق الذي هو ترتيب الإمام علي. ويقرب منها في الأكثر ترتيب ابن عباس تلميذ الإمام، إلا أنه سها في جعل الواقعة والعاديات والفلق والناس من آخر العهد بالمدينة وهي مكية.

ترتيب عكرمة في المكي يوازي ترتيب عثمان ويختلفان في المدني.

يتشابه ترتيب جابر وعكرمة وجعفر الصادق.

مصنف فؤاد يأتلف مع ترتيب السيوطي، وكلاهما يأتلفان مع مصحف عثمان؛ ولذلك نعتمد على درس تطور الدعوة القرآنية على ترتيب مصحف فؤاد الذي أشرف عليه لجنة من الأزهر الشريف، وهو يأتلف مع ترتيب الجلالين، خاتمة المحققين الأقدمين.

نستثني من إجماع المسلمين المتقارب في ترتيب سور القرآن، أربعاً: الزلزلة والرحمان والإنسان والرعد، التي أجمعت ترتيباتهم على جعلها مدنية، وهي مكية في نظرنا.

نقل صاحب الإتيقان عن ابن الحصار: «المدني باتفاق عشرون، والمختلف فيه اثنتا عشرة: الرعد والقمر والرحمان والجن والصف والتغابن والمطففين والقدر والزلزلة والإخلاص والمعوذتان أي الفلق والناس»^(١).

قال دروزة: الإخلاص والكوثر وقريش والعصر والعاديات والقدر والمطفون والفاطحة، مما ورد أنها مدنيات؛ والجمهور أنها مع الفلق والناس مكيات، وأسلوبها وروحها يلهمان ذلك أيضاً.

وقال: الزلزلة والرعد والإنسان والرحمان مدنيات في أكثر الروايات وجميع الترايب (مع الحج)؛ وأسلوبها ومضامينها (سوى الرعد) تشبه الأسلوب المكي أكثر مما تشبه الأسلوب المدني.

ونحن نجزم أنها مكية. قال صاحب الإتيقان، عن الرحمان: الجمهور على أنها مكية

(١) السيوطي: الإتيقان ١ : ١١ .

(٢) سيرة الرسول : ١ : ١٣٤ و ٢ : ٩ .

وهو الصواب؛ وعن الإنسان: قيل مدنية وقيل مكية إلا آية واحدة؛ وعن الزلزلة: فيها قولان؛ والرعد كذلك: فالأربع لا تشريع فيها، وكلها دعوة لليوم الآخر وجدال على نبوة النبي وهذا هو الأسلوب المكي.

ونستنتي من إجماعهم بعض سور العهد الثالث بمكة، لأن أساليب العهد الأول بادية عليها، مثل الذاريات، والغاشية، والطور والحاقة، والنازعات والانفطار والانشقاق: موضوعها وصف اليوم الآخر، وطريقتها أسلوب الأقسام القومية التي تركها القرآن في العهد الثاني إلى طريقة الأقسام الكتابية. ومن مقارنتها بالسور التي موضوعها وأسلوبها، وطريقة الأمثال الجديدة فيها، من هذا العهد الثالث بمكة مثل الكهف والنحل والأنبياء والروم والعنكبوت، يظهر تنافرها نظماً وتعبيراً. ولكن تركناها في مواطنها التي ارتضوها لها، بعد الإشارة إليها. وتتنوع فواصلها يدل على أنها من أزمنة مختلفة منها ما يصدق على العهد الأول ومنها ما يصدق على العهد الثاني ومنها ما يصدق على العهد الثالث الذي نحن في سبيل تحديده.

وهناك سور يظهر من أسلوبها ومضامينها أنها متبعضة: أي فيها أي مكي يمتزج بأي مدني: منها الليل والحج والأنعام والأعراف والأحقاف؛ وربما أيضاً الرعد والحديد والنحل والإسراء^١. ولذلك يقول عنها الزمخشري إنه مختلف فيها.

ومن السور ما صدرها مكي وآخرها مدني مثل لقمان والكهف والنحل والفاثحة، والتغابن، ويونس، والكهف، والشعراء، والقصص، والحديد والتحريم^٢. وهذا النوع تنفصل فيه الأقسام المكية عن المدنية، وقد تختلط، كما ترى من أسماء السور في هذا النوع والنوع السابق.

(١) جاء في الإتقان أن المكي والمدني يمتزجان في الحج والحديد (١ : ١٣) والأنعام والأعراف (١ : ١٥) والنحل والإسراء (١ : ١٦).

(٢) جاء في الإتقان أيضاً أن عمراً قرأ عند أخته أول الحديد فكان سبب إسلامه (١ : ١٣) مع أن فيها تشريع القتال وهو من المدينة. وقيل التغابن مكية إلا آخرها (١ : ١٤) وقيل مكية إلا أولها، ويونس من أولها إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني؛ وقيل عن جابر إن النحل نزل منها بمكة أربعين والباقي بالمدينة، والكهف استثنى من أولها إلى ((جزراً))، والشعراء مكية استثنى منها آخرها ((والشعراء يتبعهم الغاؤون)) ثلاث آيات. وقيل آخر القصص وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين شهدوا أحداً. وقيل عن قتادة إن المدني في التحريم إلى رأس العشر والباقي مكي (١ : ١٣ - ١٤).

ومن السور المكية، ما مطلعها من العهد الأول، والباقي من زمن متأخر، ويلاحظ ذلك خاصة في أوائل السور نزولاً مثل العلق والقلم والمزمل والمدثر، ولذلك اختلفوا في أيها نزل أولاً^١.

وهذه الظواهر في الترتيب تنفي وحدة السور الزمانية والبيانية: فسور القرآن في أكثرها نزلت، كما هو المتواتر، نجومياً، وجمعت في مجموعات من أزمنة مختلفة، وأساليب متنوعة، ومواضيع متعدّدة، عن توقيف أو باجتهاد. وقد نقلوا عن ابن عباس، حتى في المفصل من السور القصار قوله: ((كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء)) ونقلوا أيضاً عن آخر السور نزولاً في المدينة، براءة، أن أول ما نزل منها ((لقد نصركم الله في مواطن كثيرة)) أو ((انفروا خفافاً وثقالاً)) سنواتٍ ثم نزل أولها إلى أربعين آية قبل غزوة تبوك، ثم بعد الغزوة نزل آخرها في منافقي الغزوة)) .

ونحن سنعمد ترتيب الجلالين وقد أقرّه الأزهر الشريف في (مصحف فؤاد) الذي^٢ أشرف عليه لأنه مأخوذ من ترتيب ابن عباس وجعفر الصادق اللذان ينقلان ترتيب الإمام علي وقد أجمعوا على أن الإمام رتب مصحفه على تاريخ النزول.

والآن نقارن ترتيب المسلمين بترتيب المستشرقين لزيادة الفائدة.

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٢١ - ١٢٦ ((في أوليات القرآن نزولاً : بعض الروايات يذكر أنه الآيات الخمس الأولى من العلق ، وبعضها أنه الآيات الأولى من المدثر ، وبعضها أنه الآيات الأولى من المزمل ، وفي هذه ، بعد سنة ، الآيات ١٠ - ١١ وفي المدينة الآية ٢٠ منها)) .
 (٢) السيوطي : الإتقان .
 (٣) المرجع نفسه .

بحث رابع : مقارنة بين ترتيب المسلمين وترتيب المستشرقين

ترتيب بلاشير	ترتيب ندكه	رقم السيوطي	رقم المصحف العثماني	اسم السورة	رقمنا المتسلسل
					العهد المكي الأول
١	١	١	٩٦	العلق	١
٥١	١٨	٢	٦٨	ن والقلم	٢
٣٤	٢٣	٣	٧٣	المزمل	٣
٣٦ و ٢	٢	٤	٧٤	المدثر	٤
٤٦	٤٨	٥	١	الفاتحة	٥
٣٧	٣	٦	١١١	تبت - المسد	٦
١٨	٢٧	٧	٨١	التكوير	٧
١٦	١٩	٨	٨٧	الأعلى	٨
١٤	١٠	٩	٩٢	الليل	٩
٤٢	٣٥	١٠	٨٩	الفجر	١٠
٤	١٣	١١	٩٣	الضحى	١١
٥	١٢	١٢	٩٤	الشرح	١٢
٦	٢١	١٣	١٠٣	العصر	١٣
١٣	٣٠	١٤	١٠٠	العاديات	١٤
٣٨	٥	١٥	١٠٨	الكوثر	١٥
٣١	٨	١٦	١٠٢	التكاثر	١٦
٨	٣	١٧	١٠٧	الماعون	١٧
٤٥	٤٥	١٨	١٠٩	الكافرون	١٨
٤١	٩	١٩	١٠٥	الفيل	١٩
٤٧	٤٦	٢٠	١١٣	القلق	٢٠
٤٨	٤٧	٢١	١١٤	الناس	٢١
٤٤	٤٤	٢٢	١١٢	الإخلاص	٢٢
٣٠	٢٨	٢٣	٥٣	النجم	٢٣
١٧	١٧	٢٤	٨٠	عبس	٢٤
٢٩	١٤	٢٥	٩٧	القدر	٢٥
٧	١٦	٢٦	٩١	الشمس	٢٦

٣١٠ _____ ترتيب القرآن التاريخي

ترتيب المتسلسل	اسم السورة	رقم المصحف العثماني	رقم السيوطي	ترتيب نلكه	ترتيب بلاشير
٢٧	البروج	٨٥	٢٧	٢٢	٤٣
٢٨	التين	٩٥	٢٨	٢٠	١٠
٢٩	قريش	١٠٦	٢٩	٤	٣
٣٠	القارعة	١٠١	٣٠	٢٤	١٢
٣١	القيامة	٧٥	٣١	٣٦	٢٧
٣٢	الهمزة	١٠٤	٣٢	٦	٣٩
٣٣	المرسلات	٧٧	٣٣	٣٢	٢٥
٣٤	ق	٥٠	٣٤	٥٤	٥٦
٣٥	البلد	٩٠	٣٥	١١	٤٠
٣٦	الطارق	٨٦	٣٦	١٥	٩
٣٧	القمر	٥٤	٣٧	٤٩	٥٠
٣٨	ص	٣٨	٣٨	٥٩	٦١
٣٩	الأعراف	٧	٣٩	٨٧	٨٩
٤٠	الجن	٧٢	٤٠	٦٢	٧٢
٤١	يس	٣٦	٤١	٦٠	٦٢
٤٢	الفرقان	٢٥	٤٤/٤٢	٦٦	٦٨
٤٣	فاطر	٣٥	٤٣/٤٣	٨٦	٦٨
٤٤	مريم	١٩	٤٢/٤٣	٥٨	٦٠
العهد المكي الثاني					
٤٥	طه	٢٠	٤٥	٥٥	٥٧
٤٦	الواقعة	٥٦	٤٦	٤١	٢٣
٤٧	الشعراء	٢٦	٤٧	٥٦	٥٨
٤٨	النمل	٢٧	٤٨	٦٨	٥٩
٤٩	القصص	٢٨	٤٩	٧٩	٨١
٥٠	الإسراء	١٧	٥٠	٦٧	٧٤
٥١	يونس	١٠	٥١	٨٤	٨٦
٥٢	هود	١١	٥٢	٧٥	٧٧
٥٣	يوسف	١٢	٥٣	٧٧	٧٩

ترتيب القرآن التاريخي ————— ٣١١

ترتيب المتسلسل	اسم السورة	رقم المصحف العثماني	رقم السيوطي	ترتيب نلدكه	ترتيب بلاشير
٥٤	الحجر	١٥	٥٤	٥٧	٥٩
٥٥	الأنعام	٦	٥٥	٨٩	٩١
٥٦	الصفات	٣٧	٥٦	٥٠	٥٢
٥٧	لقمان	٣١	٥٧	٨٢	٨٤
٥٨	سيا	٣٤	٥٨	٨٥	٨٧
٥٩	الزمر	٣٩	٥٩	٨٠	٨٢
٦٠	حم غافر	٤٠	٦٠	٧٨	٨٠
٦١	حم فصلت	٤١	٦١	٧١	٧٢
٦٢	حم عسق الشورى	٤٢	٦٢	٨٢	٨٥
٦٣	حم الزخرف	٤٣	٦٣	٦١	٦٣
٦٤	حم الدخان	٤٤	٦٤	٥٣	٥٥
٦٥	حم الجاثية	٤٥	٦٥	٧٢	٧٣
٦٦	حم الأحقاف	٤٦	٦٦	٨٨	٩٠
العهد المكي الثالث					
٦٧	الذاريات	٥١	٦٧	٣٩	٤٩
٦٨	الغاشية	٨٨	٦٨	٣٤	٢١
٦٩	الكهف	١٨	٦٩	٦٩	٧٠
٧٠	النحل	١٦	٧٠	٧٣	٧٠
٧١	نوح	٧١	٧١	٥١	٧١
٧٢	إبراهيم	١٤	٧٢	٧٦	٧٨
٧٣	الأنبياء	٢١	٧٣	٦٥	٦٧
٧٤	المؤمنون	٢٣	٧٤	٦٤	٦٦
٧٥	السجدة	٣٢	٧٥	٧٠	٧١
٧٦	الطور	٥٢	٧٦	٤٠	٢٢
٧٧	الملك	٦٧	٧٧	٦٣	٦٥
٧٨	الحاقة	٦٩	٧٨	٢٤	٦٤
٧٩	المعارج	٧٠	٧٩	٤٢	٣٣
٨٠	النبأ	٧٨	٨١	٣٣	٢٦

ترتيب المتسلسل	اسم السورة	رقم المصحف العثماني	رقم السيوطي	ترتيب نلدكه	ترتيب بلاشير
٨١	النازعات	٧٩	٨٠	٣١	٢٠
٨٢	الانفطار	٨٢	٨٢	٢٦	١٥
٨٣	الانشقاق	٨٤	٨٣	٢٩	١٩
٨٤	الروم	٣٠	٨٤	٧٤	٧٦
٨٥	العنكبوت	٢٩	٨٥	٨١	٨٣
٨٦	المطفون	٨٣	٨٦	٣٧	٣٥
ملحق					
٨٧	الزلزلة	٩٩	٦ مدني	٢٥	١١
٨٨	الرعد	١٣	١٠	٩٠	٩٢
٨٩	الرحمان	٥٥	١١	٤٣	٢٨
٩٠	الإنسان (الدهر)	٧٦	١٢	٥٢	٣٤
العهد المدني الأول عهد الدفاع المسلح					
٩١/١	البقرة	٢	١	٩١	٩٣
٩٢/٢	الأفال	٨	٢	٩٥	٩٧
٩٣/٣	آل عمران	٣	٣	٩٧	٩٩
٩٤/٤	الأحزاب	٣٣	٤	١٠٣	١٠٥
٩٥/٥	الممتحنة	٦٠	٥	١١٠	١١٢
٩٦/٦	النساء	٤	٧	١٠٠	١٠٢
٩٧/٧	الحديد	٥٧	٨	٩٩	١٠١
٩٨/٨	محمد (القتال)	٤٧	٩	٩٦	٩٨
٩٩/٩	الطلاق	٦٥	١٣	١٠١	١٠٣
١٠٠/١٠	البينة	٩٨	١٤	٩٢	٩٤
١٠١/١١	الحشر	٥٩	١٥	١٠٢	١٠٤

(١) في السور المدنية ما بين ترتيبنا وترتيب السيوطي أربع سور اعتبرها مدنية و اعتبرناها مع كثيرين من المسلمين والمستشرقين مكية وألحقها بالسور المكية وهي : الزلزلة والرعد والرحمان والإنسان ؛ وأسلوبها ومضامينها توحى دون شك أنها مكية .

ترتيب القرآن التاريخي _____ ٣١٣

ترتيب المتسلسل	اسم السورة	رقم المصحف العثماني	رقم السيوطي	ترتيب نلدكه	ترتيب بلاشير
١٠٢/١٢	النور	٢٤	١٧	١٠٥	١٠٧
١٠٣/١٣	الحج	٢٢	١٨	١٠٧	١٠٩
١٠٤/١٤	المنافقون	٦٣	١٩	١٠٤	١٠٦
١٠٥/١٥	المجادلة	٥٨	٢٠	١٠٦	١٠٨
١٠٦/١٦	الحجرات	٤٩	٢١	١١٢	١١٤
١٠٧/١٧	تحريم	٦٦	٢٢	١٠٩	١١١
١٠٨/١٨	تغابن	٦٤	٢٣	٩٣	٩٥
١٠٩/١٩	صف	٦١	٢٤	٩٨	١٠٠
١١٠/٢٠	جمعة	٦٢	٢٥	٩٤	٩٦
العهد المدني الثاني عهد الهجوم المسلح					
١١١/٢١	فتح	٤٨	٢٦	١٠٨	١١٠
١١٢/٢٢	مائدة	٥	٢٧	١١٤	١١٦
١١٣/٢٣	براءة = التوبة	٩	٢٨	١١٣	١١٥
١١٤/٢٤	النصر	١١٠	١٦	١١١	١١٣

نعلق بما تيسر على مقارنة ترتيب المسلمين بترتيب المستشرقين.

وقد اعتمدنا منهم ترتيب الألمانى نلدكه الذى عمّ الإجماع عليه عندهم؛ وترتيب الفرنسى بلاشير الذى يقرب من نلدكه ويبنى على مبادئه.

قال محمد صبيح في ترتيب نلدكه^١: « وقد رتب المستشرق المعروف نلدكه (صاحب أكبر كتاب أوربي ألف عن القرآن) المصحف ترتيباً تاريخياً وصفه (تاريخ القرآن) بقوله: سلك في كشف تاريخ السور مسلكاً قوياً يهدي إلى الحق أحياناً فإنه جعل بديراً والخندق وصلح الحديدية وأشباهها من المدارك لفهم تاريخ ما نزل من القرآن فيها. وجعل أيضاً اختلاف لهجة القرآن وأسلوبه الخطابي دليلاً آخر لتاريخ آياته. وقد أخذ ترتيب السور عن كتاب (أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي) من رجال القرن الخامس » .

(١) محمد صبيح : عن القرآن ١٩١ .

لا عبرة عند الجميع في الفترات القريبة، وإنما العمدة في تسلسل السور على تقارب مددها في أساليبها ومواضيعها. وهكذا نلاحظ أنه لا فارق كبيراً بين المسلمين والمستشرقين. وقد يتفاهم الجميع على الخطوط الكبرى الجوهرية.

لا نقصد من الترتيب الذي اعتمدناه تسلسل السور التاريخي. وهذا شيء يستحيل بعد ضياعه منذ البدء عمداً ونهائياً. بل نستنتج تقارب المواضيع والأساليب عبر الزمن على قدر المستطاع. وهذا موجود في الترتيب الشرقي والغربي.

وميلي الشخصي إلى الترتيب الشرقي الإسلامي أشد. وصاحب البيت أدري بما فيه وإليك دلائل هذا التفضيل:

نلكه وبلاشير يجعلان (المدثر) الثانية بعد (العلق): لا يفهم بعد سورة واحدة قول الوليد بن المغيرة « (إن هذا إلا سحر يؤثر) » وأنه أقرب إلى منطق الحوادث أن نجعلها بعد بضع سور حتى يكون النبي والقرآن قد اشتهرا.

نلكه يجعل (المسد) الثالثة، في قصة أبي لهب وزوجه حمالة الحطب: لا تفهم مقاومته العنيفة لمحمد، وحملة النبي عليه وعلى زوجه منذ اللحظة الأولى: أما بعد خمس سور فهذا أقرب إلى المعقول. وكذلك أبعدها بلاشير إلى ٣٦.

(قريش) يعتبرها نلكه الرابعة والسيوطي (٢٨): فيها يصبغ بالتوحيد لقب إله الكعبة « (رب البيت) » ويسمح بعبادته. لا يعقل أن يتساهل محمد مع قومه إلى هذا الحد منذ أول عهده؛ بل لا بد أن قاسى مقاومة عنيفة اضطرته إلى المرونة والمسايرة بعد أن ينس من استمالة قومه: حينئذ قال: « (فليعبدوا رب هذا البيت) » !

(الكوثر) أجمع المفسرون على أنها ترد تعبيرهم له بموت ذكوره. وهذا لم يحدث منذ أول البعثة بل بعد مدة طويلة فكان لا (الخامسة) بل (الخامسة عشرة).

(الهمزة) عند نلكه السادسة. يظهر أنها نزلت في زعيم (ربما الوليد بن المغيرة) الذي جمع مالا وعدده. ونفضل أن تكون الحادية والثلاثين فلا تجمع جميع الأعداء في اللحظات الأولى؛ ويظهر أن الوليد جاء متأخراً عن غيره.

(البلد) يجعلها نلكه (١١) وعند السيوطي (٣٥) وهذا أفضل لأن النبي يقسم « (بهذا البلد) » أي بمكة وهذا التقرب من الكعبة ليس منذ بدء الدعوة بل من وقت متأخر لَمَّا ينس منهم وأخذ يتقرب منهم ليستميلهم إليه. وبلاشير يجعلها (٤٠).

(القدر) يعدها نلكه (١٤) وعندهم (٢٥) وهذا أفضل لأنهم بعد مدة حتى بدؤوا يتساءلون عن مصدر القرآن، وليس منذ البدء. فيجيب ((أنزله الروح في ليلة مباركة ليلة القدر)).

(الطارق) يعدها نلكه (١٥) وعند السيوطي (٣٥) وفيها نظرة بيولوجية لا تتاج لأول الأمر عند القائل والسامع بل تقتضي شيئاً من التطور. وبلاشير يرجعها إلى (٩).

(القلم) يجعلها المسلمون (الثانية) نظراً للقسم الأول فيها. ويجعلها نلكه (١٨) وبلاشير (٥١) نظراً للقسم الثاني. والجميع يشعرون بأنها مجموعة من زمنين متباعدين.

(المزمّل) يجعلها المسلمون (الثالثة) نظراً لمطلعها: دعوة النبي إلى قيام الليل والصلاة فيه، وتلاوة القرآن؛ وهذا أمر طبيعي منذ البدء. وجعلها المستشرقون (٢٣ أو ٣٤) والأول أقرب إلى المنطق لأن الآية (٢٠) منها مدنية تقتصر الصلاة على ما تيسر في حال القتال وسواه ثم نسخها بالصلاة النهارية.

يجعل نلكه سور: الزلزال والانفطار والانشقاق والنازعات والمطففين في القسم الأول من السور المكية لقرابة الأسلوب. وهذا على حق. ولكن لا يستبعد أن يكون النبي بعد أن رده ردأ غير جميل في الطائف، وقد سُدّت في وجهه كل الأبواب، توجه إلى الله يعد ويوعد باسمه تعالى، فجعلها المسلمون في آخر العهد المكي.

(مريم) عند المسلمين (٤٤) وعند نلكه (٥٨) وبلاشير (٦٠) : وهي القصص المسيحي الوحيد في مكة، ويقترن نزوله بالهجرة إلى الحبشة. فلا داعي لتأخيرها كثيراً كما يريدان.

لقد ذكر نلكه (الزلزال والرحمان والإنسان) بين السور المكية المتوسطة. وهي عندهم مختلف فيها والترجيح مكيتها والقبول بما يقوله المستشرقون، بعد البيضاوي.

(الإسراء) عند السيوطي (٥٠) ومضمونها يؤيد ذلك. وبسبب مطلعها يرجعها المستشرقون إلى آخر العهد المكي وهذا بعيد.

يجعل المستشرقون سور الأنعام والأعراف من آخر العهد المكي والمسلمون يقدمونها إلى أواسط العهد. وهذه السور المكية الطويلة هي جامعة لعهود مختلفة من مكة والمدنية.

ننتقل إلى السور المدنية. يتفق الجميع على تصديرها بسورة البقرة.

يجعل نللكه (البينة) الثانية وبلاشير الرابعة وهذا غير معقول لأن فيها حملة عنيفة على أهل الكتاب لا تعقل قبل الدعوة إلى ((كلمة سواء)) في آل عمران. فيجب تأخيرها مع الشرقيين إلى العاشرة: سورة البينة هي ذروة الخلاف مع اليهود لا بدؤه حتى يجمعهم إلى المشركين في نار جهنم.

المستشرقان نللكه وبلاشير، مع بعض الرواة، يجعلان (المائدة) بعد (براءة) وآخر السور نزولاً. ولكن منطق الحوادث يجعل مع البخاري التوبة - براءة آخر السور نزولاً. وهذا أفضل، لأن في التوبة الحملة الوحيدة على النصارى (آية ٣٠) وقد تفهم بعد الاشادة بمودتهم في سورة المائدة (٨٥) لا قبلها؛ وتفهم الحملة على النصارى بعد غزوة مؤتة وتبوك ضد نصارى الشمال ولا يفهم التودد إليهم كما في سورة المائدة. والحملة المتتابعة في سورة التوبة على منافقي جيش العسرة تفهم مع الغزوات الفاشلة إلى الشمال، أكثر من الجدل العقائدي المستفيض في سورة المائدة. وموقف القرآن القاسي بحق النصارى في التوبة (٣٠) هو الأخير الذي بقي الإسلام عليه؛ ولو كان موقف القرآن الأخير هو الموقف الودي الوارد في المائدة (٨٥) لتغير وجه التاريخ.

ونللكه يجعل سورة (الجمعة) الرابعة وهي عند الجالين العشرون، وهذا أقرب إلى المنطق: فلم يشرع القرآن أركان الإسلام منذ اللحظة الأولى بل تبع تطور انفصال محمد عن أهل الكتاب وعواندهم. وترتيب الصلاة الرسمية للجماعة، واختيار نهار خاص بهم كما عند اليهود والنصارى اقتضى في المدينة بعض الوقت. لذلك ترتيب المسلمين أولى.

وهكذا نرى أن حملات المستشرقين بالإجمال على ترتيب المسلمين لا داعي لها. وترتيب المسلمين كما اتفقوا على النص عليه في مطلع السور، مثل الجالين، ومصحف فؤاد مؤخرأ، منطقي وقريب من الواقع.

والعبرة أولاً وأخيراً في الخطوط الكبرى لتطور الوحي القرآني وهو في ترتيب الشرقيين والمستشرقين متقارب.

ثم إن إعجاز القرآن في سحر بيانه. وقد وجد بعضهم إعجازاً في ترتيب القرآن الحالي حسب النسق. قال الزركشي في (البرهان): « فإن قلت، فهلا كانت الكتب السالفة كذلك؛ قلت: لوجهين، أحدهما إنها لم تكن معجزات من جهة النظم والترتيب؛ والآخر إنها لم تيسر للحفظ . » وقد عارضه الزمخشري في الكشف: « والفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة. وكذلك أنزل الله التوراة والإنجيل والزيبور، وما أوحاه إلى أنبيائه، مسورة . ومن جهة أخرى فالترتيب حسب تاريخ النزول أفضل من الترتيب بحسب نسق الطول والقصر، لأنه أقرب إلى الواقع والحقيقة، وأقرب إلى الأمانة في ((حفظ)) القرآن كما نزل.

الفصل الثاني

نظم القرآن

((الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً))
زمر ٢٣

بحث أول : الإعجاز البياني في سلم الإعجاز المطلق

أحسن الحديث فرع من فروع الفنون الأدبية ! وهذه فرع من الفنون الجميلة. وهذه بدورها صفة من صفات الوجود.

فالوجود له صفات جوهرية: الحقيقة والكمال والجمال.

والتعبير عن الجمال في جميع نواحيه ويسمى الفنون الجميلة. فالتعبير عن الجمال بالصوت هو الموسيقى، والتعبير عن الجمال باللون يسمى التصوير. والتعبير عن الجمال بالخط يسمى النحت، والتعبير عن الجمال بالكلام يسمى الأدب، والبيان بالمعنى الواسع، أو البلاغة.

فالإعجاز البياني ناحية من الفنون الأدبية، وهذه فرع من الفنون الجميلة. لذلك فالإعجاز البياني، مهما سما فهو، ناحية محدودة من تصوير جمال الوجود.

*

- والإعجاز البياني على ناحيتين: ناحية البيان وهو الإعجاز بالتخصيص، وناحية الأسلوب، وهو الإعجاز الأدبي على الإطلاق. وسواء أخذنا الإعجاز البياني في معناه الخاص أم العام، المقيد أم المطلق، فهو لا يشمل سائر الفنون الأدبية؛ وهو لا يشمل سائر الفنون الجميلة؛ وهو لا يشمل سائر صفات الوجود حتى يتصف بالإعجاز الإلهي.

يتكلمون إلى اليوم عن إعجاز القرآن البياني، ويحصرّون إعجاز القرآن في فصاحة لغته وبلاغة نظمه^١. ولا مرأى في ذلك.

وبدا لقوم اليوم أن هذا الإعجاز البياني محدود في مبناه ومعناه فالتمسوا له الشمول من كل وجه. وحاولوا أن يجدوا إعجازاً إلهياً في العقيدة^٢؛ وإعجازاً إلهياً في الشريعة^٣؛ وإعجازاً إلهياً في الفلسفة القرآنية^٤؛ وإعجازاً إلهياً في العلم الحديث^٥. ولكن فاتهم جميعاً أن تاريخ الإسلام يجهل مثل هذا التفكير ومثل هذه المحاولات المفرطة وهذا التعبير.

فقد أجمعوا قديماً على أن إعجاز القرآن في نظمه.

قال ناشر (بديع القرآن)^٦: « البلاغة بابان: الأسلوب والفنون الأدبية. وفي باب الأسلوب تدخل مباحث المعاني والبيان والبديع في بعض فصوله وأقسامه. في حين أن باب الفنون الأدبية جديد في جملته. ولعل من نتائج ذلك العدول عن هذه الأسماء (المعاني والبيان والبديع) ووضع البلاغة وضعاً كاملاً يشبه وضعها في الأدب العالمية » .

ندع درس الفنون الأدبية لأنه ليس من شأن كتاب منزل يهدي إلى صراط الله أن يسلكها؛ ونترك درس إعجاز القرآن في عقيدته وشريعته وصوفيته، إلى القسم الثالث من هذا الكتاب. ونكتفي بدرس أسلوب القرآن في فصاحة لغته وبلاغة نظمه، تمهيداً لدرس أطوار الدعوة القرآنية.

*

بحث ثان : في كيفية الإنزال والوحي : أباللفظ أم بالمعنى ؟

في الإتقان^٧ فصل في معنى نزول القرآن أكان بالمعاني وحدها أم بالألفاظ والمعاني معا. « قال الأصفهاني: اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله منزل! واختلفوا في معنى

-
- (١) السيوطي: الإتقان ٢ : ١١٦ النوع الرابع والستون في إعجاز القرآن .
 - (٢) العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه .
 - (٣) محمد أبو زهرة : مصادر الفقه الإسلامي .
 - (٤) العقاد : الفلسفة القرآنية .
 - (٥) عبد الرزاق نوفل : القرآن والعلم الحديث .
 - (٦) ابن أبي الإصبع ، حققه ونشره حفني محمد شرف - المقدمة ٢٢ - ويحيل على كتاب (الأسلوب) الأستاذ أحمد الشايب .
 - (٧) السيوطي : الإتقان ١ : ٤٤ .

الإنزال، فمنهم من قال هو إظهار القراءة ومنهم من قال إن الله ألهم كلامه جبريل. وقال الطيبي لعل نزول القرآن على النبي ص. أن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ فينزل به إلى الرسول فيلقيه عليه. وقال القطب الرازي: المراد بإنزال الكتب على الرسل أن يتلقفها الملك من الله تلقفاً روحانياً أو يحفظها من اللوح المحفوظ وينزل بها يلقبها عليهم؛ وقال غيره: في المنزل على النبي ص. ثلاثة أقوال: أحدها إنه اللفظ والمعنى؛ والثاني إن جبريل إنما نزل بالمعاني خاصة وأنه ص عَلم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب؛ وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى: ((نزل به الروح الأمين على قلبك)) : والثالث إن جبريل ألقى إليه المعنى، وإنه (أي جبريل) عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب. وقال الجويني: كلام الله المنزل قسماً قسم قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنت مُرسَل إليه: الله يقول؛ ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة. وقسم آخر قال الله لجبريل: ((اقرأ على النبي هذا الكتاب فنزل جبريل بكلمة من الله من غير تغيير)) .

إذن، فالخلاف قائم بين المسلمين أنفسهم في هل نزل القرآن بالمعاني وحدها، أو نزل بالمعاني والألفاظ معاً، ومن قال إن القرآن نزل بالمعاني وحدها، لا تثريب عليه فهو لم يزل من أهل السنة والجماعة. وهذا هو القول الفصل الذي يجمع بين التوراة والزبور والنبیین والحكمة والإنجيل والقرآن وإن اختلفت الألفاظ في التعبير عن ذلك التوحيد.

ومن قول بعض علماء الإسلام، لنزول القرآن بالمعاني، دون الألفاظ، ينتج أشكال ضخم: إذا كان جبريل، كما نقل السيوطي ((إنما نزل بالمعاني خاصة وأن محمداً عَلم تلك المعاني وعبر عنها بلغة العرب؛ أو أن جبريل ألقى إليه المعنى، وأن جبريل عبر بالألفاظ عن المعنى بلغة العرب)) فألفاظ القرآن ليست من الله، بل هي من محمد أو من جبريل. وبما أن إعجاز القرآن في ألفاظه ونظم هذه الألفاظ وأساليب بيانها، فإعجاز القرآن ليس منزلاً، على حد قولهم. يؤيده الحديث المأثور: ((أعطيت جوامع الكلم)) .

لذلك فإعجاز نظمه - مع التعبد بلفظه - قائم على النبي الأمين، لا على الوحي المبين.

*

بحث ثالث : لغة القرآن

قد تكون لغة القرآن من النبي أو من جبريل أو من الله : لهم في ذلك ثلاثة أقوال. على كل حال هذه اللغة لغة محمد، ولغة محمد هي لسان قريش. فالقرآن يشهد بأنه نزل

« بلسان قومه، لينذر أمّ القرى وما حولها » . والمصحف الحالي لما جمعه عثمان سنّ للجان الثلاث: الثنائية فالرباعية فالاثنت عشرية أن يكتبوه بلغة قريش. من هنا ينتج أشكال آخر: هل القرآن كله بلغة قريش!

جاء في الإتقان (١ : ١٣٦) « قال أبو بكر الواسطي في (الإرشاد): في القرآن من اللغات **خمسون لغة**: لغة قريش وهذيل وكنانة وختعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزدشنوة وكندة وتميم وحمير ومدین ولخم وسعد العشييرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وتغلب وطيء وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلى وعذرة وهوازن والنمر واليمامة » .

وقال السيوطي والواسطي أيضاً: « في القرآن من غير العربية من لغة الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر والسريانية والعبرانية والقبط » . وقد جمعها السيوطي في كتابه « المتوكلي » أيضاً « فتمت أكثر من مئة لفظة بغير لغة العرب » .

وقد قارنوا بين أساليب لغة قريش في القرآن من جهة ولغة نجد وسائر العرب من الجهة الأخرى.

قال الشيخ جمال الدين بن مالك: أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً فإنه نزل بلغة التميميين **كالادغام في** « من يشاق الله » وفي « من يرتد منكم عن دينه » فإن إدغام المجزوم لغة تميم، ولهذا قل، والفك لغة الحجاز ولهذا كثر « وليملل ... يحبيكم الله ... يمددكم ... واشدد به أزري ... ومن يحلل عليه غضبي » .

« وقال: قد أجمع القراء على نصب « إلا أتباع الظن » لأن لغة الحجازيين التزام النصب في المنقطع. كما أجمعوا على نصب « ما هذا بشراً » لأن لغتهم إهمال « ما » .

وجاء في الإتقان أيضاً (١ : ٩٣) عن **الفتح والإمالة**: « الإمالة أن ينحو بالفتحة نحو الكسرة وبالألّف نحو الياء كثيراً. ويقال له الكسر والتلطيف. وهي قسمان شديدة ومتوسطة. أمّا الفتح فهو فتح القارئ فاه بلفظ الحرف ويُقال له التقخيم. وهو شديد ومتوسط. والشديد معدوم في لغة العرب. واختلفوا هل الإمالة فرع من الفتح؟ أو كلٌّ منهما أصل برأسه؟ وجه الأول أن الإمالة لا تكون إلا لسبب، فإن فُقد لزم الفتح، وإن وُجد جاز الفتح والإمالة. ودلّ اطراد الفتح على إصالته وفرعيتها » .

((وقال الداني: الفتح والإمالة لغتان مشهورتان: فالفتح لغة أهل الحجاز، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس. ويؤيده قول أبي عبيدة: أهل الحجاز يفخمون الكلام إلا حرفاً (عشرة) فإنهم يحزموه؛ وأهل نجد يتركون التفخيم في الكلام إلا في هذا الحرف فإنهم يقولون ((عشرة)) بالكسر.

وجاء في الإتقان أيضاً عن الهمز: ((واعلم أنّ الهمز لما كان أثقل الحروف نطقاً وأبعدها مخرجاً تنوّع العرب في تحقيقه بأنواع التخفيف. وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم تخفيفاً. وعن ابن عمر قال: ما همز رسول الله ص. ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء. وإنما الهمز بدعة ابتدعوها بعدهم)) . وقال ابن عبد البرّ في (التمهيد): ((قول من قال: نزل بلغة قريش، معناه: على الأغلب، لأن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات من تحقيق الهمزة ونحوها وقريش لا تهمز)) . من هذا الواقع القرآني تظهر شبهات لا سبيل إلى ردها: الأولى منها: نزل القرآن بلغة قريش، وقريش لا تهمز! وما همز رسول الله ص. ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء! وإنما الهمز بدعة ابتدعوها بعدهم)) فمن أين جاء الهمز في القرآن، وتحقيق الهمز موجود في جميع القراءات؟؟

ثم جاء في الحديث عن ابن عباس وغيره: نزل القرآن بالثقل والتفخيم: فمن أين جاءت فيه الإمالة؟ - أجابوا: نزل بالفتح والتفخيم ثم رُخص بالإمالة. ووجدوا لهذه الرخصة حديثاً مرفوعاً: اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها! وفي حديث آخر جعلوا النبي ذاته يُميل، ((قيل للرسول: تميل؟ وليس هي لغة قريش! فقال: هي لغة الأخوال بني سعد!)) . وقد احتج الكوفيون في الإمالة بأنهم وجدوا في المصحف الياءات في موضع الألفات فأتبعوا الخط وأمالوا ليقربوا من الياءات مثل تورية وصلوة وزكوة)) . وهكذا كُتب القرآن بالإمالة وقُرئ بالإمالة أصلاً فيه وليست من لغة قريش والنبي والقرآن؟ فمن أدخل إذن الإمالة على القرآن كتاباً وقراءة؟ وإذا دخلت كتاباً عن طريق السريانية فكيف دخلت تلاوة؟؟

وظاهرة أخرى غريبة: يقول القرآن دائماً ((الصراط المستقيم)) بلغة غير قرشية فيما جميع أسماء الطرق بلغة قريش مؤنثة، ولذلك يقول القرآن دائماً ((سبيلاً قويمه)) . فلماذا يذكر الصراط ويؤنث السبيل؟ وكيف دخل تذكير الصراط على لغة القرآن القرشية؟ فلو كُتب القرآن بلغة قريش لقالوا: الصراط المستقيمة.

(١) فهل أخذ محمد التعبير مذكراً عن أهل الكتاب كما وجده في سائر أنحاء الجزيرة وتغلب معه على لغة قبيلته؟

وتفوح شبهة رابعة من وجود خمسين لغة من لغات العرب مع لغة قريش في القرآن: فمن أين جاءت؟ وكيف دخلت لغة قريش ثم لغة القرآن؟ هل أوجدت أسواق العرب الأدبية لغة عربية فصحة تعم العرب، قيل فيها الشعر الجاهلي، ونزل القرآن بها تمثلاً بهذا الشعر الجاهلي العام؟ إن صح ذلك - وهو الصحيح من مقارنة لغة القرآن بالشعر الجاهلي - فكيف يتصف القرآن على أنه نزل بلسان قريش؟

وتظهر شبهة خامسة كبيرة على وجود كلمات أجنبية في لغة القرآن: جاء في الإتيان: «
اختلف الأئمة في وقوع المعرب في القرآن. فالأكثر على عدم وقوعه لقوله: «
قرآناً عربياً»
؛ وما ظنُّ كذلك فهو من قبيل توارد اللغات في لفظ واحد. أو اقتباسات دخلت العربية حتى جرت مجرى العربي الفصيح وجرى بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن. وذهب آخرون إلى وقوعه، وأجابوا عن قوله «
قرآناً عربياً» بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربياً» .

ويجدون لكل شاردة في القرآن معجزة وإعجازاً فقالوا: إن حكمة وقوع الألفاظ الأعجمية في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء: فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء. ولذلك أخرج ابن جرير: «
في القرآن من كل لسان!»
وقالوا أيضاً: من خصائص القرآن على سائر كتب الله المنزلة أنها نزلت بلغة القوم الذين أنزلت عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم؛ والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل عليهم، لم ينزل فيها شيء بلغة غيرهم؛ والقرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة والنبط والبربر والسريانية والعبرانية والقبطية شيء كثير! »

واستنتج السيوطي، عن ابن سلوم، بعد أن حكى القول بالوقوع عن الفقهاء والمنع عن أهل العربية: قال: «
والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين معاً. وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب فعزبتهم بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن بها وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب. فمن قال إنها عربية فهو صادق. ومن قال أعجمية فهو صادق» (١ : ١٤١)

إنه تفسير صائب ولكنّه لا يرفع الشبهة على صحة لغة القرآن العثماني، وبالتالي على إعجازه المنزل!

وهذه الشبهات على لغة القرآن حملت بعض المستشرقين على القول بتحريف لغة القرآن القرشية، وتقويمها بلغة الشعر الجاهلي وما دخل هذه اللغة الفصحى العامة من التعابير الأعجمية والألفاظ التجارية والكلمات الرومية عن طريق السريانية لأدوات الكتابة التي دخلت الحجاز مع الخط (قلم قرطاس لوح كتاب كتب سطر)^١.

ولغة نجد هي التي صارت مع الأيام لغة الشعر الجاهلي. لأن ملوك كندة في نجد الحجاز كانوا ملوك اللغة والشعر كما تشهد بذلك زعامة معلقة امرئ القيس ((قفا نبك)) على المعلقة والشعر الجاهلي. وقد قيل: الناس على دين ملوكهم، وأل كندة كانوا ملوك نجد، وبالتالي ملوك الحجاز من بعيد.

والقرآن نزل بلغة قريش لا بلغة نجد. والقرآن جُمع بلغة قريش لا بلغة نجد. ومع ذلك لم يصل إلينا إلا بلغة نجد، أي بلغة الشعر الجاهلي، من إجماعهم على القراءة بالهمز، وعلى الإمالة، وعلى بعض الاصطلاحات غير القرشية مثل ((صراط المستقيم)) .

من هنا نتساءل: أنزل القرآن بلغة نجد، أم جُمع بلغة نجد، أم قرئ بلغة نجد على خلاف المتواتر؟

وإذا نزل بلغة قريش فكيف نقرأه بلغة نجد أو بلغة غير قرشية؟ أمن الأمانة كتابة القرآن بلغة لم ينزل بها؟

أم ألف النبي، أو ألف الصحابة من بعده بين لغة القرآن ولغة الشعر الجاهلي التي كانت لغة الأدب والكلام الجميل؟

كلها أسئلة وشبهات يحار فيها المؤرخ الأديب. وقد استنتج بعضهم من ذلك شبهة على صحة لغة القرآن وعلى صحة إعجازها .

وقد يكون ذلك من عمل القراء، حيث تغلب الذين ينتسبون إلى نجد، مثل قراء الكوفة على الذين ينتسبون إلى الحجاز مثل قراء البصرة؛ وعلى كل حال فلا يؤثر ذلك في صحة القرآن الجوهرية.

(١) قابل بلاشير : ترجمة القرآن : p. 5. Introduction

بحث ثالث : كيفية نزول القرآن وتأليفه

قال السيوطي^١: « نزل القرآن منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين على حسب الخلاف في مدة إقامته ص. بمكة بعد البعثة.

« ونزول القرآن منجماً يعني أنه نزل مفزقاً، كل بضع آيات معاً ... وذلك ان الوحي كان ينزل بالقرآن مبيناً للحوادث الجارية التي تعاقبت على حياة النبي من بعثته إلى وفاته .

« وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة: خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل. وقد صح نزول عشر آيات في قصة الإفك جملة (نور ١١- ٢١). وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة (١- ١١) وصح نزول جملة « غير أولي الضرر » (النساء ٩٥) وهي بضع آية؛ كذلك « وإن خفتن عيلة » (توبة ٢٨). والحكمة في نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هي في أن يتمكن النبي من حفظها ومن تعليمها للناس، ومن إملائها على كتابه ليؤدونها. ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة جداً وهي كل القرآن تقريباً. تجد مصداق ذلك في كتبهم على (أسباب النزول)، خصوصاً في الآيات التشريعية التي كانت تنزل في الغالب جواباً لحوادث في المجتمع الإسلامي، وأحياناً كانت تنزل جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين؛ وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة. ولما ترى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه .»

قال أبو بكر الانباري: أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرّق في بضع وعشرين فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر^٢ . مثال ذلك ما نقله الواحدي: أنزل الله في الكلاله آيتين: إحداهما في الشتاء وهي التي في أول النساء، والأخرى في الصيف وهي التي في آخرها^٣، فتكون سورة النساء موزعة في النزول على سنة. ومثال ذلك أيضاً ما أخبروا عن سورة براءة: كان أول براءة قبل غزوة تبوك، وآخرها بعدها. فتكون سورة براءة موزعة في النزول على سنة أيضاً.

ولنا شهادة قرآنية من آخر العهد بالمدينة من تلقين الآيات: « إذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً؟ .. أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو

(١) نقلاً عن صبيح : القرآن ٧٠ - ٧٥ .

(٢) إتقان ١ : ٦٤ . (٣) الإتقان ١ : ٢٢ .

مرتين؟ .. وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد؟ ثم انصرفوا. صرف الله قلوبهم!)) (توبة ١٢٥ - ١٢٨) فالفتنة مرة أو مرتين في السنة، كانت تحدث بمناسبة تنزيل السورة أو السورتين في العام. ونعلم أيضاً أن تنزيل البقرة دام ثمانية عشر شهراً من الهجرة إلى بدر.

من ذلك نقدر أن نستنتج أن الكيفية الزمانية والوحدة التنظيمية في نظم القرآن كانت في المدينة في كل عام سورة طويلة أو سورتين من المثني والمثاني. وقد تطول إحدى السور مثل البقرة فتتجاوز العام. فكان كل ما ينزل في سنة يجمع سورة أو سورتين متوسطتين. وطول السورة المدنية وتعدد مواضيعها وتووع أساليبها يوحى أيضاً بذلك.

ولكن في مكة تركوا السور مفصلة مقطّعة، ولم يجمعوها في وحدات زمانية تأليفية، كلّ سنة في سورة أو سورتين حتى كثر في المكي المفصل فالمثاني فالمثني.

قال الدكتور صبحي الصالح: ((ولقد شاءت الحكمة الإلهية أن يظل الوحي متجاوباً مع الرسول ص. يعلمه كلّ يوم شيئاً جديداً ومتجاوباً مع الصحابة لا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته. فكان مظهر هذا التجاوب نزوله منجّماً بحسب الحاجة: خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل. وقد أخرج ابن عساکر عن علي ر. ((أنزل القرآن خمساً خمساً إلا سورة الانعام؛ ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه)) .

ولنا على ذلك خير مثال في قصائد الشعر الجاهلي. فالقصيدة عندهم من السبعة أبيات إلى العشرة. وإذا كان مثل ((المعلقات)) فهي تشتمل على عدة مواضيع كل موضوع قائم بنفسه في نحو عشرة أبيات.

وكما جمعت هذه الوحدات الشعرية، القصائد المتنوعة المواضيع، المؤتلفة في النظم والقافية كذلك جمعوا السور في وحدات متقاربة لتقارب الموضوع والفاصلة، ربما والزمن أيضاً: فالسور وحدات تأليفية تقابل وحدات زمنية.

كان القرآن ينزل منجّماً ويحفظ أيضاً منجّماً. قال أبو عبد الرحمن السلمي:

حدثنا الذين يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ص. عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا (رواه أحمد في مسنده). وقام ابن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين)) . قال أبو العالية: ((تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات فإن النبي ص. كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً)) .

وهذا التنجيم في نزول القرآن وتأليفه هو ما يُضفي على القرآن ظاهرة التفكك في ربط أجزاء السورة، والآيات بعضها ببعض.

وليست ظاهرة التفكك خاصة بالقرآن وحده فقد نجدها في سور المزامير أو الزبور. وتلك فطرة قديمة في العقل الشرقي من البيئة العربية.

وقد لمس الأقدمون هذا التفكك الظاهر بين مقاطع السور وآياتها، فأوجدوا ((علم المناسبة)) الذي يضع قواعد للروابط التي تربط السور أو الآيات. وممن أكثر من علم المناسبة الإمام فخر الدين فقال في تفسيره: ((أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)) .

وقد عقد السيوطي فصلاً في (إتقانه)^٢ يعدد فيه بعض الروابط. فقال إن ارتباط الآية بالآية، إمّا أن يكون ظاهراً لتعلق الكلم ببعضه ببعض، أو لورود الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التقيد أو الاعتراض أو البديل. وهذا القسم لا كلام فيه. وإمّا أن يكون باطنياً، فلا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى. والمستقلة إمّا أن تكون معطوفة بحرف من حروف العطف فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة أو إمّا أن تكون غير معطوفة فلا بد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهذه هي الروابط حصراً، وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط:

- ١ - رابط من عام إلى خاص أو بالعكس.
- ٢ - رابط عقلي أو حسي أو خيالي.
- ٣ - رابط التلازم الذهني كالسبب والمسبب، أو العلة والمعلول.
- ٤ - رابط النظيرين أو التنظير أي إلحاق النظير بالنظير ((كما أخرجك ربك من بيتك بالحق)) .

(١) الدكتور صبحي العالم : مباحث ٣٨ .

(٢) الإتقان ٢ : ١١٨ .

٥ - رابط الضدين أو المضادة مثل الجمع بين حديث المؤمنين والكافرين في مطلع البقرة.

٦ - رابط الاستطراد وهو ترك الكلام إلى آخر ثم العودة إلى الكلام السابق. مثال ذلك « ولباس التقوى ذلك خير » عقب وصف نعم الله على آدم، وأيضاً « لن يستتلف المسيح أن يكون عبداً لله - ولا الملائكة المقربون »

٧ - ربط حسن التلخيص: أي ترك الكلام بالتدرج إلى كلام آخر دون العودة إلى الأول على وجه سهل دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال.

٨ - رابط الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع، مفصلاً بكلمة « هذا » أو غيرها ويختلف عن حسن التلخيص بالمفاجئة. مثلاً سورة ص ٥٥ « هذا وإن للطاغين لشرّ مآب » .

٩ - رابط حسن المطلوب: التحول من حديث إلى حديث يجمع بينهما قرينة معنوية.

١٠ - والقاعدة الأساسية، أو الرابط العام هو الغرض الذي سبقت له السورة مع المقدمات التي تهيئُها ، النتائج التي تنتج منه مع النظر إلى مراتب تلك المقدمات أو النتائج في القرب والبعد من الغرض المطلوب. فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن والذي يبين وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة.

فهذه الروابط لمعرفة ترتيب الآي في السورة الواحدة ضرورية كضرورة معرفة الضوابط لترتيب السور بحسب أزمعتها.

ولكن على شرط تجنب الإفراط في خلق القرائن المعنوية لإيجاد الروابط البيانية مما ينافي طبائع العرب، ووقائع التاريخ . وقد غمز من هذا العلم أبو العلاء ووجد فيه تكلفاً؛ قال: « إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى

(١) من هذا التكلف الفصل الذي عقده السيوطي بعد فصله على علم المناسبة في « مناسبة فاتح السور وخواتمها » (٢ : ١١١) : يذكرها بالنسبة إلى ترتيب السور في المصحف الحالي على نسق الطول والقصر لا على حسب الترتيب التاريخي وهو الأصل .

غير ملائم. وقال الشيخ بن عبد السلام: المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصابن عن مثله حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه. فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة؛ وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض^١ .

*

بحث رابع : من الإعجاز في نظم القرآن

أجمل وصف لنظم القرآن ما قاله عميد الأدب العربي المعاصر الدكتور طه حسين: كلام العرب شعر ونثر وقرآن. فالقرآن ليس بالشعر وليس بالنثر: إنه نثر وشعر معاً: إنه قرآن! ((وما علمناه الشعر! وما ينبغي له! إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)) !

قال الجاحظ: ((سمي الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمي العرب كلامهم على الجميل والتفصيل. سمي جملته قرآناً كما سموا ديواناً، وبعضه سورة كقصيدة. وبعضها آية كالبيت، وأخرها فاصلة كقافية))^٢

وفاتهم أن هذه الأسماء الجديدة التي تصف القرآن جملة وتفصيلاً منقولة عن العبرية بطريق السريانية. ولكنها أوصاف تميز القرآن عن سائر كلام العرب.

ندع الكلام في معاني القرآن وأساليبه المختلفة من أقسام وقصص وأمثال وجدل إلى الفصول الآتية. وإذ قد ذكرنا شيئاً عن لغة القرآن، نكتفي الآن بذكر شيء عن بيان القرآن وبديعه وهما جوهر إعجازه.

وأفضل من كتب في إعجاز القرآن الباقلائي. قال في وجوه إعجاز القرآن: ((الوجه الأول في الإخبار عن الغيوب والصدق والإصابة في ذلك كله - (وهذا سبقه إليه الكتاب)

(١) هذا على العموم . وهناك آيات ((أشكلت مناسبتها كما قبلها)) (٢ : ١١٠) من ذلك قوله في سورة القيامة ((لا تحرك به لسانك لتعجل به)) ؛ وفي طه ((ولا تعجل بالقرآن من مثل أن تعطي إليك وحيه)) ؛ وفي البقرة ((واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى؛ وفي الشورى ((وأمرهم بينهم شورى)) . ثم ((يسألونك عن الأهلة)) ؛ ثم ((والله المشرق والمغرب)) ...
(٢) إتقان ١ : ٥١ .

وأما الوجه الثاني ما ذكرناه من أخباره عن قصص الأولين وسير المتقدمين - (وهذا أيضاً سبقه إليه الكتاب) . فأما الكلام في الوجه الثالث وهو الذي بيناه من الإعجاز الواقع في النظم والتأليف والرصف - وهذا هو الإعجاز حصراً - فقد ذكرنا من هذا الوجه وجوهاً منها أننا قلنا إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلامهم، ومباين لأساليب خطابهم. ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصح أنه ليس من قبيل الشعر، ولا السجع، ولا الكلام الموزون غير المقفى. لأن قوماً من كفار قريش ادعوا أنه شعر. ومن الملحده من يزعم أن فيه شعراً. ومن أهل الملة من يقول إنه كلام مسجّع إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من إسجاعهم. ومنهم من يدعي أنه كلام موزون فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب)) . ثم يعقد فصلاً في نفي الشعر من القرآن، وآخر في نفي السجع من القرآن. فالإعجاز في نظمه.

وفي (الإتقان) فصول تبين مدى الإعجاز البياني في القرآن نلخصها ونحيل إليها.

أولاً : في معرفة الوجوه والنظائر^١

قال السيوطي ((فالوجوه اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معانٍ كلفظ الأمة، والنظائر كالألفاظ المتواطئة. وقيل: النظائر في اللفظ، والوجوه في المعاني. وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر)) . ووجدوا لهذا النوع من الإعجاز حديثاً: ((لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً)) . من أمثال ذلك ((الهدى)) ، يأتي على سبعة عشر وجهاً: بمعنى الثبات والبيان والدين والإيمان والدعاء؛ وبمعنى النبي والقرآن والتوراة، والاسترجاع والحجة والتوحيد والسنة والإصلاح والإلهام والتوبة والإرشاد. ومن ذلك ((الرحمة)) فقد وردت على أوجه: الإسلام والإيمان والجنة والمطر والنعمة، والنبوة والقرآن والنصر والمودة والسعة والمغفرة والعصمة.

((ومن هذا القبيل نوع من الألفاظ تأتي دائماً بمعنى واحد إلا في موضع يشدّ عن القاعدة: من ذلك كل ما في القرآن من ذكر ((البروج)) فهي الكواكب إلا في قوله: ((ولو كنتم في بروج مشيدة)) فهي القصور الطوال الحصينة. وكل ما فيه من ((بخس)) فهو النقص إلا قوله: ((بثمن بخس)) أي حرام. وكل ما فيه من ((الزيغ)) فهو الميل إلا

(١) السيوطي: الإتقان ١ : ١٤٢ .

قوله: ((وإذ زاغت الأبصار)) أي شخصت، وكل ((سكينه)) فيه فهي الطمأنينة إلا التي في قصة طالوت فهي شيء كراس الهرة له جناحان. وكل ما فيه من ((أصحاب النار)) فأهلها إلا قوله ((وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة)) فالمراد خزنتها ...

ثانياً : في الضمائر^١

في استعمال القرآن للضمائر إعجاز وتعجيز.

قال السيوطي: ((أصل وضع الضمير للاختصار. ولهذا قام قوله ((أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا)) مقام خمس وعشرين كلمة لو أتى بها مظهرة. وكذا قوله ((وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن)) : قال مكي ليس في كتاب الله آية اشتملت على ضمائر أكثر منها فإن فيها خمسة وعشرين ضميراً)) .

ويذكر (الإتيان) لاستعمال الضمائر قواعد.

(قاعدة) الأصل عود الضمير على أقرب مذكور. واختلف في قوله ((أو لحم خنزير فإنه رجس)) فمنهم من أعاده إلى المضاف ومنهم من أعاده إلى المضاف إليه.

(قاعدة) والأصل توافق الضمائر في المرجع حذراً من التشتيت؛ ولهذا لما جوز بعضهم في ((أن أفذفيه في التابوت فأفذفيه في النيم)) أن الضمير في الثاني للتابوت وفي الأول لموسى؛ عابه الزمخشري وجعله مخرجاً للقرآن عن إعجازه فقال: والضمائر كلها راجعة إلى موسى، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجنة، لما يؤدي إليه من تنافر النظم الذي هو أم إعجاز القرآن. وقال ((ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه)) . الضمائر لله تعالى، والرسول؛ وقد يخرج عن هذا الأصل أيضاً قوله: ((ولا تستفت فيهم منهم أحداً)) فإن ضمير (فيهم) لأصحاب الكهف (ومنهم) لليهود، قاله ثعلب والمبرد . ومثله: ((ولما جاءت رسلنا لوطاً سيئ بهم، وضاق بهم ذرعاً، قال ابن عباس: ساء ظناً بقومه وضاق ذرعاً بأضيافه. وقوله ((ألا تنصّره - الآية)) فيها اثنا عشر ضميراً كلها للنبي ص. إلا ضمير (عليه) فلصاحبه، كما نقله السهيلي عن الأكثرين.

(قاعدة) وجمع العاقلات لا يعود عليه الضمير غالباً إلا بصيغة الجمع سواء كان للقلة أو للكثرة نحو ((والوالدات يرضعن والمطلقات يتربصن)) ؛ وورد الأفراد في قوله: ((والزوابع مطهرة)) ولم يقل مطهرات.

(١) الإتيان ١: ١٧٨

(قاعدة) إذا اجتمع في الضمائر مراعاة اللفظ والمعنى بُدئ باللفظ ثم بالمعنى. هذا هو الجادة في القرآن ... ولم يُبَح في القرآن البداءة بالحمل على المعنى إلا في موضع واحد ((وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا)) فأنت ((خالصة)) حملاً على معنى (ما) ثم راعى اللفظ فقال ((محرم)) .

(قاعدة) في التذكير والتأنيث : التأنيث ضربان حقيقي وغيره. فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً، وإما غير الحقيقي فالحذف مع الفصل أحسن. وكل أسماء الأجناس يجوز فيها التذكير حملاً على الجنس، والتأنيث حملاً على الجماعة كقوله: ((إعجاز نخل خاوية ... إعجاز نخل منعقر ... إن البقر تشابه علينا (وقرئ) تشابهت علينا. السماء منفطر به ... إذا انفطرت السماء ... جاءت ريح عاصف ... ولسليمان الريح عاصفة)) .

وعلى (قاعدة) التعريف والتذكير جاء تساؤله عن الحكمة في تكثير ((أحد)) وتعريف ((الصمد)) من قوله: ((قل هو الله أحد الله الصمد)) .

ومن تلك الاستثناءات للقواعد العامة شيء غير قليل في القرآن.

*

ثالثاً : في مقدمه ومؤخره^١

قال السيوطي: أسباب التقديم وأسراراه فيها حكمة إجمالية: الحكمة الشائعة الذائعة في ذلك هي الاهتمام؛ قال سيبويه: يقدمون الذي بيانه أهم، وهم ببيانه أعنى.

وهذا الباب على نوعين منه ما أشكل معناه بحسب الباطن. ومنه ما أشكل معناه بحسب الظاهر. وقد تعرّض السلف لذلك في آيات:

فأخرج ابن أبي قتادة في قوله تعالى: ((فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، في الحياة الدنيا)) . قال: هذا من تقاديم الكلام، يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

وأخرج عنه أيضاً في قوله تعالى: ((ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً، وأجلّ مسمّى)) قال: هذا من تقاديم الكلام، يقول: لولا كلمة وأجلّ مسمّى لكان لزاماً.

وأخرج عن مجاهد في قوله تعالى: ((أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً)) . قال: هذا من التقديم والتأخير: أنزل على عبده الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً.

(١) الإتقان ٢ : ١٣ .

وأخرج عن قتادة في قوله تعالى: ((إني متوفيك ورافعك)) . قال: هذا من المقدم والمؤخر: أي رافعك إليّ ومتوفيك.

وأخرج عن عكرمة في قوله تعالى: ((لهم عذاب شديد بما نسوا، يوم الحساب)) قال: هذا من التقديم والتأخير، يقول: لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا.

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله تعالى: ((ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتَّبعتن الشيطان إلا قليلاً)) . قال: هذه الآية مقدمة ومؤخرة، إنما هي: أذاعوا به إلا قليلاً منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينح قليل ولا كثير.

وأخرج عن ابن عباس في قوله تعالى: ((فقالوا: أرنا الله جهرة)) . قال انهم إذا أرادوا الله فقد رأوه؛ إنما ((قالوا جهرة: أرنا الله)) . قال هو مقدم ومؤخر. قال ابن جرير: ((يعني أن سؤالهم كان جهرة)) .

ومنه: ((أفرايت من اتخذ إليه هواه)) والأصل هواه إليه، لأن من اتخذ إليه هواه غير مذموم؛ فقدم المفعول الثاني للعناية به.

وقوله: ((أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى)) على تفسير أحوى بالأخضر وجعله نعتاً للمرعى أي: أخرج أحوى فجعله غثاءً، وأخر رعايةً للفاصلة.

وقوله: ((غرابيب سود)) الأصل سود غرابيب لأن الغرابيب: الشديد السواد.

وقوله: ((فضحكت، فبشرناها)) أي ((فبشرناها فضحكت)) .

وقوله: ((ولقد همت به وهمّ بها، لولا أن رأى برهان ربه)) أي ((ولقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها)) وعلى هذا فالهم منفي عنه.

وليس التقديم والتأخير في بعض الآيات فقط، بل يأتي أيضاً في مقاطع من القصة الواحدة:

من ذلك قوله ((وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها)) ، قال البغوي: هذه أول القصة، وإن كان مؤخراً في التلاوة. وقال الواحدي كان الاختلاف في القاتل قبل ذبح البقرة وإنما أخر في الكلام لأنه تعالى لما قال: ((إن الله يأمركم - الآية)) علم المخاطبون أن البقرة لا تُذبح إلا للدلالة على قاتل خفيته عندهم، فلما استقرّ هذا في نفوسهم اتبع بقوله: ((وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها فسألتم موسى فقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة)) .

وهذا الباب كثير على جميع أنواعه في القرآن.

رابعاً : في عامّه وخاصه^١

١- قال السيوطي: العام لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر. وصيغته: ((كل)) مبتدئة أو تابعة؛ ((والذي والتي)) ، وتثنيتهما وجمعهما، ((وأي وما ومن)) شرطاً واستفهاماً وموصولاً؛ والجمع المضاف؛ والمعرف بأل؛ واسم الجنس المضاف؛ والمعرف بأل؛ والنكرة في سياق النفي والنهي، وفي سياق الشرط، وفي سياق الامتنان.

((والعام على ثلاثة أقسام: الأول الباقي على عمومته؛ قال جلال الدين البلقيني: ومثاله عزيز إذ ما من عام إلا ويتخيل فيه التخصيص. وذكر الزركشي في البرهان أنه كثير في القرآن. هذا في الأحكام العامة، وذلك في الأحكام الفرعية سوى قوله ((حرمت عليكم أمهاتكم)) فإنه لا خصوص فيها. الثاني العام المراد به الخصوص؛ والثالث العام المخصوص. وللناس بينهما فروق: الأول لم يرد شموله لجميع الأفراد لا من جهة تناول اللفظ ولا من جهة الحكم، بل هو ذو أفراد استعمل في فرد منها. والثاني أريد عمومته وشموله لجميع الأفراد من جهة تناول اللفظ لها، لا من جهة الحكم. ومنها أن الأول مجاز قطعاً لنقل اللفظ عن موضوعه الأصلي بخلاف الثاني فإن فيه مذاهب، أصحها أنه حقيقة. ومنها أن قرينة الأول عقلية والثاني لفظية. ومنها أن قرينة الأول لا تنفك عنه وقرينة الثاني قد تنفك عنه. ومنها أن الأول يصح أن يراد به واحد اتفاقاً، وفي الثاني خلاف.

ومن أمثلة الثاني المراد به الخصوص قوله: ((إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)) والقاتل واحد لقوله ((إنما ذلكم الشيطان)) ف وقعت الإشارة بقوله ((ذلكم)) إلى واحد. ومنها قوله: ((أم يحسدون الناس)) أي رسول الله. ومنها قوله: ((ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)) المقصود إبراهيم. ومنها قوله: ((فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب)) أي جبريل.

٢- أما المخصوص فأمثله في القرآن كثيرة جداً، وهي أكثر من المنسوخ إذ ما من عام إلا وقد خص. ثم المخصص له إما متصل وإما منفصل. فالمتصل خمسة وقعت في القرآن، أحدها الاستثناء نحو ((والشعراء يتبعهم الغاؤون إلا الذين آمنوا)) ؛ الثاني الوصف نحو ((وربائبكم اللاتي في حجوركم)) ؛ الثالث الشرط نحو ((كتب عليكم - إذا حضر أحدكم

(١) الإتيان ٢ : ١٦ .

الموت، أن ترك خيراً، الوصية)) ؛ الرابع الغاية نحو ((ولا تقربوهنّ حتى يطهرن)) ؛ الخامس بدل البعض من الكل نحو ((والله على الناس الحجّ، من استطاع إليه سبيلاً)) . والمنفصل: آية أخرى في محلّ آخر أو حديث أو إجماع أو قياس.

فمن أمثلة ما خص (في القرآن): ((والمطلقات يتربصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء)) خص بقوله ((إذا نكحت المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة)) ؛ وبقوله ((وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ)) . و ((حرمت عليكم الميتة والدم)) خص من الميتة السمك بقوله (أحلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة)) ؛ ومن الدم: الجامد، بقوله ((أو دمماً مسفوحاً)) . و ((آتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً)) خص بقوله ((فلا جناح عليهما فيما افتدت به)) . و ((الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة)) خص بقوله ((فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)) . وقوله ((فانكحوا ما طاب لكم من النساء)) خص بقوله ((حرّمت عليكم أمهاتكم)) .

- فهذا التخصيص يأتي في التشريع، في محل آخر من القرآن، هل هو من الإعجاز؟

ومن أمثلة ما خص (في الحديث) قوله ((وأحلّ الله البيع)) خصّ منه البيوع الفاسدة وهي كثيرة، بالسنة. وحرّم الربا، خصّ منها العرايا بالسنة. وآيات المواريث منها القاتل والمخالف في الدين، بالسنة. وآية تحريم الميتة، خصّ منها الجراد بالسنة. وآية ((ثلاثة قروء)) خصّ منها ((الأمة)) بالسنة. وقوله ((ماءً طهوراً)) خصّ منه المتغير، بالسنة. قوله ((السارق والسارقة فاقطعوا)) خصّ منه من سرق دون ربع دينار، بالسنة ...

- فهذا التخصيص بالسنة على تشريع القرآن هل هو من الإعجاز؟

ومن أمثلة ما خص بالإجماع آية المواريث: خصّ منها الرقيق فلا يرث بالإجماع، ذكره مكّي.

ومن أمثلة ما خص بالقياس آية الزنا ((فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة)) خصّ منها العبد، بالقياس على الأمة المنصوصة في قوله ((فعليهنّ نصف ما على المحصنات من العذاب)) المخصّص لعموم الآية، ذكره مكّي أيضاً.

- فهل هذا التخصيص بالإجماع أو بالقياس على تشريع القرآن من معجز التنزيل؟ ثم يورد السيوطي فروعاً منثورة تتعلق بالعموم والخصوص:

((الأول إذا سيق العام للمدح أو الذم فهل هو باق على عمومه؟ - فيه خلاف ومذاهب.

« والثاني اختلف في الخطاب الخاص به ص. نحو « يا أيها النبي! يا أيها الرسول » هل يشمل الأمة؟ فقول نعم لأن أمر القدوة أمر لأتباعه معه عرفاً. والأصح في الأصول المنع لاختصاص الصيغة به.

« والثالث اختلف في الخطاب « يا أيها الناس » هل يشمل الرسول؟ على مذاهب، أصحها وعليه الأكثرون: نعم، لعموم الصيغة له، والثاني: لا! لأنه ورد على لسانه لتبليغ غيره ولما له من الخصائص. والثالث أن اقترن « بقل » لم يشمله لظهوره في التبليغ وذلك قرينة عدم شموله، وإلا فيشملة.

« والرابع الأصح في الأصول أن الخطاب « يا أيها الناس » يشمل الكافر والعبد لعموم اللفظ؛ وقيل لا يعم الكافر بناء على عدم تكليفه بالفروع، ولا العبد لصرف منافعه إلى سيده شرعاً.

« والخامس اختلف في « من » هل يتناول الأنثى؟ فالأصح نعم، خلافاً للحنفية لقوله « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى » فالتفسير بهما دال على تناول « من » لهما. واختلف في جمع المذكر السالم هل يتناولهما؟ فالأصح لا، وإنما يدخلن بقريظة. أمّا المكسر، فلا خلاف في دخولهن فيه.

« والسادس اختلف في الخطاب « يا أهل الكتاب » هل يشمل المؤمنين؟ فالأصح لا، لأن اللفظ قاصر على من ذكر. وقيل إن شاركوهم في المعنى وإلا فلا. واختلف في الخطاب « يا أيها الذين آمنوا » هل يشمل أهل الكتاب؟ فقول لا، بناءً على أنهم غير مخاطبين بالفروع؛ وقيل نعم لأنه خطاب تشريف لا تخصيص « .

- فهل كل هذه الاختلافات في فهم القرآن من معجز البيان؟

*

خامساً : في مجمله ومبينه^١

قال السيوطي: ١- **المجمل** هو ما لم تتضح دلالاته. وهو واقع في القرآن. وفي جواز بقائه مجملاً أقوال، أصحها: لا يبقى المكلف بالعمل به بخلاف غيره. وللإجمال أسباب:

(١) الإتقان ٢ : ١٨ .

منها الاشتراك نحو « ثلاثة قروء » فإن القروء موضوع للحيض والطهر؛ « أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح » يحتمل الزوج والولي فإن كلاً منهما بيده عقدة النكاح.

ومنها الحذف نحو « وترغبون أن تنكوهنَّ » يحتمل: في وعن.

ومنها اختلاف مرجع الضمير نحو « إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه » يحتمل عود ضمير الفاعل في (يرفعه) إلى ما عاد عليه ضمير (إليه) وهو الله؛ ويحتمل عوده إلى العمل: والمعنى أن العمل الصالح هو الذي يرفعه الكلم الطيب؛ ويحتمل عوده إلى (الكلم الطيب) أي أن الكلم الطيب، وهو التوحيد، يرفع العمل الصالح لأنه لا يصح العمل إلا مع الإيمان.

ومنها احتمال العطف والاستئناف كما في قوله « إلا الله والراسخون في العلم ويقولون « (آل عمران ٧) .

منها غرابة اللفظ نحو « فلا تعضلوهنَّ » .

ومنها عدم كثرة الاستعمال نحو « يلقون السمع » أي يسمعون؛ « ثاني عطفه » أي متكبر؛ « فأصبح يقلب كفيه » أي نادماً.

ومنها التقديم والتأخير، كما مر بك.

ومنها قلب المنقول نحو « طور سنين » أي سيناء، « سلام على آل ياسين » أي على الياس.

ومنها التكرير القاطع لوصل الكلام في الظاهر نحو « للذين استضعفوا » أي لمن آمن منهم.

- فهل هذا الإجمال الذي يحتاج إلى بيان هو من معجز البيان؟

٢- والتبيين قد يقع بالقرآن وقد يقع بالسنة.

فالتبيين بالقرآن « قد يقع متصلاً نحو « من الفجر » بعد قوله « الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ؛ ومنفصلاً، في آية أخرى، نحو قوله « فإن طلقها فلا تحلّ له حتى تنكح زوجاً غيره » بعد قوله « الطلاق مرتان » . ونحو قوله « وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة » « دال على جواز الرؤية. وقوله « أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » فسرّه قوله « حرّمت عليكم الميتة » . وقوله « مالك يوم الدين » فسرّه قوله « وما أدراك ما يوم الدين » . وقوله « فنلقَى آدم من ربه كلمات » فسرّه قوله « قالاً: ربّنا، ظلمنا أنفسنا » . وقوله

((وإذا بُشِّرْ أحدهم بما ضرب للرحمان مثلاً)) فسره قوله ((بالأنثى)) في آية النحل. وقوله ((أوفوا بعهدي أوف بعهدكم)) ، قال العلماء بيان هذا العهد قوله ((لئن أقمت الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي)) فهذا عهده؛ وعهدهم ((لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم)) . وقوله ((صراط الذين أنعمت عليهم)) بيّنة قوله ((فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين)) .

((وقد يقع التبیین بالسنة مثل)) وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)) ومثل ((والله على الناس حج البيت)) وقد بينت السنة أفعال الصلاة والحج، ومقادير نسب الزكوات في أنواعها)) .

- فهل الكلام الذي بيّنه كلام آخر من زمن آخر هو من معجز البيان؟

وزاد السيوطي تنبيهاً: ((اختلف في آيات هي من قبيل المجمل أم لا؟)) .

منها آية السرقة: قيل إنها مجملة في اليد وفي القطع؛ وقيل لا إجمال فيها)) .

ومنها ((امسحوا برؤوسكم)) : قيل إنها مجملة لتردد بين مسح الكل والبعض، ومسح الشارع الناصية مبين لذلك؛ وقيل لا وإنما هي لمطلق المسح الصادق بأقل ما ينطلق عليه الاسم وبغيره.

ومنها ((حرمت عليكم أمهاتكم)) : قيل مجملة لأن إسناده التحريم إلى العين لا يصح لأنه إنما يتعلق بالفعل فلا بدّ من تقريره وهو مرجح لأمر لا حاجة إلى جميعها، ولا مرجح لبعضها؛ وقيل لا لوجود المرجح وهو العرف فإنه يقضي بأن تحريم الاستمتاع بالوطء ونحوه.

ومنها ((وأحل الله البيع وحرّم الربا)) : قيل مجملة وما من بيع إلا وفيه زيادة فافتقر إلى بيان ما يحل وما يحرم؛ وقيل لا لأن البيع مقبول شرعاً فحمل على عمومته ما لم يقدّم دليل التخصيص ... ثم قال هل هي مجملة بنفسها أم بعارض ما نهى عنه من البيوع؟ - وجهان؛ وهل الإجمال في المعنى المراد دون لفظها؟ لأن لفظ البيع اسم لغوي معناه معقول، لكن لما قام بإزائه من السنة ما يعارضه تدافع العمومان ولم يتعين المراد إلا بالسنة فصار مجملاً لذلك؛ وفي اللفظ أيضاً لأنه لما لم يكن المراد منه ما وقع عليه الاسم، وكانت له شرائط غير معقولة في اللغة، كان مشكلاً أيضاً ...

ومنها الآيات التي فيها الأسماء الشرعية نحو ((أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. فمن شهد منكم الشهر فليصمه. والله على الناس حج البيت)) : قيل إنها مجملة لاحتمال الصلاة لكل دعاء، والصيام لكل إمساك، والحج لكل قصد؛ والمراد بها لا تدلّ عليه اللغة وافتقر إلى البيان؛ وقيل لا، بل يحمل على كل ما ذكر إلا ما خصّ بدليل)) .

فهل التشريع الذي يفتقر إلى مثل هذا البيان هو من معجز البيان؟

سادساً : في مشكله وموهم الاختلاف والتناقض^١

قال السيوطي: ((والمراد به ما يوهم التعارض بين الآيات، وكلامه تعالى منزّه عن ذلك كما قال:)) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)) . وقد تكلم في ذلك ابن عباس وحكي عنه التوقف في بعضها.

منها قوله ((ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين)) وقد قال ((ولا يكتُمون الله حديثاً)) .

ومنها قوله ((فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون)) ، وقد قال ((وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون)) .

وفيهما قوله ((أنكم لتفكرون بالذي خلق الأرض في يومين ...)) فإن الأرض قبل السماء. وقد قال في الآية الأخرى: ((أم السماء بناها. والأرض بعد ذلك دحاها)) .

ومنها قوله ((وكان الله عزيزاً حكيماً)) : فما شأنه يقول: ((وكان)) ؟ وقد أخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أن يهودياً قال له: ((إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً فكيف هو اليوم؟ فقال أنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً)) .

وينقل السيوطي أجوبة ابن عباس والسدي والضحاك وأبي هريرة على هذه المتشابهات. ثم يقول :

((موضع آخر توقف عليه ابن عباس: سأله رجل عن ((يوم كان مقداره ألف سنة)) وعن ((يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)) ؟ فقال ابن عباس هما يومان ذكرهما الله تعالى في كتابه، الله أعلم بهما؛ وزاد: ما أدري ما هي، وأكره أن أقول فيهما ما لا أعلم. قال ابن أبي مليكة: فضربت البعير حتى دخلت على سعيد ابن المسيّب، فسئل عن ذلك، فلم يدر ما يقول؛ فقلت له: ألا أخبرك بما حضرت من ابن عباس: فأخبرته. فقال ابن المسيّب للسائل: هذا ابن عباس قد أتقى أن يقول فيهما وهو أعلم مني)) .

وقال الزركشي في (البرهان) للاختلاف أسباب:

أحدهما وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطويرات شتى، كقوله في خلق آدم من تراب: مرة من حمٍ مسنون، ومرة من طين لازب، ومرة من صلصال كالفخار. فهذه

(١) الإتقان ٢ : ١٧ .

ألفاظ مختلفة ومعانيها في أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأ وغير التراب، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب ومن التراب درجت هذه الأحوال.

وكقوله عن عصا موسى: « فإذا هي ثعبان » وفي موضع « تهتَزْ كأنها جان » والجان الصغير من الحيات، والثعبان الكبير منها وذلك لأن خَلَقَهَا خَلْقُ الثَّعْبَانِ الكبير وخَفَّتْهَا كاهْتِرَازِ الجان.

الثاني لاختلاف الموضع. كقوله « وقفوهم أنهم مسؤولون » ، وقوله « فلنسالن الذين أرسل إليهم، ولنسالن المرسلين » مع قوله « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان » فسرهُ الحليمي باختلاف السؤال؛ وحمله غيره على اختلاف الأماكن لأن في القيامة مواقف كثيرة.

وكقوله « اتقوا الله حق تقاته » مع قوله « فاتقوا الله ما استطعتم » : حمل الشيخ الشاذلي الأولى على التوحيد والثانية على الأعمال. وقيل الثانية ناسخة للأولى.

وكقوله « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » مع قوله « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » ؛ فالأولى تفهم إمكان العدل والثانية تنفيه. والجواب أن الأولى في توفيه الحقوق والثانية في الميل القلبي وليست في قدرة الإنسان.

وكقوله: « إن الله لا يأمر بالفحشاء » مع قوله « أمرنا مترفياً ففسقوا فيها » : فسروا الأولى في الأمر الشرعي، والثانية في الأمر الكوني بمعنى القضاء والتقدير.

الثالث لاختلافهما في جهتي الفعل كقوله: « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » : أضيف القتل إليهم والرمي إلى النبي على جهة الكسب والمباشرة، ونفاه عنهم وعنه باعتبار التأثير.

الرابع لاختلافهما في الحقيقة والمجاز: « وترى الناس سكارى وما هم بسكارى » أي سكارى من الأهوال مجازاً، من الشراب حقيقة.

الخامس بوجهين واعتبارين كقوله « فبصرك اليوم حديد » مع قوله « خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » : قال قطرب فبصرك أي علمك، وليس المراد رؤية العين.

وكقوله: « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » مع قوله « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فقد يُظن أن الوجل خلاف الطمأنينة. وجوابه أن الطمأنينة تكون بانسراح الصدر بمعرفة التوحيد، والوجل يكون عند خوف الزيغ عنه، وقد جمع بينهما في قوله: « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .

وانتهى السيوطي بإخراج ثلاثة مبادئ تعين على تفسير ما تشابه من مشكله وموهم الاختلاف والتناقض فيه. قال أحدهم ((إذا تعارضت الآي وتعدرت فيها الترتيب والجمع طلب التاريخ وتُرك المتقدم بالمتأخر ويكون ذلك نسخاً؛ وإن لم يُعلم وكان الإجماع على العمل بإحدى الآيتين عُلِمَ بإجماعهم أن الناسخ ما أجمعوا على العمل به. قال ولا يوجد في القرآن آيتان متعارضتان تخلوان عن هذين الوصفين)) .

- وهل يقوم النسخ المذكور والإجماع مقام مُحكم التنزيل المعجز؟

وقال غيره ((في جماع الاختلاف والتناقض: إن كل كلام صح أن يضاف بعض ما وقع الاسم عليه إلى وجه من الوجوه فليس فيه تناقض؛ إنما التناقض في اللفظ ما ضاده من كل جهة؛ ولا يوجد في الكتاب والسنة شيء من ذلك أبداً، إنما يوجد فيه النسخ في وقتين.

- وهل يليق بأحكام الله انتلافها فقط ((على وجه من الوجوه)) في مُحكم التنزيل المعجز؟

وقال القاضي أبو بكر: ((لا يجوز تعارض أي القرآن والآثار وما يوجب العقل، فلذلك لم يجعل قوله ((الله خالق كل شيء)) معارضاً لقوله عن عيسى ((وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير)) لقيام الدليل العقلي أنه لا خالق غير الله فتعين تأويل ما عارضه فيؤول)) .

- وهل يجوز أن نجعل العقل حكماً على مُحكم التنزيل المعجز؟

فالتفسير بأيّ وجه من الوجوه، والتأويل بقيام الدليل العقلي، واللجوء إلى النسخ بالقرآن أو بالحديث أو بالإجماع لا يليق بكلام الله المحكم المعجز الذي بيانه إعجازه، وإعجازه بيانه.

*

سابعاً : في الآيات المتشابهات^١

قال السيوطي: ((القصد به إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة. بل تأتي في موضع واحد مقدماً وفي آخر مؤخراً كقوله في البقرة ((وادخلوا الباب سُجّداً وقولوا:)) حطة)) وفي الأعراف ((وقولوا: حطة، وادخلوا الباب سُجّداً)) وفي البقرة ((ما أهل به لغير الله)) ، وسائر القرآن ((ما أهل لغير الله به)) . أو في موضع بزيادة وفي آخر بدونها نحو ((ويكون الدين لله)) في يسن والبقرة؛ وفي الأنفال ((يكون الدين كله لله)) .

(١) الإتيان ٢ : ١١٤ .

أو في موضع معرّفاً وفي آخر منكرًا؛ وفي موضع مفرداً وفي آخر جمعاً. أو بحرف وفي آخر بحرف آخر. أو مدغماً وفي آخر مفكوكاً. وهذه أمثلة منه:

في البقرة ((هدى للمتقين)) ؛ وفي لقمان ((هدى ورحمة للمحسنين)) .

في البقرة ((وقلنا: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلاً)) ؛ وفي الأعراف ((فكلأ)) بالفاء.

في البقرة ((واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا تنفعها شفاعاة ولا يُقبل منها عدل)) وقال بعد ذلك ((... ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعاة)) : ففيه تقديم العدل وتأخيرها؛ وقال في الأولى ((لا تقبل منها شفاعاة)) وفي الثانية ((ولا تنفعها شفاعاة)) .

في البقرة ((وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون)) وفي إبراهيم ((ولا يذبحون)) وفي الأعراف ((يقتلون)) .

في البقرة ((فانفجرت)) وفي الأعراف ((انبجست)) لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء.

في البقرة ((ولن تمسنا النار إلا أياماً معدودة)) وفي آل عمران ((معدودات)) .

في البقرة ((إن هدى الله هو الهدى)) وفي آل عمران ((إن الهدى هدى الله)) .

في البقرة ((رب اجعل هذا بلداً آمناً)) وفي إبراهيم ((اجعل هذا البلد آمناً)) .

في البقرة ((قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا)) وفي آل عمران ((آمنا بالله وما أنزل علينا)) .

في البقرة ((تلك حدود الله فلا تقربوها)) وقال بعد ذلك ((فلا تعتدوها)) .

قوله في آل عمران ((نزل عليك الكتاب)) ثم قال ((وأنزل التوراة والإنجيل)) لأن الكتاب أنزل منجماً فناسب الإتيان ((بنزل)) الدال على التكرير، بخلافهما فإنهما أنزلا دفعة^١.

قوله ((ولا تقتلوا أولادكم من املاق)) وفي الإسراء ((خشية املاق)) .

في الأعراف ((فاستعد بالله إنه سميع عليم)) وفي فصلت ((إنه السميع العليم)) .

- قال أبو عبد الله الرازي: إن هذا كله من باب التنوين وتنويع الألفاظ. ولكن هذا التنوين يجعل في الإعجاز درجات، وفي البيان تفاوتاً: فأين فيها معجز البيان؟

بحث خامس : في المحكم والمتشابه من القرآن^٢

وصف القرآن نفسه، من حيث بيانه وإعجاز نظم، بثلاث صفات متعارضة.

(١) تخريج السيوطي لا يقوم لأنه في الآية السابعة يقول ((هو الذي أنزل عليك الكتاب)) .

(٢) الاقتباسات في هذا البحث من الإتيان ٢ : ٢ .

((حكى النيسابوري: في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها أن القرآن كله محكم لقوله تعالى ((كتاب أحكمت آياته)) (هود ١)، الثاني، كله متشابه، لقوله تعالى ((كتاباً متشابهاً)) (زمر ٢٣)؛ الثالث - وهو الصحيح - انقسامه إلى محكم ومتشابه لقوله تعالى ((هو الذي أنزل عليك الكتاب: منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات)) (آل عمران ٧) فالواقع القرآني الصحيح أن فيه آيات محكمات وأخرى متشابهات.

فما معنى المحكم والمتشابه؟

((قيل المحكم ما عُرف المراد منه إمّا بالظهور وإمّا بالتأويل؛ والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور. وقيل المحكم ما وضح معناه والمتشابه نقيضه. وقيل المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلاّ وجهاً واحداً والمتشابه ما احتتمل أوجهاً. وقال الماوردي: المحكم ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان. وقيل المحكم ما تأويله تنزيهه، والمتشابه ما لا يدرك إلاّ بالتأويل)) . وهذا الأخير أصحها؛ قال الطيبي: ((المراد بالمحكم ما اتضح معناه والمتشابه بخلافه)) . فوجود المتشابه في القرآن، وهو أكثره، مشكل ضخم يحار فيه المؤمن وغير المؤمن.

*

وكيف يتم تعيين المحكم والمتشابه؟

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: ((المحكمات: ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، أي ما يؤمن به ويعمل به؛ والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه ومؤخره، وأمثاله وأقسامه، أي ما يؤمن به ولا يعمل به)) .

وقيل المحكم: الفرائض، والوعد والوعيد؛ والمتشابه: القصص والأمثال.

وأخرج الفريابي عن مجاهد قال: ((المحكمات ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً)) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع قال: ((المحكمات هي أوامره الزاجرة)) .

وهكذا فالمحكم في القرآن يعود بالدرجة الأولى إلى أوامره الزاجرة أي نواهيته، وبصورة عامة إلى ((ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك متشابه)) . فالمحكم هو أحكام القرآن وفرائضه، والمتشابه ما سوى ذلك من الأقسام والقصص والأمثال، أي أكثر القرآن. لأن أحكام القرآن في الحلال والحرام، أي فرائضه، تنحصر في آيات

الأحكام؛ ((قال الغزالي وغيره: آيات الأحكام خمسمائة آية؛ وقال بعضهم: مائة وخمسون. قيل ولعلّ مرادهم: المصرّح به، فإن آيات القصص والأمثال وغيرها يُستنبط منه كثير من الأحكام)) . فإذا قارنت آيات الأحكام الخمسمائة بعدد آيات القرآن كله وهي ((ستة آلاف آية وستمائة آية وست عشرة آية^٢)) ظهر لك البون الشاسع بين محكم القرآن القليل، ومتشابه القرآن الكثير، وفي ذلك ما فيه!

ونقل السيوطي في أنواع المتشابه ما قاله الراغب في (مفردات القرآن): ((الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب: محكم على الإطلاق، ومتشابه على الإطلاق ومحكم من وجه متشابه من وجه.

((فالمتشابه بالجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومن جهة المعنى فقط، ومن جهتهما معاً. فالأول (من جهة اللفظ) ضربان: أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة إما من جهة الغرابة نحو ((الاب)) و ((يزفون)) أو الاشتراك كيد الله ويمينه؛ وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركّب وذلك ثلاثة أضرب، ضرب لاختصار الكلام نحو ((وإن خفتم ألا تعدلوا في النساء، فانكحوا ما طاب لكم)) ؛ وضرب، لبسطه نحو ((ليس كمثله شيء)) لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع؛ وضرب لنظم الكلام نحو ((أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً)) وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً.

((والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى، وأوصاف القيامة. فإن تلك الأوصاف لا تتصوّر لنا، إذ كان لا يحصل لنا صورة ما لم نحسبه أو ليس من جنسه.

والمتشابه من جهتهما معاً خمسة أضرب: الأول من جهة الكميّة كالعوم والخصوص نحو ((واقتلوا المشركين)) . والثاني من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو ((وانكحوا ما طاب لكم من النساء)) . والثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو ((اتقوا الله حقّ تقاته)) . والرابع من جهة المكان والأمر التي نزلت فيها نحو ((وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ... إنما النسيء زيادة في الكفر)) فإن من لا يعرف عاداتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية. الخامس من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد، كشروط الصلاة والنكاح ...

(١) الإتيان ٢ : ١٣٠ .

(٢) الإتيان ٢ : ٦٩ وفيه أيضاً ((أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك ، ومنهم من لم يزد . و تعديد الأبي من معضلات القرآن)) .

قال وهذه الجملة إذا تُصورت عُلم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم. ثم جمع المتشابه على ثلاثة أضرب: « ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك؛ وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام القلقة؛ وضرب متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم ». .

- تلك حال أكثر القرآن، بإجماع الأئمة؛ فكيف ينسجم المتشابه مع إعجاز نظمه؟

*

وقد فصل السيوطي بعض متشابه القرآن في قوله:

أولاً : من المتشابه آيات الصفات الإلهية

من ذلك صفة الاستواء: « الرحمن على العرش استوى » ، ولها سبعة أجوبة تحاول رفع ما يُشعر فيها بالتجسيم.

ومن ذلك النفس في قوله « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » أولها العلماء بتأويلات منها أنها الذات أو الغيب والسرّ.

ومن ذلك الوجه « كل شيء هالك إلا وجهه، ويبقى وجه ربك، يريدون وجهه، إنما نطمعكم لوجه الله ... » قد يعني الذات، أو النية، أو الجهة.

ومن ذلك العين « ولتضع على عيني ... واصبر لحكم ربك: فإنك بأعيننا » وهي مؤولة بالبصر أو الإدراك وقال آخر المراد في الآيات كلاءته تعالى أي حفظه.

ومن ذلك اليد في قوله « لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي ... يد الله فوق أيديهم ... إن الفضل بيد الله » وهي مؤولة بالقدرة إلا أنها أخص والقدرة أعم كالمحبة مع الإرادة. وهي في الأصل كالبصر عبارة عن صفة الموصوف. فإن قلت فما حقيقة اليدين في خلق آدم؟ قلت الله أعلم بما أراد.

ومن ذلك صفة الفوقية « وهو القاهر فوق عباده » وصفة المجيء « وجاء ربك، ويأتي ربك » وصفة عند « عند ربك، ومن عنده » ، وصفة مع « وهو معكم أينما كنتم » .

ومن ذلك صفة الحب « يحبهم ويحبونه ، فاتبعوني يحببكم الله » ، وصفة الغضب « غضب الله عليها » ، وصفة الرضى « رضى الله عنهم » ، وصفة العجب « بل عجباً » ، وصفة الرحمة في آيات كثيرة.

وقد قال العلماء « كل صفة يستحيل حقيقتها على الله تفسّر بلازمها. وقد اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه. وجمهور أهل السنة ومنهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى، ولا نفسرها مع تنزيها عن حقيقتها ». .

*

ثانياً : ومن المتشابه بعض فواتح السور بالحروف المتقطعة

إن سبعاً وعشرين سورة من السور المكية المتنوعة تبتدئ بحروف متقطعة وهي القلم (نَ)، وق (ق) والأحقاف (حم)، والجاثية (حم)، والدخان (حم)، والزخرف (حم)، والشورى (حم)، وفصلت (حم)، وغافر (حم)، وص (ص)، ويسن (يسن)، والسجدة (الم)، ولقمان (الم)، والروم (الم)، والعنكبوت (الم)، والقصص (طسم)، والنمل (طس)، والشعراء (طسم)، وطه (طه)، ومريم (كهيعص)، والحجر (الر)، وإبراهيم (الر)، والرعد (الر)، ويوسف (الر)، وهود (الر)، ويونس (الر)، والأعراف (المص)؛ ويلحق بها البقرة (الم)، وآل عمران (الم)؛ وأنت ترى أنها مجموعات مُعلّمة بحروف منها الحواميم السبع والطواسين الأربع ...

ولعل هذه المجموعات المُعلّمة بهذه الحروف تدل على حَمَلَتِها حسبما أخرج أحمد في صحيحه وأبو داود في سننه: « سألنا أصحاب الرسول كيف تحزبون القرآن؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة^١ ». .

قال السيوطي: « والمختار فيها أيضاً أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى. ومن الباطل علم الحروف المتقطعة في أوائل السور. وقد قالوا فيها نحو عشرين قولاً. ولا أحد يحكم عليها بعلم أو يصل إليه بفهم^٢ ». .

*

وللأستاذ دروزة نظرية طريفة في فهم المحكم والمتشابه، قال^٣:

« القرآن أسس ووسائل. والجوهري فيه هو الأسس لأنها هي التي انطوت فيها أهداف

(١) دروزة: القرآن المجيد ٦٩ و ١٠٢ .

(٢) الاتقان ٨:٢ .

(٣) محمد عزة دروزة: القرآن المجيد ١٥٩ - ١٦٥ .

التنزيل القرآني والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وشرائع وأحكام وتلقينات مثل وحدة الله وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد أو اتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق التصرف في الكون، واستحقاقه وحده العبادة والخضوع. أما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، والتنديد والجدل والحجاج والأخذ والرد، والتذكير والبرهنة والإلزام، ولفت النظر إلى نواميس الكون ومشاهد عظمة الله وقدرته، ومخلوقاته الخفية والعنوية، فهو وسائل تدعيمية وتأيدية إلى تلك الأسس والأهداف وبسبيلها.

((ومن مميزات الأسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب المنزلة أن هذه الأسس والأهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبيعي من اختلاف مواقف النبي وتتنوع بالنسبة إلى فئات الناس والعقول والظروف، في حين أن ما هو من باب الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف أسلوباً ومدى وتعبيراً مع اختلاف تلك المواقف وتتنوعها.))

((وهذا التقسيم مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن (بقرة ١٧ - ٢٦ أعراف ٥٧ - ٥٨، كهف ٥٤ - ٥٩، طه ١١٣، عنكبوت ٤٠ - ٤٩، روم ٢٠ - ٢٨، زمر ٩ - ٢٩، الحاقة ٤ - ٥٢، المعارج ١١ - ٤٤، المدثر ٣٠ - ٤٧ الخ). وقد يكون أقواها مدى وأوضحها دلالة آية آل عمران السابعة ((منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات)) بحيث يصح أن يستلهم منها بقوة أن القرآن قسمان متميزان: أحدهما محكم أساسي ثابت لا يتحمل تأويل ولا تنوعاً ولا وجوهاً افتراضية وتقريبية؛ وثانيهما متشابه بسبيل التقريب والتمثيل والإلزام والبرهنة ويحتمل التأويل والتنوع والوجوه الافتراضية.))

ويسترسل الأستاذ دروزة في تفصيل بعض متشابهات القرآن فيقول:

(١) **إن القصص القرآنية** ((لم ترد للقصة بذاتها وإنما وردت للعظة والتمثيل والتذكير والإلزام والإفحام والتنديد والوعيد. وفي أسلوب القصص القرآنية الذي لم يكن سرداً تاريخياً - كما هو الحال في قصص التوراة - والذي تخلله الوعظ والإرشاد والتبشير والإنذار، بل والذي جاء سبكه وعظاً وإرشاداً وتبشيراً وإنذاراً ثم في سياق إيراد القصص عقب التذكير وحكاية مواقف الكفار أو بين يدي ذلك، وتكرارها لتنوع المواقف النبوية سنين طويلة وتجاه فئات مختلفة تأييد لهذه النقطة (ص ١٦٧).))

(٢) ((وإن ما ورد من أخبار الملائكة والجن لم يكن هو الآخر غريباً عن السامعين

جزئياً أو كلياً، وإنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها وليس مقصوداً بذاته ((ص ١٨٥)
 «ولعل المتمعن في الآيات التي جاء فيها ذكر الملائكة والجن وإبليس والشياطين وأعمالهم،
 وتنوعها من جهة؛ وما هنالك من آيات وجمل قرآنية عديدة فيها تفريرات حاسمة عن إحاطة الله
 بكل شيء في كل أن ... يلهم الناظر في القرآن أيضاً أن تلك الآيات مع اتصالها بما في أذهان
 السامعين من صور، قد جاءت بسبيل التقريب والتمثيل للناس الذين اعتادوا أن يروا الوسائل
 والوسائط في متنوع الأعمال ووجوه الحياة، ويعتبروها مظهراً من مظاهر العظمة والإحاطة،
 ولا يدركوا المجردات إدراكاً صحيحاً (((١٨٨).

(٣) وإن ما ورد في القرآن من مشاهد الكون ونواميسه ... قد استهدف العظة والإرشاد
 والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد، دون أن ينطوي على قصد تقرير ماهيات الكون وأطوار
 الخلق والتكوين، ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية (ص ١٩٠).

(٤) « وإن ما ورد في القرآن عن الحياة الأخروية وإعلامها ومشاهدها وصورها
 وأهوالها وعذابها ونعيمها قد ورد بأسلوب منسجم مع مفهومات السامعين ومألوفاتهم، ومتناول
 إدراكهم وحسهم، وخاصة العرب الذين كانوا أول المخاطبين به؛ وإنه ورد بالأسلوب الذي، ورد
 به على سبيل التقريب ... وهذا الأسلوب وسيلة من وسائل تأييد القصد وتدعيمه ... ومع تقريره
 أن الإيمان باليوم الآخر وحسابه ونعيمه وعذابه واجب، وإنه ركن من أركان العقيدة الإسلامية،
 فإن ملاحظة ما قدمناه جوهرية مثل سابقاتها لأن من شأنها أن تجعل الناظر في القرآن يتجنب
 الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الأخروية وصورها، والتورط والتكلف والتزويد في
 صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق لذاتها؛ ويذكر أن هدف القرآن في ما جاء من التعابير
 والأوصاف - التي شغلت حيزاً كبيراً في القرآن حتى لا تكاد سورة من سورته تخلو من ذكرها -
 هو العظة والتنبيه وإيقاظ الضمائر. وإن حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الأوصاف على سبيل
 التقريب والتشبيه (((١٩٦).

(٥) « وإن ما ورد في ما يتصل بذات الله السامية من تعابير اليد والقبضة واليمين
 والشمال والوجه والاستواء والنزول والمجيء وفوق وتحت وأمام، وطى وقبض ونفخ، إنما جاء
 بالأسلوب والتعابير والتسميات التي جاءت به من قبيل التقريب لأذهان السامعين ... وفي
 القرآن ضوابط من تعبيره^١ تشمل كل ما ورد في صدد الذات السامية من أسماء وأفعال وصفات
 أخرى قد توهم مماثلة لأسماء وأفعال وصفات البشر، حيث يصح أن يقال إن ورودها في القرآن
 إنما جاء كذلك على سبيل التقريب والتشبيه ((. (١٩٧ - ١٩٨)

(١) « مثل ليس كمثله شيء ... لا تدركه الأبصار ... ولا يحيطون بشيء من علمه ((.

وسنفصل في الفصول اللاحقة ما أوجزناه هنا على أنواع متشابهة القرآن.

ثم نختم هذا البحث بخاتمة السيوطي لبحثه: «أورد بعضهم سؤالاً: هل للمحكم ميزة على المتشابه أو لا؟ فإن قلتم بالثاني (أي لا) فهو خلاف الإجماع؛ أو بالأول فقد نقضتم أصلكم في أن جميع كلامه سبحانه وتعالى سواء، وأنه نزل بالحكمة! - الجواب إن المحكم كالمتشابه من وجه، ويخالفه من وجه: فالمحكم أصل والعلم بالأصل أسبق.

«وقال بعضهم: ما الحكمة في إنزال المتشابه ممن أراد لعباده البيان والهدى؟ - قلنا إن كان ممّا يمكن علمه فله فوائد منها الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم؛ وإن كان ممّا لا يمكن علمه فله فوائد منها ابتلاء العباد بالوقوف عنده، والتوقف فيه والتفويض والتسليم، ثم التعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة، كالممنسوخ» .

أجل إن تنزيل المتشابه في القرآن «ابتلاء للعباد» لواقعه المدهش المؤلم؛ إنه ابتلاء عظيم لأن أكثر القرآن منه: أيكون فيه فقط خمسمائة آية محكمة، في الأحكام والفرائض، من أصل ستة آلاف ونيف جلّها متشابه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم.

إنه ابتلاء عظيم لأننا إذا رفعنا من القرآن المتشابه فيه - كما رُفِعَ أكثر المنسوخ في العرضة الأخيرة - فماذا يبقى من القرآن؟؟

إنه ابتلاء عظيم لأنه، إذا كان أكثر القرآن من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، فكيف ينسجم هذا الواقع المذهل مع عقيدة إعجاز القرآن؟؟

إنه ابتلاء عظيم لأن علم المتشابه للخاصة، «والراسخون في العلم يقولون: آمناً، كلٌّ من عند ربنا» ! بينما القرآن لعامة الناس من العرب والعجم: فكيف يخاطب الله عامة عباده خطاباً متشابهاً «لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العالم»؟؟

متشابه القرآن واقع قرآني مرير، أو مثار شبهات مؤلمة للمؤمن وغير المؤمن.

أجل متشابه القرآن ابتلاء دائم للعباد^٢. ومثله المنسوخ، وهو يقع في المحكم من القرآن.

(١) السيوطي: الإتيان ٢: ١٢ .

(٢) وهذا الابتلاء بمتشابه القرآن وحيرة المسلمين به عاصر الإسلام منذ نشأته: روى السيوطي أيضاً «أخرج الدارمي في مسنده أن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن . فأرسل إليه عمر - وقد أعد له عراجين النخل - فقال: من أنت! قال أنا عبد الله بن صبيغ . فأخذ عمر عرجوناً فضربه به حتى أدمى رأسه (وفي رواية عنده فضربه بالجريد حتى ترك ظهره دبرة) . ثم تركه حتى برأ . فدعا به ليعود ، فقال: إن كنت تريد قتلي ، فاقتلني قتلاً جميلاً . فأذن له إلى أرضه . وكتب إلى أبي موسى الأشعري «لا يجالسه أحد من المسلمين» . (الإتيان ٢: ٤) .

بحث سادس : في الناسخ والمنسوخ من القرآن

قال السيوطي في إتيقانه: ((إن النسخ مما خصَّ الله به هذه الأمة لحكم منها التيسير)) .

ونرى هذه الظاهرة الفريدة في القرآن والسنة وإجماع الأمة.

فما معنى النسخ المقصود؟

يرد النسخ بمعنى الإزالة ومنها قوله ((فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته)) (حج ٥٢) . فأحكام الآيات يأتي في القرآن أحياناً لتقويم المتشابه أو لإبانة تنزيل منسوخ: ويرد بمعنى التبديل ((وإذا بدلنا آية مكان آية، والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر!)) (نحل ١٠١) فهذا التبديل في أي القرآن كان عندهم مثار شبهات. ويرد بمعنى التحويل كتناسخ المواريث بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد، وهذا يدل على تطور في التشريع المنزل في القرآن: ((قال مكي: الناسخ أقسام: فرض نسخ فرضاً ولا يجوز العمل بالأول كنسخ الحبس للزواني بالحد؛ وفرض نسخ فرضاً، ويجوز العمل بالأول كآية المصاهرة؛ وفرض نسخ ندباً، كالقتال كان ندباً ثم صار فرضاً؛ وندب نسخ فرضاً كقيام الليل نسخ بالقراءة في قوله ((فاقروا ما تيسر من القرآن)) .

*

وللنسخ في القرآن تاريخ مذهل، انفرد به دون سائر الكتب المنزلة. فقد تم تطور الناسخ للمنسوخ وتصفية المنسوخ بالناسخ حتى بقي منه القليل في القرآن العثماني الحالي على ثلاثة مراحل: في زمن النبي، وفي زمن جمع القرآن، وفي القرآن العثماني الحجّاجي الحالي:

كان النبي يبذل مع جبريل في أي القرآن في مكة والمدينة. وقد أشارت آية النحل (١٠١) إلى هذا الواقع المتواصل في العهدين، وإلى ما كان له من شبهات ومآخذ عند المشركين والكتابين والمسلمين. وكانت الغاية من هذا التبديل أن ((يحكم الله آياته)) التي كانت قبلاً غير محكمة. وجاءت آية البقرة ((ما ننسخ من آية - أو ننسها - نأت بخير منها أو مثلها)) (١٠٦) فجعلت من الواقع مبدأ وقاعدة مضطردة. ونوّهت أن التبديل والنسخ قد يكونان ((بالنسيان)) بدون بدل أو ناسخ. أخرج الطبراني عن ابن عمر أن

(١) الإتيقان ٢ : ٢٠ .

(٢) وهذه الأنواع لناسخ القرآن مثار شبهات : كيف يصح العمل بفرض منسوخ ؟ وكيف يصح نسخ فرض بندب ؟ ..

(٣) روى الأرجاني في (فضائل القرآن) أن النبي كان يصلي : ((اللهم ارحمني بالقرآن، اللهم ذكّرني منه ما نسبت وعلمني ما جهلت)) (دروزة : القرآن المجيد ٧١) .

النبي أقرأ رجلين سورة، فكانا يقرآن بها؛ فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرأ منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله فذكرا له ذلك فقال ((إنها ممّا نسخ - أي رفع - فألهوا عنها)) . ويتخذ النسخ شكلاً رابعاً جذرياً برفع القرآن المنزل من أصله بدون نسيان أو نسخ أو تبديل ((مثل حديث مروى عن أبي موسى الأشعري جاء فيه ((نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت؛ ومثل حديث رواه البخاري، عن أنس أنه نزل في قصة أصحاب بدر معونة قرآن قرأناه ثم رفع)) .

وكان النسخ يقع على آيات أو مقاطع من سور أو على سور بكاملها كما نقلته الأخبار. وكان في آخر العهد النبوي يقع بالجملة كما ذكروا عمّا جرى في العرضة الأخيرة للقرآن قبل موت النبي: ((روى البخاري حديثاً عن فاطمة أن النبي أسرّ إليها بأن جبريل يعارضه بالقرآن كل سنة. وأنه عارضه في العام الذي توفي فيه مرتين وقال ولا أراه إلا حضر أجلي. وروى البخاري حديثاً آخر جاء فيه: كان القرآن يُعرض على النبي كل عام مرة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه^١ . وما الغاية من هذا العرض في كل عام؟ - إحكام القرآن: ((قال البغوي في شرح السنة: إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي بين فيها ما نسخ وما بقي، وكتبها لرسول الله وقرأها عليه. وكان يُقرئ الناس بها حتى مات. ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه وولاه عثمان كتابة المصاحف^٢ .

ويعد أن أسقط النبي من القرآن في العرضة الأخيرة قبل موته ما نسخ، فقد بقي منسوخ كثير تداوله القراء حتى تولى أمره عثمان بن عفان الخليفة الثالث. وكان علي بن أبي طالب قد جمع مصحفه حالاً بعد موت النبي: ((أخرج ابن سيرين حديثاً جاء فيه أن علياً لما مات النبي قال أليبت أن لا آخذ عليّ ردائي حتى أجمع القرآن. فجمعه. وأنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ^٣ . فجاء عثمان وحذف عند جمع القرآن كل ما استطاع إسقاطه من المنسوخ فلم يبق إلا ما أفلت من رقابته. قال أبو بكر الباقلائي: ((والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزل الله وأمر بإثباته ورسمه، ولم ينسخه ولم يرفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي بين الدفتين الذي حواه مصحف عثمان^٤ . وهذا الذي نسخ أو رفعت تلاوته أو أسقطه عثمان، ما هو؟ - ((روي عن ابن عمر: لا يقولن أحدكم أخذت القرآن كله،

(١) دروزة: القرآن المجيد ٩٠، قابل الإتقان ٢:٢٥٠ .

(٢) دروزة: القرآن المجيد ٦٩ .

(٣) دروزة: القرآن المجيد ٥٥ .

(٤) دروزة: القرآن المجيد ٧٣ .

وما يدرية ما كله: فقد ذهب منه قرآن كثير. ولكن ليقبل قد أخذتُ منه ما ظهر... وروى المسور بن مخرمة أن عبد الرحمن بن عوف قال: ألم نجد في ما أنزل علينا ((جاهدوا كما جاهدتم أول مرة)) فإننا لا نجدها. قال: أسقطت في ما أسقط من القرآن^١ . وعن حميدة بنت أبي يونس قالت ((قرأ علي أبي وهو ابن ثمانين سنة في مصحف عائشة (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً - وعلى الذين في الصفوف الأولى) قالت وهذه كانت قبل أن يغير عثمان المصاحف^٢ . وينقل السيوطي أمثالا على ما أسقطه عثمان: منها حديث عن عائشة قالت: ((كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي ص. مائتي آية - وإن كانت لتعدل سورة البقرة، وفيها آية الرجم - فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن^٣)) . ومنها حديث عن أبي موسى الأشعري قال: ((نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت^٤ !)) ومنها عنه أيضاً، قال: ((كنا نقرأ سورة نسبها بإحدى المسبحات نسيناها^٥)) وفي المستدرک عن حذيفة قال: ((ما قرأون ربعها - يعني براءة^٦)) .

وهكذا فقد أسقط عثمان من المصحف ((قرأناً كثيراً)) ؛ ومنه المنسوخ الذي كان قد جمعه علي في مصحفه علي ما نقلوا بالتواتر .

والقليل الباقي من المنسوخ - علي وفرته - هو ما اجتهد فيه المؤلفون ((وقد أفرده بالتصنيف خلأق لا يحصون)) .

*

ولكن هل يصح النسخ في كتاب الله المنزل؟ - ((قد أجمع المسلمون على جوازه. وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء كالذي يرى الرأي ثم يبدو له. وهو باطل لأنه بيان الحكم، وذلك لا يكون بداءً فكذا الأمر والنهي)) - لكل أجل كتاب: تلك سنة الله في خلقه؛ ويراعي الله الحكيم تطور البشرية في تنزيله ومن المعقول أن ينسخ في تشريعه من كتاب إلى كتاب. أما أن يقع النسخ في كتاب واحد، مع النبي ذاته، فهل يصح ذلك؟ ولكن هذا هو الواقع القرآني المدني في مدى عشر سنوات. وقد قال مكي ((لم يقع في المكي ناسخ^٥)) .

(١) دروزة: القرآن المجيد ٥٩، قابل الإتقان ٢ : ٢٥ .

(٢) إتقان ٢ : ٢٥ .

(٣) إتقان ٢ : ٢٥ .

(٤) قال السيوطي ((لا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي ، ولو بلفظ الخير ؛ أما الخبر الذي ليس بمعنى الطلب فلا يدخله النسخ ومنه الوعد والوعيد)) (إتقان ٢ : ٢١) .

(٥) الإتقان ٢ : ٢٤ .

وهناك مشكل آخر: « اختلف العلماء فقيل: لا ينسخ القرآن إلا بقرآن كقوله تعالى: « ما ننسخ من آية أو ننسها، نأت بخير منها أو مثلها » ؛ قالوا لا يكون مثل القرآن وخيراً منه إلا قرآن. وقيل بل يُنسخ القرآن بالسنة! » . وقد أجازوا ذلك وعملوا به. فهل يصح أن تنسخ سنة رسول كلام الله؟ وفاتهم أن نسخ شريعة القرآن بسنة الرسول - أو بإجماع الجماعة - خيانة لكلام الله وجناية عليه، وفيه إشعار بتقصير التنزيل أو بتقصير الأمة في حقه.

*

ولهم في أنواع النسخ نظرية غريبة تحاول تفسير واقع مرير قالوا:

« النسخ في القرآن على ثلاثة أضرب: أحدها ما نُسخ تلاوته وحكمه معاً. قالت عائشة كان في ما أنزل عشر رضعات معلومات فنسخت بخمس معلومات فتوفي رسول الله ص. وهنّ ممّا يقرأ من القرآن. رواه الشيخان. وقال الأشعري: نزلت ثم رُفعت. وقال مكي: هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو والناسخ أيضاً غير متلو، ولا أعلم له نظيراً » - فما الحكمة الإلهية في إنزاله ورفعها في مدة عشر سنوات؟؟

« والثاني ما نُسخ تلاوته دون حكمه مثل قوله: « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » ! فأية الرجم رفعت تلاوتها وبقي حكمها وسببه التخفيف على الأمة بعدم اشتهاه تلاوتها وكتابتها في المصحف وإن كان حكمها باقياً لأنه أثقل الأحكام وأغلظ الحدود وكانوا يتسافدون تسافد الحمراء. وقد أورد بعضهم سؤالاً وهو: « ما الحكمة في رفع التلاوة مع بقاء الحكم؟ وهلاً أبقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها؟ - أجابوا على ذلك أجوبة مختلفة والأصح أن ذلك كان للتخفيف والتستير! » .

« والثالث ما نُسخ حكمه دون تلاوته. وهذا الضرب هو الذي فيه الكتب المؤلفة في الناسخ والمنسوخ. وهو على الحقيقة قليل جداً وإن أكثر الناس من تعدد الآيات فيه » . - أمسى قليلاً بعد الذي أسقطه النبي والذي أسقطه عثمان. - « وما الحكمة في رفع الحكم وبقاء التلاوة؟ الجواب من وجهين: أحدهما إن القرآن كما يُتلى ليعرف الحكم منه والعمل به فيتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة؛ والثاني أن النسخ غالباً يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيراً للنعمة ورفع المشقة » .

(١) الإتيان ٢ : ٢٦ - ٢٧ .

(٢) الإتيان ٢ : ٢٤ .

(٣) الإتيان ٢ : ٢٢ - ٢٣ .

« وأما ما ورد في القرآن ناسخاً لما كان عليه في الجاهلية أو كان في شرع من قبلنا أو في أول الإسلام فهو أيضاً قليل العدد كنسخ استقبال بيت المقدس بآية القبلة، وصوم عاشوراء بصوم رمضان، وفي أشياء أخر^١ .

ولهم نوع من النسخ يسمّى « المنسوخ بالاستثناء » . وهو ليس بمنسوخ حصراً بل استثناءً، ألحقه في المنسوخ. وقد ذكر النحاس منه في كتابه (الناسخ والمنسوخ) ثلاثة وعشرين موضعاً^٢ .

ومن غريب الناسخ أن يرد أحياناً قبل المنسوخ . مثال ذلك في البقرة الآية ٢٣٤ « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً: يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » ناسخة للآية ٢٤٠ الواردة بعدها « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً: وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج » . ومثال ذلك في الأحزاب الآية ٥٠ « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك ... وما ملكت يمينك ... وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك، وامرأة مؤمنة ... » ناسخة للآية ٥٣ التي بعدها « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » . فتأمل!

وقد اختلفوا في عدد الآيات المنسوخة. فاقصر السيوطي « على عشرين آية لا مزيد لها » (الإتيان ٢ : ٢٢ - ٢٣) وبلغت عند النحاس وابن حزم مئتين ونيفاً. وسنذكرها بالتفصيل في فذلكات السور إن شاء الله .

والمنسوخ في القرآن، مثل المتشابه، مشكل في تاريخه وواقعه فيه المؤمن، وغير المؤمن. وهو أيضاً بلاء من الله عظيم، خصوصاً في انسجام واقع النسخ مع صحة التنزيل من اللوح المحفوظ حيث الناسخ والمنسوخ معاً حقيقة إلهية واحدة.

بحث سابع : أساليب نظم القرآن وفنونه

إن نظم القرآن ولا سيما في المفصل - وأكثره من العهد الأول بمكة - لفريدي حقاً: فهو نثر وليس كالنثر؛ وهو شعر وليس كالشعر؛ هو موزون وليس كأوزانهم، ومقفى وليس كمثل قوافيهم؛ إنه هو! إنه قرآن!

لذلك أجمعوا على أن ما يُسمّى « بإعجاز القرآن » هو في نظمه العجيب

(١) الإتيان ٢ : ٣٤ .

(٢) النحاس : الناسخ والمنسوخ ٢٦٨ ذكر منها ٤ في البقرة ، و ٣ في آل عمران و ٣ في النساء وواحد في المائدة والنحل ومريم والتوبة والنصر و ٣ في الفرقان والشعراء .

فهو مسجوع وليس كسجعهم؛ وهو موزون وليس كأوزانهم. فالأصل في المسجوع وحدة القافية دون التزام التوازن، والأصل في الموزون هو التوازن دون التزام وحدة القافية. وقد يكون المسجوع موزوناً. وفي القرآن نماذج لكل ذلك. وهناك سور حوت فصولاً متنوعة في الوزن والقافية.

إن السور المكية المسجعة أو الموزونة أو المقفاة خمس وستون سورة. منها أربع وخمسون قصيرة هي: الفاتحة والناس والفلق والإخلاص وتبت الكافرون والكوثر والماعون وقريش والفيل والهمزة والعصر والتكاثر والقارعة والزلزلة والعاديات والقدر والعلق والتين والإنشراح والضحي والليل والشمس والبلد والفجر والغاشية والأعلى والطارق والبروج والانشقاق والمطففون والانفطار والتكوير وعبس والنازعات والنبأ والمرسلات والإنسان والقيامة والمدثر والمزمل والجن ونوح والمعارج والحاقة والقلم والملك والواقعة والرحمن والقمر والنجم والطور والذاريات وق.

ومن السور المتوسطة المسجعة أو الموزونة: ص والصفافات ويس وفاطر والشعراء والفرقان وطه ومريم والكهف والإسراء والحجر.

والسور المكية غير الموزونة وغير المسجعة ست وعشرون، وهي: الأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وغافر والزمر وسبأ والسجدة ولقمان والروم والعنكبوت والقصص والنمل والمؤمنون والحج (في المكي منها) والأنبياء والنحل وإبراهيم والرعد (في المكي منها) ويوسف وهود ويونس والأعراف (متبعضة) والأنعام (متبعضة). من هذه السور، تسع ضاربة إلى القصر أكثر منها إلى التوسط وهي: الأحقاف والجاثية والدخان والزخرف والشورى وفصلت وسبأ والسجدة ولقمان. وبقيةها متوسط، وقريب من الطويل، وطويل. ومع أنها غير مسجعة وغير موزونة الآيات، كما قلنا، فإن خواتم آياتها مركزة، لا تخلو من رنة موزونة في أواخر آياتها بقطع النظر عن التقفية والوزن والروي. وهذا ما يسمّى في فنون الأدب « المرسل » الذي لا يتقيد بقافية ولا وزن؛ وأكثر آيات القرآن من هذا النوع، وهو أسلوب أكثر السور الطويلة والمتوسطة. ويتضاءل الوزن في النظم في السور المكية الأخيرة.

وهناك بعض سور مسجعة مقاطع أو سلاسل، ذات قوافٍ متعدّدة. وهناك سور فيها سلاسل مسجعة بقوافٍ واحدة أو متعددة؛ وسلاسل موزونة الآيات بغير قافية واحدة. بل هناك موالاته بين هذا وذاك في سلسلة واحدة أيضاً؛ وهذا التنوع في التسلسل

قد يؤلف وحدة بيانية؛ وقد يكون دليلاً على تعدد السور الواحدة، أو بقايا سور سقطت وبقيت منها هذه المقاطع.

وهذا النوع من حلقات التسجيع يسميه الأجنب: strophe . يذكرون من ذلك سبع عشرة سورة منها المدثر والمرسلات والفجر، وخصوصاً الواقعة والشعراء والنبأ. ولاحظ المستشرق نلدكه قلة مطابقتها للسلاسل الموزونة، المتوازية بعدد أجزائها حتى تكون من ذلك النوع تماماً.

وهناك بعض السور التي تمتاز بأية تتردد في آخر كل سلسلة، مما يضيف عليها روعة كبرى وتأثيراً عميقاً يزيدان في وحدة نظمها، مثل قوله في سورة الشعراء ((إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم بمؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم)) (٨، ٦٨، ١٠٣)، كذلك القمر والرحمن.

وهكذا فقد بدأ القرآن بالسجع الموزون المقفى وانتهى بالكلام المرسل. وتنقل الأخبار في صدد السجع أنه كان في الغالب كلام الكهّان والعرفان والهواتف في الأحلام. ولكن الصورة الصادقة الصحيحة للسجع ومقطعاته وفنونه فإنما هي في القرآن. ولذلك اتهم المشركون محمداً بأنه ((كاهن)) (طور ٢٩، الحاقة ٤٢) بسبب ما كان يتلوه من الآيات والسور المسجعة مثل القمر والرحمن والإنسان.

واتهموه أيضاً بالجنون ((وقالوا: يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون)) (حجر ٦) لاعتقادهم بوجود صلة بين الشاعر من جهة، والجنّ الذين يوحون إليه الشعر من الجهة الأخرى، وهو أعلى أنواع الكلام عندهم، وقد لا يتأتى للشاعر من دون وحى: ((وقالوا: أنتنا تاركو آلهتنا لشاعر مجنون!)) (صافات ٢٦).

ولكن هل في القرآن شعر حتى يتهمونه بالشعر؟ ((بل هو شاعر)) (أنبياء ٥) ((أم يقولون: شاعر نتربص به ريب المنون (طور ٣٠) - كلاً ليس القرآن شعراً منظوماً يتفق مع أنماط الشعر العربي الموزون المقفى الذي أساسه البيت المؤلف من شطرين متوازيين. ولكن إذا نفذنا من الظواهر إلى البواطن، أليس في أوصاف القرآن للطبيعة وأحوال اليوم الآخر، وأحوال النعيم والجحيم، أروع الشعر؟)) فإنه إذا لم يكن في القرآن كلام موزون ومقفى يصح أن يُطلق عليه اسم الشعر كما عرفه علماء العروض، ففيه كثير من الآيات بل السور ما جاء بأسلوب مسجع أو أسلوب مقفى بل فيه ما يكاد يكون موزوناً ومقفى بعض الشيء. وفيه ما يشبه الرجز)) .

وإنما ثار القرآن على وصفه بالشعر ليس لنظمه الشعري، بل لما في وصفهم من صلة بوحى الجن أو الشياطين (صافات ٣٦). ولذلك كان يجيب: « وما هو بقول شاعر! » (الحاقة ٤١) « وما علمناه الشعر، وما ينبغى له! إن هو إلا نكر وقرآن مبين » (يس ٦٩)؛ ولما كان للشعراء من أثر سيئ في « أيام » الجاهلية، فوصمهم بقوله « والشعراء يتبعهم الغاؤون! ألم تر أنهم في كل واد يهيمون؟ » (الشعراء ٢٢٤).

فالقرآن أكثره مرسل. ولكن فيه سجع وفيه شعر من الرائع البديع. وإنما يرفض القرآن هذين الوصفين ليحفظ له وحيه الإلهي: « إنه لقول رسول كريم! وما هو بقول شاعر! قليلاً ما تؤمنون. ولا بقول كاهن! قليلاً ما تذكرون. تنزيل من رب العالمين » (الحاقة ٤٠-٤٣).

ولا نذكر فيه فنون القصة، والأمثال، والجدل، والأقسام لأننا سنفرد لها بحثاً في مواضعها.

*

والظاهرة الكبرى في القرآن هي فواصله المميزة لنظمه^١.

والفاصلة كلمة آخر الآية كقافية وقرينة السجع. وقد أخذوا تسمية « الفاصلة » من قوله « كتاب فصلت آياته » .

١- والأصل في الفاصلة، والقرينة المتجردة في الآية والسجعة: المساواة. « وأنت ترى فواصل القرآن متفاوتة: بعضها متداني المقاطع، وبعضها يمتد حتى يتضاعف طوله عليه. وترد الفاصلة في ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير؛ وهذا في السجع غير مرضي ولا محمود ... فبان بذلك أن الحروف الواقعة في الفواصل متناسبة موقع النظائر التي تقع في الأسجاع، لا تخرجها عن حدها، ولا تدخلها من باب السجع. وأنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء. فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها أربع كلمات، ولا يرون ذلك فصاحة بل يرونه عجزاً.

وقال الخفاجي في (سر الفصاحة): « وأظن الذي دعاهم إلى تسمية جمل ما في القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً، رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم. فإن قيل إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلاً ورد القرآن كله مسجوعاً؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع؟

(١) الإتيان ٢ : ٩٦ - ١٠٥ .

- قال وكيف يُعاب السجع على الإطلاق؟ وإنما نزل القرآن على أساليب الفصيح من كلام العرب: فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع في كلامهم. وإنما لم يجئ على أسلوب واحد لأنه لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون مستمراً على نمط واحد لما فيه من التكلف ولما في الطبع من الملل، ولأن الافتتان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد: فلهذا وردت بعض آي القرآن متماتلة المقاطع، وغيرها غير متماتلة).

ونتج من ذلك مشكل في تعديد أي القرآن. قال السيوطي في موضع آخر^١: «تعدد الآي من معضلات القرآن. وفي آياته طويل وقصير؛ ومنه ما ينقطع ومنه ما ينتهي إلى تمام الكلام. ومنه ما يكون في أثناؤه...»؛ وقال الموصلي: «سور القرآن على ثلاثة أقسام: قسم لم يُخْتَلَف فيه لا في إجمال ولا في تفصيل وهو أربعون سورة؛ وقسم اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً وهو أربع سور؛ وقسم اختلف فيه إجمالاً وتفصيلاً وهو سبعون سورة».

٢- قسم البديعيون السجع، ومثله الفواصل، إلى أقسام: المرصع والمتماتل والمتوازي والمتطرف. فالمرصع أن يتفقا وزناً وتقفية، ويكون في الأولى مقابلاً لما في الثانية نحو «إن إلبنا إلبهم ثم أن علينا حسابهم»، «وإن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم». والمتماتل أن يتساويا في الوزن دون التقفية وتكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية، فهو بالنسبة إلى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازي نحو «وأتيناها الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم» يتوازيان نظماً ويختلفان في الحرف الأخير. والمتوازي أن يتفقا وزناً وتقفية، ولا يكون ما في الأولى مقابلاً لما في الثانية في الوزن والتقفية نحو «سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة». والمتوازن أن يتفقا في الوزن دون التقفية نحو «ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة». والمتطرف أن تختلف الفاصلتان في الوزن وتتفقا في حروف السجع نحو «ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً^٢».

ويلحق بها نوعان بديعيان متعلقان بالفواصل: التشريع وتكون الآية فيه مبنية على سجعيتين أو فاصلتين فلو اقتصر على الأولى كان الكلام تاماً مفيداً وإن ألحقت الثانية زادت مبنية ومعنى، مثال ذلك في سورة الرحمن وآيات كثيرة غيرها. والاستلزام أو لزوم ما لا يلزم ويلتزم في الفاصلة حرفاً أو حرفين أو ثلاثة قبل الروي نحو «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» باللتزام الهاء قبل الراء؛ ونحو «والطور وكتاب مسطور»

(١) الإتيان ١: ٦٨ - ٦٩

(٢) الإتيان ٢: ١٠٤ - ١٠٥.

بالتزام الطاء والواو؛ ونحو « تذكروا فإذا هم يبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون » بالتزام الصاد والراء والواو قبل روي النون.

وإذا قارنا فواصل القرآن بقرائن السجع ظهر لنا أن أحسنها ما تساوت فواصله وقرائنه، ويليه ما طالت قرينته الثانية أو الثالثة؛ وقال ابن الأثير الأحسن في الثانية المساواة وإلا فأطول قليلاً، وفي الثالثة أن تكون أطول! وما شذ عن ذلك فليس بالحسن. وأن أحسنها ما كان قصيراً لدلالته على قوة المنشئ وأقله كلمتان نحو « يا أيها المدثر قم فانذر ... والمرسلات عرفاً ... والذاريات ذرواً ... والعاديات ضبحاً » ، والطويل ما زاد على العشر كغالب الآيات، وما بينهما متوسط مثل سورة القمر. ولا تحسن المحافظة على الفواصل إلا بالمحافظة على المعاني، فأمّا أن تهمل المعاني في سبيل تحسين اللفظ فليس من قبيل البلاغة. ورعاية التشابه في الفواصل لازمة، وحروف الفواصل إمّا متماثلة وإمّا متقاربة وواصل القرآن لا تخرج عن هذين القسمين بل تنحصر في المتماثلة والمتقاربة.

ولاحظوا في فواصل القرآن أنها مبنية على الوقف ولهذا سوّغوا فيها مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس كما في سورة القمر. وسوّغوا زيادة حروف على الكلم مراعاة للفاصلة وقد كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين، وإلحاق النون للتطريب كما قال سيبويه « إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتكون ذلك إذا لم يترنموا، ولاحظوا كذلك أنه كثر في فواصل القرآن التضمين أي أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقاً بها كقوله « وانكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل » ، والإيطاء وهو تكرر الفاصلة بلفظه كقوله في ختام آيتي الإسراء « هل كنت إلا بشراً رسولاً » ؛ وهما ليسا بعييين في النثر وإن كانا معيين في النظم » .

٣- وللفاصلة أنواع من البديع: قال ابن أبي الأصبع « لا تخرج فواصل القرآن عن أحد أربعة أشياء: التمكين والتصدير والتوشيح والإيغال » . فالتمكين، أو انتلاف القافية، أن يمهد لها في الكلام تمهيداً بحيث لو سكّبت عنها كملها السامع بطبعه مثال ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال « أملى علي رسول الله ص. (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الخ وسكت فقال معاذ بن جبله (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال رسول الله ضاحكاً: بها ختمت. ولذلك أيضاً حكى أن إعرابياً سمع قارئاً يقرأ (فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات، فاعلموا أن الله غفور رحيم) ولم يكن يقرأ القرآن فقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا؛ فالحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل لأنه إغراء

عليه^١ . والتصدير أن تكون تلك اللفظة بعينها تقدمت في أول الآية، وتسمى أيضاً رد العجز على الصدر وذلك أن توافق آخر الفاصلة آخر كلمة في الصدر، أو أول كلمة منه أو بعض كلماته نحو « أنزله بعلمه، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً » . والتوشيح أن يكون في أول الكلام ما يستلزم القافية نحو « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مُظلمون » أي داخلون في الظلمة، ومن انسلخ عن النهار دخل في ظلام الليل فدل أول الكلام على آخره. والايغال وهو نوع من الأطناب وهو الامعان في الكلام وختمه بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها نحو « يا قوم اتبعوا المرسلين! اتبعوا من لا يسألكم أجراً - وهم مهتدون » فالكلمة الأخيرة إيغال في الكلام يتم بدونها.

٤- ومن « إعجاز » القرآن في فواصله مراعاته للمناسبة في أمور مخالفة للأصول امتاز بها.

ونحن ننقل ما أوجزه السيوطي عن كتاب (إحكام الرأي في أحكام الآي^٢) قال: « اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يُرتكب لها أمور من مخالفة الأصول. وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً:

(١) تقديم المعمول إما على العامل نحو « أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » ، قيل: ومنه « إياك نستعين؛ أو على معمول آخر أصله التقديم نحو « لنريك من آياتنا الكبرى » ومنه تقديم خبر كان نحو « لم يكن له كفوءاً أحد » .

(٢) تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو « فله الآخرة والأولى » ولولا مراعاة الفواصل لقدم الأولى كقوله « له الحمد في الأولى والآخرة » .

(٣) تقديم الفاضل على الأفضل نحو « برب هارون وموسى » مراعاة للفاصلة.

(٤) تقديم الضمير على ما يفسره نحو « فأوجس في نفسه خيفة موسى » والأصل تقديم الفاعل موسى.

(٥) تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة نحو « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » .

(٦) حذف ياء المنقوص المعرف مراعاةً للفاصلة نحو « الكبير المثال ... يوم التناد ».

(٧) حذف ياء الفعل غير المجزوم مراعاةً للفاصلة نحو « والليل إذا يسر » .

(٨) حذف ياء الإضافة نحو « فكيف كان عذابي ونذر ... فكيف كان عقابي » .

(١) الإتيان ٢ : ١٠١ .

(٢) الإتيان ٢ : ٩٩ .

٩) زيادة حرف المد نحو ((الظنوننا ... الرسولا ... السبيلا)) ؛ ومنه إبقاؤه مع الجازم نحو ((لا تخاف دركاً ولا تخشى استقرئك فلا تنسى)) !

١٠) صرف ما لا ينصرف نحو ((قواريرا قواريرا)) .

١١) إيثار تذكير اسم الجنس كقوله ((أعجاز نخل منقعر)) .

١٢) إيثار تأنيثه نحو ((اعجاز نخل خاوية)) . ونظير هذين قوله في القمر ((وكل صغير وكبير مستطر)) وفي الكهف ((لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها)) .

١٣) الاقتصاد على أحد الوجهين الجائزين اللذين قرئ بهما في السبع، في غير ذلك كقوله ((فأولئك تحروا رشداً)) ولم يجيء ((رشداً)) في السبع! وكذا ((وهي لنا من أمرنا رشداً)) لأن الفواصل في السورتين بحركة الوسط. ونظير ذلك ((تبّت يدا أبي لهب)) بفتح الهاء وسكونها ولم يقرأ بالفتح إلا لمراعاة الفاصلة.

١٤) إيراد الجملة التي ردّ بها ما قبلها على غير وجه المطابقة في الاسمية والفعلية كقوله: ((ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين)) والأصل ولم يؤمنوا أو وما آمنوا.

١٥) إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر كذلك نحو ((وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)) ولم يقل الذين كذبوا، مراعاة للفاصلة.

١٦) إيراد أحد جزئي الجملتين على غير الوجه الذي أورد نظيرها من الجملة الأخرى نحو ((أولئك الذين صدقوا، وأولئك هم المتقون)) والأصل ((وأولئك الذين اتقوا)) .

١٧) إيثار أغرب اللفظين نحو ((قسمة ضيزى)) بدل جائزة، ونحو ((لينبذن في الحطمة)) أي جهنم أو النار. وقال في المدثر ((سأصليه سقر)) وفي سأل ((أنها لظى)) وفي القارعة ((فأمه هاوية)) لمراعاة الفاصلة.

١٨) اختصاص كل من المشركين بموضع نحو ((وليذكر أولو الألباب)) وفي طه ((إن في ذلك لآيات لأولي النهى)) مراعاة للفواصل.

١٩) حذف المفعول نحو ((فأماً من أعطى واتقى)) أو ((ما ودّعك ربك وما قلى)) لمراعاة الفواصل. ومنه حذف متعلق أفضل التفضيل نحو ((يعلم السر وأخفى)) أو ((والآخرة خير وأبقى)) .

٢٠) الاستغناء بالافراد عن التثنية نحو ((فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى)) لمراعاة الفاصلة.

٢١) الاستغناء بالافراد عن الجمع نحو ((واجعلنا للمتقين إماما)) كما قال ((وجعلناهم أئمة يهدون)) ونحو ((ان المتقين في جنات ونهر)) أي أنهار، وقد أفردتها مراعاة للفاصلة.

- (٢٢) الاستغناء بالثنية عن الافراد نحو ((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) ، قال الفراء: أراد جنة كقوله ((فإن الجنة هي المأوى)) فثنى لأجل الفاصلة.
- (٢٣) الاستغناء بالثنية عن الجمع: في المثل السابق أراد ((جنات)) فأطلق الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة، ثم عاد الضمير بعد ذلك بصيغة التثنية مراعاة للفظ.
- (٢٤) الاستغناء بالجمع عن الافراد نحو ((لا بيع فيه ولا خلال)) أي ((ولا خلة)) كما في الآية الأخرى وجمع مراعاة للفاصلة.
- (٢٥) إجراء غير العاقل مجرى العاقل نحو ((رأيتهم لي ساجدين)) أو ((كل في فلك يسبحون)) مراعاة للفاصلة.
- (٢٦) إمالة مالا يمال كأي طه والنجم، مراعاة للفاصلة أيضاً.
- (٢٧) الاتيان بصيغة المبالغة مراعاة للفاصلة مثل ((قدير وعليم)) مع ترك ذلك في غيرها.
- (٢٨) إثارة بعض أوصاف المبالغة على بعض نحو ((ان هذا شيء عجاب)) أوثر على عجيب مراعاة للفاصلة.
- (٢٩) الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه مراعاة للفاصلة نحو ((ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً، وأجل مسمى)) .
- (٣٠) إيقاع الظاهر موقع المضمرة نحو ((والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة: إنا لا نضيع أجر المصلحين)) .
- (٣١) وقوع مفعول موقع فاعل كقوله ((حجاباً مستوراً)) أي ساتراً؛ ((وكان وعدة مأتياً أي آتياً، وذلك مراعاة للفاصلة)) .
- (٣٢) وقوع فاعل موقع مفعول نحو ((عيشة راضية)) بدل مرضية، ونحو ((ماء دافق)) بدل مدفوق مراعاة للفاصلة.
- (٣٣) الفصل بين الموصوف والصفة نحو ((أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى)) وهو صفة حال من المرعى.
- (٣٤) إيقاع حرف مكان غيره مراعاة للفاصلة نحو ((بأن ربك أوحى لها)) والأصل إليها.
- (٣٥) تأخير الوصف غير الأبلغ عن الأبلغ، ومنه ((الرحمان الرحيم)) أو ((رؤوف رحيم)) لأن الرأفة أبلغ من الرحمة.
- (٣٦) حذف الفاعل ونيابة المفعول نحو ((وما لأحد عنده من نعمة تجزى)) والأصل ((تجزى عليها)) .

(٣٧) إثبات هاء السكت مراعاة للفاصلة نحو ((فأمه هاوية، وما أدراك ما هيئه، نار حامية)) (قارعة ١٠).

(٣٨) الجمع بين المجزورات نحو ((ثم لا تجد لك به علينا تبيعا)) فإن الأحسن الفصل بينها، إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير تبيعا.

(٣٩) العدول عن صيغة الماضي إلى صيغة الاستقبال نحو ((فريفاً كذبتهم وفريفاً تقتلون)) والأصل قتلتم فعدل عن الأصل مراعاة للفاصلة.

(٤٠) تغيير بنية الكلمة مراعاة للفاصلة نحو ((طور سينين)) والأصل سيناء، ((وسلام على الياسين)) والأصل الياس.

وختم جامعها بقوله: لا يمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم، كما جاء في الأثر، لا تنقضي عجائبه^١.

*

ومن ((أحسن الحديث)) براعة الاستهلال.

وقد نقل السيوطي^٢ فصلاً (في أسرار فواتح القرآن) عن ابن أبي الاصبع نوحه معه.

((اعلم أن الله تعالى افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها.

(١) **الثناء** عليه تعالى. والثناء قسمان: إثبات صفات المدح، وتنزيه من صفات النقص. فالأولى التحميد في خمس سور (الفاتحة، الأنعام، سبأ، الكهف، فاطر) وتبارك في سورتين (الملك، الفرقان) والثاني التسبيح في سبع سور في جميع الصيغ: من مصدر (إسراء) وماضٍ (الحديد، الحشر) ومضارع (الجمعة، التغابن) وأمر (الأعلى).

(٢) **حروف التهجي** بأسرارها المبهمة في تسع وعشرين وسورة. وقد مضى الكلام عليها.

(٣) **النداء** في عشر سور: في خمس بندا الرسول (الأحزاب، الطلاق، التحريم، المزمل، المدثر) وفي خمس بندا الأمة (النساء، المائدة، الحج، الحجرات، الممتحنة).

(١) وعلق على ذلك بقوله: ((من مشكلات الفواصل قوله تعالى: ((إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)) فإن قوله (وإن تغفر لهم) يقتضي أن تكون الفاصلة (الغفور الرحيم) وكذا نقلت عن مصحف أبي وبها قرأ ابن شنبود . (الإتيان ٢ : ١٠٣).

(٢) الإتيان ٢ : ١٠٥ .

٤) **الجمل الخبرية في ثلاث وعشرين سورة:** يسألونك عن الأنفال، براءة من الله، أتى أمر الله، اقترب للناس حسابهم، قد أفلح المؤمنون، سورة أنزلناها، تنزيل الكتاب، هذين كفروا، إننا فتحنا، اقتربت الساعة، الرحمان أنزل القرآن، قد سمع الله، الحاقة، سأل سائل، إننا أرسلنا نوحاً، لا أقسم (في موضعين) عَبَسَ ، إننا أنزلناه، لم يكن، القارعة، ألهاكم، إننا أعطيناك.

٥) **القسم في خمس عشرة سورة:** أقسم فيها بالملائكة (والصفات) والأفلاك (والبروج والطارق) ولوازمها (والنجم، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والعصر) والهواء (والذاريات، والمرسلات) والتربة (والطور) والنبات (والتين) والحيوان الناطق (والنازعات) والبهيم (والعاديات).

٦) **الشرط للتنبيه أو التذكير في سبع سور:** الواقعة، المنافقون، التكويد، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة، النصر.

٧) **الأمر في ست سور:** قل أوحى، اقرأ، قل يا أيها الكافرون، قل هو الله أحد، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس.

٨) **الاستفهام في ست سور:** هل أتى، عمّ يتساءلون، هل أتاك، ألم نشرح، ألم تر، أرايت؟

٩) **الدعاء في ثلاث سور:** ويل للمطففين! ويل لكل همزة! تبّت يد أبي لهب!

١٠) **التعليق في سورة:** لإيلاف قريش.

*

ونلاحظ أيضاً من فواتح السور المكية التطور المتواصل في أساليب النظم القرآني وفي أطوار الدعوة النبوية. وفيها يعلن منذ مطلع السور صلة القرآن بالكتاب: بدأ فجعل القرآن قراءةً للكتاب بالعربية إلى العرب (الأعلى ١٨ طه ١٣٥ الشعراء ١٩٢ زخرف ٢). ثم يصير القرآن نسخة عن الكتاب للعرب: « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (نمل، حجر). وهذه النسخة العربية للكتاب تصدق الكتاب الإمام وتفصله للعرب (يونس ٣٧ أحقاف ١٢ هود ١٧). أخيراً في فترة تردّد تمتزج فيها الأساليب والطرائق، يتطور فيصير تنزيلاً مستقلاً في وحدة جوهرية مع أهل الكتاب، فهو « آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » (عنكبوت ٤٦- ٤٧).

أولاً) طريقة الأقسام القومية :

- | | |
|---------------|---|
| ١ - العلق | : اقرأ! باسم ربك الذي خلق! |
| ٢ - ن والقلم | : ن والقلم وما يسطرون! |
| ٣ - المزمّل | : يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً! |
| ٤ - المدثر | : يا أيها المدثر، قم فأنذر! |
| ٥ - الفاتحة | : الحمد لله رب العالمين. |
| ٦ - المسد | : تبتّ يدا أبي لهب! |
| ٧ - التكوير | : إذا الشمس كورت ... فلا! أقسم بالخنس الجوار الكنس. |
| ٨ - الأعلى | : سبح اسم ربك الأعلى ... ان هذا لفي الصحف الأولى. |
| ٩ - الليل | : والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلّى. |
| ١٠ - الفجر | : والفجر! وليالٍ عشر! والشّفع والوتر! والليل إذا يسر! |
| ١١ - الضحى | : والضحى، والليل إذا سجى! |
| ١٢ - الشرح | : ألم نشرح لك صدرك ... فإذا فرغت فانصب. |
| ١٣ - العصر | : والعصر: إن الإنسان لفي خسر! |
| ١٤ - العاديات | : والعاديات ضبّحاً! |
| ١٥ - الكوثر | : إنا أعطيناك الكوثر! |
| ١٦ - التكاثر | : ألهاكم التكاثر ... كلاً ... ثم كلاً! |
| ١٧ - الماعون | : أرايت الذي يكذب بالدين ... فويل للمصلين! |
| ١٨ - الكافرون | : قل يا أيها الكافرون! |
| ١٩ - الفيل | : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل! |
| ٢٠ - الفلق | : قل أعوذ برب الفلق! |
| ٢١ - الناس | : قل أعوذ برب الناس! |
| ٢٢ - الإخلاص | : قل هو الله أحد. |
| ٢٣ - النجم | : والنجم إذا هوى! |
| ٢٤ - عبس | : عبس وتولى إن جاءه الأعمى. |
| ٢٥ - القدر | : إنا أنزلناه في ليلة القدر. |

٢٦ - الشمس	: والشمس وضحاها !
٢٧ - البروج	: والسماء ذات البروج، واليوم الموعود وشاهد ومشهود.
٢٨ - التين	: والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين.
٢٩ - قريش	: لإيلاف قريش: فليعبدوا رب هذا البيت.
٣٠ - القارعة	: ما القارعة؟
٣١ - القيامة	: لا! أقسم بيوم القيامة؛ ولا أقسم بالنفس اللوامة!
٣٢ - الهمزة	: ويل لكل همزة لمزة!
٣٣ - المرسلات	: والمرسلات عرفاً!

ثانياً) يستفتح بذكر القرآن ويقسم به:

٣٤ - ق والقرآن:	والقرآن المجيد ... (من خشى الرحمن ٣٣).
٣٥ - البلد	: لا! أقسم بهذا البلد! ووالد وما ولد!
٣٦ - الطارق	: والسماء والطارق! .. والسماء ذات الرجع!
٣٧ - القمر	: اقتربت الساعة وانشق القمر!
٣٨ - ص داود	: ص والقرآن ذي الذكر!
٣٩ - الأعراف	: كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه.
٤٠ - الجن	: قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن.
٤١ - يس	: والقرآن الحكيم!
٤٢ - الفرقان	: تبارك الذي نزل الفرقان على عبده.
٤٣ - فاطر	: (الملائكة) الحمد لله فاطر السماوات والأرض.
٤٤ - كهيعص مريم	: ذكر رحمت ربك عبده زكريا ... واذكر الكتاب ...
٤٥ - طه	: ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى.
٤٦ - الواقعة	: إذا وقعت الواقعة.

ثالثاً) يؤكد صلة القرآن بالكتاب ويقسم بهما:

٤٧ - الشعراء	: تلك آيات الكتاب المبين.
٤٨ - النمل	: تلك آيات الكتاب قرآن مبين.
٤٩ - القصص	: تلك آيات الكتاب المبين.

٥٠ - الإسراء	: سبحان الذي أسرى بعبده.
٥١ - يونس	: تلك آيات الكتاب الحكيم.
٥٢ - هود	: كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن خبير حكيم.
٥٣ - يوسف	: تلك آيات الكتاب المبين: إنا أنزلناه قرآناً عربياً.
٥٤ - الحجر	: تلك آيات الكتاب وقرآن مبين.
٥٥ - الأنعام	: الحمد لله خلق السماوات والأرض.
٥٦ - الصافات	: والصافات صفاً!
٥٧ - لقمان	: تلك آيات الكتاب الحكيم.

رابعاً) يستفتح بذكر تنزيل الكتاب على محمد:

٥٨ - سبأ	: الحمد لله الذي له ما في السماوات ... لا تأتينا الساعة ...
٥٩ - الزمر	: تنزيل الكتاب من العزيز الحكيم.
٦٠ - المؤمن	: (غافر) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم.
٦١ - فصلت	: تنزيل من الرحمان الرحيم: كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً.
٦٢ - الشورى	: كذلك يوحي إليك - وإلى الذين من قبلك - الله العزيز الحكيم.
٦٣ - الزخرف	: والكتاب المبين : إنا جعلناه قرآناً عربياً!
٦٤ - الدخان	: والكتاب المبين : إنا أنزلناه في ليلة مباركة!
٦٥ - الجاثية	: تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.
٦٦ - الأحقاف	: تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

خامساً) متفرقات من جميع الأساليب والطرق:

٦٧ - الذاريات	: والذاريات ذوراً!
٦٨ - الغاشية	: هل أتاك حديث الغاشية؟
٦٩ - الكهف	: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب.
٧٠ - النحل	: أتى أمر الله فلا تستعجلوه.
٧١ - نوح	: إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه.
٧٢ - إبراهيم	: كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات.
٧٣ - الأنبياء	: اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة.

٧٤ - مؤمنون	: قد أفلح المؤمنون.
٧٥ - السجدة	: تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.
٧٦ - الطور	: والطور وكتاب مسطور!
٧٧ - المُلْك	: تبارك الذي بيده الملك!
٧٨ - الحاقة	: الحاقة! ما الحاقة؟
٧٩ - المعارج	: سأل سائل.
٨٠ - النبأ	: عمّ يتساءلون؟ عن النبأ العظيم!
٨١ - النازعات	: والنازعات غرقاً!
٨٢ - الانفطار	: إذا السماء انفطرت!
٨٣ - الانشقاق	: إذا السماء انشقت!
٨٤ - الروم	: غلبت الروم في أدنى الأرض.
٨٥ - العنكبوت	: أحسب الناس أن يتركوا ...
٨٦ - المطففين	: ويل للمطففين!
٨٧ - الإنسان	: هل أتى على الإنسان حين من الدهر؟
٨٨ - الرحمن	: الرحمن علم القرآن:
٨٩ - الزلزلة	: إذا زلزلت الأرض زلزالها!
٩٠ - الرعد	: تلك آيات الكتاب.

فهذا الجدول في فواتح السور يظهر لنا تطور أساليب القرآن المكي إلى خمس طرائق، يسيطر عليها ثلاث ظواهر من النظم: في الفترة الأولى الاستفتاح بالأقسام القومية الغربية؛ وفي الثانية القصص القرآني، الكتابي التلمودي؛ وفي الثالثة الأمثال القرآنية. يضاف إلى هذه الظواهر الثلاث، حادثتان: الهجرة الجماعية إلى الحبشة ثم الهجرة الشخصية إلى الطائف. وهما تقسمان القرآن المكي إلى ثلاث عهود، تتطور فيها الدعوة القرآنية إلى ثلاثة مواضيع: في العهد الأول الدعوة للإيمان باليوم الآخر؛ وفي الثاني الدعوة للتوحيد الخالص، وفي الثالث الدعوة لله واليوم الآخر معاً.

وهذه الأساليب الثلاثة التي تميّز العهود المكية الثلاثة: طريقة الأقسام، وطريقة

(١) وهي أقسام دراجة في البيئة الحجازية، من بقايا الوثنية العربية الفلكية، ضاع معناها الديني، وبقي مبناهما اللغوي في التخاطب والبلاغة.

القصص، وطريقة الأمثال، وجدها محمد قبله في بيئته، في سجع الكهان، وفي قصص السمر وأيام العرب وفي أمثال الحكماء العرب^١، ولذلك لما سمعوا قالوا: ((سحر يؤثر))، ((أساطير الأولين)) .

ليس الجديد في تلك الأساليب، بل الجديد في روح القرآن، تلك الروح الدينية العارمة؛ وفي صوفية القرآن القائمة على الصراع الروحي بين الإيمان والكفر؛ وفي دعوة القرآن إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وذلك الموضوع الذي يشبعه القرآن تحليلاً وتمثيلاً، ممّا لم يكن يخطر على بال من سجّعوا قبله وقصّوا ومثّلوا.

أجل وجد القرآن أساليبه الثلاثة المتميزة عند العرب قبله؛ ولكنه نفعها بروح التوحيد الكتابي.

فالسور من ١ - ٣٢ هي من العهد المكي الأول؛ تُضاف إليها ٣٣ - ٤٤ وهي فترة انتقال ينتهي العهد معها بسورة مريم: ذروة التأثير المسيحي في القرآن المكي. فالدعوة لليوم الآخر ليست توراتية أو نبوية كتابية، إنما هي دعوة إنجيلية مسيحية رهبانية. لذلك نسمّي هذا العهد الأول ((العهد القرآني المسيحي)) وسورة كلها من المفصل، سوى الأعراف وهي مجموعة متفرقات: اكتفى المشركون فيها بالطعن بالدعوة وصاحبها.

والسور من ٤٥ - ٥٦ ثم من ٥٧ - ٦٦ هي من العهد الثاني المكي، والدعوة فيه إلى التوحيد الخالص. ويغلب عليه التأثير الإسرائيلي كما يدل عليه الانتساب إلى كتاب موسى الإمام (أحقاف ١٢) والاستشهاد المتواصل بعلماء بني إسرائيل ((الذين فضلهم الله على العالمين)) . لذلك نسميه ((العهد القرآني الإسرائيلي)) . تتدرّج فيه السور من القصر إلى الطول في ((المئين والمثاني)) . وهدفها ترغيب وترهيب بالقصص القرآني الكتابي، مع دفع شبهات المشركين، والرد المتواصل على طلبهم من النبي معجزة مثل الأنبياء الأولين: يرد أولاً ودائماً بشهادة أهل الكتاب له، وأخيراً بالتحدي بالقرآن (إسرائ، يونس، هود) .

والسور من ٦٧ - ٩٠ من العهد الثالث المكي، مجموعة من كل الأساليب، في سبيل الدعوة للإيمان بالله واليوم الآخر معاً. ونلاحظ أن بعض سور المفصل فيها، ما هي إلا مجموعات مختلفة نظماً وروياً وليست سوى بقايا من العهد الأول جُمعت في وحدات

(١) وقد حفظ لنا القالي في كتاب الأمالي ، والجاحظ في كتاب الحيوان أمثلة من ذلك عن الأقدمين cf: Encl. d

I' Islam I : 410 n. 2

(٢) تقضيل بني إسرائيل على العالمين فكرة توراتية ينص عليها مراراً سفر تثنية الاثتراع.

اصطناعية لآيات فيها من العهد الأخير. وكلها توحى بأن العهد الأخير بمكة، ما بين الهجرة إلى الطائف حيث رده يهودها رداً غير جميل، والهجرة الكبرى إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى ومعاهدة العقبة الثانية على «قطع الحبال مع اليهود» وعلى «حرب الأحمر والأسود من الناس» ، كان عهد تردّد واستطلاع إلى الاستقلال على أهل الكتاب، إلى أن استقر في المدينة فوجد طريقته المستقلة في التنزيل والدين^١.

ذلك هو نظم القرآن «العجيب» ، وتلك لمح من «إعجازه» . وقد اتفقوا على القول بالإعجاز، ولم يتفقوا على ناحية الإعجاز فيه^٢، فقالوا «إن عجائبه لا تنتهي» .

وللأستاذ العقاد في (حياة المسيح) أقوالاً عن إعجاز المسيح والإنجيل نقتطف منها ما يلي للمقارنة.

«إننا نفهم من أثر كلامه أنه كان مأنوس الطلعة يتكلم فيوحي الثقة إلى مستمعيه، وذلك الذي قيل عنه غير مرة أنهم أخذتهم كلماته لأنه «يتكلم بسلطان، وليس كما يتكلم الكتبة والكهان» .

وقد كان ولا ريب فصيح اللسان سريع الخاطر، يجمع إلى قوة العارضة سرعة الاستشهاد بالحجج الكتابية التي يستند إليها في حديث الساعة كلما فوجئ باعتراض أو مكابرة. وكانت له قدرة على وزن العبارة المرتجلة لأن وصاياه مصوغة في قوالب من الكلام الذي لا يُنظم كنظم الشعر، ولا يرسل إرسالاً على غير نسق. ويغلب عليه إيقاع الفواصل، وترديد اللوازم ورعاية الجرس في المقابلة بين السطور.

«وذوق الجمال بادٍ في شعوره كما هو بادٍ في تعبيره وتفكيره. والتفاته الدائم إلى الأزهار والكروم والحدائق التي يكثر من التشبيه بها في أمثاله، عنواناً لما طبع عليه من ذوق الجمال والإعجاب بمحاسن الطبيعة. وكثيراً ما كان يرتاد المروج والحدائق بتلاميذه ويتخذ من السفينة على البحيرة - بحيرة طبرية - منبراً يخطب منه المستمعين على شاطئها المعشوشب كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم. ولم يؤثر عنه أنه ألف المدينة والحاضرة كما يألف الخلاء الطلق حيث يقضي سويحات الضحى والأصيل أو سهرات الربيع في مناجاة العوالم الأبدية على قمم الجبال وتحت القبة الزرقاء^٣.

(١) راجع ص ١٦٠ تفصيل جهود الدعوة وتطور أساليبها .

(٢) الإتيقان : ٢ إعجازه ١١٨ .

(٣) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ١٠٩ - ١١٠ (طبعة دار الهلال الخاصة) .

وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية، وبحق سمي ((المعلم)) ونودي به في مختلف المجامع والمحافل ... ولم تكن لواحد (من علماء اليهود) كفاية ((المعلم)) الذي يبيث الحياة الروحانية في النفوس وينفث في الخواطر تلك الراحة التي تشبه راحة السريرة، حين تتناسق فيها الأنغام متنافرة التي كانت قبل أن تجمع وتصاغ.

((لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاد. كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب. ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب مع غلبته القوية على الأذهان والقلوب. كانت في نمطها، بين النثر المرسل والمنظوم، فكانت فناً خاصاً ملائماً لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال. هو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الأرامية ولا في اللغة العبرية. ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقاربة والتصريعات المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقفية، وإن كانت لا تتكرر بلفظها المعاد. وكان أسلوبه في إيقاع الكلام أسلوباً يكثر فيه التردد والتقدير ...

((أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال في كل قالب من قوالب الأمثال: ومنه القالب الذي يعول على الرمز، والقالب الذي يعول على الحكمة، والقالب الذي يعول على القياس والقالب الذي يعول على التشبيهات. وكلها تنسجم بطابع واحد هو طابعه الذي انفرد به بين أنبياء الكتب الدينية بغير نظير، وإن كانوا قد اعتمدوا مثله على ضروب شتى من الأمثال.

((وقد أثر عن السيد المسيح في جميع الأمثال حب المقابلة بين الأضداد لجلاء المعاني وتوضيح الفوارق من وراء هذه المقابلة ... ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر، جواباً على سؤال أو تعقيباً على حادث عارض أو تقريباً لمكابرة. فيندر أن يسترسل فيها المعلم البصير إلى غير المناسبة التي توحىها.

((وإذا كانت طائفة من عظات السيد المسيح قد جاشت بنفسه في أوقات مناجاتها فانظمت فيها كما تنتظم المعاني المنسوقة في البديهة الملهمة، فقد كانت سرعة البديهة تسعفه في غير هذه الأحوال، فتجري كلماته في مجراها المألوف على نسق سهل قد يظن به التحضير لأنه منتظم غير مرسل؛ ولكنه في الواقع لم يكن محضراً قبل ساعته ... والواقع أيضاً

أن الناس حين يستمعون إليه يرونه غريباً وقريباً في وقت واحد: غريباً لأنه كان يساورهم ولا يدركونه وقريباً لأنهم تمثلوه بفضل بلاغة القائل بعد استعصائه على الإدراك ... فلم يكن المسيح مبدعاً للأمثال ولا لقوالها التي تعول على الرموز أو الحكم أو التشبيهات أو منطق القياس. ولكن الأمر المحقق أن سامعي ذلك العصر لم يعرفوا قط أريحية كتلك الأريحية التي كانت تشيع في أطوائهم وهم يصغون بأسماعهم وقلوبهم إلى ذلك المعلم المحبوب الذي كان يناجيهم بالغرائب والغيبيات، مأنوسة حية، يحسبون أنها حاضرة في أعماقهم لم تفارقهم ساعة أو بعض ساعة، لفرط ما كان يغمرهم من حضوره المشرق، ويستولي عليهم من عطفه الطيب وحنانه الطهور.

((وفي وسعنا أن نتخيل من ثم فضل الرسول في الرسالة. فلا رسالة في الحق بغير رسول. ولا سبيل إلى قيام المسيحية بغير مسيح. فإن مصدر الرسالة الروحية هو زبديتها وجوهرها، وهو الأصل الأصيل في قوتها ونفاذها، وكل ما عداه فروع وزيادات: لقد كان لب الرسالة المسيحية في لب رسولها المسيح^١.

((وبعد فمن الحق ان نقول أن معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها في عصر الميلاد: رجل ينشأ في بيت نجار، في قرية خاملة، بين شعب مقهور، يفتح بالكلمة دواً تضيع في أطوائها دولة الرومان، ولا ينقضي عليه من الزمن في إنجاز هذه الفتوح ما قضاها الجبابرة في ضم إقليم واحد قد يخضع إلى حين ثم يتمرد ويخلع النير، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام^٢)).

وهكذا ليس في تعليم المسيح وإعجاز إنجيله تطور من عهد إلى عهد. وليس فيه كلم غريب في لغته أو دخيل عليها. وليس فيه منسوخ، قد يتناولُه ناسخُه جملةً وتفصيلاً. وليس فيه محكم ومتشابه يربو على المحكم. إنه بيان متسلسل وإعجاز منسجم في القول يسمو مع المعجز في الأعمال.

*

(١) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ١٧٠ - ١٧٧ .

(٢) عباس محمود العقاد : حياة المسيح ١٩٧ .

والقول الفصل في هذا الفصل ما حكاه القرآن عن نفسه. نقل ابن حبيب النيسابوري^١: في المسألة ثلاثة أقوال: أحدها أن القرآن كله محكم لقوله ((كتاب أحكمت آياته)) . والثاني أن القرآن كله متشابه (إذن إعجازه فيه نظر): ((الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً)) (زمر ٢٣). والثالث وهو الصحيح: ((منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وأخر متشابهات. فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله. والراسخون في العلم يقولون: أئنا ! كل من عند ربنا. وما يذكر إلا أولو الألباب)) (آل عمران ٧): خمسة تصاريح تصف نظمه المحكم والمتشابه، ومدى إعجازه في سحر بيانه.



(١) الإتيان ٢ : ١ .

الفصل الثالث

العهد الأول في مكة

((العهد المسيحي))

(منذ البعثة ٦١٠م - حتى الهجرة إلى الحبشة ٦١٥م^١)

- عهد الدعوة ليوم الدين في معرض الإصلاح الاجتماعي

- طريقته : الأقسام الغربية القومية

- عهد التأثير المسيحي في الدعوة القرآنية

تمهيد

إذا تتبعنا سيرة موسى في التوراة نرى أنه بعد أن أخرج بني إسرائيل من مصر، ذهب بهم إلى برية سيناء. وهناك أصعد الله إليه على جبل حوريب كلمه. وعلى الجبل بين البروق والرعود، والدخان والنار، أوحى الله إلى عبده الشريعة الموسوية وسلمه موجزها على ((لَوْحِي الْعَهْد)) في الوصايا العشر. ثم تاه الشعب أربعين سنة في الصحراء أتمَّ فيها موسى تدريبهم على توحيد الله، وهياهم لإنشاء الأمة الجديدة والدولة الجديدة في الأرض الجديدة. فالدين من توحيد وتشريع وطقوس واضح منذ اللحظة الأولى. وظلت شريعة سيناء في كلماتها العشر أعظم دستور أخلاقي للبشرية على مدى الدهور.

وإذا استقرينا الإنجيل نرى أنّ الله يعلن في الأردن بظهور رائع بعثة المسيح الذي يسمّيه صوت جهير من السماء: ((هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت)) متى ٣ : ١٧ . ثم يبدأ المسيح دعوته، فيلتف حوله بعض التلاميذ، وتتبعه الجموع من كل الجهات،

(١) مدة إقامة محمد بعد البعثة في مكة مجهولة : قارن بين البرهان ٢٣٢/١ والإتقان ٦٨/١ . قال السيد صبيح نقلاً عنهما : ((المدة التي نزل فيها القرآن هي أيضاً موضع خلاف . وحسبنا أن نذكر جملة السيوطي: نزل القرآن منجماً في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين سنة أو خمس وعشرين سنة على حساب الخلاف في مدة إقامته ص. بمكة بعد البعثة)) . والأصح أن الإقامة بمكة كانت ثلاثة عشرة سنة (٦١٠ - ٦٢٢ م) . أما إقامته بالمدينة فهي عشر سنين اتفاقاً . قابل الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ٣٩ .

فيصعد بهم إلى جبل في الجليل. وهناك، في الأعالي، على عشب الربيع يلقي المسيح خطبته الأولى التي تحوي دستور الإنجيل الخالد. فيه يعلن المسيح العقيدة الجديدة والشريعة الجديدة، والحياة المسيحية الجديدة. وإذا الله أب خاص للمسيح وأب عام للبشر، فهم أبناء الله، وإخوة بعضهم لبعض، لذلك فالدين الجديد علاقة أب بأبنائه وأبناء بأبيهم السماوي: « فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل » (متى ٥ : ٤٨). وإذا الشريعة الجديدة محبة الله كأب والناس كإخوة: وعلى هذا الأساس يطوّر وصايا الله العشر من الأعمال الخارجية إلى النيات والأفكار: « وإذن فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم أيضاً بهم: فذلك هو الناموس والأنبياء » (متى ٦ : ١٢) ثم طاف فلسطين من الشمال إلى الجنوب مرات، مدة ثلاث سنوات تقريباً يعلم ويفسر هذا الدستور الإنجيلي.

وها محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي، يعد رحلات تجارية واستطلاعية وبعد انعكافات حنيفة نسكية مدة سنوات، يدعى « ليقراً » الكتاب على العرب: فلنقرأ الكتاب معه بصيغته الجديدة « القرآن ». « وكان أول نزول الوحي على رسول الله في غار حراء، وتلقينه سورة القلم (؟)، رؤيا، لأنه كان في سنة من النوم ... ويفهم من مراجعة السيرة النبوية أنه كانت للوحي حالات ... ولم نرَ فيما بين أيدينا من مراجع ما يؤكد حالة التخاطب المباشر ... وعن عائشة: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية؛ ثم قالت « أو لم تسمعوا ربكم يقول: وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء »^١ كانت الطريقة الأولى من نصيب عيسى والثانية من نصيب موسى والثالثة طريقة محمد. ويذكر المفسرون روايات على أن رؤية ملاك الوحي كانت بالعين؛ ولكن التأمل في آيات (النجم والأنعام) يدل على أن الرؤية كانت بالإلهام بدليل قوله: « ما كذب الفؤاد ما رأى: ورؤية الفؤاد غير رؤية العين بطبيعة الحال »^٢.

ولقد روي أن الدعوة بدأت سرية. وتواترت الروايات على أن محمداً قد اتخذ له مركزاً سرياً منعزلاً في « دار الأرقم » يجتمع فيه هو وأصحابه يقيمون الصلاة ويتلون القرآن.

وهناك روايات تختلف على أوائل السور نزولاً^٣. تتنازع الفضل مطالع سور العلق

(١) محمد صبيح : عن القرآن ٣١ - ٣٦ .

(٢) محمد صبيح : عن القرآن ٣٧ .

(٣) السيوطي : الإتقان ١ : ٢٤ .

والقلم والمزمل والمدثر. « ويصح أن تكون هذه المطالع قد نزلت وحدها. ولا بد أن تكون سور عدة قد نزلت قبل نزول بواقيها. وعلى هذا يمكن أن يقال أن الخطوات الأولى للدعوة كانت اتصالاً بالاخضاء. ولقد روي فيما روي أن الدعوة بدأ سرية إلى أن قوي الإسلام ونزلت آيتنا الحجر: « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين »^١.

دامت سرية الدعوة ثلاث سنين تقريباً. في هذه الأثناء كانت تعتريه أزمات نفسية حادة، بلغت ذروتها في فترة فتور الوحي وانقطاعه عنه. « ذكر ابن اسحاق أن مدة انقطاع الوحي كانت ثلاث سنين؛ وفي قول: إن المدة سنتان ونصف؛ وفي قول ثالث إنها كانت أربعين يوماً. وفي قول رابع إنها كانت خمسة عشر يوماً؛ وفي قول خامس إنها كانت ثلاثة أيام. ولا يكاد التاريخ الصحيح للسيرة النبوية في مكة يقف من أحداثها الثابتة إلا على النزر اليسير. ولعل أشد الفترات غموضاً هي فترة انقطاع الوحي ... ولقد قيل إن النبي ضاق ضيقاً شديداً بانقطاع الوحي عنه وأنه كان يهيم على وجهه في الصحراء يناجي ربه. وبلغ به الأمر مرة أن همّ بالبقاء نفس من قمة جبل شاهق. وقد انتهت هذه المحنة الشديدة بنزول سورة الضحى التي تصف هذه الأزمة النفسية. ويفهم من هذا الظرف الذي نزلت فيه هذه السورة إنها كانت الثالثة (لا بل العاشرة أو الحادية عشرة) أي حين كان سن النبي ثلاثة وأربعين عاماً أو نحوها. « ولم ينقطع الوحي ولم يفتر طويلاً إلا هذه المرة »^٢.

قيل « إن أول سورة أعلنها رسول الله بمكة: النجم » (إتيان ١ : ٢٥). وهي الثانية والعشرون في تاريخ التنزيل: إذن ما قبلها كان من الدعوة السرية. وفي إعلان أول سورة من القرآن جاء حديث الغرائق (نجم ٢٠)

ثم جاءه الأمر: « وانذر عشيرتك الأقربين » فصار يطوف جهراً على أقربائه يدعوهم. وتوسع في الدعوة كما أمر أخيراً « فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين » وهكذا « بدأ رسول الله تبليغ دعوته في العام الرابع للبعثة^٣ . وبدأت قريش بالمقاومة على أنواعها حتى انتهوا مع جماعة محمد القليلين بالهجرة إلى الحبشة المسيحية، في السنة الخامسة أو السادسة للبعثة المحمدية.

سنرى أن العهد الأول بمكة (٦١٠ - ٦١٥ م) مدة خمس سنين ونيف ما بين البعثة والهجرة إلى الحبشة كان دعوة ليوم الدين، في معرض المطالبة بالإصلاح الاجتماعي. وكان

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٤٨ .

(٢) محمد صبيح : عن القرآن ٤٠ - ٤٣ قابل دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٢٨ .

أسلوبها طريقة الأقسام الغربية القومية. ويظهر على سور الدعوة القرآنية في هذه الفترة دلائل التأثير المسيحي: تجاه الأكثرية المشركة في مكة كانت أقلية كتابية، في مجموعها مسيحية، انتمى إليها محمد يدعو بدعوتها حتى بلغ الذروة في سورة مريم التي حملها أصحابه معهم إلى الحبشة النصرانية يتوددون بها إلى النجاشي بوحدانية الإيمان التي تجمعهم.



سور العهد الأول بمكة

السورة الأولى (١): العلق (نمرة المصحف ٩٦): ((اقرأ)) : دعوة محمد إلى القراءة.

فذلكة : كان ذلك في الغالب سنة (٦١٠ م). وهي سورة محكمة أي لا ناسخ فيها ولا منسوخ.

من ١ - ٥ قسم أول: محمد يدعى إلى القراءة^٢. - شبه إجماع على أولية نزوله.

من ٦ - ١٩ قسم ثان: من زمن متأخر، يدل عليه تغيير النظم والفاصلة. قيل نزل في عمه أبي جهل الذي نهاه عن الصلاة في الكعبة. و (أسباب النزول) توحى بأن فيه ثلاثة أجوبة على ثلاث حملات من أحد الطغاة (٦ - ٨ ثم ٩ - ١٦ ثم ١٧ - ١٩).

*

الثانية: ن والقلم (٦٨): ((ما أنت بنعمة ربك بمجنون)) !

فذلكة : هذه السورة فيها ستة أقسام من أزمنة مختلفة بمكة.

١ - ٧ القسم الباكر: جواب على تهمتهم له بالجنون أي به جنة: خلقته العظيم دليل العقل والهدى.

(١) ((ليس في القرآن ما يمكن الاستدلال به على أوليات القرآن نزولاً ، وكل ما هناك روايات لأسباب وظروف نزول آيات قرآنية تُعد في تاريخ القرآن من الأوليات . ومع أن أوثق الروايات وأكثرها اعتباراً وأخذاً تذكر أن أول ما نزل من القرآن هو الآيات الخمس الأولى من سورة العلق ؛ فإن هناك روايات يذكر بعضها أن هذا الأول هو الفاتحة . ويذكر بعضها أنه الضحى وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من المدثر . وبعضها يذكر أنه الآيات الأولى من سورة المزمل)) (دروزة : سيرة الرسول ج ١ ص ١٢١). فهناك خمس سور تتنازع مطالعها أولية النزول .

(٢) ألا يوحى قوله : ((اقرأ)) مرتين و ((الذي علم بالقلم)) أن محمداً كان يقرأ ويكتب ؟ أو صار بهذه يقرأ ويكتب : ((إنه هو الأكرم الذي كان من أهم نعمته عليه تعليمه القراءة والكتابة ليهذب نفسه ويعلم ما لم يعلم) عبد المتعال الصعيدي: النظم الفني في القرآن ٣٥٦) .. هل يوافق قوله ((خلق الإنسان من علق)) - جمع علقه وهي القطعة اليسيرة من الدم الغليظ (الجلالان) - خلق آدم من تراب أم خلق كل إنسان من نطفة ؟ وهل علم الله ((بالقلم)) الوحي أم العلوم الطبيعية للإنسان : ((خلق الإنسان من علق)) ؟ (آية ٧) ... وقوله ((أن رآه)) أي رأى نفسه (الجلالان) : تعبير غامض ... ثم أن الوحي والتنزيل قذف شفهي في روع النبي، فما معنى قوله: ((اقرأ ... علم بالقلم)) ؟ ألا يوحى بأنه يقرأ شيئاً مكتوباً بالقلم ؟

٨ - ١٦ حملة من زمن متأخر على الوليد بن المغيرة (؟) لأنه سمي القرآن: أساطير

الأولين!

١٧ - ٣٣ قصة أصحاب جنة حرموا منها مساكين،^١

٣٤ - ٤٧ قسم من العهد الثاني: هل الجنة للمسلمين أم للمشركين؟^٢

٤٨ - ٥٠ قصة صاحب الحوت: اصبر كما صبر يونس!

٥١ - ٥٢ يصف سحر بيان القرآن عليهم؛ ويرد على تهمة الجنون!!

*

الثالثة: المزمّل (٧٣) : دعوة محمد إلى الصلاة.

فذلكة: فيها أربعة أقسام من أوقات مختلفة: والمطلع وحده مبكر . جاء في (الإتيان) أن أولها مكي ثم ١٠ - ١١ مدني ثم الآية ٢٠ مدنية بأسلوبها الطويل ومضمونها (القتال) . ولذلك قيل بأن فيها من الناسخ (موضعان) ومن المنسوخ (ستة) . وهذه السورة تروي تطور أوقات الصلاة: بدأ بقيام الليل ثم بقيام الفجر ، ثم خفف عنه ثم نسخ الليل في المدينة واكتفى بالصلوات الخمس النهارية بسبب ضرورات الحياة والجهاد وهكذا بدأ راهباً وانتهى محارباً .

١ - ٤ يؤمر بقيام الليل للصلاة وترتيل القرآن وهذه عادة رهبانية،^٣

٥ - ٩ ثم فرض عليه قيام الفجر.

١٠ - ١٤ يعترض حديث الصبر على المكذابين أولي النعمة.

(١) سورة القلم مكية إلا من ١٧ - ٣٣ ومن ٤٨ - ٥٠ فهي من المدينة (إتيان : ١ : ١٧) وأسلوب القصتين مكي ، ربما من العهد الثاني جمعوها هنا .

(٢) الآيات ٣٧ و ٤٧ يفاضل النبي المشركين ويفخر عليهم بدراسة الكتاب وكتابة الغيب منه - وهل تتفق الآية ٤٥ ((وأملي لهم أن كيدي متين)) شديد لا يطاق ، مع البسمة التي تستفتح السورة باسم الرحمان الرحيم؟ وكيف يكلف بالسجود في الآخرة من لا يستطيعه (آية ٤٢) .

(٣) المزمّل من بين السور الخمس الأولى في التنزيل - لم يكن القرآن قد نزل بعد فأى قرآن يدعى محمد إلى ترتيله؟ هل يدعى إلى ترتيل ((قراءة)) - قرآن بالسريانية والعبرية - من الكتاب المقدس حسب عادة النصارى إلى اليوم في استفتاح تلاوة أسفار الكتاب في الصلاة : ((قراءة أو قرآن من سفر النبي فلان)) ؟ والآية الأولى ((قم الليل إلا قليلاً)) نسخها قوله فيها ((أو انقص منه أو زد عليه)) ثم نسخ هذا الناسخ بالآية ٢٠ ؛ أخرج الحاكم عن عائشة أن التخفيف نزل بعد نزول صدر السورة بسنة وذلك حين فرض قيام الليل في صدر الإسلام (الإتيان : ١ : ١٧) وفي المدينة نزل تخفيف على التخفيف ؛ وعن عائشة أيضاً : افترض قيام الليل ثم نزل التخفيف ((علم أن سيكون منكم مرضى)) فصار قيام الليل تطوعاً بعد أن كان فريضة على

١٥ - ١٩ ويعترض حديث آخر على رسالته إلى قومه كرسالة موسى إلى فرعون:
الوعيد بيوم يجعل الولدان شيباً!

٢٠ آية مدنية لتخفيف قيام الليل وقراءة القرآن، لضرورة القتال؛ ثم نسخ ذلك بالصلوات
الخمس النهارية (الجلالان) .

*

الرابعة المدثر (٧٤) : دعوة محمد إلى الإنذار.

فذلكة : المطلع وحده مبكر، والأقسام الأخرى من أزمنة مختلفة يدل عليها اختلاف النظم والفاصلة.
وهي سورة محكمة . وسياقها يوحي بأنها سورتان الأولى (١ - ٣٠) والثانية (٣٣ - ٥٦) يفصل
بينهما الآية ٣١ وهي مزيدة للتفسير .

السورة الأولى منها :

١ - ٧ دعوة النبي ((المدثر بالجلباب لاستجلاب الوحي)) إلى مباشرة الدعوة. ثم وصف
أخلاق الداعي.

٨ - ١٠ يوم الدين على الكافرين غير يسير. (لاحظ تغيير النظم).

١١ - ٣٠ حملة مزدوجة على الوليد بن المغيرة المخزومي (٤) - (لاحظ أيضاً تغيير
النظم والفاصلة) - حملة لطيفة على عناده تجاه القرآن (١١ - ١٧) ثم حملة عنيفة (١٨ - ٣٠)
لنعتة القرآن بالسحر^١ .

الآية ٣١ مزيدة لتفسير عدة ملائكة سقر وهي تختلف عن السورة بسياقها ونظمها^٢.

السورة الثانية منها :

٣٢ - ٣٧ مطلع سورة مستقلة: يقسم بالقمر والليل والصبح.

الجميع . ثم صار ((نافله)) للنبي وحده . أخيراً نسخت صلاة النهار صلاة الليل . وحددت السنة الصلوات
الخمس النهارية فجاءت السنة تدل على أنه لا واجب من الصلاة إلا تلك الخمس . وهكذا فرض قيام الليل في
مكة مثل الرهبان ونسخه في المدينة .

وكذلك القول في قيام الليل لترتيل القرآن : ((ورتل القرآن ترتيلاً)) نسخه بقوله: ((فاقروا ما تيسر

منه)) .

(١) يروي أن الوليد بن المغيرة قال مقالة السوء هذه لما سمع (حم السجدة) : هذا يدل على تعدد وتباعد
المواقف المجموعة معاً . المزمّل (١٠) نسختها آية قتال الكتابيين (براءة ٣٠) قابل النحاس ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) يؤكد أن عدة ملائكة سقر تسعة عشر ؛ ثم يستدرك فيقول ((وما يعلم جنود ربك إلا هو)) ويقرر بأن العدد
كان للفتنة .

٣٨ - ٥٠ سؤال أهل الجنة أهل سقر ما سلكهم فيها - (لاحظ تغيير النظم والفاصلة).

٥١ - ٥٦ نفور أهل مكة من القرآن ((كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة)) .

*

الخامسة: الفاتحة (١): طلب الهداية إلى الطريق المستقيم:

فذلكة : الفاتحة والمعوذتان لم يعترف بهما ابن مسعود، ولذلك جعلوهما فاتحة القرآن وخاتمته (٢). والفاتحة هي صلاة محمد وصلاة أمته من بعده . لها ٢٥ اسماً أم الكتاب، وأم القرآن. ويكاد يتم الإجماع على أوليات الوحي ، وعند الفاتحة يبدأ الخلاف (٣) : قيل إنها من أوائل النزول ، وقيل إنها من المدينة ، وقيل نزلت مرتين ، مرة في مكة ومرة في المدينة ، وقول رابع إنها نزلت نصفين، نصف في مكة ونصف في المدينة (٤) . ونحن نقول بأنها مكية - سوى الآية الأخيرة ((صراط الذين...)) فهي مزيدة من المدينة لما استقل محمد عن أهل الكتاب - لأن اسم الجلالة فيها ((الرحمان)) ولهذا السبب عينه هي من العهد الثاني بمكة بعد الهجرة إلى الحبشة حيث اسم الجلالة الرحمان ومنها انتقل إلى اليمن والبيامة حتى وصل الحجاز. وبما أنها تجمع في بسملة واحدة أسماء الجلالة عند العرب ((الله الرحمان الرحيم)) فهي من زمن تطورت فيه الدعوة من ((عشيرته الأقرين)) إلى إيلاف قريش والعرب . وصيغة الجمع فيها ((إياك نعبد)) تعني أنها نزلت لما تألفت حول محمد جماعة مؤمنة بحاجة إلى صلاة جماعية . ويرون أنها هي المعنية بهذا الاسم ((السبع المثاني)) (حجر ٨٧) (٥) . وقد اختلفوا في هل تعد البسملة منها: قال أكثر أهل الكوفة صارت سبع آيات بالبسملة ؛ وقال أكثر أهل المدينة هي سبع آيات دون البسملة ، والسابعة أنعمت عليهم ((الطبري) . والفاتحة عند الجميع عنوان كمال القرآن مبنى ومعنى، فيها براعة استهلال القرآن، والعمل الأسنى لأنها مشتملة على جميع مقاصد القرآن (٦) والسورة محكمة.

(١) هذه الآيات تعطي سبب نفور أهل مكة من القرآن أول أمرهم لأنه لم يكن ((صحفاً منشرة)) مثل الكتاب الذي يتلونه أمامهم ! الآية ((فمن شاء ذكره)) قيل نسخها ((وما تشاؤون إلا أن يشاء الله)) .

(٢) قال العلماء ومنهم الإمام فخر الدين وابن حجر في شرح البخاري وأحمد وابن حبان والطبراني وغيرهم إلى ابن مسعود كان ينكر كون الفاتحة والمعوذتين (أي الخاتمة) من القرآن ؛ وساءه جداً تغيير المصاحف زيادة هذه على مصحف عثمان . مع ذلك لا شك أن الفاتحة تمثل صلاة محمد مدى حياته بدليل أنها ظلت صلاة أمته من بعده . وفي طلب محمد وأمته الهداية إلى الصراط المستقيم أبد الدهر سر مدهش . بينما الزبور يشكر الرحمان الرحيم على هداية موسى إلى سراطه (مزبور ١٠٢) .

(٣) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٢٢ .

(٤) الإتيقان ١ : ١٢ .

(٥) ((ولقد أتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)) قال ص. هي الفاتحة كما رواه الشيخان . وسياق الآية يجعلها تعدل القرآن كله !

(٦) نقل البيهقي عن الحسن : أنزل الله مائة وأربعة كتب أودع علومها أربعة : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ؛ ثم أودع علوم التوراة والإنجيل والزبور : الفرقان ؛ ثم أودع علوم الفرقان المفصل ثم أودع علوم المفصل فاتحة الكتاب : فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة ((! الإتيقان ٢ : ١٠٦) .

١ - ٣ الحمد لله^١ رب العالمين الرحمان^٢ الرحيم مالك يوم الدين^٣.

٤ - ٥ إياك نعبد وإياك نستعين: اهدنا الصراط المستقيم^٤.

٦ - ٧ صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين^٥.

*

السادسة: المسد أو تَبَّتْ! (١١١) : دعاء على عمّه!

دعاء على عمه أبي لهب، وعلى زوجه أم جميل أختِ أبي سفيان، حمّالة الحطب ! والسورة محكمة.

*

(١) « الحمد لله ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسنی ، والقول « الشكر لله » ثناء عليه بنعمه وأياديه . وعن كعب الأحبار « الحمد » ثناء على الله ؛ وعند العرب أن الحمد لله قد ينطق به في موضع الشكر (الطبري) فالحمد ثناء وشكر معاً .

(٢) الرحمان : اسم الجلالة الكتابي في شمال الجزيرة؛ وخصوصاً في جنوبها وأدخله القرآن إلى الحجاز . قال الطبري : زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمان ولم يكن ذلك في لغتها ، ولذلك قال المشركون للنبي : « وما الرحمان ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ (فرقان ٦٠) إنكاراً منهم لهذا الاسم » (١ : ١٣١) قابل الإسراء ١١٠ - وذهب المبرد وثلعب إلى أن لفظ الرحمان عبراني واصله بالخاء المعجمة (إتقان ١ : ١٣٩) وقد ورد في التوراة العبرانية والسريانية والتلمود ، وانتشر بين العرب مع الدعوة الكتابية . وقال البيضاوي: « الرحمان أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى . والقياس يقضي الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، (وعكس) للمحافظة على رؤوس الآي » .

(٣) ملك يوم الدين : لها قراءات متعددة أصحها « مالك » أو « مَلِك » لأن الملك مالك لا العكس (قابل البيضاوي) .

(٤) كتبوا « الصراط » بالصاد المبدلة من السين التي هي الأصل ... وعدّ قراءة السين مخالفة للرسم والأصل (إتقان ١ : ٧٨) والأصل في الصراط أيضاً أن تكون مؤنثة مثل كل أسماء الطريق . « حكى النقاش وابن الجوزي أن الصراط هو الطريق بلغة الروم » (الإتقان : ١ : ١٤٠) . وهكذا فالفاتحة ، التي هي دعاء إلى الله للهداية إلى الصراط المستقيم ، صلاة كتابية لفظاً ومعنى . وتجدها في المزمورين ٤٧ و١٤٨ من زبور داود، واللذين كان يرددتهما في صلاتهم في الحجاز ومكة اليهود والنصارى العرب.

(٥) الآية السادسة والسابعة زيدتا على الفاتحة من المدينة عندما استقلّ محمد عن أهل الكتاب. قال الجلالان « المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالين هم النصارى ، ونكتة البديل إفادة أن المهتدين ليسوا يهوداً ولا نصارى، والله أعلم بالصواب » . وفات أمثال الجلالين أن القرآن يأمر محمداً أن يقتدي بهدى الكتاب وأهله (أنعام ٩٠) فكيف يمكن أن يصفهم بهذه الصفات ؟ والفاتحة مكية وفي مكة كانت الوحدة تامة بين المسلمين والكتابين ، وقد آمن معهم بما أنزل الله من كتاب (شوري ١٥) . لذلك يرفض البيضاوي التفسير المرفوع بأن المغضوب عليهم اليهود والضالين النصارى « ويتجه أن يقال: المغضوب عليهم العصاة ؛ والضالون : الجاهلون بالله » .

السابعة: التكوير (٨١): الحساب على الأعمال.

فذلكة: سورة من سورتين يدل عليهما اختلاف النظم والفاصلة .
فيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ موضع .

الأولى منها:

١ - ١٤ مشهد الكون يوم القيامة والحساب على الأعمال^١ .

الثانية منها:

١٥ - ٢٩ جواب على تهمة الجنون: يقسم بالخنس والليل والصبح أن قرآن الحساب قول رسول كريم رآه بالأفق المبين، لا قول جنة أو شيطان.

*

الثامنة: الأعلى (٨٧): منهاج الدعوة: الصلاة والإيمان بالآخرة.

فذلكة: فيها من الناسخ موضع ولا منسوخ فيها.

١ - ٥ يدعى إلى تسبيح الله باسم ((الأعلى))^٢ .

٦ - ٨ مقطع معترض من زمن متأخر: نسيان النبي لبعض القرآن^٣،

٩ - ١٧ ويدعى إلى التذكير بأنه أفلح من صلى وأن الآخرة خير وأبقى. هذا هو كل الوحي الجديد، ومصدره صحف إبراهيم وموسى: يجمع بين الحنيفية والكتاب.

*

التاسعة: الليل (٩٢): دعوة إلى الإحسان - (وهي محكمة) .

يقسم بالليل والنهار، وخالق الذكر والأنثى، أن المحسن لليسرى، والبخيل للعسرى^٤ .

*

(١) التكوير ((وإذا الوحوش حشرت)) (٥) أي جمعت بعد بعثها : هل هذا تعليم على بعث الوحوش وحشرها في يوم الدين ؟ ... وصف يوم الدين في هذه السورة يشبه وصفه في سفر الرؤيا : ((والشمس قد اسودت كمشح الشعر والقمر كله صار مثل الدم ، وتساقطت كواكب السماء على الأرض)) (٦ : ١٢) كأن جبلاً عظيماً متقدماً بالنار ألقى في البحر (٨ : ٨) وأدرجت السماء كما يُطوى السفر (٩ : ١٤) . وكل جبل وجزيرة تزحزحا عن موضعهما (٦ : ١٧) وهربت كل جزيرة والجبال لم توجد (١٦ : ٢٠) قابل إنجيل متى ٢٤ : ٢٩ .

(٢) من علامات علوه تعالى أنه ((أخرج المرعى)) ! لاحظ جمع ((الهدى والمرعى)) . ((والرب الأعلى)) ترجمة أخرى لتعبير ((الله أكبر)) اسم إله التوحيد عند الساميين وقد دخل الحجاز عن العبرية بطريق السريانية .

(٣) قال البيضاوي: ((سنقرئك فلا تنسى : على لسان جبريل ، أو سنجعلك قارئاً بالهام القراءة)) يتضح من هذه الآية أن محمداً كان أو صار يقرأ ويعرف القراءة . وهذه الآية ناسخة لقوله ((لا تعجل بالقرآن قبل أن يُقضى إليك وحيه)) .

(٤) هذه أول دعوة للإصلاح الاجتماعي . قيل نزلت في أبي بكر الصديق الذي أعتق بلالا من الاضطهاد ،

السورة العاشرة: الفجر (٨٩) دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي.

فذلكة: هذه سورة صغيرة من سور أو مقاطع متعددة يدل عليها اختلاف النظم والفاصلة. وهي محكمة.

- ١ - ٥ من سورة أولى: يقسم بالفجر وليالي عشر ... ويسقط الجواب.
- ٦ - ١٤ من سورة ثانية: قصص مقتضب من زمن متأخر: عاد وثمود وفرعون^١.
- ١٥ - ١٦ من سورة ثالثة: ليس النعيم كرامة من الله، ولا الفقر إهانة^٢.
- ١٧ - ٢٠ من سورة رابعة: يستفتح بكلاً: إكرام اليتيم وإطعام المسكين.
- ٢١ - ٣٠ مجموعة مزدوجة الفواصل المتنوعة: يوم الدين لا تنفع الذكرى ولا الملامة.

*

الحادية عشرة: الضحى (٩٣) تعزية النبي بعد فتور الوحي.

فذلكة: بعد تنزيل عشر سور فتر الوحي (٣) وانقطع أياماً أو شهوراً أو ثلاث سنين بحسب الروايات المختلفة، حتى فكر محمد أخيراً بالانتحار؛ فجاءته تعزية السماء. والسورة من سورتين يدل عليهما اختلاف الموضوع والنظم والفاصلة. والسور محكمة.

- ١ - ٨ سورة أولى: يقسم الله بالليل والنهار أنه ما ترك نبيه، تشهد بذلك نعمه عليه^٤.

فهو الاتقى، ومضطهد بلال الأشقى ... في الدعوة القرآنية الأولى يفضل اسم الجلالة ((الأعلى)) (أعلى الليل (٢٠) وهو لغة من ((العلي)) مثل ((الأكبر)) لغة من ((الكبير)) ... في هذه السورة يجمع بين القسم بالخالق والقسم بالمخلوق الليل والنهار ويستعمل ((ما)) الموصول للخالق .

(١) فجر ٧ ((بعد ، إرم ذات العماد)) : إرم هنا اسم قبيلة أم بلدة ؟ وإرم مضاف إليه أم بدل أم عطف بيان؟ والقراءة هل هي أم إرم؟ قال البيضاوي: ((عاد يعني أولاد عاد بن عوص بن ارم بن سام قوم هود، سموا باسم أبيهم . ارم : عطف بيان لعاد على تقدير مضاف أي سبط ارم أو أهل ارم إن صح أنه اسم بلدتهم. قيل بني شداد بن عاد على مثال الجنة، في بعض صحاري عدن ، جنة وسماها إرم ؛ فلما تمت سار إليها بأهله فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا ؛ وقيل خرج في طلب إبله فوقع عليها)) فالمعنى المقصود قبيلة عاد بن ارم ، وظاهر النص يعني بلدة ارم . ومواطن قبائل ارم بلاد الشام، أي بلاد سام ، وقد تكون البلدة الموصوفة مدينة الشام ، ما لم يكن مجهولاً والحجر لآل ثمود تعرف بالبترء، كلمة معربة عن اليونانية وأصلها بالعبرية ((سلع)) (سفر الملوك الثاني ١٤ : ٤ وأشعيا ١٦ : ١) وقوله ((جابوا الصخر بالواد)) مثل قوله ((وتحتون من الجبال بيوتاً)) .

(٢) فجر ١٥ - ١٦ تعليم إنجيلي : ((طوبى لكم أيها المساكين فإن لكم ملكوت الله ... ويل لكم أيها الأغنياء فقد نلتم عزاءكم)) (لوقا ٦ : ٢٠ و ٢٤) .

(٣) في أسباب النزول للسيوطي ، خبر غريب كان سبب إبطاء التنزيل : ((دخل جرو بيت الرسول ومات تحت سريره . قال الحافظ بن حجر قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة)) .

(٤) الضحى ٦ - ٨ تصف حالة محمد قبل البعثة ، ولا نجد في القرآن سواها وصفاً لتلك الفترة . وتذكر الآية السابعة هداية محمد: ((ووجدك ضالاً فهدى)) : أية هداية تقصد ؟ - كان محمد قبل البعثة حنيفاً أي موحداً

٩ - ١١ سورة ثابتة: تأديب للنبي أن لا يقهر اليتيم ولا ينهر السائل. - قابل هذا التأديب بقوله في سورة القلم ((وإنك لعلی خلق عظیم)) .

*

الثانية عشرة: الشرح (٩٤) : تطمين للنبي بالغفران عما مضى.

فذلکة : سورة صغيرة في ثلاث يدل عليها اختلاف النظم والفاصلة . والسورة محكمة .

١ - ٤ سورة بدون مطلع^١: تعزية النبي^٢ بغفران وزره الذي أنقض ظهره^٣,

٥ - ٦ مقطع مستقل: إن مع العسر يسراً ! إن مع العسر يسراً !

٧ - ٨ مقطع آخر مستقل: فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب^٤.

*

الثالثة عشرة: العصر (١٠٣) : الخلاص في الإيمان والصبر.

١ - ٢ ((والعصر: إن الإنسان لفي خسر)) ! - يقسم بالعصر (أو الدهر، على قراءة) الإنسان لفي خسر في مساعيهم - والتعريف للجنس، والتكبير للتعظيم.

فلا تقصد الآية الهداية إلى التوحيد ، بل الهداية إلى الإيمان الكامل بالكتاب الذي نزل من قبل (شوري ٤١) الذي يهدي به إلى صراط مستقيم صراط الله (شوري ٥٢) بدليل قوله أيضاً ، في الأمر الصريح له أن يهتدي بهدى أنبياء الكتاب (أنعام ٩٠) فالقرآن المكي كله يصرح بأن هداية محمد في بعثته كانت إلى الإيمان بالكتاب المقدس .

(١) سورة الشرح تبدأ بدون مطلع كما جرت العادة ، ولذلك عدّ بعضهم الضحى والشرح سورة واحدة ولعل في الوزر المذكور في سورة الشرح سبباً لفتور الوحي المذكور في سورة الضحى ، سبباً أصوب من قصة الجرو السخيفة .

(٢) الشرح ١ - ٤ ما معنى قوله ((ألم نشرح لك صدرك)) ؟ أهو شرح مجازي للصدر أم شرح حقيقي واقعي ؟ - سيرة ابن هشام رأته فيه شرحاً واقعياً فكانت الأسطورة في شق الملاك صدر النبي وغسله بالثلج لتطهيره . وهذا الفهم ينقضه القرآن في قوله عن كل مؤمن : ((شرح الله صدره للإسلام)) ؛ والآية الثانية ((ووضعنا عنك وزرك)) تقسّر معنى الشرح المجازي .

(٣) ((ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك)) : ما هو هذا الوزر؟ - ((هو ما ثقل عليه من فرطاته قبل البعثة)) (البيضاوي) ((وهذا كقوله تعالى : ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) (الجلالان) : فالوزر قيل البعثة وبعدها في مكة والمدينة .

(٤) ((إن مع العسر يسراً)) إعجاز رائع ! ((العسر كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر . عسراً: تنكير للتفخيم والتعظيم . وعليه قوله عليه السلام : ((لن يغلب عسر يسرين !)) فإن العسر معرّف فلا يتعدد سواء كان للعهد أو للجنس ؛ ويسراً منكر يحتمل التعدد، ويغايير ما أريد بالأول)) (البيضاوي).

(٥) ((فإذا فرغت فانصب : قيل فرغت من التبليغ وقيل من الغزو وقيل من الصلاة ، فانصب بالعبادة والدعاء)) (البيضاوي) .

٣- ((إلا الذين آمنوا ...)) استثناء زيد من زمن آخر يدل عليه اختلاف النظم.

*

الرابعة عشرة: العاديات (١٠٠): الكفر بنعمة الله.

فذلكة: فيها قسمان يختلفان نظماً وفاصلة. والسورة محكمة.

١ - ٨ يقسم الله بالخيل المغيرة إن الإنسان لربه لكنود^١: من طبعه الميل للشر، والامتناع عن الخير!

٩ - ١١ إن ربهم خبير بهم يوم البعث.

*

الخامسة عشرة: الكوثر (١٠٨): رد شتيمة على قائلها:

عيرهم أحدهم، بعد موت ابنه القاسم، ((بالأبتر)) - أي المقطوع النسل - فأجاب: إنا أعطيناك الكوثر! (أي الكثير من الخير - وحسب السنة نهراً في الجنة)؛ ثم ردَّ الشتيمة إلى صاحبها: إنَّ معيِّرك هو الأبتر! والسورة محكمة.

*

السادسة عشرة: التكاثر (١٠٢): ((لترونَّ الجحيم))!

فذلكة: حملة على تفاخرهم بنعيم الدنيا دون الآخرة: يأتي الموضوع بفاصلة، والجواب بفاصلة أخرى، مما يجعلها سورتين في واحدة. والسورة محكمة.

١ - ٢ إلهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر!

٣ - ٨ جواب ملحق: يؤكد خمس مرات: لترون الجحيم!

*

السابعة عشرة: الماعون (١٠٧): الكذب العملي في الدين.

فذلكة: قال الجلالان: ((الثلاث الآيات الأولى مكية، والبقية مدنية)) - وهي محكمة.

(١) ما وجه الإعجاز البياني في ربط هذا القسم بالمقسوم عليه؟ والإعجاز اللغوي في عطف الفعل ((ائثرن)) على الاسم ((والعاديات)) وفي رجوع ضمير الجمع (إن ربهم) إلى مفرد (أفلا يعلم)؟ والإعجاز النحوي في إضمار مفعول (أفلا يعلم)؟ قال الجلالان: ((أعيد الضمير جمعاً نظراً لمعنى الإنسان وهذه الجملة دلت على مفعول يعلم أي ((أننا نجزيه)) .
(٢) ((لترون الجحيم)) تكاثر (٦) تقابلها مريم (٧١) وحجر (٤٥) : ورود الجحيم أمر مقضي حتى على المؤمنين ، وعلى الله : ((كان على ربك حتماً مقضياً)) (مريم) .

١ - ٣ سورة أخرى من مكة: الذي يكذب بالدين هو الذي يقهر اليتيم، ولا يحضُّ على طعام المسكين^١.

٤ - ٧ سورة ثانية من المدينة: ويل للمصلين الذين يغشون الكيل والوزن!

*

الثامنة عشرة: الكافرون (١٠٩): ((لكم دينكم ولي دين)) !

فذلكلة : إعلان جريء في التبرئة من شركهم وطريقة دينهم ؛ وهو جواب أول على محاولة قريش استمالة النبي إلى دين قومه (٢) وهو جواب على سؤال أو محاولة أو تحدُّ سقط ولم يُذكر . وهي سورة محكمة .

قل: يا أيها الكافرون ... لكم دينكم ولي دين!

*

التاسعة عشرة: الفيل (١٠٥): العبرة بقصة أصحاب الفيل!

بعد إعلان التبرئة من دينهم وشركهم، أخذوا يهددونه، فأجاب على تهديدهم محذراً بمثل أصحاب الفيل^٢. والسورة أيضاً جواب سقطت حادثته المسيية له.

*

السورة العشرون: الفلق (١١٣): استعاذة من السحر!

يتعوذ من شرِّ الظلام، ومن شرِّ السواحر، النفثات في العُقد، ومن شرِّ الحاسد^٣.

(١) لا تزال الدعوة القرآنية أخلاقية تدعو إلى الإصلاح الاجتماعي .
(٢) مناسبة السور الثلاث : الكافرون والفيل وقريش : تروي أسباب النزول أن رهطاً من قريش أتوا محمداً فأغروه بالمال والنساء أن يتبعهم في دينهم عاماً ويرجع إلى دينه عاماً ((تعبد ما نعبد ، ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله)) ! فكان الجواب الأول الصريح الجريء في (الكافرون) ، والجواب الثاني أسهل وأهون : تحذير على تهديدهم (بمثل أهل الفيل) ثم يسمح لهم (لإيلافهم) بعبادة ((رب البيت)) .
(٣) غزا أبرهة الأشرم مكة بفيله على رأس جيشه ، فعرض له ولجيشه عارضٌ وقفل خائباً . وهذا الجواب الثاني فيه مرونة ولين أكثر من الأول (الكافرون) - وفيه بحسب الجلالين من لغة الفرس : ((أبابيل)) لا مفرد لها ؛ ((وسجيل)) الطين المطبوخ ، استعملت هنا لا غير .
(٤) قيل بأن مصحف أبي ومصحف ابن مسعود لم يحويا المعوذتين (الفلق والناس) . وكان ابن مسعود يحكمهما من المصحف . واختلف في مكيتها . وقيل في (أسباب النزول) للسيوطي أنهما نزلتا بالمدينة لما سحر اليهود محمداً ، فتعوذ بهما فصحا من السحر . ولكن أسلوبهما المكِّي ظاهر ، وهما على الغالب من فترة الأقسام والتعاويذ الغريبة في القرآن ولما يتخلص محمد بعد من رواسب الماضي وأثقال بيئته، إلى التوحيد الخالص وتعاييره .

الحادية والعشرون: الناس (١١٤): استعادة من الشيطان !

يتعوذ من شر الوسواس الخناس الذي يُوسوس في صدور الجنّة والناس^١.

الثانية والعشرون: الإخلاص (١٢): إعلان التوحيد الخالص ضد المشركين.

((قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوءاً أحد^٢)) .

*

الثالثة والعشرون: النجم (٥٣): القرآن وحي علمه ((رسول شديد القوى)) .

فذلّة : نقل السيوطي في إتقانه (١ : ٢٥) ((أخرج الواحدي أن أول سورة أعلنها رسول الله بمكة: النجم)) إذن إلى الآن كانت الدعوة سريّة وإعلان التوحيد ، سلباً في (الكافرين) وإيجاباً في (الإخلاص) كان سرياً قبل نزول سورة النجم . والنجم سورة من ستة سور أو مقاطع مختلفة قد تجمعها الفاصلة المتقاربة ولكن تختلف بالأسلوب والنظم والموضوع . وتمتاز هذه السورة بإقحام آيات مدنية طويلة جداً، على السياق الذي تتنافر معه بالنظم (آية ٢٣ و ٣١ - ٣٢).

(١) الموعودتان تختلفان عن سائر القرآن بموضوعهما ونظمهما، ممّا يدع مجالاً لشُبّهة ابن مسعود في صحتهما ولذلك جعلهما في آخر القرآن خاتمة له ... قال الجلالان ((من الجنة والناس)) (آية ٦) بيان للشيطان الموسوس أنه جني وأنسي كقوله ((شياطين الإنس والجن)) (مائدة ١١١) أو من الجنة ، بيان له ، والناس عطف عليه - تركيب الآية غامض يحتمل معاني شتى : ولا يفهم من هذه التعابير هل الشيطان روح أم جني أم أنسي ؛ قد يكون تعبير سورة المائدة مجازياً ؛ أما في سورة الناس فهو موضوعي : كيف يكون الشيطان ، وهو روح محض ، جنيّاً وإنسيّاً ؟

(٢) جاء في (أسرار التنزيل) للبارزي : قيل المشهور في كلام العرب إن ((الأحد)) يستعمل بعد النفي ، (الواحد) بعد الإثبات : فكيف جاء هنا بعد الإثبات ؟ قلنا قد اختار أبو عبيد أنهما بمعنى واحد ، وإن غلب استعمال ((أحد)) في النفي . ويجوز أن يكون العدول هنا عن الغالب رعاية للفواصل (إتيان ١ : ١٤٧) . وعندني أنه نقل تعريب اليهود العرب للتعبير العبراني في صلاة فاتحتهم كما وردت في التوراة (تثنية ٦ : ٤) : ((يهوه إحد)) ؛ ويهوه تعني لفظاً ((هو الله)) . لذلك نميل إلى جعل السورة من العهد الثاني بمكة . ثم لماذا نكّر صفة ((أحد)) وعرّف صفة ((الصمد)) ؟ - ربما للسبب ذاته . هذا أول إعلان إيجابي عن التوحيد القرآني . جاءت بعده للحال ثورة المشركين عليه . وفي العهد الأول كان هذا الإعلان تصريحاً عابراً وهو موجّه ضد المشركين لا ضد الكتابيين الذين كان معهم بمكة في وحدة تامة . نلاحظ أن مطلع هذا الإعلان هو مطلع صلاة التوحيد في التوراة التي كان يرددها بنو إسرائيل حيثما رحلوا وحلوا : ((اسمع يا إسرائيل : ((الله إلهنا هو الله إحد)) (تثنية : ٦ : ٤) وفي اللغة العبرية والسريانية ولغة سورة الإخلاص نجد اللفظ ذاته ((الله إحد)) واليهود في صلاتهم يمدون الصوت في لفظهم ((أحد)) كما يفعل المسلمون إلى اليوم. واختلفوا في تحديد معنى ((الصمد)) وعندني أن الآية ٣ تفسير لصفة أحد ، والآية ٤ ((لم يكن كفوءاً أحد)) تفسير للصمد . والصمد من أسماء التوحيد ، مثل الرحيم ، في الكتابات التدمرية .

١ - ٨ سورة أولى: رؤيا ((شديد القوى)) بالفؤاد^١، وهو بالأفق الأعلى ثم عند سدرة المنتهى^٢.

١٩ - ٢٥ حملة على اللات والعزى ومناة - قصة الغرانيق^٣. جواب أول بعد قصة الغرانيق: ألكم الذكر وله الأنثى؟ (٢١ - ٢٥). يقطعه جواب ثانٍ ربما من المدينة: إنَّ هي إلاَّ أسماء! (الآية ٢٣).

٢٦ - ٣٠ حملة ثانية من زمن متأخر على المشركين ((الذين لا يؤمنون بالآخرة)) لجعل إلهاتهم ملائكة!

٣١ - ٣٢ تشريع من المدينة: المحسنون هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاَّ اللمم ، لا الذين يزكون أنفسهم: هل تقصد اليهود؟

٣٣ - ٥٦ سورة مستقلة: لا تزر وازرة وزر أخرى؛ سببها ((والأكثر على أنها نزلت في الوليد بن المغيرة)) (البيضاوي^٤).

٥٧ - ٦٣ خاتمة السورة^٥، وهي سورة مستقلة بنظم مختلف وفاصلة مختلفة: أرففت الألفة!

*

(١) هل كانت رؤيا ملاك الوحي بالبصر أم بالبصيرة؟ - شهادة النص ((ما كذب الفؤاد ما رأى)) (١١) تعني أنها كانت بالخيال والبصيرة .

(٢) أجمع المفسرون على أن سدرة المنتهى في السماء . وللمستشرق الإيطالي كيتاني اجتهاد مرضٍ : أنها عند جنة المأوى قرب مكة (قابل ترجمة القرآن 84 : Blachère 1) وفي (الكامل) للذهلي أن قاب قوسين (نجم ٩) موضع قرب مكة (الإتيقان ١ : ٢٤ سطر ٩) وهكذا تكون الأسماء الثلاثة : قاب قوسين ، وجنة المأوى ، وسدرة المنتهى أسماء أماكن على الأرض في جوار مكة ، لا في السماء . يؤيد ذلك النص الكريم: ظهر ملاك الوحي في الأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فصار منه قاب قوسين أو أدنى ؛ ودليل آخر من قوله ((نزلة أخرى)) فعلة من النزول إشعاراً بأن الرؤيا في هذه المرة أيضاً كانت بنزول ودنو (البيضاوي) لا بصعود إلى السماء .

(٣) قصة الغرانيق العلى . قال الجلالان : ((قرأ النبي بمجلس من قريش (أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى) - نجم ١٩ - ٢٠ - بإلقاء الشيطان على لسانه : ((تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى)) ففرحوا بذلك . ثم أخبره جبريل بما ألقى الشيطان فحزن . فسألني بآيات الحج ٥٢ - ٥٤ .)) وفي أسباب النزول يذكر السيوطي قصة الغرانيق ويعلق عليها مؤكداً ((قال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا)) . وقال الحافظ بن حجر: ((كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً)) . والنص الكريم يتطلب جواباً على ((أفرأيتم)) ؛ فالجملة مبتورة لا جواب فيها للسؤال ، ربما كان الجواب فيها ما ألقاه الشيطان على لسانه .

(٤) الآية ((وان ليس للإنسان إلا ما سعى)) فيها أقوال فمنهم مع ابن عباس من قال إن الآية منسوخة بقوله : ((والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما لتناهم)) - ومنهم من قال إنها محكمة .

(٥) في سورة النجم يصرح مرتين بمصادر القرآن : إنه جملة في زبر الأولين (الأعلى) وتفصيلاً في صحف إبراهيم وموسى (نجم ٣٧) لذلك فهو نذيرٌ من النذر الأولى (نجم ٥٦) .

الرابعة والعشرون: عبس (٨٠): تأديب الرب للنبي على عمل.

هذه السورة مجموعة متفرقات كما يدل عليها تغيير الفاصلة.

١ - ١٠ مقطع مستقل. عتاب للنبي الذي عبس في وجه أعمى وتولى عنه، وتصدى لمن استغنى من صناديد قريش.

١١ - ٢٣ ثم ٣٨ - ٤٢ مقطعان تجمعهما وحدة الفاصلة في سورة مستقلة: دعوة إلى الإيمان بهذه ((التذكرة)) عن يوم الدين.

٢٤ - ٣١ مقطع مستقل بفاصلة مختلفة: برهان القيامة مثل النبات يخرج من الحَب وبرهانه من خلق الإنسان من نطفة!

٣٢ - ٣٧ مطلع سورة مستقلة: إذا جاءت الصاخة!

*

الخامسة والعشرون: القدر (٩٧): في نزول القرآن.

في هذه السورة أول تصريح عن زمن نزول القرآن: إنا أنزلناه في ليلة القدر^١ وهي خير من ألف شهر^٢. وعن كيفية نزوله في تلك الليلة: نزل بواسطة الملائكة والروح كما ينتزلون بإذن ربهم من كل أمر^٣! والسورة محكمة.

*

السادسة والعشرون: الشمس (٩١): تحريض على التقوى.

١ - ١٠ تحريض بأقسام على الطريقة القومية^٤.

(١) ((إنا أنزلناه)) - لم يعود الضمير ؛ قالوا : للقرآن . وليس من قرينة لفظية أو معنوية تدل عليه في السورة كلها : فهو مطلع مبتور ... - وما هو سرّ نزول القرآن في الليل ؟ ولو كان في ليلة القدر!
(٢) ليس في نزول القرآن في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، ميزة لأنه نزل مع ما ينزل فيها من كل أمر ((أي قضاء الله من خير وشر لتلك السنة)) (الجلالان) .
(٣) الآية ٤ - اختلاف النظم فيها عن سائر السور يدل على أنها فريدة من زمن آخر ، يؤيد ذلك تعارضها مع الآية ٥ : ((ليلة القدر سلام حتى مطلع الفجر)) فكيف تكون ليلة القضاء بالشر أيضاً ، إذ كل أمر من خير وشر ينزل فيها !

- ولهم في كيفية نزول القرآن تفسيراً غريباً . قال الجلالان : ((نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نجّمه جبريل تنجيماً أو نجوماً على النبي مدة عشرين سنة ونيف . جعلوا لنزول الوحي على محمد وسطاء ، مراتب ، وأوقاتاً مختلفة !

(٤) أمن الإعجاز أن يقسم الخالق بمخلوقاته : الشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض والنفس ؟ وأن يقسم بسبعة أقسام لتوكيد أمر بديهي ؟ وأن تسقط لام القسم في قوله ((قد أفلح)) : قال الجلالان ((سقطت

١١ - ١٦ تحريض آخر بمثل قصة ناقة صالح في ثمود^١.

*

السابعة والعشرون: البروج (٨٥): تثبيت المؤمنين بمثل شهداء نجران النصارى.

فذلكة : السورة وحدة تامة بالنظم والفاصلة، فاتحة وخاتمة، ولكن يفصل فيها بين قصة أصحاب الأخدود وبين حديث جنود فرعون وثمود خبر فتنة المؤمنين والمؤمنات الذي يختلف معنى ونظماً وفاصلة .

من هم أصحاب الأخدود ؟ الأصح فيهم ((قيل لما تنصّر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير فأحرق في الأخاديد من لم يرتد)) (البيضاوي) وذلك سنة ٥٢٣ فكان هذا الاضطهاد سبب احتلال الحبشة الثاني لليمن .

وعندنا ، في ما عدا القرآن ، قصة حبشية ، وأخرى سريانية وأخرى رومية لهذا الحدث العربي الشهير قبيل القرآن .

فهذه السورة تدل على وحدة الإيمان في العهد الأول من مكة بين محمد والنصارى فهو يعطي استشهادهم مثلاً للمسلمين ، وبطش الله بالمضطهدين عبرة للمشركين . وما كان القرآن ليذكر هذه القصة في العهد الثاني عندما كان يتعاون مع علماء إسرائيل ويستشهد بهم (٢) .

١ - ٣ فاتحة: يقسم بالسماء واليوم الموعود وشاهد ومشهود. وسقط جواب القسم.

٤ - ٩ قصة استشهاد نصارى نجران لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

١٠ - ١١ مقطع مقحم من زمن آخر يختلف نظماً ومعنى: فتنة المؤمنين؛ والفتنة غير الاستشهاد.

١٢ - ١٨ حديث جنود فرعون وثمود^٢ الذين بطش الله بهم.

لطول الكلام ((- كأن لام القسم أطول من ثمانية آيات القسم ذاته ! ويستعمل (ما) بدلاً من (من) في باني السماء والأرض وخالق النفس .

- الآية ٨ : الله يلهم كل نفس فجورها وتقواها - فكيف تقدر النفس التي ألهمها الله فجورها أن تنزكى وتتقى؟
(١) لا يرد في هذا الذكر الأول لقصة ثمود اسم نبيهم صالح . ثم في الآية ((سواها)) : لِمَ يرجع الضمير؟ هل للعائد إليه في ((عقروها)) أي الناقة كما يقتضي سياق الكلام أم كما يقول الجلالان للاسم المشتق من الفعل دمدم ؟ وفي الآية ١٦ أي عاقبة يخشى الله : عاقبة الناقة أم ثمود أم الدممة ؟ ولم اختلاف العائد في الضمائر المتعاقبة دون قرينة تظهره ؟

(٢) قيل جواب القسم ((قتل أصحاب الأخدود)) على تقدير ((لقد قتل)) والأظهر أنه دليل جواب محذوف ((البيضاوي . وقد يفهم معنى ((اليوم الموعود)) أنه يوم القيامة ولكن ما معنى ((شاهد ومشهود)) ؟
(٣) هل أتاك حديث الجنود ، ((فرعون وثمود)) : ما معنى هذا البديل ((فرعون وثمود)) من ((الجنود)) ؟ - وأصلها ((هل أتاك حديث الجنود ، جنود فرعون وثمود)) ؟

١٩ - ٢٢ خاتمة: الكفار يكذبون بهذا الحديث وهو قرآن مجيد في لوح محفوظ^١.

*

الثامنة والعشرون: التين (٩٥): حال البشرية بعد خطيئة آدم.

يقسم بالتين والزيتون، طور سنين، وهذا البلد الأمين^٢ إن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم^٣ ثم رده لأسفل منه أسفل سافلين.

*

التاسعة والعشرون: قريش (١٠٦) الإباحة لهم بعبادة رب البيت^٤.

فذلكة : على أثر إعلان القطيعة العربية بين محمد وبني قومه « لكم دينكم ولي ديني » (الكافرون) وإعلان التوحيد الخالص (سورة الإخلاص) بدأت حملة اضطهاد على المسلمين ستضطرمهم إلى الهجرة الجماعية إلى الحبشة . فتساهل محمد معهم لإيلاف قريش في عبادة « رب البيت » التي تقبل معنى توحيدياً ، وبقي هذا التساهل في سورة قريش . وكان تساهل معهم في الاستشفاع بالغرائيق العلى ، وهذا لا يتألف مع التوحيد الخالص ، فسقط من سورة النجم . - وقيل إن سورتي الفيل وقريش كانتا واحدة .

(١) ما اللوح المحفوظ ؟ - معنى واحد في القرآن والكتاب ، وتوسّع مجازي في التلمود والحديث . كلمة لوح مأخوذة من العبرية (المتوكلي : للسيوطي) . ولاحظ دقة التعبير القرآني « هو لوح » نكرة لا معرفة . تنص التوراة أن كلمات الله العشر كانت على لوح محفوظ في التابوت ، لذلك فهي القرآن المجيد من التوراة ، المفضل على سواه من الكتاب (تثنية ١٠ : ١ - ٥ ، قابل ١ ملوك ٨ : ٩ والرسالة إلى العبرانيين ٩ : ٣ - ٤) تلك حقيقة اللوح المحفوظ كما جاء بها التوراة والإنجيل ، وجاء بها القرآن « ذكر من معه ومن قبله » . وتوسع اليهود في تلمودهم فقال رابي شمعون بن لاقيش في مدراش على (خروج ٢٤ : ١٢) « اللوحان هما الوصايا العشر ، والتوراة هي « المقره » أي القرآن ، والوصية هي المشنة التي كتبت لتعلمهم الجمارا وقد أوحى بها الله جميعاً لموسى في سيناء » وزادوا أن الله خلق اللوح المحفوظ مع سبعة أشياء عظيمة يوم خلق العالم . وانتشر هذا القصة في البيئة الحجازية وانتقل إلى الحديث فأضفوه على القرآن وجعلوا « لوحه في الهواء فوق السماء السابعة ، طوله ما بين السماء والأرض وعرضه ما بين المشرق والمغرب ؛ وهو من درة بيضاء . قاله ابن عباس » . (الجلالان) .

(٢) تجانس الأقسام يقتضي تفسير التين والزيتون بأنهما جبلان بالشام ، بالأرض المقدسة يُقال لهما بالسريانية « طور تينا ، طور زيتا » (الزمخشري) . والقسم بالجبال المقدسة قسم كتابي مثل القسم بالكتاب المقدس (قابل سورة الطور : والطور وكتاب مسطور) من هنا قالوا إنه يقسم بمهبط الوحي الثلاثة للإنجيل والتوراة والقرآن .

(٣) « أقسم إنه خلق الإنسان في أول أمره في أكمل عقل ودين وعلم ، وذكر أنه انحرف عن هذا فرده أسفل سافلين » (النظم الفني في القرآن ٣٥٥) . أليس في هذا التعليم القرآني إشارة إلى تعليم النصرانية عن الخطيئة الأدمية السارية في الجنس البشري ، إذ تعريف « الإنسان » دليل الجنس كله .

(٤) هذه السورة تدلنا على مصدر زعامة قريش التجارية والحربية والدينية : رحلة الشتاء والصيف ، وعبادة رب البيت . و « رب البيت » اسم أيضاً يطلق على المعبود عند الأنباط في كعبة ذي الشرى ؛ ثم لم تطهر الكعبة بعد من أصنامها فكيف يسمح لقريش المشركة بعبادة رب الكعبة ؟ - وتطورت إلى التوحيد .

السورة الثلاثون: القارعة (١٠١): وزن الأعمال يوم القيامة.

فذلكة : في يوم القيامة (القارعة ، الأزفة ، الحاقة ، الصاخة) يكون ميزان توزن به أعمال الخير والشر . هذه السورة مثال على أسلوب من أساليب القرآن المكي : التفخيم الحسي ، والتضخيم اللفظي. وصف القرآن ليوم الدين لما يتطور بعد ، فالحساب وزن في ميزان لحسنات الإنسان وسيئاته، ويقتصر العقاب على ((عيشة راضية أو نار حامية)) .
*

الحادية والثلاثون: القيامة (٧٥): أيان يوم القيامة؟

فذلكة: سورة في ستة مقاطع ، بأداة استفتاح مختلفة ، وفواصل مختلفة . فهل هذه المقاطع بواقي سور سقطت، أم هي سورة من نظم جديد (١) ؟

١ - ٦ المقطع الأول: يقسم بيوم القيامة على قدرة الله على عمل القيامة: القسم يؤكد تحقيق البعث^٢.

٧ - ١٣ المقطع الثاني: يوم القيامة: متى جُمع الشمس والقمر.

١٤ - ٢٥ المقطع الثالث: للإنسان على نفسه بصيرة بالقيامة ولو ألقى معاذيره.
- تعترض الآيات ١٦ - ١٩ فهي مزيدة لا تمت إلى السورة بصلة سوى أمر عارض عليها^٣.

٢٦ - ٣٠ المقطع الرابع: يوم الفراق متى بلغت النفس التراقي.

٣١ - ٣٥ المقطع الخامس: تحذير المكذب بالصلاة والقيامة.

٣٦ - ٤٠ المقطع السادس: برهان القيامة، من خلق الإنسان من مُني، وفصله إلى ذكر وأُنثى.

*

الثانية والثلاثون: الهمة (١٠٤): دعوة إلى الزهد في معرض ذم المال.

فذلكة: حملة على أكابر قريش المجرمين: ((ويل لكل همزة لمزة)) فلا تقصد شخصاً بعينه (٤) . تفهم هذه الحملة بعد فشل تساؤل النبي في قصة الغرانيق وفي عبادة رب البيت .
*

(١) هذه السورة من النوع المسمى باللغة الأجنبية genre strophique ، إن لم تكن مقاطعها بواقي سور سقطت .

(٢) الأحرف : لا (١ و ٢) وكلا (١٢ و ٢٠ و ٢٦) أدوات استفتاح . وجواب القسم محذوف .

(٣) لم يعود الضمير في هذه الآيات العارضة ١٦ - ١٩ ؟ يقولون للقرآن ، مع أنه لا ذكر له ! غموض الضمائر يخلق مضائق .

(٤) نار الله الموقدة سماها هنا ((الحطمة)) وفي القارعة ((الهاوية ، نار حامية)) . وقابل ((ويل لكل همزة)) في القرآن بقول الإنجيل ((ويل لكم أيها الأغنياء)) (لوقا ٦ : ٢٤) وويلات علماء الناموس (متى ٢٧) .

الثالثة والثلاثون: المرسلات (٧٧): ويل للمكذابين بيوم الدين!

فذلكلة : فيها مطلعان مستقلان أحقا بالسورة ، وعشرة مقاطع يستفتحها بالويل للمكذابين (١) . قابل هذه الويلات القرآنية بالويلات الإنجيلية للمكذابين برسالة المسيح (متى ٢٣) .

١ - ٧ مطلع أول مستقل زيد هنا: يقسم بالرياح المرسلات: إنما توعدون لواقع!^١
٨ - ١٤ مطلع ثان مستقل أيضاً بروي آخر: علامات الساعة: طمس النجوم وشق السماء

...

١٥ - ١٨ ((نهلك المكذابين المجرمين مثل الأولين)) .

١٩ - ٢٣ برهان القيامة: مثل خلق الإنسان، من ماء مهين في قرار مكين.

٢٤ - ٢٧ برهان آخر للقيامة: مثل جميع الأرض للأحياء والأموات معاً، ثم إخراج الماء من الرواسي الشامخات.

٢٨ - ٣٣ وصف جهنم: ظلّ ذو ثلاث شعب من نار.

٣٤ - ٣٦ حالة الهالكين: مجرمون لا يحق لهم الكلام.

٣٧ - ٣٩ هذا هو يوم الفصل والشماتة بالمجرمين.

٤٠ - ٤٤ حالة الخالسين: في ظلال وعيون،^٣

٤٥ - ٤٦ تحذير للكافرين ساخر.

٤٧ - ٤٨ ويل لهم لأنهم لا يصلون!

٤٩ - ٥٠ ختام: ويل للمكذابين بعد هذا: بأي حديث بعده يؤمنون^٤ .

*

(١) تروض النبي على الخطابة : هذه سورة من نظم يختلف عن سواها ويقربها من الشعر المنثور . الآية ١٥ منها تصلح ((لازمة)) لكل المقاطع ، وهنا أظنها مطلعاً لكل مقطع بسبب وحدة الروي مع ما بعدها بخلاف ما قبلها . لذلك ترد قبل آخر مقطع لا بعده .

(٢) أقسام الاستفتاح : يعطي عنها البيضاوي ثلاثة تفاسير ، والرازي والطبري خمسة . وعندني إن القسم يختلف كلما عطف بالفاء . وهذا المطلع مأخوذ من الزبور : ((باركي يا نفس الكائن ... الجاعل الرياح رسلاً له)) (مزمور ١٠٣) .

(٣) أول وصف قرآني لسعادة السماء : إنها أكل وشرب في جنة غناء ذات ظلال وعيون ، تختلف عن صحراء الحجاز . وقد يكون الوصف مجازياً لإفهام الأعراب .

(٤) في هذه الخاتمة يعتبر النبي قرآنه ((حديثاً)) على الإيمان باليوم الآخر .

السورة الرابعة والثلاثون: ق (٥٠): يوم الخروج خلق جديد.

فذلكلة : فيها سورتان ممزوجتان، من عهدين مختلفين تجمعهما مجانسة الفاصلة . فيها من المنسوخ آيتان.

مطلع: (١) - ((ق والقرآن المجيد^١ ...)) مطلع مبتور عن السورة الثانية، تدل عليه وحدة الروي والقسم ذاته^٢.

السورة الأولى: يوم الخروج (٢ - ١٥ ثم ٤١ - ٤٥).

(٢ - ١٥ ثم ٤١ - ٤٥) يوم الخروج.

٢ - ٣ مطلع: عجبوا أن جاءهم منذر منهم^٣ بالقيامة!

٤ - ٥ علم الله في كتاب حفيظ.

٦ - ٨ برهان البعث خلق السماء والأرض: البعث مثل الخلق.

٩ - ١١ برهان آخر: خروج الموتى مثل خروج الحبوب من الأرض بالمطر.

١٢ - ١٥ قصصُ المكذبين الأولين عبرة للآخرين.

٤١ - ٤٣ يوم الصيحة هو يوم الخروج.

٤٤ - ختام السورة الأولى: ما أنت عليهم بجبار فنذكر بالقرآن^٤.

السورة الثانية: البعث خلق جديد (١٦ - ٤٠)

١٦ - ١٧ مطلع: ((ق والقرآن المجيد^١: يعلم الله وسوسة النفس بواسطة الملائكة الحفظة.

١٨ - ٢٢ يوم الوعيد يوم النفخ في الصور^٥.

(١) القسم بالقرآن (١) مثل القسم بالكتاب فهو من العهد الثاني ، كذلك الدعوة للتوحيد (٢٦) واسم الجلالة الرحمان (٣٣) بينما الدعوة لليوم الآخر ميزة العهد الأول .

(٢) و ((القرآن المجيد)) هل هو قسم بالقرآن ؟ قد يكون ذلك . ولكن لم يجمع القرآن ولم تجر بعد عادة القسم به حتى يقصد القرآن ذاته . بل هو قسم كتابي : كان اليهود يقسمون ((بالمقرا)) وهو كلمة قرآن بالصيغة العبرية فأخذ عنهم الكلمة والقسم بها . في هذه السورة ظاهرتان جديدتان : القسم بالقرآن لأول مرة ، وذكر الرحمان لأول مرة .

(٣) إلى الآن لا يعتبر محمد ذاته سوى منذر (٣) أو مذكر (٤٥) .

(٤) الآية ٣٩ ((لست عليهم بمسيطر)) نسخها بالآية ((جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم)) (النحاس ٢٥٧).

(٥) الآية ٢١ ((بصرك اليوم حديد)) تعارضها الآية ٤٤ من حم غسق ((خاشعين من الذل ينظرون من طرف

خفي)) وتنقضها الآية ١٢٤ من سورة طه ((ومن أعرض عن ذكري ... نحشره يوم القيامة أعمى)) .

٢٣ - ٣٠ هلاك المشرك الذي جعل مع الله إلهاً آخر.

٣١ - ٣٥ الجنة لمن خشى الرحمان.

٣٦ - ٣٨ برهان التوحيد: من القرون الخوالي (٣٦ - ٣٧) ومن خلق السماوات والأرض (٣٩)¹.

٤٠ - ختام: قيام الليل للصلاة².

*

الخامسة والثلاثون: البلد (٩٠) دعوة إلى الزهد

فذلكتة : في هذه السورة ثلاثة أقسام بموضوع مختلف ، ونظم مختلف وروي مختلف . وهي محكمة .

١ - ٧ يقسم ٣ بهذا البلد³ وهو حلٌ فيه⁴ ووالد وما ولد⁵ أن الإنسان خلق في كبد.

٨ - ١٦ سورة أو مقطع من سورة مستقلة، بنظم ذي ثلاث فواصل: دعوة إلى العدالة الاجتماعية⁶.

(١) ق ٣٩ فيها ثلاثة منسوخات: ((فاصبر على ما يقولون)) : نسخه بآية السيف في براءة . وقوله ((وسبح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب)) منسوخة بما صح عن رسول الله ص أنه لا يجب على أحد إلا خمس صلوات نهائية . وقوله ((وأدبار السجود)) بين العلماء فيه اختلاف. أما قوله ((ومن الليل فسبحه)) فيه تخفيف لقيام الليل أو نصفه أو ثلثه ، وهذا التخفيف ذاته نسخ أيضاً .

(٢) قيام الليل للصلاة دليل على دوام التأثير المسيحي على محمد ، فالعادة مسيحية ، لا عربية ولا يهودية .

(٣) ((لا أقسم)) : ظاهر القول نفي القسم ، وفي سورة التين يقسم ((بهذا البلد الأمين)) : لذلك فهو يقصد القسم ، ((فلا)) زائدة وفيها لبسٌ - فما وجه الزيادة التي فيها إبهام ؟ تقول ليست زائدة بل هي أداة استفتاح للتنبيه مثل ((كلاً)) .

(٤) ((بهذا البلد)) أي مكة: لم تطهر بعد من الأصنام فهل يحل القسم التوحيدي بها ؟ - إنما هي عادة قومية جرى عليها.

(٥) ((وأنت حلٌ بهذا البلد)) بمعنى ((حال)) أي مقيم ، أو بمعنى ((حلال لك)) ؛ والأولى أولى . والآية معترضة ليحل القسم بعاصمة الشرك .

(٦) ((ووالد وما ولد)) : لاحظ ((ما)) للعاقل . ومن هما ؟ قال البيضاوي: ((الوالد آدم وإبراهيم ، وما ولد ذريته أو محمد)) لا شيء في التعبير يدل على هذا التفسير . إنما هو قسم عربي بالله وعيسى جرى فيه على عادة بعض قومه المسيحيين ، كما في القسم بالبلد الحرام : فجمع القسم المسيحي إلى القسم القومي وهذا من دلائل التأثير المسيحي على البيئة وعلى القرآن .

(٧) الإصلاح الاجتماعي المطلوب يشبهه ((بالعقبة)) أي الطريق الصعبة في الجبل : فأعمال الخير الصعبة المنشودة هي فكٌ رقة أو إطعام يتيم أو مسكين في يوم عسرة . قابل أشعيا النبي ٥٨ : ٦ - ٩ .

١٧ - ٢٠ مقطع من سورة أخرى يختلف نظاماً وروياً: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة^١.

*

السادسة والثلاثون: الطارق (٨٦) « وكل نفس عليها حافظ » .

فذلكة : في السورة قسمان يروي مختلف ، وفيها من المنسوخ موضع ولا ناسخ فيها .

١ - ١٠ يقسم السماء الطارق أن الذي خلق الإنسان من بين الصلب والترائب قادر على بعثه من التراب.

١١ - ١٧ سورة مستقلة يستفتحها بالقسم كالعادة: بالسماء الماطرة والأرض والفاطرة أنه لقول فصل^٢.

*

تنبيه

(١) ليس الترتيب السابق للسور بقاطع فقد يختلف وقد تتداخل وينزل بعض من سورة قبل بعض^٣.

(٢) بعض مقاطع من سور العهد الثالث بحسب ترتيب المسلمين، هي من العهد الأول كما يدل عليها أسلوبها وموضوعها: الصافات والجاثية والذاريات والغاشية والطور والحاقة والنازعات والانفطار والانشقاق - خصوصاً في الآيات التي يستفتحها بالأقسام القومية.

(٣) جاء في الإتيان (١ : ١٨) أن سورة مريم ((مما حمل إلى الحبشة فقد صح أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النجاشي - أخرجه أحمد في مسنده)) . فهي ذروة التأثير المسيحي. لذلك فالسور: القمر و صَ والأعراف والجن ويس والفرقان وفاطر ومريم هي سور فترة انتقال من العهد الأول إلى العهد الثاني حيث يقَدِّم الدعوة إلى التوحيد على الدعوة إلى يوم الدين في أسلوب القصص القرآني الذي ظهر سحره في قصص سورة مريم.

*

(١) أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة تعبير إنجيلي (متى ٢٥ : ٣٣) .
(٢) ((إنه لقول فصل)) لم يعود الضمير ؟ - قيل للقرآن ؛ والنص لا يذكر سوى إمهال الكافرين .
(٣) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٢٥ - ١٣٢ وفيه تحليل جميل .

الفصل الرَّابِع

« العهد المسيحي في القرآن »

- تعليق على العهد الأول بمكة -

أوائل الدعوة عند كل نبي ذات قيمة فريدة لأنها تدل على بواعث تلك الدعوة، وعلى أهدافها الأولى وعلى موضوعها الأساسي. وهذا التعليق على العهد الأول بمكة يتناول أسلوب القرآن الأول وموضوعه وصلته بالكتاب الذي نزل من قبل.

*

بحث أول : أسلوب الأقسام القومية « والجمال الفني »

« إن هذا إله سحر يؤثر ! » المدثر ٢٤

« يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر ! » القمر ٢

قال البيهقي^١ عن الحسن في (شعب الإيمان) أنزل الله مئة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة والزبور والإنجيل والفرقان. ثم أودع علوم التوراة والزبور والإنجيل: الفرقان - ثم أودع علوم الفرقان: المفصل. ثم أودع المفصل: الفاتحة؛ فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة .

(١) السيوطي : الإتيان ٢ : ١٠٦ .

وروى وائلة عن النبي^١ قال: ((أعطيتُ مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المثني، ومكان الإنجيل المثاني، وفضلتُ بالمفصل^٢)) .

فالمفصل يعني سور القرآن القصيرة وأكثرها من العهد الأول بمكة. وبه فضل النبي الأمي على سائر الأنبياء، والقرآن على سائر الكتب المنزلة، من التوراة إلى الزبور إلى الإنجيل، لأنه أودع جميع علومها، فقام مقامها.

وها أنت قد استقرت ستاً وثلاثين سورة، من بينها الفاتحة، وجميعها أول ما نزل من القرآن: فهل وجدت في هذه السور، وفي هذا المفصل، علوم التوراة والزبور والإنجيل؟ بل هل وجدت فيها ما يميّز القرآن المكي من قصص، وما يميّز القرآن المدني من تشريع؟

فليس فيها من عقيدة جديدة!

وليس فيها من شريعة جديدة!

وليس فيها من دين جديد بتعليمه أو بطريقته!

قال سيد قطب^٣: ((وإننا لننظر فلا نجد فيها إلا القليل من تلك الأغراض التي يراها بعض الباحثين أكبر مزايا القرآن: إننا إذا استثنينا إشارة سريعة إلى خلق الإنسان من نطفة، وتنويع الأشكال والألوان في سورة فاطر، وخلق الإنسان من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب في سورة الطارق، لا نجد علوماً كونية في هذه السور على وجه الإجمال. وكذلك لا نجد التشريع. ولا نجد النبوات. ولكننا نجد في هذه السور كما نجد في سواها من السور المدنية والمكية على السواء مثلاً من ذلك الجمال الفني الذي ضربنا عنه الأمثال)) .

جمالها الفني رائع لا ينكر. ولكن هل الجمال الفني، والإعجاز البياني، هو الدين النهائي، والحقيقة الخالدة، والشريعة المنقذة التي كانت البشرية تنتظرها، على فترة من الرسل، وبعد المسيح والإنجيل، من ((خاتمة الأنبياء والمرسلين)) ؟

(١) دروزة : القرآن المجيد ٦٨ .

(٢) رُتّب القرآن بحسب مبدأ الطول والقصر : السبع الطوال ، وهي السور التي تتصدر القرآن ، ثم يليها المثاني أي ما فوق المئة آية ، ثم المثني أي ما دون المئة آية ثم المفصل أي السور القصيرة ، سُميت كذلك لتعدّها وكثرة الفصل بينها .

(٣) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ٢١ .

كانت البشرية تنتظر، في مطلع القرآن، الجامع لعلوم التوراة والإنجيل والزبور، إعلان دستور إيمان، وثيرة أخلاق أسمى مما جاء به موسى في ((الكلمات العشر)) في بدء التنزيل على سيناء. وستبقى شرعة الأخلاق الإنسانية مدى الدهر.

كانت البشرية، على فترة من الرسل والمسيح، تنتظر في ((الفاتحة)) و ((المفصل)) - اللذين بهما فضّل النبي العربي عمّن سواه من المرسلين - إيماناً جديداً يجدد علاقات الخالق بالمخلوق، والمخلوق بالخالق، وأخيه المخلوق، أفضل من الدعائم التي وضعها المسيح في خطابه الأول التأسيسي على الجبل فقد ختم المسيح أنبياء الكتاب بإعلان دين جديد، مبني على عقيدة جديدة وشرعية جديدة وحياة دينية جديدة: علم أن الله، فوق كل صفاته، أب للإنسان، والإنسان بعد المسيح ليس عبداً بل هو ابن؛ فحوّل الدين - علاقة المخلوق بالخالق - من علاقة عبد بسيده الخالق، إلى علاقة الأب الذي في السماوات بأبنائه الذين على الأرض؛ وعلاقة الإنسان بالله إلى علاقة ابن بأبيه السماوي. لذلك فالشرعية التي تربط المخلوق بالخالق، أو المخلوق بأخيه المخلوق، هي شرعية المحبة البنوية والأخوية: فجعل المحبة روح التشريع الإنجيلي منذ أول عظة. وصهر الحياة المسيحية، كما في فاتحة الإنجيل ((أبانا الذي في السماوات)) : بأن يتقدس اسم الله الأب فينا، وأن يأتي ملكوته فينا، وأن تكون مشيئته فينا، وذلك كله كما في السماء كذلك على الأرض؛ وأسس الحياة الدينية الجديدة على الإيمان بهذه الأبوة الإلهية، وهذه البنوة الإنسانية؛ وعلى العمل بهذه المحبة البنوية لله، والأخوية للإنسان، كلّ إنسان. وأعطى مثال الحياة المسيحية الإنجيلية، المبنية على تلكما العقيدة والشرعية، هاتين القاعدتين الذهبيتين: ((فأنتم إذن كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل)) (متى ٥ : ٤٨) ((وإذن كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم أيضاً بهم: فذلك هو الناموس والأنبياء)) (متى ٦ : ١٢).

فهل في ((المفصل)) ما يغني عمّا في الإنجيل، كما يقولون؟ وهل ((الجمال الفني)) في المفصل ((أفضل)) وأجمل من الحياة الدينية التي يدعو إليها الإنجيل؟

فاتحة القرآن تحمد الله على أنه رب العالمين، الرحمان الرحيم، ملك يوم الدين. وفاتحة الإنجيل ((أبانا الذي في السماوات)) تصف الرحمان الرحيم أنه ((أبانا)) ، وتصف رب العالمين وملك يوم الدين أنه ((الذي في السماوات)) أي رباً على العالمين وسيداً يوم الدين.

فاتحة القرآن تطلب الهداية إلى الصراط المستقيم. وفاتحة الإنجيل تطلب وتفصل أن ((يتقدس اسم الأب السماوي، ويأتي ملكوته، وتكون مشيئته - كما في السماء كذلك

على الأرض)) . أجل فاتحة القرآن رائعة؛ ولكنها لا تغني عن فاتحة الإنجيل. فالقرآن ((تصديق وتفصيل)) للإنجيل لا نسخ أو تعديل أو إكمال .

وهذا ما حمل العلامة بتاريخ الأديان، جولدتسيهر، بحسب ترجمة علماء الأزهر، على القول: ((محمد لم يبشر بجديد من الأفكار، كما لم يمدنا أيضاً بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسّه وشعوره، وباللانهاية. لكن هذا وذاك لا ينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية)) .

وهكذا فليس من جديد في الدعوة القرآنية الأولى - كما يرى سيد قطب وأمثاله - سوى ((الجمال الفني)) .

*

وهذا ((الجمال الفني)) المعجز، ما هو أسلوبه؟

أسلوب القرآن المكي الأول يمتاز بعدة طرائق: منها المناداة: ((يا أيها المزمّل! : يا أيها المدثر!)) ؛ ومنها السؤال بأنواعه البيانية: ((أرأيت الذي يكذب بالدين؟ .. ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟ .. وما أدراك ما القارعة؟ .. وما أدراك ما الحاقة؟ .. وما أدراك ما ليلة القدر! .. ألم يعلم بأن الله يرى؟ .. ألم يجدك يتيماً فأوى؟ ..)) ومنها الاستفتاح بأداةٍ مثل ((لا)) و ((كلاً)) : ((كلاً، إن الإنسان ليطغى ... كلاً، لئن لم ينته لنسفحن بالناصية ... لا! أقسم بهذا البلد ...)) ومثل ((هل)) : ((هل أتاك حديث الغاشية ؟)) والاستفتاح بالفعل ((قل)) : ((قل أيها الكافرون)) والاستفتاح ((بإذا)) : ((إذا السماء كورت ... إذا السماء انفطرت ... إذا السماء انشقت)) ؛ ومنها الترديد للتقرير: ((الحاقة! ما الحاقة؟ .. القارعة! ما القارعة؟ .. إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق ... الذي علّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ... إن مع العسر يسراً! ...)) ؛ ومنها الاستعادة: ((أعوذ برب الفلق! .. أعوذ برب الناس!)) .

ولكن أسلوب السور القرآنية الأولى الذي يميّزها عن سواها من كل العهود هو تلك

(١) أجناس جولدتسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٥ - ترجمة علماء الأزهر - الذين علقوا بقولهم: ((جاء على فترة من الرسل وغواية وعمى من الأمم ، والناس في شرك وعبادات باطلة فهدى الناس وسنّ لهم الله على لسانه بما أوحى إليه ما كان فيه شفاء لهم وإخراج لهم من الظلمات إلى النور)) - هداية الناس عمل رسولي عظيم ، ولكن هل في هذه الهداية هدى جديد ؟ هذا ما يعنيه الاستاذ .

الأقسام القومية الغربية: إنه يقسم بكل شيء إلا بإله التوحيد. وجاء في الإتيقان^١: «القسَم في خمس عشرة سورة: أقسم فيها بالملائكة (والصافات صفاً) وسورتان بالأفلاك (والسماوات ذات البروج! والسماوات والطارق!) وست سور بلوازمها: (والنجم!) قسم بالثريا، (والفجر!) بمبدأ النهار، (والشمس!) بأية النهار، (والليل) بشطر الزمان، (والضحى!) بشطر النهار، (والعصر!) بالشطر الآخر، أو بجملة الزمان؛ وسورتان بالهواء الذي هو أحد العناصر (والذاريات!) (والمرسلات!) وسورة بالترربة التي هي منها أيضاً وهي (الطور)؛ وسورة بالنبات (والتين والزيتون!) وسورة بالحيوان الناطق وهي (والنازعات!) وسورة بالبهيم وهي (والعاديات!).»

- فهل من «الجمال الفني» والإعجاز الإلهي أن يقسم الخالق بمخلوقاته؟

نقل فريد وجدي في مقدمة تفسيره (ص ١١٧): «قال كوسان دوبرسفال: من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس. فكانت كانت تدين للقمر والدبران. وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري. وكان الأطفال من بني عقد يدينون لعطارد. وكان بنو طي يدعون سهيلاً. وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية». كانت عبادة العرب الأقدمين فلكية، يعبدون الشمس والقمر والكواكب، ويخشعون لمظاهرها الباهرة من ليل ونهار، وفجر وعصر، وضحى ومساء. وكانوا يقسمون بها تقرباً منها وزلفى. قال عن ملكة سبأ «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله» (سبأ ٢٤). ولما تحولوا من الوثنية إلى الشرك فالتوحيد، ظلت رواسب الوثنية في تعبيرهم وأقسامهم ودخلت الأدب ولغة الكهان والعرافين. ولما نزل القرآن الأول اتبع النبي طريقة قومه في الأدب الديني، فأقسم معهم، وهو «أول المسلمين» بكل الخلائق سوى الخالق؛ قال السيوطي^٢، «إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون». وكان يقول: «لا تسجدوا للشمس ولا للقمر، واسجدوا لله الذي خلقهن!» (فصلت ٢٧).

- ولكن هل في اتباع طريقتهم الأدبية في الأقسام الوثنية جمال الأسلوب وكمال التنزيل؟

جاء في النبيين على لسان أشعيا: «إني أنا الله، وليس آخر! بذاتي أقسمت، ومن فمي خرج الصدق، كلمة لا ترجع: إنها لي ستجتو كل ركة! وبني سيقسم كل لسان!»

(١) السيوطي. الإتيقان ٢: ١٠٦ فصل قيم عن أقسام القرآن في ٢: ١٣٥.

(٢) الإتيقان ٢: ١٣٥.

(٤٥ : ٢٣). فالقسم دليل الإيمان والعبادة، والقسم بالله شهادة للتوحيد، والقسم بغير الله انحراف عن التوحيد.

ورد في رسائل الحواريين الملهمة: ((إن الناس يقسمون بمن هو أعظم منهم، وينقضي كل خصام بينهم بالقسم. وإن الله لمّا وعد إبراهيم، لم ولم يكن بالإمكان أن يقسم بما هو أعظم منه، أقسم بنفسه قائلاً: لأباركنك! وأكثرنك!)) (عبر ٦ : ١٣ - ١٦). فهذا هو الكلام الذي يليق بالخالق. وكان المسيح إذا أراد التوكيد والجزم يقول: الحقّ! الحقّ! الحقّ أقول لكم!)) (متى ٥ : ٢٢ و٢٦؛ ٦ : ٢ و١٦) أو يكتفي بالتوكيد: ((أمّا أنا فأقول لكم)) (متى ٥ : ٢٢، ٢٨، ٣٢، ٣٩، ٤٤) - فهذه هي الأقسام التي تليق بالخالق.

لذلك حرم المسيح كلّ قسم إلا بالله: ((سمعتم أنه قيل للأولين: لا تحنث، بل أوف بالله بأقسامك. أما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا البتة! لا بالسماء لأنها عرش الله، ولا بالأرض لأنها موطن قدميه، ولا باورشليم لأنها مدينة الملك العظيم، ولا تحلف أيضاً برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة منه بيضاء أو سوداء: فليكن كلامكم النعم نعم، واللا لا. وما يزداد على ذلك فهو من الشرير)) . (متى ٥ : ٣٣ - ٣٧) .

قال أيضاً جولدتسيهر، بحسب ترجمة علماء الأزهر: ((لقد كانت السور الأولى في النزول على الشكل الذي تعود الكهّان القدماء وضع نبواتهم فيه؛ ولو جاء في شكل آخر، لما رضي أي عربي أن يرى فيه قرآناً موحى من الله)) . فأجاب سيد قطب^١: ((لننظر في السورة الأولى، سورة العلق، إنها تضم خمس عشرة فاصلة قصيرة، ربما يلوح في أول الأمر أنها تشبه ((سجع الكهان)) أو ((حكمة السجّاج)) ممّا كان معروفاً عند العرب إذ ذاك. ولكن العهد في هذه وتلك أنها جمل متناثرة لا رابط بينها ولا اتساق. فهل هذا هو الشأن في سورة العلق؟ الجواب: لا! فهذا نسق متساوق يربط فواصله تناسق داخلي دقيق)) . وفات الأستاذ أن الآيات الخمس الأولى من زمن، وما بعدها من زمن آخر يختلف موضوعاً ونظماً. قال دروزة^٢: ((ترتيب السور القرآنية الماثورة جميعها تضع سورة العلق أول السور، بسبب أولية آياتها الخمس الأول على الأرجح؛ لأن مضمون الآيات التالية يدل على أنها تأخرت عنها وقتاً ما، إذ احتوت صورة لموقف أحد الطغاة

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام ص ٣ .

(٢) التصوير الفني في القرآن ص ١٧ .

(٣) سيرة الرسول ١ : ١٢٢ .

من النبي ص. ولا يعقل هذا إلا بعد أن تلقى النبي الأمر بالدعوة وسار في تنفيذ الأمر شوطاً ما ((وكذلك القول عن آيات القلم الأربع الأولى وما يليها من حملة شديدة على بعض الزعماء، وعن الآيات التسع الأولى من المزمّل)) وأن ما بعدها نزل متأخراً عنها أو عن الآيات السبع الأولى من المدثر، والآيات التالية لها التي ((تحتوي حملة على زعيم جاحد ... وإذا صح نزول الآيات الأولى للسور الثلاث السابقة - العلق والقلم والمزمّل - لحدتها يكون الاتساق قد تم)) .

وعليه نقل السيوطي^٢ قول أحد العلماء: ((يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره؛ فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط. ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه ألا يربط ركيك يصاب عن مثله حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه)) . وأنت رأيت أن سور العهد لا تشكّل كل منها وحدة تامة، بل هي كما يقول دروزة^٣ ((مجموعات متداخلة بعضها ببعض في زمن النزول)) مثل سور الأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والعاديات والتين والتكاثر والقارعة الخ الخ هي التي نزلت ... قبل الآيات التالية لمطالع السور الأربع الأولى - العلق والقلم والمزمّل والمدثر - إذا صح القول بأن هذه المطالع نزلت منفصلةً ومبكرة عن بواقيها)) وهو صحيح يدل عليه اختلاف الموضوع والنظم^٤ .

مع ذلك فقد سحر القرآن الأول العرب، ولم يجدوا ما يصفونه به سوى كلمة ((سحر)) وإلى الآن يسحر السامعين بإيقاعه وأسلوبه. ولكنه على حد قولهم ((إن هو إلا سحر يؤثر)) (المدثر ٢٤). وظل سادة مكة يلاحقونه بهذه التهمة ((يعرضوا ويقولوا: سحر مستمر)) (قمر ٢) حتى تحول عن طريقة قومه في أقسامهم الغريبة إلى أسلوب أهل الكتاب، في العهد الثاني.

(١) دروزة: سيرة الرسول : ١ : ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الإتيقان : ٢ : ١٠٨ .

(٣) سيرة الرسول : ١ : ١٢٥ .

(٤) يظهر أن التفكك وقلة التناسق في المجموعات القرآنية كان ملحوظاً منذ زمن النبي. جاء في (أسباب النزول للسيوطي: ((أخرج ابن إسحاق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : أتى النبي ص. سلام بن مشكم في عامة يهود سماءهم فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ؟ وإن هذا الذي جئت به لا نراه متناسقاً كما تناسق التوراة فأنزل علينا كتاباً نعرفه، وإلا جنناك بمثل ما تأتي به . فأنزل الله (أول تحد بالقرآن) : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)) (الإسراء ٨٨) - قال الجلالان ((لا يأتون بمثله : في الفصاحة والبلاغة)) - لا في التناسق .

بحث ثان : الدعوة القرآنية الأولى أقرب إلى المسيحية

((ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى))
الضحى (٧ - ٨)

ظاهرة القرآن المكي العامة : انتساب، وأمة واحدة

وما صلة هذا الوحي بالقرآن الأول بالكتاب؟

في القرآن المكي كله ظاهرة عامة: ما بين القرآن والكتاب **انتساب ونسب**. وهذا الانتساب إلى الكتاب وأهله، وهذا النسب القائم بين القرآن والكتاب يجعل من أمم التوحيد المنزل **أمة واحدة**: ((إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)) (أنبياء ٩٢) ويكرر التأكيد: ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)) (مؤمنون ٥٣).

منذ سورة القلم يشير في معرض الردّ على المشركين: ((أم لكم كتاب فيه تدرسون: إن لكم فيه لما تخيرون ... أم عندهم الغيب فهم يكتبون؟)) (٣٧ و ٤٢): فهناك كتاب يدرس، وغيب عنه يكتب! يصرّح: ((فلا! أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ! وما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون! ولا بقول كاهن، قليلاً ما تذكرون! تنزيل من رب العالمين)) (حاقة ٣٨). وهذا التنزيل بواسطة رسول كريم يذكر لنا مصادره في كل ساحة: منذ سورة الأعلى يقول: ((إن هذا (القرآن) لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى)) (أعلى ١٨). إنه في الصحف الأولى جملة وتفصيلاً: ((أولم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وقى ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى)) (نجم ٣٧ - ٤٢). وأخبار القرون الماضية هي أيضاً في الكتاب: ((وكل شيء فعلوه في الزبر)) (نجم ٥١) ((أي زبر الأولين، كتبهم كالتوراة والإنجيل)) (الجالان) ومعجزة محمد التي تؤيده وتشهد له، أنه بلغ قومه ما في تلك الصحف الأولى: ((قالوا: لولا يأتينا بأية من ربه؟ - أو لم تأتكم بينة ما في الصحف الأولى؟)) (طه ١٣٣).

(١) لا نعرف صحف إبراهيم التي كان الحنفاء يعتمدون عليها . ومن هذه الإشارة ترى تطور النبي من الحنيفية إلى الكتابية .

إذن ما بين القرآن والكتاب صلة انتساب ونسب؛ وسيظل يردد ذلك طيلة العهد بمكة: إنه تنزيل من زبر الأولين ((وإنه لتنزيل رب العالمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين. وإنه لفي زبر الأولين)) (شعراء ١٩٢ - ١٩٦). وكيف يكون تنزيل رب العالمين، ومع ذلك فهو في زبر الأولين؟ - هذا سرّ النبي. ظل يستفتح على المشركين بقوله: ((وما آتيناكم من كتب يدرسونها)) (سبأ ٤٤). وإذا اتهموه شتى التهم يجيب: ((أم عندهم الغيب فهم يكتبون)) (الطور ٣٠ - ٤٣). وإذا شك هو من نفسه يُقال له: ((فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك: لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)) (يونس ٩٤). ويأتيه الأمر صريحاً ((أولئك الذين آتيناكم الكتاب ... الذين هدى الله فبهداهم اقتد)) (أنعام ٩٠). وظل حتى النهاية يصرّح بأن القرآن ((آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)) (عنكبوت ٤٩). وهذا الانتساب والنسب يجعل من أمم التوحيد المنزل أمةً واحدة (أنبياء ٩٢ مؤمنون ٥٣).

فترى منذ البدء صراعاً بين النزعة القومية والنزعة الكتابية في الأسلوب الذي يتحرّر من طريقة قومه إلى طريقة أهل الكتاب.

ونلاحظ في القرآن المكي أنه يذكر الكتاب على العموم، وأهل الكتاب على العموم، دون تمييز بين الكتب المنزلة، والأمم الكتابية المختلفة. ذاك شأن القرآن المدني،

ونرى حيناً ميلاً ظاهراً إلى المسيحية، وحيناً ميلاً أظهر إلى الموسوية. بقي علينا أن نحدّد تأثير كل نزعة عليه.

ونلمس أن التأثير المسيحي هو الغالب في العهد الأول بمكة.

*

أولاً: بيئة محمد قبل بعثته: حنيفية كتابية مسيحية.

(١) البيئة المسيحية في مكة

يوم بعثة النبي العربي، كان في مكة، وسط الشرك الحاكم المتحكم أقلية موحدة. فالوثنية العربية القديمة كانت قد زالت من الوجود في مكة والحجاز والجزيرة، ولم يبق منها سوى مظاهرها في مراسيم الحج إلى الكعبة، وفي تعابير الكلام كالأقسام الفلكية الغربية. أمست الوثنية شركاً أي عبادة الله الأحد مع غيره من خلقه. وذاك الشرك كان في انحلال فهو شرك ظاهري أكثر منه حقيقي. فقد كانت روح التوحيد تتغلغل في

طبقات الشعب بفضل الدعوات اليهودية والمسيحية، وما انبثق عنهما من حنيفية، حتى شاع التوحيد الكتابي وشع. قال الدكتور جواد علي: ((**فعبادة أهل مكة هي عبادة محمد، وتوحيدهم توحيد إسلامي أو توحيد قريب من التوحيد الإسلامي**)) .

وقد استخلص الأستاذ دروزة من آيات القرآن والآثار الإسلامية أن أكثرية الموحدين في مكة كانوا مسيحيين.

قال في كتاب أول^٢: ((فهذه الآيات^٣ يمكن أن تلهمنا ما يلي: (١) إنه كان في مكة أناس من أهل الكتب السماوية وكانوا من جملة مَنْ اتصل بهم النبي ص ودعاهم إلى التصديق برسالته ومتابعته. (٢) **إنهم لم يكونوا قليلين**. وإن منهم من كان ذا سعة وثروة تمكنه من الإنفاق في سبيل البر والخير. كما أن منهم من كان قوي النفس والشخص بحيث لا يبالي بلوم زعماء المشركين على متابعتهم للنبي ص (قصص ٥٢ - ٥٥). وهذا وذاك يلهمان أن منهم مَنْ كان **أرقى طبقة من أرقاء** وعلمان في خدمة الزعماء والتجار وملك أيمانهم. (٣) إن منهم من كان متميزاً في ثقافته ومعارفه الدينية بحيث كان أهلاً للرجوع إليه واستشهاده في أمر رسالة النبي ص. وإن هذا الفريق لم يكن **نكرة في أوساط مكة** بل كان موضع اعتماد وثقة من العرب أو أهل مكة، ومرجع استفتاءاتهم في الأمور والمعارف الدينية والدنيوية. (٤) إنهم على العموم كانوا رقيقى العاطفة دمثي الأخلاق ثابتين في ما يعتقدون أنه الحق ولو لقوا في سبيل ذلك العنت، **جرين في إظهار عقيدتهم**، وقيد تجلت جرأتهم في متابعة النبي، وسجودهم عند سماع القرآن، وإعلانهم أنه الحق، وعدم مبالاتهم بما كان عليه أكثر أهل مكة وزعمائهم الأقوياء من الموقف الجحودي. وأن منهم من كان مجادلاً حجّاجاً بل ومتطرفاً في الجدل والحجاج. (٥) إن إيراد قصتي ولادة يحيى وعيسى ص. (سورة مريم) وإيراد خبر انكسار الروم النصرى مع بشرى انتصارهم بعد قليل (سورة الروم) والجدل في أمر حقيقة عيسى ص. ورسالته يمكن أن يلهم أن الكتابيين الذين انطوت الآيات على ملهمات وجودهم في مكة **هم أو أكثرهم من النصرى**. ومن المرجح كثيراً أن من هؤلاء من كان **عربي الجنس** مستقراً في مكة أو متردداً عليها من اليمن

(١) الدكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ : ٤٢٤ و ٤٢٨ - راجع كتابنا ، القسم الأول ٢٧٧ .

(٢) الأستاذ دروزة : عصر النبي وبيئته قبل البعثة - الفصل الثالث ٩٧ - ١٠٣ .

(٣) هذه الآيات هي يونس ٩٤ رعد ٣٦ نحل ٤٣ إسراء ١٠٧ مريم ٣٤ حج ٥٤ نمل ٧٦ قصص ٥٢ - ٥٥ عنكبوت ٤٦ روم ١ سبأ ٦ شورى ١٤ زخرف ٥٧ - ٦٥ .

وأطراف الجزيرة الشمالية حيث كانت النصرانية سائدة بين حضر العرب وقبائلهم والاتصال مستمرًا. والذي نرجحه أن أكثر أفراد الجالية الأجنبية المقيمين في مكة هم من النصارى الروم والسريان والسوريين ... للأعمال الصناعية حيناً والتجارية حيناً والتبشيرية حيناً ... ونرجح أن عددهم لم يكن ليتجاوز المئات القليلة. (مئات قليلة من صناعات وتجار ومبشرين ألا يكفون لعمل انقلاب توحيدي مسيحي في مكة مع الزمن؟؟) ... وإذا كنا رجحنا أن الكتابيين والأجانب كلهم أو جلهم نصارى، فإن هذا لا يعني كذلك أنه لم يكن في مكة إسرائيليون)) .

وقال أيضاً: ((أما النصرانية فقد وصلنا في الاستدلال إلى القول بوجود جالية أعجمية نصرانية في مكة، وباحتمال وجود جالية أعجمية نصرانية في يثرب أيضاً، وبترجيح وجود عرب منتصرين مستقرين في بيئة النبي وعصره أيضاً)) (ص ٤٥٢) وإذا كان مدى انتشار النصرانية في بيئة النبي ص الخاصة ضيقاً فإن هذا لا يعني أن تأثيرها كان ضعيفاً فيها. فنحن نعتقد أن النصرانية كانت كاليهودية مصدرًا من مصادر المعارف والأفكار الدينية التي كانت عند عرب الحجاز والتي استدللنا عليها من آيات عديدة أوردناها ... دلائل على ما كان عند عرب الحجاز، وعرب مكة خاصة من إمام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وإشكالات ولادة المسيح ص وبنوته وصلبه وما كان فيها من مذاهب وآراء. وطبيعي أن يكون لهذا كله رد فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم ... وإن مشركي مكة ذهبوا إليه إلى أن النبي ص نفسه قد تعلم وتأثر بهم على ما حكته عنهم آيتا النحل (١٠٣) والفرقان (٤) وأن لا ننسى كذلك تلك الألوف المؤلفة من منتصرة العرب الذين كان الحجازيون خاصة يغدون ويروحون إليهم في أسفارهم ورحلاتهم ويخالطونهم مخالطة الشقيق ويتقاهمون معهم بلسانهم القومي المشترك. وأن لا ننسى أن كثيراً منهم كانوا يشهدون موسم الحج وأسواقه، ومنهم من كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة. وأن الصلوات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء والأجداد جَمْعاً وثيقاً تتصل أواصرهم وتستمر مظاهره. وإنه كان كثير من العرب غير النصارى وخاصة الحجازيين يصهرون إلى العرب النصارى بالعكس فتزداد هذه الأواصر والمظاهر قوة ولحمة. وإن كل هذا من شأنه أن يهيئ لعرب الحجاز الفرص الكثيرة للاطلاع والاستماع والدرس والتأثر)) (٤٥٧) ((ولقد استلهمنا من ذلك أن من بين الذين اتصلوا

بالنبي ص عرباً كما أن غير العرب كانوا يفهمون العربية. والقرائن القرآنية تلهمننا من جهة، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بأن **آلآفا مؤلفة من العرب كانوا نصارى**، ومنهم البدو ومنهم الحضر، وأنهم **كان لهم دول** وشأن على مسرح بلاد الشام والعراق، ولهم **أسافقتهم ورهبانهم وقسيسوهم** وكنائسهم وأديارهم الكثيرة. واستتباعاً لهذا فإن من السائغ أن يقال إنه لا بد من أن يكون بعض أسفار العهد القديم والجديد، إن لم يكن جميعها، قد ترجمت إلى العربية قبل الإسلام، وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والفتوح ... ونرى أن هذا هو الذي يستقيم مع وجود **عشرات ألوف العرب النصارى، وآلاف الرهبان والقسيسين العرب، ومئات الكنائس والأديار العربية** ((. (٤٦٨).

(٢) بيئة محمد الشخصية ، كانت على الغالب حنيفية مسيحية.

((ووجدك عائلاً فأغنى)) : أغناه الله بزواجه من السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزي. وقد تزلمت مرتين. تقول السيرة: ((وكانت خديجة يومئذٍ من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهن مالاً)) . تزوجها النبي وتزوج تجارتها معها. وقضى محمد قبل بعثته خمسة عشر عاماً زوجاً للتجارة القرشية الكبيرة. ويصف القرآن في اعتزاز نعمة الله الكبرى على قريش في إيلافهم رحلتى، الشتاء إلى اليمن، والصيف إلى الشام، تلك الرحلات التجارية والاستطلاعية والثقافية التي قام بها محمد تاجراً مرموقاً في مال خديجة، قبل زواجه وبعده. وفي تلك الرحلات الطويلة الممتعة، طالما أشبع محمد نهمه، مثل الحنفاء، في الاستطلاع إلى التوحيد الكتابي الذي كان يستلقت نظر عقول العرب الناضجة. وتخص كل السير محمداً باتصالاته بالأخبار والرهبان في تلك الرحلات.

تنقل سيرة ابن هشام^١ خبر رحلة الفتى محمد مع عمه أبي طالب إلى الشام والتقائه بالراهب بحيرى في بصرى حوارن ((وكان إليه علم أهل النصرانية)) . فقال بحيرى في الفتى القول الجميل. وتنقل أيضاً خبر التقائه في كهولته، في إحدى رحلاته التجارية للسيدة خديجة، بالراهب نسطور. وفي لقاء الرهايين تجرى أحاديث الدين. وفي تردّد محمد المتواصل فتى وكهلاً، على الرهبان، ميل ظاهر إلى المسيحية، كما يُظهره القرآن المكي في هذا العهد.

(١) تحقيق مصطفى السقا وزملائه ١ : ١٩١ و ١٩٩ . راجع أيضاً المعارف ومروج الذهب والإصابة والروض الأنف وشرح المواهب .

((ولا ننسى، كما قدمنا^١، أن كثيراً من النصارى كانوا يشهدون موسم الحج وأسواقه ومنهم من كان يبشر فيه ويخطب كقس ابن ساعدة^٢)) أسقف نجران. وقد نقل المسعودي تلك الذكرى الحارة التي حفظها النبي من سماعه خطيب العرب والنصرانية المشهور. وذكرى حارة بعد طول المدى تدل على مدى التأثير الشديد بدعوة أسقف نجران في عكاظ.

والآثار كلها تدل على اصطفاء محمد قبل البعثة وبعدها عصابة من النصارى، لا للهو والعبث، بل للاختلاء والتأمل. قال محمد صبيح^١: ((لم يقل أحد إن رسول الله لم يكن يعلم شيئاً من أمر هذه اللغات (الأجنبية) التي تأثرت بها مكة، وأمر هذه الثقافات التي ذابت فيها. بل أكثر من هذا فإن لدينا من الحوادث ما يؤكد اتصال رسول الله ، وهو في مكة، بهؤلاء الأجانب الذين كانوا يقيمون، وكان يزورهم ويطيل صحبتهم. فقد روي عن عبيد الله بن مسلم قال: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان النبي ص. يمر بهما فيقوم فيسمع منهما. وروي عن ابن اسحاق أن رسول الله كثيراً ما كان يجلس عند المروة إلى سبيعة - غلام نصراني يقال له جبر - عبد لبني الحضرمي. وعن ابن عباس أن النبي كان يزور - وهو في مكة - أعجمياً اسمه بلعام، وكان المشركون يرونه يدخل عليه ويخرج من عنده. وفي رواية أخرى أن غلاماً (كان لحويطب بن عبد العزى) قد أسلم وحسن إسلامه، اسمه عائش أو يعيش، وكان صاحب كتيب، وقيل هو جبر، وقيل هما اثنان جبر ويسار، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل فكان رسول الله إذا مرَّ عليهما وقف يسمع ما يقرآن .. الخ. واذن فقد كان رسول الله يسمع ما يقرأ في الكتب بلغة غير لغة مكة، وكان يفهم ما يتلى عليه)) .

وأخرج الأستاذ دروزة في (سيرة دروزة في ١ : ١٦) من ملهفات القرآن: ((في سورة النحل الآية ١٠٣ تحكي دعوى الكفار أن شخصاً أجنبياً معيناً كان يعلم النبي:)) ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر! - لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين)) . والآية تنفي جحود نزول الوحي، لا تنفي اتصالاً ما بينه وبين أحد أفراد الجالية الأجنبية كما هو ظاهر. والمتبادر أن الجاحدين لم يكونوا ليقولوا ما قالوه لو لم يروا أو يعرفوا أن النبي ص. كان يتردد على شخص من أفراد هذه الجالية في مكة، هو أهل علم

(١) عصر النبي ٩٧ .

(٢) عن القرآن ١١٦ - ١١٧ .

وتعليم ديني وله وقوف على الكتب الدينية السماوية ... وفي سورة الفرقان الآية ٤ ((وقال الذين كفروا: انّ هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون)) إنما تنفي دعوة الاستعانة ولا تنفي اتصالاً أو صحبة بين النبي ص. وفريق من الناس. كما أن تعبير ((قوم آخرون)) يلهم أن المنسوب إليهم أكثر من واحد. والذي يتبادر إلى الذهن أن الكفار لم يكونوا ليقولوا ما قالوه مما حكته الآية لو لم يروا أو يعرفوا أنه كان للنبي ص. حلقة أو رفاق يجتمعون إليه ويجتمع إليهم ويتحدثون في الأمور الدينية. وليس من المستبعد - إن لم نقل من المرجح - أن هذا كان قبل البعثة ثم امتد إلى ما بعدها. وإن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من الجالية الكتابية الذين آمنوا بالنبي ص. واندمجوا في دعوته، وممن كانت تعنيهم تلك الآيات المكية. وقد ذكرت الروايات أسماء عدد من هؤلاء بين المسلمين كسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي رضي الله عنهم. ولقد كان أبو بكر ر. صديق النبي ص. الصدوق قبل البعثة وكان دائم الاتصال به على ما ذكرته الروايات المتعددة وكان أول من آمن به من الرجال. وكان بعض كبار الصحابة مثل عثمان وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمان بن عوف وأبي عبيدة ر. كذلك من المؤمنين السابقين. وكانوا من فتيان قريش النثيرين الذين يكتبون ويقرأون: فلا يبعد أن يكون هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر من السابقين الأولين من فتيان قريش أيضاً - من هذه الحلقة أو هؤلاء الرفاق)) إذن كان محمد ورفاقه المثقفون من فتيان قريش يجتمعون حلقات مع رفاقهم المثقفين من النصارى العرب والأعاجم، قبل البعثة وبعدها، يتحدثون في الأمور الدينية والمسيحية. وهذه الحلقات الدينية تظهر استعداد محمد الفطري إلى الاستطلاع الديني، والميل إلى الثقافة المسيحية. فقد ثبت لنا ((ترجيح تردده على بعض الكتابيين، ووجود حلقة رفاق له يجتمع إليهم من الكتابيين وغيرهم، وجريان الحديث بينه وبينهم في أمور دينية وثقافية متنوعة. فهذه دائرة ضيقة وخاصة كما هو واضح، بل قد تكون حلقة من حلقات اعتكافاته ورياضاته الروحية)) .

والقرآن والحديث والسيرة تشهد بأن محمداً كان قبل بعثته من أولئك الموحدين الذين تأثروا بالتوحيد الكتابي، ولكن لم يدخلوا في نصرانية أو يهودية، بل ظلوا مستقلين في توحيدهم، حنفاء لله. قال أيضاً الأستاذ دروزة: ((والذي نعتقده وهو ما وصلنا إليه ونرى

(١) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٣٦ - ٣٧ .

(٢) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٤٢ .

أن الآيات القرآنية تلهمه: أن النبي ص. كان من هؤلاء الأفراد الذين أنفوا من تقاليد الآباء الشركية والجاهلية، واعتنقوا فكرة الوحدانية وأخذوا يعبدون الله على ملة إبراهيم ص. أو ما ظنوه كذلك، أو أخذوا يبحثون عنها ولم يعتنقوا اليهودية ولا النصرانية... وأنه كان كذلك منذ أن نصح شبابيه. وأن اقترانه بالسيدة خديجة ر. ساعده على التفرغ لاتجاهه وحياته الروحية، هذه التي كان من مظاهرها تلك الرياضات أو الاعتكافات الروحية السنوية في رمضان وفي غار حراء خاصة ((إلى أن اهتدى ((وجدك ضالاً فهدى)) .

فمحمد لم يكن أمياً بل كان تاجراً دولياً، ومثقفاً ومطلعاً مثل رفاقه من قريش ومن أهل الكتاب، وبحاثة دينياً يسأل عن التوحيد الكتابي، وحنيفاً يتعاطى الرياضات النسكية والاعتكافات الروحية، ذو ميل ظاهر إلى المسيحية.

وقد أن لنا أن نتخلص من الوهم المتوارث منذ أجيال في وصف النبي العربي بالأمية أي جهل القراءة والكتابة، والابتعاد عن كل ثقافة كأن القول بثقافة محمد الواسعة غضٌّ من كرامته النبوية. أجل يسمى القرآن محمداً ((النبي الأمي)) (أعراف ١٥٧) ولكن ليس بحسب اللغة، ولكن بحسب اصطلاح الكتابيين ((ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل)) (آل عمران ٧٥). والمعنى صريح في القرآن: يقول عن نفسه ((هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ... يعلمهم الكتاب والحكمة)) (الجمعة ٢) ويميز صريحاً بين الفريقين: ((وقل للذين أتوا الكتاب والأميين: أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا)) (آل عمران ٢٠) وهناك آيات (يوسف ٣ عنكبوت ٤٨ نساء ١١٣) ((حملت على ما يبدو على نفي الاكتساب العلمي عن النبي ص. قبل البعثة، بل على بذل الجهد في هذا النفي وتوكيده. ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي ص. قبل بعثته وبذل الجهد في هذا النفي. كما أننا لا نرى هذه الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي ص. قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت محتوية الكتب الدينية وغيرها، من مبادئ وأسس وتشريعات وقصص، ومما كان يدور على ألسنة الناس في مثل ذلك كتابيين كانوا أو غير كتابيين، بسبب تلك الاتصالات التي تلهم وقوعها الآيات

(١) الأمي ، لغة من يجهل القراءة والكتابة ، ولكن اصطلاحاً في لغة القرآن ، مثلاً عن اليهود والنصارى: الأمي هو من لا كتاب له .
(٢) تكرر وصف النبي بالأمي ، وهو الوصف الذي جاء في القرآن لغير الكتابي ، أو للعرب لأنهم غير كتابيين أيضاً .

القرآنية، وبسبب الرحلات التي أجمعت الروايات على أن النبي ص. قد قام بها؛ وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تلم إماماً غير يسير بهذه المعارف ... وليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يبقى النبي ص في عزلة أو غفلة عن هذا كله ... فإن هذا يناقض طبائع الأشياء^١). وفاتهم أن أنبياء الكتاب كانوا مثقفين، ويتقنون الكتاب، والشعر النبوي. والعهد الجديد يقول عن موسى سيد الشريعة أنه ((تأدب بحكمة المصريين كلها)) في بيت فرعون (أعمال ٧ : ٢٢) وليس في هذا غضاضة على كرامته النبوية. بل لقد هياه الله بثقافته العالية إلى تحرير شعبه من عبودية مصر. وكذلك هياً الله محمداً بتجارته الدولية، وثقافته الواسعة، وانعكافاته الحنيفية، واتصالاته المسيحية وبيئته العائلية إلى تحرير العرب من الشرك تحريراً دينياً واجتماعياً وقومياً.

*

(٣) هل كانت بيئة محمد العائلية بعد زواجه، مسيحية؟

رأينا أن صحبته وأترابه من قريش، كانت مع المسيحيين. والآن نلج حرم عائلته بعد زواجه ونتساءل: ما هي أميال محمد وخديجة الدينية قبل البعثة؟

والسؤال ناتج من سورة الضحى التي تفرن هداية محمد بزواجه من السيدة خديجة: ((وجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى)) (٧ - ٨).

هداية محمد الأولى، بعد زواجه، وقبل البعثة، كانت إلى الحنيفية أي إلى التوحيد المستقل على طريقة الحنفاء. والفضل في هذه الهداية، بعد الله، وميل محمد الفطري، إلى البيئة العائلية الموحدة التي دخلها بزواجه من خديجة.

ومن مظاهر هذه الهداية الأولى، حلقات البحث الدينية التي كان يعقدها هو ورفاقه من قريش مع صحبة لهم من الكتابيين. ومن مظاهرها، تلك الرياضات الروحية والانعكافات النسكية، على طريقة الرهبان، بعيداً عن ضوضاء المدينة، مدة شهر رمضان في غار حراء.

وهذه الهداية الأولى هيأت محمداً إلى سماع صوت السماء بهداية أسمى تذكرها سورة الضحى: فالسورة قرآن، فلا تذكر هداية غير التوحيد المنزل: هل في الآثار والقرآن قرائن تعين على تحديد نوع هذه الهداية الثانية؟

(١) دروزة: سيرة الرسول ١ : ٣٨ - ٣٩ .

في عائلة النبي، شخص قلّما يقدرّون دوره، في هداية النبي وبعثته: عنيّا به ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة، ونسيب النبي. يذكر صحيح البخاري في حديث عن عائشة أن ورقة كان نصرانيّاً قرأ الكتب، وترجم منها إلى العربية. فهو عالم في النصرانية، ومترجم للتوراة والإنجيل إلى العربية. ومن يترجم كتب دينه إلى بني قومه يكون أول داعية لهذا الدين في بيئته.

ففي جوار ورقة بن نوفل تتقف محمد بثقافته النصرانية. وليس من الطبيعي ولا من المعقول أن يصرف ورقة نسيبه إلى غير النصرانية. وكانت خلواتهما تدور على التوحيد المسيحي ودور المسيح في هذا التوحيد، واختصاص المسيح دون سائر الأنبياء والمرسلين بتأييد روح الله له: ((ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسول، وآتينا عيسى ابن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس)) (بقرة ٨٧). من ورقة تعلم محمد أن المسيح رسول الله، ولكن ليس كسائر الرسل، بل المسيح الرسول هو كلمة الله وروح الله ((إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)) (نساء ٧٠).

ويثبت لنا هذه التلقينات ما رواه صحيح البخاري عن فزع خديجة، بالفطرة والعادة، لما رجع محمد خائفاً بعد رؤياه في غار حراء، إلى الفقيه المسيحي ابن عمها ورقة تروي له ما جرى لزوجها في خلوته الصوفية: ((فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى، ابن عم خديجة - وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل بالعربية^١ ما شاء الله أن يكتب؛ وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ص. خير ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ...)) ووعد الفقيه المسيحي محمداً بمساعدته في دعوته ضد الاضطهاد المنتظر: ((لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)) . ولقي ورقة محمداً مرة أخرى حول الكعبة فشجعه أن يثبت في دعوته. فمضى فيها الرسول، وورقة يسانده وينصحه. فللقية المسيح فضل كبير في تطمين النبي عند بعثته، وفي نصرته في دعوته. وينتهي حديث عائشة بهذه الكلمة: ((ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي)): مما يجعل علاقة بين فتور

(١) صحيح البخاري ١ : ٣ - النص يحمل ((بالعبرانية)) قرأنا بالعربية لأنه لا معنى لترجمة الإنجيل إلى العبرانية بل المقصود ترجمته إلى العربية .

الوحي وموت ورقة، وبالنتيجة بين حرارته ونصرة ورقة. فهذا الرجوع في أعظم الأمور إلى ورقة، والاطمئنان به دليل على أن الاتصالات العائلية بين النبي والعالم المسيحي، مترجم الإنجيل إلى العربية، كانت متواصلة صميمة. ولا شك في أن ورقة، بعد الله، هو الذي حمل محمداً على ((الهداية)) التي تذكرها سورة الضحى، وإلى الاطمئنان إليها: فهل يشجع عالم مسيحي محمداً على الدعوة لغير التوحيد المسيحي؟

*

ثانياً: هداية محمد في سورة الضحى: ((ووجدك ضالاً فهدى)) .

في حديث عن عائشة نقله البخاري (١ : ٣) وغيره أن محمداً، وهو ناسك في غار حراء، رأى رؤيا: اهتدى بها إلى التوحيد الخالص. وقد قص القرآن في سورة النجم تلك الرؤيا. وفي سورة الضحى أوضح معناها: ((ووجدك ضالاً فهدى)) . كانت هداية محمد الأولى إلى الحنيفية قبل بعثته - فما الهداية التي تذكر الآن سورة الضحى؟ ليست الحنيفية التي كان عليها بعد زواجه وقبل بعثته كما يشهد بذلك تحنفه في الغار من كل عام: ولم تكن إلى اليهود لأن الآثار العربية لا تذكر لهم مناسك بين العرب. ولم تكن إلى الإسلام القرآني لأنه لم يكن بعد، ولم ينزل القرآن بعد. والقرآن المكي كله، صريح كل الصراحة بأن محمداً اهتدى إلى التوحيد الكتابي بحسب طريقة المسيحية. ودعوة محمد الأولى وطريقة القرآن الأولى كانت مسيحية رهبانية، كما سنبينه في هذا البحث.

(١) التوحيد المسيحي بين الأميين

ورب معترض يقول: ليس في القرآن المكي من عقائد النصرانية الخاصة شيء، وفي القرآن المدني ينقضها ويكفرها: فأية مسيحية في هداية محمد ودعوته الأولى؟

سفر (أعمال الرسول) يوضح لنا أن الدعوة المسيحية في البيئات الوثنية أو المشتركة أو البدائية كانت إلى التوحيد المسيحي قبل أن تتطرق إلى العقائد الخاصة. وسار المسيحيون على هذه الخطة وقد كان لهم في طريقة الرسل قدوة حسنة. والرسول الحواري الذي ترك لنا كتابات فيها بعض التفصيل هو الرسول بولس. وينقل كتاب (أعمال الرسل) خطابين لبولس، هما مثال كل دعوة توحيدية، وهما نسخة طبق الأصل عن دعوة القرآن قبل القرآن بستماية سنة:

الخطاب الأول في بيئة شعبية، في (ليسترا) من آسيا الصغرى. خطب فيه بولس يدعوهم، وشفى مقعداً بمعجزة تؤيد دعوته؛ فبلغ الحماس في الشعب وكاهن زوس مبلغه فأرادوا أن يضحوا لهما: ((فلما سمع بذلك الرسولان بارنابا وبولس مزقا ثيابهما ووثبا نحو الجمع صارخين وقائلين:

((أيها الرجال ، لم تصنعون هذا ؟ إنما نحن أيضاً بشر مثلكم نقبل الآلام . وإنما نبشركم بأن ترجعوا عن هذه الأصنام الباطلة إلى الله الحي : الذي صنع السماء والأرض والبحر وجميع ما فيها ؛ الذي ترك جميع الأمم في الأجيال السالفة يسلكون في سبلهم ، مع أنه لم يدع نفسه بغير شهود، مفيضاً خيراته من السماء رازقاً إياكم أمطاراً وأزمنة مثمرة، مفعماً قلوبكم طعاماً وسروراً ... وأنهما بالجهد كفاً الجمع بمثل هذه الأقوال عن الذبح لهما)) . (١٣ : ٨ - ١٨) .

- أليس في هذه الكلمات جوهر الدعوة القرآنية المكية كلها، من توحيد ودلائل وقصص؟
أليس فيها خصيصاً إظهار بشرية الرسول كما يؤكد القرآن مراراً وتكراراً؟

والخطاب الثاني في بيئة مثقفة في نادي آثينا (أريو باغس) : ((فوقف بولس في وسط الاربو باغس وقال:

((أيها الرجال الاثينيون ، أرى أنكم في كل شيء أكثر الناس عبادة : ففي مروري بكم ومعاينتي لشعائر عبادتكم ، صادفت مذبحاً مكتوباً عليه : ((للإله المجهول)) . فذلك الذي تعبدونه وأنتم تجهلونه به أنا أبشركم .

((إن الإله الذي صنع العالم وجميع ما فيه ، رب السماوات والأرض ، لا يسكن في أصنام صنعتها الأيدي ، ولا تمثله أيدي البشر فليس مثله شيء ؛ وهو الذي يعطي الجميع حياة ونسمةً وكلّ شيء . وهو الذي صنع من واحد كل أمة من البشر ليعمروا الأرض كلها محدداً لهم أجيالهم ومسكنهم ، لكي يطلبوا الله عساهم يجدونه وهم يلتمسون ، مع أنه غير بعيد من كل واحد منا إذ به نحيا ونتحرك ونوجد .

((قال أيضاً بعض شعرائكم : ((إنا نحن ذريته)) ! فإذا نحن ذرية الله وجب علينا ألا نحسب الإله شبيهاً بالذهب أو الفضة أو الحجر ، مما ينقش بصناعة الإنسان واختراعه . ولقد أغضى الله عن أزمنة الجاهلية (١) . وها هو الآن ينذر جميع الناس ، في كل مكان ، أن يتوبوا ، لأنه قد حدّد يوماً سيدين فيه المسكونة بالعدل ، بذاك الإنسان الذي عينه ، وقد أقامه من بين الأموات ، عربوناً لقيامه الجميع ...

((فلما سمعوا بقيامه الأموات طفق بعضهم يستهزئون ؛ وقال آخرون : ((سنسمع منك عن هذا مرة أخرى)) (١٧ : ١٦ - ٣٤) .

(١) لاحظ أن هذا التعبير ((الجاهلية)) من جملة القرآنيين بين دعوة بولس بين ((الأميين)) ودعوة محمد بين العرب .

- لم يعترض زعماء آثينا وأدباؤهم على تعليم التوحيد، بل انتفضوا، واستهزأوا وقاطعوا الخطاب لما سمعوا الدعوة ليوم الدين. وهذا هو موقف زعماء مكة ((الملاء)) من دعوة محمد: لم يقاوموه لدعوة التوحيد بقدر ما قاوموه لدعوة يوم الدين كما تفصله السور المكية كلها. فما بين بولس ومحمد، عن طريق الرهبان السائحين في العربية، انتساب ونسب في الدعوة إلى التوحيد المسيحي وطريقتها وبراهينها وتعابيرها. وظلت هذه الدعوة وطريقتها خطة المسيحيين والراهبين في عهد الفترة ما بين المسيح ومحمد عند ((الأميين)) من عرب وعجم.

*

(٢) هداية محمد إلى التوحيد الكتابي المسيحي

هذا هو التوحيد المسيحي الكتابي الذي كان يدعو إليه بحيرى ونسطور وورقة بن نوفل بين العرب. وإلى هذا التوحيد الكتابي كانت هداية محمد، كما يتضح ذلك من القرآن المكي كله. ((ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه (الكتاب) نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا: وإنك لنتهدى^١ إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض)) (شورى ٥٢): الهداية كانت إلى الكتاب الأول الذي نزل من قبل دليل قوله أيضاً عن أنبياء الكتاب ((وهديناهم إلى صراط مستقيم: ذلك هدى الله يهدي من يشاء من عباده... أولئك الذين أتيناهم الكتاب والحكم^٢ والنبوة - فإن يكفر بها هؤلاء (أي أهل مكة) فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدي)) (أنعام ٨٩ - ٩٠): يجب أن يقتدي محمد بهدى أنبياء الكتاب ليصل إلى الصراط المستقيم - فلا أوضح ولا أصرح. وآية الشك ترفع كل

(١) لهذه الكلمة قراءتان على المعلوم أو المجهول . وقراءة ((لتهدى)) أنسب مع جهل النبي الكتاب والإيمان به قبل الهداية إليه .

(٢) ((الحكم)) لفظ عبراني يعني ((الحكمة)) قابل البيضاوي . وفي الثلاثة ((الكتاب - أي التوراة - والحكمة والنبوة)) تقسيم الكتابيين لأسفار الكتاب بتعبيرهم ذاته .

(٣) من هم هؤلاء القوم؟ قال الجلالان ((هم المهاجرين والأنصار)) تفسير يتناقض عمداً مع سياق النص : لم يوجدوا بعد فالآية في سورة بمجموعها مكية . وهل يطلب من النبي أن يقتدي بالمهاجرين والأنصار ، أم العكس ؟ ومتى كان الأنصار والمهاجرون قيمين على التوراة ؟ ويطلب القرآن مراراً من محمد أن يسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله فهل هؤلاء كانوا الأنصار والمهاجرين ؟ - قال البيضاوي ((هم الأنبياء المذكورون ومتابعوهم))

شك: ((فإن كنت في شكٍ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك: لقد جاءك الحق فلا تكوننّ من الممتريين)) (يوسف ٩٤)، وهذا الحق في التنزيل القرآني هو تصديق الكتاب وتفصيله: ((وما كان هذا القرآن أن يفتى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه (أي قبله) وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين)) (يونس ٣٧)، وهذا التصديق وهذا التفصيل هما ((آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)) أي علماء أهل الكتاب. فهداية محمد كانت الإيمان بالكتاب: ((وقل آمننّ بما أنزل الله من كتاب)) والانضمام إلى الكتابيين الذين في مكة ((وكلهم أو جلهم من النصارى)): ((وأمرت أن أكون من المؤمنين)) : فاهتدى وهدى.

(٣) دعوة محمد ((بالموعظة الحسنة)) على الطريقة المسيحية.

كانت دعوة محمد الأولى عائلية (زوجة خديجة، وابن عمه علي بن أبي طالب) وإفرادية (البخاري ٢ : ٢٠٨ - ٢١٠). ودامت سرية، مدة ثلاث سنوات. وكان الدعوة أخلاقية إلى التوبة والإحسان، كما بدأت دعوة المسيح (متى ٤ : ١٧). وانتهت هذه الفترة بفتور الوحي وموت ورقة بن نوفل^١. فهام على وجهه في الصحراء ((وغدا مراراً كي يتردى... فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك)) ... فتعزى بسورة الضحى ((فحمي الوحي وتتابع)) كما يقول حديث البخاري.

ووسع دائرة دعوته. حينئذ جاء الإنذار بيوم الدين لإرهاب الأغنياء المشركين. قيل: ((إن أول سورة أعلنها رسول الله بمكة: النجم^٢)) وهي الثانية والعشرون في تاريخ النزول، فكل ما قبلها هو من الدعوة السرية، حتى سورتي (الإخلاص والكافرون). وفي إعلان أول سورة من القرآن جاء ((حديث الغرانيق)) .

قال البيضاوي^٤: ((قيل تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليه ما يقربهم إليه، واستمر به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة ((والنجم)) فأخذ يقرأها، فلما بلغ ((أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى))، وسوس إليه الشيطان حتى سبق

(١) صحيح البخاري ١ : ٤ .

(٢) صحيح البخاري ٤ : ١٣٧ .

(٣) الإتقان ١ : ٢٥ .

(٤) تفسير البيضاوي على سورة النجم، الآية ٥١ .

لسانه إليه سهواً، إلى أن قال: ((تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى)) ففرح به المشركون حتى شابعوه بالسجود كما سجد بأخرها، بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلا سجد. ثم نبه جبريل فاعتم به. فعزاه الله بهذه الآية (الحج ٥٢) وهو مردود عند المحققين؛ وإن صحّ فابتلاءً يتميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه)) .

وعندما جهر بالدعوة تودّد إلى صناديد قريش على حساب الضعفاء: (عيس وتولى أن جاءه الأعمى! أمّا من استغنى فأنت له تصدى! أمّا من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى)) (عيس ٥ - ٩). فأدبه الرب فاستقام وجهر بالتوحيد الخالص سلباً في سورة (الكافرون) وإيجاباً في سورة (الإخلاص). فقامت قيامة ((ملا)) قريش عليه.

فحاول مهادنتهم: فمدح أمجادهم القومية والدينية عام الفيل (سورة الفيل) وتسامح في ((عبادة رب هذا البيت)) كعبة مكة، ولم تُظهر بعد من الأصنام (سورة قريش). فشعر القوم بخطر الرجل وناصبوه العدا. ولكن لم يتمكنوا من النبي ولا من زعماء صحابته كأبي بكر وعثمان لمكانتهم من قومهم، بل نالوا المستضعفين بالأذى والفتنة فنصحهم النبي بالهجرة إلى الحبشة المسيحية بقيادة جعفر بن أبي طالب، وزودهم بسورة مريم، دستور ايمانهم المسيحي إلى النجاشي، ملك الحبشة المسيحي.

*

ثالثاً: دعوة القرآن الأولى مسيحية في موضوعها.

تلك بيئة النبي العامة والشخصية والعائلية؛ وتلك كانت ((هدايته)) الأولى في بعثته، مهتدياً وهادياً. فما كانت دعوة القرآن الأولى؟ - كانت كما نقرأها في ست وثلاثين، أو أربع وأربعين سورة، من العلق إلى مريم، دعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في معرض الإنذار بيوم الدين.

(١) دعوة القرآن الأولى كانت للإصلاح الاجتماعي على طريقة المسيحية.

دعوة القرآن الأولى كانت للإصلاح الاجتماعي. فهي دعوة أخلاقية. فلم تكن في العهد الأول عقائدية وتشريعية كدعوة موسى في ((الكلمات العشر التي نزلت في سيناء أو

(١) المفسرون يردّون الحديث ، ولكن أسباب النزول (الحج ٥٢) وابن إسحاق في السيرة يؤيد صحة الحديث ، والطبري يذكر لهما طريقتين صحيحين مرسلين .
(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٣٩ .

كدعوة المسيح في خطابه الأول على الجبل بحضور جماهير الشعب من ((بلدان اليهودية والجليل)) . فالشهادة بفرعيها وأركان الإسلام المنظمة لن تظهر إلا في المدينة، والدعوة الصريحة للتوحيد قبل كل شيء لا تأتي إلا بعد الهجرة إلى الحبشة، في العهد الثاني.

كانت المادية التجارية والدينية في نظام رأسمالي فاحش وربما ظالم، حيث التلّهّي بالخمير والميسر والنساء شغل المترفين، وحيث كبرياء الجاهلية من تحكم الأغنياء بالفقراء حتى اليتيم والأرملّة والرقيق وابن السبيل، من المميّزات السائدة في المجتمع المكي والحجازي الذي يسوده، بحسب لغة عصرنا، نظام الرأسمالية والاقطاع والطبقات وما ينتج عنه من ترك الصلاة وذكر الآخرة. فأخذ محمد - الذي كان ((يتيماً وعائلاً)) (سورة الضحى) - يشكو منه ويدعو إلى الإصلاح الاجتماعي على أساس ديني، ((لأن العرب لا يحصل لهم الملك (والعمران) إلا بصيغة دينية)) كما يرى ابن خلدون^١.

((كلا! بل لا تكرمون اليتيم! ولا تحاضون على طعام المسكين! وتأكلون التراث أكلاً لماً، وتحبون المال حباً جماً ... (يوم الدين) يقول: يا ليتني قدمتُ لحياتي)) (الفجر ١٦ - ٢٥). ويعظ القرآن محمداً نفسه: ((فأما اليتيم فلا تقهر! وأما السائل فلا تنهر! ... ألم يجدك يتيماً فأوى؟ ووجدك عائلاً فأغنى؟)) (الضحى ٧ - ١٠). ويدفعه إلى الدعوة: ((فذكر إن نفعت الذكرى! سيذكر من يخشى! بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى)) (الأعلى ٩ - ١٧) وتتوالى الحملات على الأغنياء القساة: ((كلا! إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى! إن إلى ربك الرجعى)) (العلق ٦ - ٨) ((ذرني ومن خلقتُ وحيداً، وجعلتُ له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهدت له تمهيداً! ثم يطمعه أن أزيده! - كلا، إنه كان لآياتنا عنيداً: سأرهقه صعوداً! إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر؟ ثم قتل كيف قدر! ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال: إن هذا إلا سحرٌ يؤثر)) (المدثر ١١ - ٢٤). وسورة (الشمس) كلها في هذا المعنى: يقسم ...)) ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها! قد أفلح من زكاهها، وقد خاب من دساها)) فالإحسان فلاح وتقوى، والبخل فجور خفي. ويُعد في سورة (الليل): ((فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى! وأما من بخل واستغنى، وكذب بالحسنى فسنيسره لليسرى!)) ، ويتوعد: ((وما يغني عنه ماله إذا

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٦٩ - نشر دار الكتاب اللبناني - .

تردّي! وإن علينا الهدى: وإن لنا للأخرة والأولى! فأندرتكم ناراً تلتظّي، لا يصلها إلا الأشقي! الذي كذب وتولّى! وسيجنّبها الأتقى، الذي يؤتى ماله يتزكّى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى ((. وتتلاحق الحملات كالبروق والصواعق:)) والعصر، إن الإنسان لفي خسر! إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر ((!)) ويل لكل همزة لمزة! الذي جمع مالاً وعدده! يحسب أن ماله أخذه! كلا لينبذنّ في الحطمة - وما أدراك ما الحطمة! - نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة! إنها عليهم مؤصدة، في عمد ممدّدة!)) . وإنه لدين كاذب، الدين الذي لا يعرف الإحسان: ((رأيت الذي يكذب بالدين؟ فذلك الذي يدعّ اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين)) (الماعون).

وهذه الدعوة الاجتماعية الدينية لإنصاف المحرومين في معرض الذم بالأغنياء الذين لا رحمة فيهم، والحملة على التلهي بالدنيا دون الآخرة، وإهمال ذكر يوم الدين للعبرة والغيرة - لم تكن دعوة عربية أو يهودية أو مجوسية نفروا منها ((كأنهم حُمُرٌ مستنفرة فرت من قسورة)) (المدثر ٥٦)؛ إنما كانت دعوة مسيحية ورهبانية^١، يقوم بها الرهبان السائحون في طول البلاد وعرضها، والذين طالما اجتمع إليهم النبي. فلما اهتدى إلى التوحيد الكتابي دعا بدعوتهم.

فكانت ثورة محمد الأولى اجتماعية أكثر منها دينية. فحارب النبي الأغنياء فاضطهدوه، ودافع عن المحرومين فاتبعوه: ((وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا)) (هود ٢٧). ولو دعا محمد إلى التوحيد، دون التعرّض للإصلاح الاجتماعي، كما كان يفعل الحنفاء لما ثار عليه ((اعزّاء)) مكة: فلم تكن الحرب الشعواء التي شنّها أسياذ مكة على النبي حتى اضطروه وجماعته إلى هجرات ثلاث، ناجمة عن تعلقهم بدين أجدادهم؛ بل لأن المبادئ التي نادى بها بين العرب كانت تهدد مصالح أولئك الأسياد.

وقد شرح الأستاذ دروزة^٢ شرحاً جميلاً أسباب ثورة ((ملا)) قريش على محمد:

((ولعلّ من أهم الأسباب الأصلية ما كان للزعامة من دور خطير في المجتمع العربي، حيث كان الزعماء وخاصة الأغنياء - وكثيراً ما كان التلازم بين الغنى والزعامة في هذا

(١) يطول بنا المقام إذا عددنا كتب المسيحيين، ومواعظ الرهبان في عهد الفترة بين المسيح ومحمد، وخصوصاً رهبان سوريا، وفي الطليعة مواعظ أفرام السوري الذي كانت على كل لسان .

(٢) دروزة: سيرة الرسول ١: ١٦٢ - ١٦٩ .

المجتمع - يتمتعون بنفوذ السيادة. فلما أخذ النبي يدعو بدعوته، ولم يكن بعد قد جاوز سن الشباب كثيراً، كما لم يكن بارزاً في مجال الزعامة، بُغتوا وعظم عليهم أن يروه داعية يُستجاب (ص ٤ زخرف ٣١ فاطر ٤٢).

((ويمكن أن يدخل في هذه الأسباب ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد في المجتمع العربي، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية. أو تعديلهما، كالشرك على أنواعه، وكالعصبية الاجتماعية الضيقة... إذ كانت هذه الأهداف مما احتوته السور والفصول القرآنية الأولى. ثم استمر بدون انقطاع ولا تراخ إلى آخر العهد بمكة (أعراف ٢٨ نعمان ٢١ سبأ ٤٣ نحل ٣٥ ص ٤ - ٨).

((ولعل من أهم الأسباب التي نشأت من طبيعة الدعوة الإسلامية والتي تتصل بالتقاليد القائمة، خوف الزعامة القرشية وأغنياء مكة معاً على ما كان لهم ولمكة من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة بسبب وجود بيت الله في مكة وسدانتهم له. فقد كان هذا البيت مثابة وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم، يؤمنونه من كل فج و صوب و يقيمون حوله أسواقهم. كما كانوا يعتبرون قريشاً إماماً لهم في الأمور الدينية والدنيوية. وكان ذلك الخوف ناشئاً من أن نجاح الدعوة الجديدة سيكون سبباً لانصراف الناس عن مكة والحج، وتجهّم العرب لمكة وأهلها كما تلهم آية القصص: ((وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا - أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء؟)) (٥٧)

((ويمكن أن يدخل في الأسباب الناشئة عن طبيعة الدعوة الإسلامية ما أثاره فيهم الإنذار بالبعث والقيامة والوصف المسهب للحياة الآخروية من عجب واستغراب. ولقد حكى القرآن كثيراً مواقف العرب منه، وأقوالهم فيه بأساليب متنوعة تدل على أن موقفهم منه كان موقف المستنكر حيناً، والمدهوش حيناً والمكذب حيناً والمستهزئ حيناً، والمتحدي حيناً، منذ البداية إلى النهاية.

((ولعل مما يتصل بهذا أن يكون ما احتواه القرآن من نعي على الأغنياء والأقوياء والزعماء لكثرة تفاخرهم وتكاثرهم بالأموال والأنصار والأحساب. ومن إنذاره بأن هذا كله لن يجديهم في الآخرة نفعاً، وأنهم محشورون إلى ربهم مجردين عنه جميعه، وليس معهم إلا عملهم كسائر الناس (أنعام ٩٣ كهف ٤٥ مؤمنون ١٠١ سبأ ٣٥ الهمزة كلها)

((ولعل مما تكرر في القرآن من فصول المحاجة بين الزعماء والضعفاء في النار ما

أثار

قوة العناد والصد في طبقة الزعماء أيضاً. وفي ذلك تنبيه السواد إلى أن أتباعهم الزعماء في الكفر والتكذيب لن يغني عنهم يوم القيامة شيئاً. وفي هذا إثارة للسواد على الزعماء وتحريض على عصيانهم كما فيه تهوين لشأنهم، كما هو واضح .

فالدعوة للإصلاح الاجتماعي، في معرض الدعوة ليوم الدين كانتا سبب الثورة على محمد.

*

٢) ودعوة القرآن ليوم الدين دعوة مسيحية.

كما كان يفعل الدعاة المسيحيون، خصوصاً الرهبان منهم، فعل النبي العربي في تأسيس الإصلاح الاجتماعي على أساس الإصلاح الديني بالدعوة ليوم الدين والإنذار به حتى التهويل به في كل سانحة. وهذا الخوف من يوم الدين، مع الدعوة إلى الزهد، كان على أساس الرهبانية الأولى.

الدعوة ليوم الدين يهودية مسيحية قرآنية: فهي الإيمان بالله الأحد لأنه ملك يوم الدين.

القرآن المكي يذكر الكتاب المقدس جملة لا تفصيلاً: فلا يرد فيه اسم التوراة والإنجيل؛ حتى في سورة مريم المسيحية يذكر رسالة المسيح بقوله: ((أتاني الكتاب وجعلني نبياً)) ويذكر اليهود والنصارى جملة بهذا الاسم ((أهل الكتاب)) ، وليس أشرف منه، لأن كتاب الله واحد، وقد جعلهم الله أهله (الرازي). لذلك فدعوة القرآن المكية للإيمان بالله واليوم الآخر مشتركة بين الكتاب والإنجيل والقرآن. ولكن صفة يوم الدين في القرآن المكي كله، وخصوصاً في العهد الأول منه، إنجيلية مسيحية رهبانية أكثر منها تورانية يهودية تلمودية، لذلك نصف هذا العهد بأنه ((العهد المسيحي في القرآن)) . والدعوة للتوحيد في القرآن المكي كله، وخصوصاً في العهد الثاني منه، تورانية يهودية تلمودية، خصوصاً لاستشهاده المتواتر في تلك الفترة ببني إسرائيل، أكثر منها مسيحية، لذلك نصف العهد الثاني بأنه ((العهد الإسرائيلي في القرآن)) وفيه سورة باسمهم (سورة بني إسرائيل أو الإسراء). وليس في هذه الأوصاف من مساس بالتنزيل والإعجاز لأن القرآن ذاته يصف نفسه بأنه ((تصديق الكتاب وتفصيله)) .

فدعوة القرآن ليوم الدين إنجيلية مسيحية رهبانية.

صحيح أن الدعوة ليوم الدين كانت أيضاً يهودية، ولكنها تلمودية أكثر منها تورانية، وغزت التلمود بتأثير النصرانية. فالإنجيل يذكر أن طائفة الصدوقيين، الجالسة على كرسي

موسى، كانت تنكر البعث (متى ٢٢ : ٢٣). وفي التلمود ليست محور الإصلاح الديني، ولا سبب وغاية الإصلاح الأخلاقي، كما كانت الحال عند رهبان عيسى، وكما هو الواقع في القرآن. ومن الدلائل أن ملاك الموت في التلمود هو إبليس، بينما هو ملاك الله في النصوص المسيحية والإسلامية. والإنجيل يحصر الحساب في يوم الدين في الحساب على المعاملة الإنسانية والمحبة الأخوية (متى ٢٥ : ٣١ - ٤٥).

في عهد الفترة ما بين المسيح ومحمد، نجد عند أئمة النصرانية نزعتين في وصف يوم الدين، نزعة المحبة والثقة البنوية بالله والمسيح الديان، ونزعة الخوف من يوم الله الرهيب يوم الحساب والغضب (رومة ٢ : ٥). وسادت نزعة الخوف بين الرهبان الذين أشاعوها في أوساط الشعب وديار العرب. وهذه النزعة المرعبة هي التي تسود القرآن من ((يوم يجعل الولدان شيباً، ((تذهل فيه كل مرضع عمّاً أرضعت)) .

وإليك بعض أوصاف الإنجيل والقرآن ليوم الدين ترى فيها صحة الانتساب والنسب:

أ- يوم الدين في الإنجيل

كل دعوة ليوم الدين، بعد المسيح، تنتسب إلى جلال وصفها في الإنجيل (متى ٢٥ : ٣١-٤٦ مرقس ١٣ لوقا ٢١ : ٢٥ - ٣٨).

((ستكون تلك الأيام ضيقاً لم يكن مثله منذ بدء الخليقة التي خلقها الله حتى الآن ولن يكون ... من بعد ذلك الضيق تظلم الشمس ويحبس القمر ضوءه، والكواكب تتساقط من السماء والقوات التي في السماوات تنزع)) (مرقس ١٣ : ١٩ و ٢٤).

وفصل الحواريون: ((وسيأتي يوم الله كاللص، فيه تزول السماوات بدوي قاصف وتنحلّ العناصر متقدّة، وتحترق الأرض وما فيها من المصوغات)) (٢ بطرس ٣ : ١٠).

((رأيتُ فإذا بزلزال عظيم قد حدث، والشمس قد اسودّت كمشح الشعر، والقمر كله صار مثل الدم، وتساقطت كواكب السماء على الأرض، كما تُسقط شجرة التين أثمارها إذا هزتها ريح عاصف ... واندرجت السماء كطيّ السجلّ، وكل جبل وجزيرة ترحزحاً عن موضعهما)) (رؤيا ٦ : ١٥ - ١٧).

يوم الدين يأتي بغتة: ((مثلما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب كذلك يكون مجيء ابن البشر)) (متى ٢٤ : ٢٧). يوم الله الرهيب قريب وبعيد معاً ((مثل الفخ يطبق على جميع المقيمين على وجه الأرض كلها)) (لوقا ٢١ : ٣٥)) ((ففي أقرب أن يأتي

الآتي ولا يُبطلُ)) . يأتي الرب في ساعة لا تعلمونها: فأسهروا إذن فإنكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة)) (متى ٢٥ : ١٣ مرقس ١٣ : ٣) .

يوم الله معلوم ومجهول معاً، لذلك يجب السهر، وانتظار ذلك اليوم بخشية: ((فكونوا إذن، أنتم أيضاً، مستعدين لأن ابن البشر يأتي في ساعة لا تظنونها)) (متى ٢٤ : ٤٤) . ((فإذا كانت المنظورات كلها ستتحل، فأى سيرة مقدسة وتقوى يجب عليكم أن تتصرفوا فيها منتظرين ومستعجلين مجيء يوم الله، الذي فيه ستلتهب السماوات وتحلّ، وتتقد العناصر وتذوب)) (بطرس ٣ : ١١ - ١٢) ((ما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا)) (مرقس ١٣ : ٣٧) .

القيامة: ((يرسل ابن البشر ملائكته ببوق وصوت عظيم، فيجمعون مختاريه من الرياح الأربع، من أقاصي السماوات إلى أقاصيها)) (متى ٢٤ : ٣١) .

الحشر: ((ومتى جاء ابن البشر بمجده، وجميع الملائكة معه، حينئذٍ يجلس على عرش مجده، وتحشر لديه جميع الأمم، فيفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعي الخراف عن الجداء، ويقيم الخراف عن يمينه والجداء عن يساره)) (متى ٢٥ : ٣١) ((ورأيتُ عرشاً عظيماً، والجالس عليه هو الذي هربت السماء والأرض من وجهه ولم يوجد لهما موضع. ورأيتُ الأموات كبارهم وصغارهم واقفين أمام العرش. وقد فتحت الأسفار، وفتح سفر خاص هو سفر الحياة، ودين الأموات على مقتضى المكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم)) (رؤيا ٢ : ١١ - ١٢) .

الحساب: ((أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس يعطون عنها جواباً في يوم الدين)) (متى ١٢ : ٣٦ و ١٨ : ٢٣) ((يوم الغضب واعتلان دينونة الله العادلة سيكافأ كل واحد بحسب أعماله (رومة ٢ : ٥) فمن ثم)) كل واحد منا سيؤدى حساباً لله عن نفسه)) (١٤ : ١٢) ((إن عمل كل واحد سيكون بيّناً لأن يوم الله سيُظهره، إذ يُعلن بالنار، وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو)) (١ كور ٣ : ١٣) .

الدينونة والحكم: ((حينئذٍ يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم، لأنني جعتُ فأطعمتموني، وعطشتُ فسقيتموني، كنتُ غريباً فأويتموني وعرياناً فكسوتموني؛ وكنتُ مريضاً فعدتموني، ومحبوساً فأتيتم إليّ.

- ((فيجيبه الصديقون قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك أو عطشان

فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فأويناك أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فجننا إليك؟

- ((فيجيبهم الملك قائلاً لهم: الحق أقول لكم: إن كل ما صنعتموه إلى واحد من أخوتي هؤلاء، إلى أي واحد من أصغرهم، فإليّ قد صنعتموه!))

((ثم يقول أيضاً للذين عن يساره: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية التي أعدت لإبليس وجنوده: فقد جعتُ فلم تطعموني وعطشتُ فلم تسقوني! كنتُ غريباً فلم تؤوني وعرياناً فلم تكسوني! وكنت مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني! - فيجيبون هم أيضاً ويقولون: أيها السيد الرب، متى رأيناك جائعاً أو عطشان، غريباً أو عرياناً، مريضاً أو محبوساً، ولم نخدمك؟ - حينئذٍ يجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم إن كل ما لم تصنعوه إلى أحد هؤلاء الصغار فإليّ أيضاً لم تصنعوه)) (متى ٢٥ : ٣١ - ٤٥).

فالحساب في يوم الدين على المعاملة، وتعليم الإنجيل الجديد أن العمل مع الإنسان هو عمل مع الله، لأنه بنزول المسيح على الأرض جعل الناس أبناء الله وأخوة بعضهم لبعض، في شخصه.

((حينئذٍ يبتدئ الخطأة يقولون للجبال: اسقطي علينا! وللأكام غطينا!)) (لوقا ٢٣ : ٣٠) ((وتواترت ملوك الأرض، والعظماء والقواد والأغنياء والأقوياء؛ وكل عبد وكل حر أيضاً؛ في مغاور الجبال وصخورها، وهم يقولون للجبال والصخور:)) اسقطي علينا، وأخفينا من وجه الجالس على العرش، ومن غضب الحمل، لأنه قد جاء يوم غضبهما العظيم! فمن يطبق الوقوف؟)) (رؤيا ٣ : ١٥).

((ويذهب هؤلاء الخطأة إلى عذاب أبدي، والصديقون إلى حياة أبدية)) (متى ٢٥ : ٤٦).

*

ب - يوم الدين في القرآن :

جمع الغزالي في (الإحياء)، في صفحة رائعة، جميع أوصاف يوم الدين في القرآن^١: يوم الدين هو ((يوم القيامة، ويوم الحسرة، ويوم الندامة، ويوم المحاسبة، ويوم المساءلة، ويوم المسابقة، ويوم المناقشة، ويوم المنافسة، ويوم الزلزلة، ويوم الدمدمة، ويوم الصاعقة،

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين (٤ : ٤٣٨ - ٤٣٩). وقد لحظ الأستاذ دروزة بعض التعارض في تلك الأوصاف (قرآن مجيد ١٩٥ - ١٩٧).

ويوم الواقعة، ويوم القارعة، ويوم الراجعة، ويوم الرادفة، ويوم الغاشية، ويوم الداهية،
ويوم الأزفة، ويوم الحاقة، ويوم الطامة، ويوم الصاخة!

((ويوم التلاق، ويوم الفراق، ويوم المساق، ويوم القصاص، ويوم التناد، ويوم الحساب،
ويوم المآب، ويوم العذاب، ويوم الفرار، ويوم القرار، ويوم اللقاء، ويوم البقاء، ويوم القضاء،
ويوم الجزاء، ويوم البلاء، ويوم البكاء!))

((ويوم الحشر، ويوم الوعيد، ويوم العرض، ويوم الوزن، ويوم الحق، ويوم الحكم،
ويوم الفصل، ويوم الجمع، ويوم البعث، ويوم الفتح، ويوم الخزي!))

يوم عظيم، ويوم عقيم، يوم عسير! ((ويوم الدين، ويوم اليقين، ويوم النشور، ويوم
المصير!))

((يوم النفخة، ويوم الصيحة، ويوم الرجفة، ويوم الرجة، ويوم الزجرة، ويوم السكرة!
ويوم الفزع، ويوم الجزع، ويوم المنتهى، ويوم المأوى، ويوم الميقات، ويوم الميعاد، ويوم
المرصاد!))

((ويوم القلق، ويوم العرق، ويوم الافتقار، ويوم الانكدار، ويوم الانتشار، ويوم
الانشقاق، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم التغابن، ويوم عبوس، ويوم معلوم، ويوم موعود،
ويوم مشهود، ويوم لا ريب فيه!))

((يوم تبلى السرائر، ويوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ويوم تشخص فيه الأبصار،
ويوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً!))

((ويوم يُدعون إلى نار جهنم دَعَاءً، ويوم يسحبون في النار على وجوههم، ويوم تقلب
وجوههم في النار! يوم لا مرد له من الله، يوم هم بارزون، يوم هم على النار يفتنون!))

((يوم لا يجزي والد عن ولده، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، ويوم لا ينطقون
ولا يؤذن لهم فيعتذرون! يوم لا ينفع مال ولا بنون، يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة
ولهم سوء الدار!))

((يوم ترد فيه المعاذير، وتبلى السرائر وتظهر الضمائر، وتكشف الأستار! يوم تخشع
فيه الأبصار، وتسكن الأصوات، ويقل فيه الالتفات، وتبرز الخفيات، وتظهر الخطيئات!))

((يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد، ويشيب الصغير ويسكر الكبير! فيومئذٍ وضعت

الموازين، ونشرت الدواوين! وبرزت الجحيم، وأغلي الحميم، وزفرت النار، ويئس الكفار، وسعرت النيران! وتغيرت الألوان، وخرس اللسان، ونطقت جوارح الإنسان!

« فيا أيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم؟ » .

*

ووصف يوم الدين في القرآن رائع:

في ذلك اليوم « تزلزل الأرض زلزالها وتخرج أثقالها » (الزلزلة ١ - ٢) إذا نفخ في الصور (مؤمنون ١١٢) زجرة (عبس ٣٣) أو صيحة (ص ١٤ ق ٤١) . وإذا البحار سجرت (كورت ٦) أو فجرت (انطار) « وإذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت؛ وإذا الأرض مدت، وألفت ما فيها وتخلت، وأذنت لربها وحقت (الانشقاق ١ - ٤) « وإذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت » (التكوير ١ - ٢) « وإذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت » : « يكون الناس كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » (قارعة ١ - ٣) ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها موجاً ولا أمثاً » (طه ١٠٥) بل « تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن » (معارج ٨) .

« قارتقُب يوم تأتي السماء بدخان مبين » (دخان ١١) « إذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحملت الجبال فدكت دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية! والملاك على أرجائها. ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية: يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » (الحاقة ١٣) .

ويصف تعاقب المشاهد « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض - إلا من شاء الله^١ - ثم نفخ فيه أخرى، فإذا هم قيام ينظرون. وأشرق الأرض بنور ربها. ووضع الكتاب، وجيء النبيين والشهداء، وقضى بينهم بالحق، وهم لا يظلمون. ووفيت كل نفس ما عملت، وهو أعلم بما يفعلون » (زمر ٢٨ - ٥٥) .

يحشرون للحساب (ق ٤٣) يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم (الزلزلة ٦) مقسومين إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال كما في الإنجيل (الواقعة ٧ - ٨ فاطر ٤٠) أهل الميمنة كتابهم بيمينهم، وأهل المشأمة وراء ظهورهم (انشقاق ٧ - ١٠) - كتاب الأشرار في « سجين » وكتاب الأبرار في « عليين » - للحساب كتاب عليين أو سجين،

(١) قابل تعليم بولس الرسول « ينهض الراقدون أولاً، والأحياء الباقون يُختطفون معهم جميعاً في السحب، لتلاقي الرب في الفضاء (١ يس ٤ : ١٧) .

وباليد كتاب خاص. ومع الكتاب ميزان « ونضع الموازين الحق ليوم القيامة! وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين » (أنبياء ٤٧). وميزان الدينونة على الأعمال قد يكون حقيقة وقد يكون مجازاً كما قال البيضاوي « الموازين توزن بها صحائف الأعمال. وقيل وضع الموازين لإرصاد الحساب السوي، والجزاء على حساب الأعمال » .

لا شفاعاة في يوم الدين لبشر: « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً يومئذ لا تنفع الشفاعاة، إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً! وعنت الوجوه للحي القيوم! » (طه ١٠٨ - ١١٨). والاستثناء في الشفاعاة للملائكة لا غير « لا يملكون الشفاعاة إلا من شهد بالحق » (زخرف ٨٦).

الدينونة: « وقضى بينهم بالحق. ووفيت كل نفس ما عملت » (زمر ٧٠) تعقبها الطمأنينة أو الندامة: « يقول (الكافر): ليتني قدمتُ لحياتي! فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحداً ... يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي » (فجر ٢٠ - ٣٠).

الله هو ملك يوم الدين (الفاتحة) يحضر ولكن يظهر أنه لا يُرى: « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم لدينا محضرون (يونس ٥٣) ويحف الملائكة بعرش الله « كلاً إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملاك صفاً صفاً » (فجر ٢٠) « والملاك على أرجائها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (حاقة ١٣).

وبعد الحكم والقضاء « سيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ... وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً » (زمر ٦٨ - ٧٥).

مَنْ يقوم بالسوق؟ - إلى الجنة، الملائكة. وإلى جهنم؟ - ليس إبليس وجنوده، بل ملائكة الله « عليها تسعة عشر ... وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة. وما جعلنا عدتهم إلا فتنة » (مدثر ٢٠ - ٢١) وقائدهم مالك (زخرف ٧٧).

وبعد وصف يوم الدين يستفيض القرآن في وصف الجنة وفي وصف النار^٢.

*

وهكذا ترى في وصف القرآن ليوم الدين، تفصيلاً وتصديقاً للإنجيل.

(١) « مثقال حبة خردل » صورة لقول المسيح « كل كلمة بطالة يعطون عنها حساباً » ، وفي سورة القمر : « كل صغير وكبير مستطر » (٥٣) .
(٢) نرى ذلك في موضع آخر .

فالجدل المتواتر في القرآن على إمكانية البعث، والجواب بأنه خلق جديد صورة مسيحية ((وقد يقول قائل: كيف يقوم الأموات؟ وبأي جسد يرجعون؟ - الله يعطيها جسماً على ما يريد)) (١ كور ١٥ : ٣٥ - ٥٤).

وصورة النشر في القرآن كإحياء الأرض الموات، مسيحية (١ كور ١٥ : ٣٥).

وصورة الحشر في القرآن، انجيلية أيضاً (متى ٢٤ : ٣١).

وصورة تقسيم الأبرار والأشرار في يوم الدين إلى أهل اليمين وأهل الشمال إنجيلية (متى ٢٤ : ٣٢).

وصورة الحساب على الأعمال بموجب كتب محفوظة في الجنة، مسيحية (رؤيا ٢٠ : ١٢).

وصورة سوق الصالحين إلى الجنة زمراً، وسوق المجرمين إلى النار زمراً، إنجيلية (متى ٢٥ : ٤٦).

ووصف يوم الدين بأنه يوم الله، وصف نبوي، زبوري، حكمي، إنجيلي، قرآني.

ووصف الله بأنه ((ملك يوم الدين)) تعبير إنجيلي: ((حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه... وللذين عن يساره...)) (متى ٢٥ : ٣٤).

وهذه الصور والأوصاف والأسماء والتشابه والتعابير تجدها مشحونة عند كتابة النصرانية في عهد الفترة ما بين المسيح ومحمد. وقد نشرها رجال الدين المسيحي جملة وتفصيلاً^١. وقام رهبان عيسى، وأعطوها صيغة شعبية وأحياناً حسية في الأوساط الشعبية، وفي ديار العرب، حتى تشربت منها الجزيرة والحجاز. والداعية الأكبر، والمنشد الأكبر الذي تناقل السوريون أوصافه التي امتاز بها عن يوم الدين، هو القديس أفرام السوري، في مواظته وأناشيده^٢ التي ردها رهبان سوريا مدة من متي سنة ونيف في كل ناحية. وكم من شبه بين أوصاف القرآن وتعابير أفرام^٣. ونلاحظ من ترديد أوصاف يوم الدين في القرآن بصور متشابهة أنها كانت تعابير متواترة موروثية.

لذلك، بحسب شهادة القرآن الذي جاء ((تفصيلاً وتصديقاً للكتاب)) فالدعوة القرآنية

(١) وقد جمعوها في أقوال مفردة للأباء والرهبان في موسوعة ووجه الشبه الأكبر ما بين تعابير القرآن والآباء السريان :

Migne 9 Pat. gr. Apophtegma : Patrum LXV cf. Archelis. Die Syrich Didas calia éd. Bickell : Carmina nisebena : قابل (٢)

(٣) تجد مقارنة جميلة بين القرآن وأفرام عند Tor Andrae : Les Origines de l'Islam p. 145

ليوم الدين دعوة مسيحية، بل رهبانية. ونجد في قول القرآن ((وإنه لعلمٌ - لعلمٌ - للساعة)) (زخرف ٦١) إشارة إلى مصدر تعليمه. قال الزمخشري: ((إن عيسى عليه السلام لعلمٌ للساعة أي شرط من أشراطها تُعلم به، فسمي الشرط علماً لحصول العلم به. وقرأ ابن عباس ((لعلمٌ)) وهو العلامة)) : فالمسيح مصدر التعليم والعلم عن الساعة ويوم الدين، وهو أيضاً برجوعه ثانية علامة لهما، وشرط من أشراطهما.

وبما أن دعوة القرآن ليوم الدين إنجيلية رهبانية، بموضوعها وأسلوبها وتعاييرها، نسمي بحق العهد الأول من القرآن بمكة ((العهد المسيحي في القرآن)) .

*

رابعاً: دعوة القرآن الأولى مسيحية أيضاً في طريقتها.

دعوة القرآن الأولى مسيحية في موضوعها: الإنذار بيوم الدين في معرض الإصلاح الاجتماعي. وهي أيضاً مسيحية في طريقتها: الدعوة للزهد، والدعوة للتوبة، والدعوة للصلاة.

(١) الدعوة القرآنية الأولى للزهد مسيحية رهبانية.

ليست دعوة الزهد من أخلاق البيئة العربية، بل هي عندهم مثل دعوة الآخرة ((من أساطير الأولين)) (نحل ٣٤). وليست يهودية، فقد ورث اليهود عن التوراة أن خيرات الأرض دليل رضى الله وبركة السماء، كما كان يعتقد زعماء مكة والمدينة: ((فأما الإنسان إذا ابتلاه ربه، فأكرمه ونعمه فيقول: ربي أكرمني؛ وإذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول: ربي أهانني)) (الفجر ١٥ - ١٦) كلا ليس نعيم الدنيا كرامة ولا الفقر فيها إهانة. وفي المدينة بجوار اليهود سنسمع صوتاً معاكساً: ((اليوم أحلّ لكم الطيبات! ... يا أيها الذين آمنوا لماذا تحرمون طيبات ما أحلّ لكم)) (المائدة). ولكن في مكة في بيئته الخاصة التي نشأ عليها دعا إلى الزهد، ودعوة الزهد عنده، فيها صدى الإنجيل.

((تأكلون التراث أكلاً لمأً، وتحبون المال حباً جماً)) (الفجر ١٦) ((بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير، وأبقى)) (الأعلى) وفي الإنجيل: ((بل اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذا كله يزداد لكم)) (متى ٦ : ٣٣) ((ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)) (تكاثر ١ - ٢) قال البيضاوي: ((معناه ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا، عمّا هو أهم وهو السعي لأخراكم)) ثم ((واعلموا إنما أموالكم

وأولادكم فتنه، وإن الله عنده أجر عظيم» (تغابن ١٥) ثم «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لهم لنبلوهم أيهم أحسن عملاً» (كهف ٧) ثم «كلا، إن الإنسان ليطغى، إن رآه استغنى! إن إلى ربك الرجعى!» (علق ٦ - ٨) لذلك «ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخذه: كلاً لينبذنّ في الحطمة» (الهمزة) . وفي الإنجيل: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث العث والصدأ يتلفان وحيث اللصوص ينقبون ويسرقون! بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء لا يتلف عث ولا صدأ» (متى ٦ : ١٩) - والعاقبة الحسنى، للزهد والتقوى (علق ١٢) «لأن من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى، فسنسّيره ليسرى ... الذي يؤتى ماله يتزكى ... ابتغاء وجه ربه الأعلى» الليل ٥ و١٧ و٢٠. وتأتي النصيحة أيضاً للنبي: «ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم - زهرة الحياة الدنيا - لنفتنهم فيه، ورزق ربك خير وأبقى ... نحن نرزقك، والعاقبة للتقوى» (طه ١٣١) وفي الإنجيل: «فكل من ترك بيوتاً أو إخوة أو أخوات أو أباً أو أمّاً أو بنين أو حقولاً من أجل اسمي (ابتغاء وجه ربه الأعلى) يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الخالدة» (متى ١٩ : ٢٩).

وكان رهبان عيسى يطوفون سوريا والعربية يدعون دعوة الزهد، خشية الآخرة؛ الإنجيلية وطالما أنصت محمد إليهم قتي وكهلاً؛ ولما نزل القرآن في عهده الأول نزل بدعوة الزهد الرهبانية. وسيتحول عنها في المدينة: «اليوم أحلّ لكم الطيبات» (مائدة ٥ و٦ و٩٠).

*

٢) الدعوة القرآنية الأولى للتوبة، مسيحية رهبانية أيضاً.

بدأ المسيح إنجيله بالدعوة إلى التوبة: «ومننذني طفق يسوع يعظ ويقول: توبوا، فقد حضر ملكوت الله» (متى ٤ : ١٧).

كذلك كانت دعوة محمد الأولى أيضاً إلى التوبة: «فذكّر إن نفعت الذكرى، سيذكر من يخشى! ويتجنبها الأشقى، الذي يصلّى النار الكبرى! ثم لا يموت فيها ولا يحيى» (الأعلى ٩ - ١٣) فالهدى في التوبة كما هو في الصدقة: «إن علينا الهدى، وإن لنا للآخرة والأولى! فأندرتكم ناراً تلتظّي، لا يصلّاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولّى، وسيتجنبها الأتقى، الذي يؤتى ماله يتزكى» (الليل ١٢ - ١٨). ففي التوبة الفلاح: «ونفسٍ وما سواها، فآلهمها فجورها وتقواها! قد أفلح من زكّأها، وقد خاب من دسّأها»

(الشمس ٩) وفي التوبة النجاة يومَ الدين: وأنى له الذكرى؟ يقول: يا ليتني قدمتُ لحياتي ((الفجر ٢١ - ٢٤). والتوبة هي الدين لأنها ترد الإنسان إلى أحسن تقويم: ((والتين والزيتون، وهذا البلد الأمين: إنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم! ثم رددناه أسفل سافلين (بخطيئته). إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون! فما يكذبك بعد بالدين؟ أليس الله بأحكم الحاكمين)) (سورة التين). والعاقبة للتوبة: ((إذا زلزلت الأرض زلزالها ... يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)) (الزلزلة).

وكان المسيح يستخلص عبرة من الفواجم ويقول: ((إن لم تتوبوا تهلكوا جميعكم كذلك)) (لوقا ١٣ : ١ - ٦) لأن التينة التي لا تثمر تقطع (لوقا ١٣ : ٦ - ٩).

أليس في دعوة القرآن الأولى صدى عميق بعيد لقول المسيح: ((ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه في يوم الدين)) (متى ١٦ : ٢٦). وطالما سمع محمد هذا الصدى في رحلاته، واتصالاته، وخلواته النسكية؛ فلما نزل القرآن الأول، تفجّر طبيعياً، مثل دعوة الإنجيل الأولى.

*

(٣) وصلاة محمد الأولى كانت مسيحية رهبانية.

لا دين بلا صلاة. وكل الكتب المنزلة تشيد بضرورة الصلاة. وها القرآن يبدأ بالدعوة: فما كان الهتاف الأول الذي سمعه النبي العربي؟ - ((يا أيها المزمّل، قم الليل إلا قليلاً ... ورتّل القرآن ترتيلاً)) (مطلع سورة المزمّل). بعد الدعوة إلى القراءة وتعلّم الوحي، في السورة الأولى، وردّ تهمة الجنون عنه في الثانية، يؤمر في السورة الثالثة: بقيام الليل للصلاة وترتيل القرآن. فليس قيام الليل، ((نصفه أو أنقص منه قليلاً أو زد عليه)) بعبادة عربية أو يهودية، شرقية أو غربية؛ بل قيام الليل للصلاة وترتيل كلام الله فيه عادة مسيحية، لا بل رهبانية. وبما أن الصلاة وطريقة الصلاة هي التي تحدّد إيمان الإنسان، وتقواه وعبادته، وحياته، وسرّ دينه وحياته؛ فصلاة محمد الأولى الرهبانية تظهر منذ مطلع القرآن ميل النبي واتجاهه: أليس في هذا الهتاف العلوي الأول للنبي العربي فريضة راهب؟!

إنها دون شك فريضة راهب، لأنه يؤمر أن يواصل النهار بالليل في الصلاة: ((إنا

سنلقي عليك قولاً ثقیلاً: إن نائنة الليل (القيام بعد النوم) هي أشدّ وطناً وأقوم قبلاً)) (المزمّل ٥ - ٦). وبلحقه الأمر بالصلاة في كل الأوقات وفي كل الأحوال: ((إذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب)) (الشرح ٧ - ٨) فسرّه البيضاوي: ((قيل فرغت من التبليغ. وقيل من الغزو. وقيل من الصلاة: فانصبّ بالعبادة والدعاء)) : إنها حياة راهب، ناسك، متوحد، متعبّد ليل نهار؛ رآهم النبي العربي في جواره وفي رحلاته، فاقتدى بهم في خلواته.

ففي الصلاة الهدى والتقوى: ((رأيت الذي ينهى، عبداً إذا صلّى؟ رأيت إن كان على الهدى، أو أمر بالتقوى!)) (العلق ٩ - ١١). وفي تسييح الله الأعلى، الفلاح والتزكية: ((سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوّى، والذي قدّر فهدى ... قد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى)) (الأعلى ١ و ١٤). وويل لصلاة النفاق: ((فويل للمصلين، الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون)) (الماعون).

فليست حياة الصلاة ليل نهار من عمل الموحدين العاديين، وليس قيام الليل لترتيل القرآن والكتاب من عادة سائر المؤمنين، بل هي سيرة النصارى الأولين، وحالة جميع الرهابين، في سوريا والعربية والعالمين: تأثر محمد بمثلهم، ورأى فيه المثل الأعلى للهدى والتقوى، والإيمان بالله واليوم الآخر، فقام عليه ودعا إليه، في بدء بعثته ومطلع دعوته.

*

خامساً: دعوة القرآن الأولى كانت مسيحية في أحداثها.

ولنا على هذه المؤثرات المسيحية في الدعوة القرآنية الأولى بعض شواهد من بعض مظاهرها وأحداثها.

(١) الإشادة باستشهاد نصارى نجران، في سورة البروج.

((والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود: (لقد) قتل أصحاب الأخدود! النار ذات الوقود، إذ هم عليها فُعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود! وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد!)) .

يذكر البيضاوي في تفسيرها أسطورة عربية، وأخرى مجوسية، وما كان القرآن ليستشهد على الإيمان والاستشهاد في سبيله بقصص مشرك أو مجوسي. ثم يذكر استشهاد نصارى نجران، وهذا الحادث التاريخي، القريب في الزمان والمكان، من النبي ومكة،

أقرب إلى الواقع، قال: ((وقيل لَمَّا تنصّر نجران غزاهم ذو نواس اليهودي من حمير، فأحرق في الأخاديد (الشقوق في الأرض) من لم يرتد منهم)) . هذا القصة اشادة باستشهاد نصارى نجران ((المؤمنين)) ، وعبرة للمشركين في أذى المسلمين، وغمزة لليهود. ففي هذا المديح قربي في الإيمان، وشهادة في وحدة الإسلام المسيحي معهم.

٢) الإشادة في تغلب الروم المؤمنين على الفرس الأميين في سورة الروم.

آية الروم لا يعرف زمن نزولها، ولا تعرف قراءتها الأكيدة، فلها قراءتان على المجهول أو على المعلوم. والقراءة الشائعة: ((غُلِبَتِ الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين: لله الأمر من قبل ومن بعد. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله !)) .

قال البيضاوي: ((روي أن الفرس غزوا الروم فوافوهم بأذرع وبصرى فغلبوا عليهم. وبلغ الخبر مكة، وفرح المشركون، وشمتموا بالمسلمين وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون: وقد ظهر إخواننا على أخوانكم، ولنظهرنّ عليكم. فنزلت)) ، وهذا أقوم الأقوال في سبب نزولها.

فهذا التجاوب في المصير يقابله تجاوب في الإيمان. وهذا دليل آخر على القربى في الدين، يقول بذلك القرآن، ويشهد به المشركون.

٣) القصص القرآني الأول: خبر المسيح وأمه في سورة مريم.

سورة مريم هي دستور الإيمان المسيحي الذي حمله المسلمون المهاجرون معهم إلى الحبشة لتشفع فيهم عند النجاشي المسيحي. وقد تلاها جعفر بن أبي طالب بحضرته: فاحتضنهم النجاشي، وحماهم.

في العهد المكي الأول لا يتصدّر القصص التوراتي السور المكية، كما سيكون في العهد الثاني، ظاهرته الكبرى المميّزة لأسلوبه. وسورة مريم هي القصص القرآني الأول لاستعمالها اسم الجلالة الرحمان الشائع في اليمن والحبشة. وسورة مريم هي القصص المسيحي الأول والأكبر في السور المكية كلها. وربما كان نجاحه لدى الحبشة، داعياً إلى اعتماد أسلوب القصص في الدعوة، في العهد الثاني بعد الهجرة إلى الحبشة. وفي سورة مريم إطرأ للمسيح لم ينله رسول في القرآن. وفيها صيغة إيمان النبي العربي بالمسيح وأمه في صورته الكاملة وفي عهده الأول: ((والسلام عليّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم

أبعث حيًّا)) . (١٥ - ٣٣). إلى هنا النصّ الأصيل، وما يليه (٣٤ - ٤١) زيادة من زمن متأخر، يدل عليها اختلاف النظم والروي، للتخفيف من إطرء المسيح ورفعته فوق البشرية والأنبياء والمرسلين.

٤) الحدث التاريخي الأول في الإسلام: الهجرة الجماعية إلى الحبشة المسيحية.

الهجرة إلى الحبشة المسيحية هي الحدث الأول في تاريخ القرآن والإسلام. وهو بطبيعته ذو مغزى عظيم يدل دلالة واضحة على اتجاه محمد الأول في مطلع دعوته. اشتعل أول اضهاد للمسلمين، وتضايق القوم وضافت بهم البلاد: فالى أين يلتجئون، وعند من يحتمون؟ ألا يظهر بأن محمداً نصحهم بالهجرة إلى الحبشة المسيحية - والعمل أبلغ تفسير للقول - حتى يأمن على قومه عند ((أهل دينه)) ؟

فالهجرة إلى الحبشة، ودستور الإيمان المسيحي في سورة مريم، يُظهران بأن محمداً في العهد الأول بمكة كان في ظل التأثير المسيحي دون سواه.

*

ونوجز في ختام البحث الدلائل على سيطرة التأثير المسيحي على الدعوة القرآنية

الأولى.

الظاهرة العامة: ما بين القرآن المكي والكتاب انتساب ونسب، في ((أمة واحدة)) .

أولاً : بيئة محمد قبل بعثته كانت حنيفية كتابية مسيحية.

(١) البيئة الكتابية النافذة في مكة هي المسيحية.

(٢) بيئة محمد الشخصية كانت على الغالب حنيفية مسيحية.

(٣) بيئة محمد العائلية، بعد زواجه من السيدة خديجة، كانت على الأرجح مسيحية.

ثانياً : ((هداية)) النبي في بعثته كانت إلى التوحيد الكتابي عن طريق المسيحية.

(١) التوحيد المسيحي بين الأميين، والعرب.

(٢) ((هداية)) محمد إلى التوحيد الكتابي المسيحي.

(٣) دعوة محمد ((بالموعظة الحسنة)) على طريقة المسيحية.

ثالثاً : دعوة القرآن الأولى في مكة كانت مسيحية في موضوعها.

(١) الموضوع الأول: الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي على الطريقة المسيحية.

(٢) الموضوع الثاني: الإنذار بيوم الدين دعوة مسيحية.

رابعاً : دعوة القرآن الأولى في مكة كانت مسيحية في طريقتها.

(١) دعوة القرآن الأولى إلى الزهد مسيحية رهبانية.

(٢) دعوة القرآن الأولى إلى التوبة مسيحية رهبانية.

(٣) دعوة القرآن الأولى إلى الصلاة مسيحية رهبانية.

خامساً : دعوة القرآن الأولى كانت مسيحية في بعض أحداثها.

(١) الإشادة باستشهاد نصارى نجران في سورة البروج.

(٢) الإشادة في تغلب الروم القريب على الفرس الأميين في سورة الروم.

(٣) القصص القرآني الأول: خبر المسيح وأمه في سورة مريم.

(٤) الحدث التاريخي الإسلامي الأول: الهجرة إلى الحبشة المسيحية.

فهذه الدلائل مجتمعة تدل دلالة واضحة على أن الدعوة القرآنية في العهد الأول بمكة كانت أقرب إلى المسيحية من سواها، وأن محمداً في هذه الفترة كان في ظل المؤثرات المسيحية الموروثة. لذلك نقدر أن نسمي بحق العهد الأول من الدعوة القرآنية:

((العهد المسيحي في القرآن)) .

*

بحث ثالث : المتشابه في أوصاف اليوم الآخر

ونختم بكلمة أخرى عن الأسلوب والموضوع، في أوصاف اليوم الآخر.

كان العهد الأول من القرآن دعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، بأسلوب الأقسام القومية. ويظهر أن أقسام القرآن، وأوصاف الحياة الأخروية فيه هي من ((المتشابه)) ، لا من محكم التنزيل.

نقل (الإتيان ٢ : ٢) حديثاً عن ابن عباس يجعل ((أقسام القرآن)) من المتشابه فيه. وهي أسلوب العهد الأول كله. فشبّه المتشابه تسيطر على أسلوب القرآن الأول.

وهي تشمل أيضاً موضوع الدعوة فيه لليوم الآخر؛ قال الأستاذ دروزة^١: ((إن

(١) القرآن المجيد ١٩٣ .

ما ورد في القرآن عن الحياة الأخرية، وأعلامها ومشاهدها وصورها وأهوالها، وعذابها ونعيمها، قد ورد بأسلوب منسجم مع مفهومات السامعين ومألوفاتهم، ومتناول إدراكهم وحسهم، وخاصة العرب الذين كانوا أول المخاطبين به، وأنه ورد بالأسلوب الذي ورد به على سبيل التقريب ... وهذا الأسلوب وسيلة من وسائل تأييد القصد وتدعيمه . . . وتعبير ((الأسس والوسائل)) عند الأستاذ مرادف للمحكم والمتشابه في القرآن.

ويذكر مواضع المتشابه في أوصاف اليوم الآخر: ((فإذا ذكر في سياق مشاهد يوم الحساب ما فيه من صور مجالس القضاء، والخصوم والشهود، والاتهام والمحاورات الدفاعية، والكتب والوثائق المدونة: ففي ذلك صور دنيوية مألوفة للسامع يستطيع إدراك مداها والتأثر بها. وإذا ذكر أن الجبال تنفتت وتصبح كالهباء والعهن المنفوش، والأرض تحمل وتدك، والسماء تنفطر وتنشق، والكواكب تنتثر وتتكور وتنطفئ، والبحار تتفجر، والعشار تتعطل، والوحوش تحشر، والولدان يصيرون شبيهاً: ففي ذلك صور هول لا يمكن للسامع إلا أن يتأثر بها ويدرك مداها، ولا سيما تبدل مشاهد الكون المائلة عظمتها في الذهن. وإذا ذكر من جنات فيها أنهار جارية، وسرر موضوعة، وفرش مرفوعة، ومجالس شرب أنيقة، وظلال وارفة وقطوف دانية، وولدان مخلصون كاللؤلؤ المكنون، يطوفون بالأباريق الفضية البراقة الشفافة، والكؤوس المزوجة بالكافور والزنجبيل، وفواكه كثيرة مما تختاره النفوس، ولحوم طير متنوعة مما تشتهي، وصحاف الذهب والفضة يتناول فيها أصحاب النعيم طعامهم، وثياب الحرير والاستبرق والسندس يلبسونها، وحلي اللؤلؤ والأساور الذهبية يتزينون بها، وحوار عين كالبيض المكنون يستمتعون بها ... الخ: فلا يمكن إلا أن يتأثر بها السامعون، ويفهموا مداها وتتوق إليها نفوسهم، لأنها منتهى ما تصبو إليه النفوس، والعرب خاصة. وإذا ذكر في أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة، شررها كقطع الحطب الضخمة، وفيها كالجبال، لا ماء فيها إلا الحار الشديد الحرارة (الحميم)، ولا ظلّ فيها إلا ظل المساكين التي لا تحجب حرارة ويكون الظلّ فيها كالوهج النار، ولا هواء فيها إلا الريح السموم، ولا شراب فيها إلا الغسلين والغساق، ولا طعام فيها إلا الزقوم والضريع: فإن السامعين والعرب خاصة لا يمكن إلا أن يتأثروا بها ويفهموا مداها. وإذا كان هناك شيء من الاستثناء مثل ((أنهار الخمر والعسل واللبن)) ووصف عرض الجنات بعرض السماوات والأرض: فالأسلوب قوي الدلالة على أنه جاء في معرض التفخيم والتشبيه، مما هو مألوف

في كلام السامعين، والعرب خاصة وأساليب لغاتهم وخطابهم. وإذا اختصنا السامع العربي بالذكر لأن كثيراً من الأوصاف والألفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية والبيئة العربية بنوع خاص، بل وربما على الحياة والبيئة في الحجاز بنوع أخص. وهذا في ذاته قرينة قوية قائمة على ما نقرّه)) :

وينتهي إلى التعارض القائم بين الأوصاف، مما يزيد المتشابه شبهة: ((ولعل في تنوع الأوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة وأهوالها ونعيمها وعذابها قرينة أو دليلاً على صواب ما نقرّه:

((فالجبال مثلاً في جملة قرآنية تسير سير السحاب، وفي أخرى تنسف نسفاً، وفي أخرى كتيب مهيل، وفي أخرى كالعهن المنفوش، وفي أخرى كالهباء المنثور.

((والسماء في جملة قرآنية تُفتَح أبواباً، وفي أخرى تتشقق، وفي أخرى تكسف.

((والنجوم في جملة تنتثر، وفي أخرى تنطمس.

((والشمس في جملة تتكور، وفي أخرى تجمع مع القمر.

((وبينما السماء تتبدل نواميسها ومشاهدها مستقلة عن الأرض في جملة، والأرض تدك في جملة، تُحمل الأرض والسماء فتدك دكة واحدة في جملة أخرى، وتبدل الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات في جملة أخرى كذلك الخ.

((والكافرون لا يدافعون عن أنفسهم في جملة، ويوردون متنوع الأعدار في جملة.

((ويجري أنواع الحوار بين بعضهم، أو بينهم وبين الملائكة، أو بينهم وبين الله في جمل، بينا لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ولا يتساءلون في جمل أخرى.

((وفي جملة ينفخ في الصور، وفي أخرى يُنقر في الناقور.

((وفي جملة ينفخ في الصور، وفي أخرى يُنقر في الناقور.

((وفي جملة ليس للكافرين طعام إلا من ضريع، وفي أخرى أن شجرة الزقوم طعام الأثيم، وفي أخرى ليس لهم طعام إلا من غسلين.

((وفي جملة يُحشرون وقد كشف عنهم غطاءهم، وأصبح بصرهم حديداً، وفي أخرى يحشرون غمياً ويسألون الله عن ذلك مع أنهم كانوا في الدنيا مبصرين.

((هذا بالإضافة إلى تنوع أوصاف النعيم حيث تأتي في بعض الفصول بسيطة منسقة مع الحياة العادية الدنيوية، كما في سورة الغاشية، بينما تأتي في أخرى في غاية الأناقة والفخامة مع اتصالها بمعاني ومشاهد الدنيا، كما في سورتي الإنسان والواقعة مثلاً.

((وهذا عدا التنوّع في الجزئيات حيث تكون الصّحاف والأساور، في جمل من فضة، بينما تكون في أخرى من ذهب.

((وحيث يذكر في جملة الحلّي الذهبية، وفي أخرى الحلّي الفضيّة، وفي أخرى الحلّي اللؤلؤية.

((وحيث تشبّه الحور العين في جملة بالياقوت والمرجان، بينما تشبه في أخرى بالبيض المكنون أي اللؤلؤ ...

((ومع تقرير إن الإيمان باليوم الآخر، وحسابه ونعيمه وعذابه، واجب؛ وإنه ركن من أركان العقيدة الإسلامية ... فإنّ حكمة الله قد اقتضت وصفهما بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتشبيه)) .

وهكذا فإن أوصاف اليوم الآخر، وحسابه وميزانه، ونعيمه وعذابه، من جملة المتشابه في القرآن؛ وأسلوب الأقسام القومية الذي يستفتح هذه الأوصاف الأخروية هو أيضاً من المتشابه ((الذي يؤمن به ولا يعمل به، ولا يعلم تأويله إلا الله)) .



الفصل الخامس

العهد الثاني بمكة (٦١٥ - ٦٢٠ م)

- من الهجرة الجماعية إلى الحبشة - حتى الهجرة الشخصية إلى الطائف -

((العهد الإسرائيلي في القرآن))

- الدعوة للتوحيد بأسلوب القصص القرآني -

((قل إنما يوحى إليّ أنما ألهمك واحد : فهل أنتم مسلمون؟)) (أنبياء ١٩٨)
((أدعوا الله أو أدعوا الرحمن : أيّ ما تدعوا فله الأسماء الحسنى)) (إسرائ ١١١)

تمهيد

تمتاز حوادث الدعوة القرآنية والسيرة النبوية في مكة بالهجرة الجماعية إلى الحبشة المسيحية سنة ٦١٥ م، والهجرة الشخصية عام ٦٢٠ م إلى الطائف، موطن بني ثقيف وداعتهم الموحد أمية بن أبي الصلت^١ ومقام جالية يهودية كبيرة كما في يثرب. وهاتان الهجرتان تحددان العهد وتحددان معناه.

كانت الهجرة الجماعية إلى الحبشة المسيحية ختام العهد المسيحي في القرآن، وطغيان الإنذار بيوم الدين على الدعوة القرآنية فيه. وفي العهد الثاني بمكة تطغو الدعوة للتوحيد على الإنذار بيوم الدين، بأسلوب خاص من القصص التوراتي القرآني، مع انتساب متواتر،

(١) حديث شريف : ((كاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم)) في صحيح مسلم : كتاب الشعر ٤٨/٧ راجع القسم الأول من هذا الكتاب ١٣٦ .

واستشهاد متواصل ببني إسرائيل، انتهى بالهجرة الشخصية إلى الطائف حيث النفوذ الإسرائيلي طاغ. لذلك نسمي هذا العهد من الدعوة القرآنية بمكة ((**بالعهد الإسرائيلي**)) . لم يكن محمد، فيه إسرائيلياً، كما لم يكن محمد مسيحياً في العهد الأول. ولكن النفوذ الإسرائيلي واضح فيه، في الدعوة وطريقتها، كما كان النفوذ المسيحي ظاهراً في العهد الأول في الدعوة والأسلوب.

وسط الشرك الحاكم المتحكم، كانت السيطرة الدينية الكتابية بمكة للنصرانية لا لليهودية، لذلك اندمج محمد بها في العهد الأول، وهاجر جماعته إلى الحبشة لطلب الحماية المسيحية. ولما فشلت هذه الحماية المسيحية، لبعد الدار وتتكّر الجار، تحوّل محمد إلى الحماية الإسرائيلية لا لسيطرتها في مكة، بل بسبب سيطرتها في الطائف ويثرب، الجوار القريب، واليمن والحيرة الجوار البعيد، في ظل الحماية الشرقية الفارسية التي كان اليهود ((الطابور الخامس)) لها بين العرب. لذلك تضاعف النفوذ المسيحي في هذا العهد، وبرز النفوذ الإسرائيلي في الدعوة والأسلوب. فلا ذكر للمسيح وأمه إلا في آيات معدودات تحدّ من سمو سورة مريم.

لم يكن انتقال النبي من التأثير المسيحي إلى التأثير الإسرائيلي ثورة وانقلاباً، بل كان انتقالاً وتجديداً. فقد ظلت المؤثرات المسيحية في التكبير والتعبير قائمة في هذا العهد الثاني، الذي نصفه ((**بالإسرائيلي**)) - لاعتماد الدعوة القرآنية فيه على علماء بني إسرائيل وتبنيهم الأولى إلى التوحيد الخالص قبل الدعوة إلى اليوم الآخر - فقد برزت الدعوة للتوحيد الخالص في هذا العهد بأسلوب القصص التوراتي القرآني.

*

بعد فتور الوحي مدة في العهد الأول، ((أثر عن النبي أحاديث يدعو فيها ربّه أن يعزّ الإسلام ببعض الأقوياء ... وإن هذا الحال دام ثلاث سنين إلى أن أسلم عمر بن الخطاب، وحمزة بن عبد المطلب ر. (عم النبي) وغيرهما من الأقوياء المعروفين^١)) فبدأ المهاجرون إلى الحبشة بالعودة إلى الحجاز. أما رجوع المهاجرين النهائي فلا تختلف الروايات في أنه كان بعد صلح الحديبية عام ٦٢٧م^٢.

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٤٨ .

(٢) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١٤٣ .

وخرجت الدعوة من العزلة والسر إلى الجهر والتحدّي. فبدأت بالأقربين ((وانذر عشيرتك الأقربين)) (شعراء ٢١٤). فصعد على الصفا فجعل ينادي بطون قريش حتى اجتمعوا إليه فدعاهم بالقرآن^١. وجهر بالقرآن كما تلهم سورة الحجر: ((فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين: إنا كفيناك المستهزئين)) (٩٤) كان النبي لا يعيب جهرأ آلهة قومه فأصبح يعيبها^٢. كان يدعو سراً فجعل يدعو جهراً، وقد أعز الله الإسلام بدخول عمر بن الخطاب فيه^٣ بعد حمزة عم النبي بثلاثة أيام. كانت الدعوة إفرادية، فأصبحت جماعية، في نواديهم، وفي فناء الكعبة وعلى رؤوس الجبال (سورة الحجر).

إيمان بعض الزعماء مثل عمر وحمزة بعد أبي بكر وعثمان، أجمع المعارضين من متطرفين أمثال أبي لهب، وأبي جهل، ومن معتدلين أمثال أبي سفيان على مقاطعة بني هاشم. وتفاقم الخلاف بين محمد وبني قومه أكابر قريش فانقسموا إلى حزبين: بني هاشم بزعامة أبي طالب يحمون النبي، وبني أمية بقيادة أبي سفيان بن حرب يهاجمونه. وانتهى بهم الأمر إلى المقاطعة: فكتبوا صك القطيعة وأودعوه في الكعبة. ثم شعروا بخطر الرجل، فأوفدوا سفارات ثلاث إلى عمه أبي طالب ليوقف الداعية الجديد عند حده، فما نجحت^٤. وفي موضوع القطيعة خلاف. قيل تشمل بني هاشم - وهذا ليس بمعقول لأنه قطيعة مع ألد الخصوم، أبي لهب عم النبي، ومع عمه الثاني، أبي العباس، المعتدل في مقاومته؛ بل قصدت القطيعة جماعة محمد وكل من ينتمي إليه ويتبعه. فتعاقدوا وكتبوا صك القطيعة وعلقوه على أستار الكعبة. ولكن في آخر العهد جعلت زعامة آل هاشم ((الملأ)) يرجع عن صك القطيعة ويمزقه.

ووقف الأمر على ملاحقة النبي في العهد الثاني، عند حد الجدل والحجاج والصد والتكذيب والمناوأة والأذى الشخصي، الذي لم يعقبه محاولة رسمية حازمة من ((الملأ)) .

(١) البخاري ٣ : ١١٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٨١ قابل حسين هيكل : حياة محمد ١٠٧ .

(٣) كان إسلام عمر بسبب سماعه شيئاً من القرآن ، واختلفوا في المسموع : التكوير ، الحاقة ، وعلى الأغلب طه .

(٤) سيرة ابن هشام ١ : ٢٨٥ .

وهذا هو الذي استمر طيلة العهد أو أكثره، وكان من عوامل انفساح المجال لاستمرار النبي في دعوته، حتى هجرته الشخصية إلى الطائف^١.

*

كان القرآن في العهد الأول بمكة دعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، فصار في العهد الثاني دعوة إلى **التوحيد الخالص** قبل كل شيء. واتخذت هذه الدعوة الجديدة سمة **جدل** متواصل مع المشركين على ضرورة التوحيد. وأسلوب القرآن في هذا العهد أسلوب جدل عنيف أكثر منه أسلوب دعوة سمحاء^٢. وهذا الهجوم المتواصل على الشرك **والمشركين العرب** - إذ ليس من جدال مع الكتابيين في مكة كما استخلص الزمخشري - لا يتجمع في سورة واحدة، بل يفصله في سور العهد كله.

وهذه الدعوة إلى التوحيد الخالص هي **محور القرآن في عهده الثاني**. تبع القرآن، في براهين التوحيد، دعوة اليهود ودعوة النصارى بين العرب. برهان التوحيد الأول تقرؤه الفطرة منشوراً في سجل الخليقة: عظمة تدل على الخالق، وهذه العظمة تدل على وحدانية الخالق. وكانت هذه طريقة المسيح في الإنجيل. وهو صوت الزبور الدائم. وهذا ما كان يسمعه النبي من اليهود والنصارى في أناشيدهم وصلواتهم ومواظمتهم: ((ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله)) (الحج ٤٠). فإذا جادل العرب المشركين فهو إنما يجادلهم بعلم وهدى من الكتاب المنير: ((ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)) (الحج ٨).

وقد درج اليهود والنصارى على تسمية الله، باسم ((الرحمن)) في كل بلاد العرب، تمييزاً لإله التنزيل الكتابي. وهو الاسم الكريم الذي يظهر فجأة في القرآن بعد الهجرة إلى الحبشة المسيحية؛ وقد نقله المسلمون معهم من الحبشة واليمن، وطبع سور العهد الثاني بطابعه. وكان جديداً في مكة ولذا رفضه أهل مكة، وغدا اسم إله الوحي في القرآن، يستفتح به كل سوره. وانتشاره في القرآن يدل على وحدة التوحيد في مكة بين اليهود والنصارى والمسلمين، وعلى وحدة أمم التوحيد المنزل طيلة الدعوة القرآنية بمكة.

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٤١ .

(٢) دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٣٢ .

وبرهان التوحيد الآخر يستنبطه القرآن من حياة البشرية. ويمتاز هذا العهد الثاني بدخول **القصص القرآني** التوراتي مفصلاً في القرآن، وليس بتلاميح عابرة، كما في العهد الأول. فقد أخذ النبي يتفنن في تكرار هذا البرهان القصصي. وجعل يردد القصص التوراتي كما يسمعه من رواة التلمود الذين يفصلون الكتاب على طريقتهم. لذلك لما سمعه أهل مكة نعتوه ((**بأساطير الأولين**)) دليلاً على مصدره الكتابي.

ونلاحظ في القصص التلمودي القرآني هدفين: الأول برهان التوحيد من تاريخ البشرية، كما ترويه أحاديث الجزيرة؛ والثاني حكاية حال العرب المشركين، المناوئين للدعوة القرآنية، بمثل الأولين الذي أهلكهم الله لكفرهم به.

ويمتاز أخيراً أسلوب القرآن في هذا العهد بأقسامه الكتابية على طريقة بني إسرائيل بين العرب. كان القرآن في العهد الأول يقسم بكل شيء سوى الله؛ فصار في العهد الثاني يقسم بالكتاب وقرآنه (أي قرآنيته). ثم تطور استفتاح السور من القسم إلى ذكر الكتاب: ((تلك آيات الكتاب)) .

ودليل القرآن الدائم على صحته هو استشهاد المتواصل بأهل الكتاب: ((فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر)) (نحل ٤٣). ويخصُّ منهم بني إسرائيل: ((أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)) (شعراء ١٩٧). وإذا طلبوا منه معجزة أجاب: ((وقالوا: لولا يأتينا بأية من ربه ؟ - أولم تأتئهم بينة ما في الصحف الأولى)) (طه ١٣٣) ((صحف موسى، وإبراهيم الذي وفى)) (نجم ٣٧). ويرتد بأن القرآن ((في زبر الأولين)) (شعراء ٩٢) أي ((إن ذكر القرآن المنزل على محمد لفي كتب الأولين كالنوراة والإنجيل)) (الجلالان) وأنه تصديق وتفصيل للكتاب: ((وما كان هذا القرآن ليفتري من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه (قبله) وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين)) (يونس ٣٧). وبهدى أنبياء الكتاب يجب أن يقتدي النبي (أنعام ٩٠) لا بل في هذا العهد يجعل كتاب موسى إمامه في الهدى: ((ومن قبل كتاب موسى إماماً ورحمة)) (هود ١٧ كذلك أحقاف ١٢) فلا يشكُّ محمد بالاتصال بموسى في توراته: ((ولقد آتينا موسى الكتاب، فلا تكن في مرية من لقائه)) (سجدة ٢٣) وصلة الاتصال هم أئمة بني إسرائيل: ((وجعلنا منهم أئمة يهتدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)) (سجدة ٢٤) أي لا تشك، يا محمد في اتصالك بكتاب موسى الإمام الأكبر، بواسطة أئمة بني إسرائيل فإنهم يهدون بأمرنا إلى هدى الكتاب. لذلك نسمة

بحق العهد الثاني بمكة، ما بين الهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى الطائف، ((العهد الإسرائيلي)) حيث يجعل القرآن بني إسرائيل في المحل الأرفع: فقد فضلهم الله على العالمين، ويسميهم دائماً في مكة ((بني إسرائيل)) ذلك الاسم المحبب لديهم، لا اليهود كما سيفعل في المدينة؛ وقد سميت سورة باسمهم ((سورة بني إسرائيل)) قبل أن تسمى أيضاً (الإسراء أو أسرى). يستشهد بهم، ويشهدون له فهم ((أمة واحدة)) : ((إن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون)) (أنبياء ٩٢ مؤمنون ٥١).

*

قال الأستاذ دروزة^١ بعد غيره: ((من العسير معرفة تاريخ نزول السور، والمجموعات القرآنية المكية معرفة صحيحة ... ومن المحتمل أن تكون مجموعات من سورة ما - وخاصة من السور الطويلة - قد نزلت عن مجموعاتها الأخرى)) .

ونلاحظ في سور هذا العهد توارد السور على تقسيم واحد في السورة الواحدة: توحيد، فقصص، فحديث الآخرة، يتخلل ذلك ردّ أو ردود على اعتراضاتهم أو مواقفهم من الدعوة. وإذا توارد هذا الترتيب أو التقسيم في السورة الواحدة مرتين أو ثلاثة فهذا دليل على أن السورة مجموعة من سورتين أو ثلاث مختلفات. وقد يدل على ذلك أيضاً تغيير الروي أو الفاصلة: نجد أمثال ذلك في سور النحل (٢ - ٣٦) يونس (٣ - ٩) رعد (٢ - ٦) فرقان (٢ - ٣٥) الزخرف (٨ - ١٤) الجاثية (٢ - ٩) ق (٦ - ١١) نوح (١٠ - ١٩) النبا (٦ - ٤١) النازعات (٢٧ - ٤١) الأحقاف (١ - ٨) عبس (٢٤ - ٤٢) المؤمنون (١٢ - ٢٢) النمل (٦٠ - ٦٨) الروم (٨ - ١٨).

وأطوار هذا العهد ثلاثة. الطور الأول فترة انتقال: مع سورة القمر، السادسة والثلاثين، تنتقل إلى طريقة ثانية في الدعوة القرآنية؛ كانت ميزة الأسلوب القرآني في العهد الأول أقسامه القومية، وميزة العهد الثاني تفصيل القصص القرآني: بدأ التحول منذ سورة القمر وبلغ الذروة في سورة مريم (الثالثة والأربعين). الطور الثاني: سور التوحيد والقصص الذي اكتمل في سورة طه، الرابعة والأربعين، إلى سورة الزمر، الثامنة والخمسين: بدأت السور تطول وفقراتها تتوازن، وتتعاقب دقات من نور؛ فقد تروّض الخطيب على صناعة سحر البيان، وإعجاز فصل الخطاب. وكان التطور مضطرباً ما بين

(١) دروزة: سيرة الرسول ١: ١٣٣ .

الطور الأول والثاني والثالث الذي فيه مجموعة ((الحواميم)) - نزوة الدعوة في مكة - وهي سبع سور من أصل عشرين سورة تبدأ بحروف رمزية. جاء في صحيح البخاري (٣ : ١٤٧) عن ابن مسعود: ((بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي)) وفي حديث آخر: ((آخرهن الحواميم)) .

ولسور هذا العهد مميزات بارزة أهمها: ((إن أغلب سورته ومجموعاته تنحو منحى التسجيع والتوازن والاتساق في الروي أولاً وقصر الآيات ثانياً. كما أنها قوية الأداء والإيقاع والنفوذ في تقريرها ووصفها وخطابها وجدلها وتنديدها وتنويهها ووعداها وتبشيرها وإنذارها. وإن أسلوب الدعوة أسلوب حث وضح وتشويق وتمثيل ووعد وجدل أكثر منه أسلوب تشريع وتقنين (لا تشريع في مكة). وإن وصف مشاهد الحياة الأخروية وثوابها وعقابها؛ والإنذار والتبشير بها قد كثر وتكرر وتنوع، كما كثر وتكرر وتنوع إيراد قصص الأنبياء وأقوامهم، وأدم وإبليس (في ست سور) وذكر الملائكة والجن، بإسهاب حيناً، واقتضاب حيناً آخر. وإن المشاهد التي احتوتها سور القرآن المكي ومجموعاته ومناسباتها تكاد تكون متشابهة دعوة وتقريراً ووصفاً وحكاية وجدلاً وإنذاراً وتبشيراً وقصصاً)) . وفي هذا التكرار، وهذا التشابه المتواتر، إعجاز. وبعضهم يقول: في هذا الإعجاز عجز وتعجيز! وفي تقسيم السور جميعها إلى توحيد وقصص وحديث بعث دليل على أسلوب متواتر مدروس.

*

دامت القطيعة بين قريش والمسلمين ومن والاهم من بني هاشم وبني عبد المطلب نحو ثلاث سنوات، قضوا أكثرها في شعاب مكة. فاننصر لمحمد قومه بنو هاشم وعملوا على نقض صك القطيعة.

وبعد نزول المسلمين من جبال مكة بثمانية وعشرين يوماً، حاصر الحزن محمداً من جديد. دار الزمن دورته فمات درع النبي، عمه أبو طالب، ولم يُسلم، ولم يفلح بالتسوية بين ابن أخيه وملا قريش. ولحقت به السيدة خديجة، تلك الزوج الوفية التي كفت النبي بحبها ومالها. فقد ذهب السند والعون وذهب السكن والسكينة وبقي محمد وحده وجهاً لوجه مع قريش. وكان ذلك عام ٦١٩م أو ٦٢٠م فدعي العام في السيرة النبوية

((عام الحزن)) : ضاقت بالنبي الدنيا، وضاقت به نفسه. فخرج محمد من مكة مع ابنه المتبنى زيد بن حارثة، إلى الطائف، مدينة الجنوب، حيث التوحيد الكتابي قائم وحيث التوحيد العربي ينشره أمية ابن أبي الصلت بين قومه. هاجر محمد وحده إلى ثقيف يعرض نفسه عليها لتجيره، ويحتمي بيهودها الأعراء، أهل توحيده. فردّوه جميعاً رداً غير جميل.

نترك النبي في هجرته الشخصية إلى الطائف، لندرس سور هذا العهد الثاني بمكة، في أطوارها الثلاثة، عسانا نجد فيها، كما يقول حسين هيكل: ((معجزة المعجزات)) .



البحث الأول :

فترة الانتقال بين عهدين (من القمر إلى مريم)

السورة السابعة والثلاثون : القمر (٥٤) : « من الأنباء ما فيه حكمة بالغة » .

فذلكة : يبرز القصص القرآني في هذه السورة مفصلاً . ويرد قصص الأولين عبرة للقوم الآخرين : « من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة » . والسورة وحدة قائمة بنفسها تربط أقسامها خاتمة مرددة، في وحدة الموضوع ووحدة النظم ووحدة الروي . وهي من النوع المسمى عندهم « Strophique » والسورة فيها من المنسوخ موضع ، ولا ناسخ فيها . وفي الآيتين ٤٣ و ٥٢ يعطينا مصادر قصصه : « كل شيء فعلوه : في الزبر » أي الكتب المقدسة عند أهل الكتاب. وفي « اللازمة » المرددة : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مذكر » يظهر أن غاية القرآن تذكير العرب بما في زُبر الكتاب .

مطلع: ١ - ٨ : « اقتربت الساعة » . ومن علاماتها « انشقاق القمر » .

٩ - ١٧ آية نوح وقد كذبه قومه فنصره الله بماء منهمر: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر؟

١٨ - ٢١ آية هود وقد كذبه قومه فنصره الله بريح صرصر: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر؟

٢٢ - ٣١ آية صالح في ثمود: أخرج الناقة من الصخرة فعقروها: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر؟

(١) قال الجلالان : « اقتربت الساعة : قربت القيامة . وانشق القمر : انفلق فلقين ، على أبي قبيس وقيعان ، آية له ص. وقد سُئِلها فقال : أشهدوا . وراه الشيخان » . وفات الجلالان والشيخين ما في هذا التفسير من التناقض : الساعة هي القيامة ، وانشقاق القمر من علامات حضور يوم الدين ، والنص الكريم يعطي انشقاق القمر علامة للقيامة لا معجزة للنبي . أما قوله : « وإن يروا آية ، يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر » فيعني آية خطابية لا معجزة عملية بدليل جوابهم : « سحر مستمر » حملاً على قولهم : « سحر يؤثر ، قول البشر » . وقد ورد الاسم « الساعة » والعلامة « انشقاق القمر » وظلامه ، في إنجيل متى (٢٤ : ٣ و ٢٩ و ٣٦) .

٣٢ - ٤٠ آية لوط في قومه الفاسقين؛ أرسل الله عليهم حاصباً: ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟

٤١ - ٤٢ آيات موسى في آل فرعون: كذبوها فهلكوا في اليم: فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر!

٤٣ - ٥٤ خاتمة. ((الساعة موعدهم: أكفاركم خير من أولنكم، أم لكم براءة في الزبر))؟

*

الثامنة والثلاثون: ص. - (داود) (٣٨). قصة داود وسليمان

فذلكة: كان اسم السورة الأول (داود) وتدور على قصة داود وابنه سليمان، وغرائب حكمها. فصدروها بقصة بعثة ((الملأ)) من قريش ، إلى أبي طالب في مرضه الأخير يعرضون عليه ما يرضي ابن أخيه بعد إسلام بعض الزعماء . فتوسط لهم قائلاً : ((يا ابن أخي ما تريد من قومك؟ قال: أريد منهم كلمة وتدين لهم بها العرب ، وتؤذي إليهم العجم الجزية ، كلمة واحدة ! - قال : وما هي ؟ - قال: لا إله إلا الله ! - فقال : إليها واحداً ، إن هذا لشيء عجاب . فنزل فيهم : ((والقرآن ذي الذكر ا ...)) ألا يوحى هذا الحديث أن فكرة السيطرة على العرب والعجم بواسطة الدين أصيلة عند النبي ؟ هذا إن صحت الرواية . وما أظنها بصحيحة لأن فكرة الجزية لم تكن لتراود ضمير النبي الطريد الشريد في مكة . وكلمة ((جزية)) لا ترد إلا في آخر سورة من القرآن (توبة ٣٠) ، وذلك بحق الكتابيين لا بحق المشركين من العرب أو العجم .

ونلاحظ منذ مطلع السورة ، الاستفتاح بالقسم الكتابي : ((والقرآن ذي الذكر)) ، وموضوع الدعوة الجديد : ((أجعل الآلهة إلهاً واحداً)) ، والصفة التي يتخذها النبي لنفسه: ((وعجبوا أن جاءهم منذر منهم)) وتكرر هذه الصفة في السورة : فهو نذير لقومه ، ولا يتخذ سوى هذه الصفة (٦٤ و ٧٠) ، والتعريض الخفي بالنصارى أصحاب محمد قبل الهجرة إلى الحبشة ((ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة)) .

والسورة من ثلاث سور تختلف موضوعاً ونظماً وروياً . والسورة الأولى منها لها خاتمة مرددة: ((وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)) . - وقال النحاس ((في ص ثلاث مواضع من المنسوخ ولا ناسخ فيها)) .

السورة الأولى منها: (١ - ٤٤ مع ٤٩ - ٥٨) .

مطلع: (١ - ١٦): بعثة ((ملأ)) قريش لاستمالة النبي إليهم^٢ .

(١) السيوطي: أسباب نزول سورة ص - أخرجه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عباس.
(٢) الآية ٥ - يرى القرآن في قصصه أنباء الأولين ما فيه مزدجر ، وحكمة بالغة)) ولذلك اتخذه أسلوباً خاصاً به في هذا العهد والآية ١٧ ((واصبر على ما يقولون)) نسختها آية السيف في سورة براءة .

- ١- ذكر داود (١٧ - ٢٥) قصة النعجة^١. خاتمة: ((وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب)) .
- زيادة (٢٦ - ٢٨) تختلف موضوعاً ونظماً وفاصلة. تليق مطلعاً للسورة الثانية.
- ٢- ذكر سليمان (٢٩ - ٤٠) فتنة الجياد الصافنات^٢. خاتمة ((وإن عندنا لزلفى وحسن مآب)) .
- ٣- ذكر أيوب (٤١ - ٤٤) معجزة تفجير الماء مغتسلاً وشراباً^٣. سقطت الخاتمة.

ختام: حديث الآخرة (٤٩ - ٥٩) هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ... هذا وإن للطاغين لشر مآب.

*

السورة الثانية منها: موزعة في الأولى (٢٧ - ٢٩ ثم ٤٥ - ٤٨ ثم ٥٩ - ٦٦) - بفاصلة مختلفة.

مطلع: (٢٧ - ٢٩) ((وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً)) .

(١) قابل في التوراة (٢ صموئيل ١٢) قصة داود مع امرأة أوربياء، وقصة توبيخ النبي ناتان له بمثل النعجة. فمزج القرآن القصتين في واحدة وجعلها محاكمة خصمين ((فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى)) . واقتفى التلمود في صورة تسبيح الجبال والطير مع داود في العشي والاشراق (الآية ١٨) . وقابل بين إعجاز ((الحكمة وفصل الخطاب)) في قصة النعجة بين القرآن (ص ٢١ - ٢٥) والكتاب (٢ صموئيل ١٢) .
وقصة القرآن من ((المتشابه)) موضوعاً وأسلوباً : داود خليفة الله في الأرض (٢٦) يصلي في محرابه (٢١) وكيف يصح أن يتسور عليه المحراب خصمان من رعيته ؟ ثم يفزع منهما ؟ وفي النظم، جمع وثنى وافراد (٢١ و ٢٢ و ٢٣) وهما أخوان ((إن هذا أخي)) (٢٣) .
(٢) الآية ٢٩ ((كتاب أنزلناه)) مطلع سورة عادة (أعراف ، هود ، إبراهيم) ؛ يستنتج المستشرق بلاشير أنها سورة جديدة، وفاته أن وحدة النظم ، والفاصلة ، والخاتمة في قصة داود وقصة سليمان تجعلها سورة واحدة .
- الآيات ٣١ - ٣٣ قصة فتنة سليمان بالخيل عن الصلاة ثم مسح سوقها وأعناقها بالسيف لا تعرفها التوراة . وقصة سلب جثي ملك سليمان بسرقة خاتمه السحري ، والجلوس على عرشه بواسطته (٣٤ - ٣٥) لا تعرفها التوراة أيضاً . قابل في التلمود البابلي (جتيم ٦٨) قصة احتيال ازمداي على سليمان فيأخذ منه خاتمه ويجعل بواسطته شبهه على عرشه .

- الآيات (٣٦ - ٣٨) قابل في التلمود أيضاً قصة تسخير الرياح والشياطين لسليمان .
- قال النحاس إن الآية ٣٣ ((فطقق مسحاً بالسوق والأعناق)) : ((قال النحاس: أبيع هذا ثم نسخ)) .
الآية ٣٨ ((وألقينا على كرسيه جسداً)) ، تجهل التوراة هذه الفتنة التي وردت في التلمود (جتيم ٦٨)

(٣) معجزة ضرب أيوب الأرض برجله ، وتفجيره الماء مغتسلاً وشراباً يبرأ به من دائه (الآية ٤٣) لا يعرفها الكتاب . وقصة الفتوى الإلهية بضربه امرأته ضرباً واحدة عن مائة بحزمة من مائة قضيب (الآية ٤٤) يجهلها أيضاً الكتاب . وقاس الفقهاء على هذه الفتوى أنه يحسن الاحتيال في التخلص من الأيمان على الحنث بها . والنحاس يقول : من العلماء من قال بأن فتوى الآية ٤٤ منسوخة ، ومنهم من قال بأنها خاصة بأيوب .

١- قصص: ذكر المصطفين الأخيار إبراهيم وإسحاق ويعقوب (٤٥ - ٤٧) ١. ثم ذكر الأخيار إسماعيل واليسع وذي الكفل (٤٨).

٢- حديث الآخرة: ((إن ذلك لحق تخاصم أهل النار)) (٥٩ - ٦٤).

ختام: ((قل إنما أنا منذر، وما من إله إلا الواحد القهار)) (٦٥ - ٦٦).

السورة الثالثة منها: (٦٧ - ٨٨) بنظم مختلف وفاصلة مختلفة.

مطلع: (٦٧ - ٧٠) قل هو نبأ عظيم!

قصص آدم والملائكة وإبليس ٢ (٧١ - ٨٥).

ختام: (٨٦ - ٨٨) إن هو إلا ذكر للعالمين، وستعلمن نبأه بعد حين.

*

التاسعة والثلاثون: الأعراف (٧): ((لله الأسماء الحسنى. فاقصص القصص)) .

فذلكة: الأعراف سورة متبعضة أي فيها أي مكي وأي مدني، والمدني منها شبيه بسورة البقرة، يدل عليه ما ورد فيها من آيات تشريعية، ولا تشريع في مكة؛ ويجمع فيها مدح بني إسرائيل، وهو من مكة، إلى ذمهم وهو من المدينة؛ وفي بعضها يتخذ الرسول صفة منذر كما في هذا العهد الثاني، وفي غيرها صفة ((النبي الأمي)) الذي تجهله السور المكية. والآي المكي من أزمنة مختلفة بمكة.

في الأعراف يأخذ القصص القرآني مداه في التفصيل، ولذلك جعلوه من السبع الطوال، بينما هي في أصولها الأولية من هذا العهد بمكة. وفيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ ثلاثة (ابن خزيمة).

والأعراف سورة من خمس سور كل منها تامة: تجمعها وحدة الفاصلة، ويفصل بينها اختلاف النظم وتكرار المواضيع.

*

السورة الأولى منها: (١ - ٥٢) **قصص بدء الخليقة.**

مطلع: (١ - ٢) القرآن كتاب ذكرى للمؤمنين.

توحيد (٣ - ٦) ((لا تتبعوا من دونه أولياء ... وكم من قرية أهلكناها)) لكفرها ٢

- الآيتان ٧ - ٨ مقحمتان على السياق.

(١) المصطفون الأخيار إبراهيم وإسحاق ويعقوب - اشعار بالنفوذ الإسرائيلي .
(٢) الآية ٨٤ ((قال فالحق، والحق أقول)) هو قسم المسيح في الإنجيل، جاء في القرآن على لسان الله .
(٣) الآية ٣ ((وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا)) أي عذابنا: كيف يصح عذابها بعد إهلاكها؟ قيل فيه تقديم وتأخير والأصل: ((وكم من قرية جاءها بأسنا فأهلكناها)) .

قصص (٩ - ٢٤).

أولاً: آدم والملائكة (٩ - ١٧): الله يمتحن الملائكة بالسجود لآدم^١.

ثانياً: آدم وإبليس (١٨ - ٤٢)^٢.

- استطرادات مُتَّحمة على السياق (٢٥ - ٣٣) كان الخطاب مع آدم في الجنة فصار مع بني آدم خارج الجنة^٣.

حديث الآخرة (٣٤ - ٥٠) - نصيب الكفار وتخاصم أهل النار (٣٤ - ٤٠)^٤.

(١) الآية ١٠ ((ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)) : يذكر ذرية آدم والكلام عن آدم تجهل التوراة حوار الله والملائكة ، ويذكره التلمود في المدرش على التكوين (٨ : ٣ - ٥) .
- الآية ١٠ ((ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم : فسجدوا إلا إبليس)) : هل يصح أن يأمر الخالق بالسجود لمخلوق ؟ ورد مثل هذا الأمر في الاخبار النصرانية في قصة امتحان الملائكة بالسجود لآدم الجديد أي المسيح ، وهو عندهم ابن الله المتجسد الذي يحق له السجود بحسب عقيدتهم .
- الآية ١١ ((وقال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك)) : هل أمره بالسجود أو عدمه ؟ زيادة (لا) تعكس المعنى .

- الآية ١١ ((قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين)) : يجعل طبيعة الملائكة، وإبليس منهم قبل هلاكه ، من نار . وهذا تعليم تلمودي أخذ تشبيه المزمور (١٠٣) على حرفه ((الجاعل ملائكته أرواحاً، وخدامه مارجاً من نار)) .
- الآية ١٣ - ١٤ ((قال انظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين)) : كيف يصح أن يقبل الله دعاء إبليس بعد أن كفر وهلك ، وهو يتحدى الله بإهلاك البشر ؟ - قيل هو تمثيل حال .
- الآية ١٥ ((فبم أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم)) : هل يغوي الله المخلوق ؟ وهل يتبادل الله التحدي مع إبليس ؟

- الآية ١٦ ((ولا تجد أكثرهم شاكرين)) : هل يعرف إبليس الغيب إلى يوم الدين ؟
(٢) الآية ١٩ ((إلا أن تكونا ملاكين أو تكونا من الخالدين)) ؛ وفي التوراة : ((في يوم تاكلان منه تنفتح أعينكما وتصيران آلهة عارفي الخير والشر)) (تكوين ٣ : ٥) : التشبه بالملائكة المخلوقين الذين يسجدون لآدم بأمر الله ليس جرماً يستحق الإخراج من الجنة ، مثل التشبه بالإله الخالق .
(٣) الآيات ٢٥ و ٢٦ و ٣٠ و ٣٤ خطاب ((لبني آدم)) وهو تعبير كتابي خاص بهذه السورة ، ولا يرد في غيرها إلا ثلاث مرات والآيتان ٢٥ - ٢٦ مستقلتان عن السياق ، وهما خطاب عام . والآيتان ٣٠ - ٣١ خطاب آخر لأهل مكة على طوافهم بالبيت عراة (قابل تفسير الطبري) وهذا تشريع من المدينة إذ لا تشريع في مكة .
- الآية ٢٧ ((إن الله لا يأمر بالفحشاء)) تقابلها آية الإسراء ((أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)) (٢٧) .
- الآية ٣٤ ((قل من حرم الطيبات من الرزق)) مثل آية المائدة ((اليوم أحل لكم الطيبات)) : تشريع من المدينة .

(٤) الآية ٣٩ ((حتى يلج الجمل في سمّ الخياط)) ثقب الإبرة (الجلالان) مثل من الإنجيل (متى ١٩ : ٢٤ مرقس ١٠ : ٢٥ لوقا ١٨ : ٢٥) .

- نصيب المؤمنين وحوار أهل الجنة والنار (٤١ - ٥٠)'.
يقطع هذا الحوار (٤٣ - ٥٠) حديث ((الأعراف)) (٤٥ - ٤٨) فهو مقحم عليه.^٢
ختام: (٥١ - ٥٢) القرآن كتاب علم وهدى مفصل، ينظرون تأويله.

*

السورة الثانية منها: (٥٣ - ١٠١) قصص الأولين.

مطلع: ((إن ربكم الله)) (٥٣).

براهين التوحيد (٥٣ - ٩٧) - والآيتان (٥٤ - ٥٥) تعترضان السياق.^٣

قصص التوحيد (٥٨ - ٩٢): قصة نوح (٥٨ - ٦٣). قصة هود في عاد (٦٤ - ٧١).

(١) الآية ٤٢ ((ونودوا : إن تلكم الجنة أورتتموها بما كنتم تعملون)) هو في الإنجيل صوت المسيح في يوم الدين ((حينئذ يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم)) (متى ٢٤).

(٢) حديث الأعراف (٤٥ - ٤٨) . آية الأعراف ٤٥ غامضة الضمائر (بينهما ؟ وعلى الأعراف ؟ ولم يدخلوها ؟) قد تفسرها القرائن المعنوية ؛ قال الجلالان ((بينهما أي أصحاب الجنة والنار . حجاب أي حاجز قيل هو سور الأعراف . وعلى الأعراف : هو سور الجنة)) أي سور السور ؟؟ المعرفة في الأعراف للعهد أي أعراف الحجاب . قال الرازي : ((الأعراف أعالي السور الذي يفصل بين الجنة والنار)) . وهذا الفاصل بين الجنة والنار الذي يسميه القرآن ((الأعراف)) هو تارة حجاب ، قال الطبري : ((الحجاب لغة حاجز من قماش أو سواه ؛ وكل مرتفع من الأرض عند العرب فهو عرف)) . وتارة سور ((سور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)) (حديد ١٣) كما ورد في المدراس على سفر الجامعة (٧ : ١٤) ((قال رابي حنان : بينهما سور)) . وسائر الأوصاف توحى أنه مكان بين الجنة والنار له أصحابه (٤٥ و ٤٧) أي من تساوت حسناتهم وسيناتهم ، كما في الحديث ((نقله الجلالان، والطبري (١٢ : ٤٥٢) . أصحاب الأعراف)) طائفة من الموحدين قصّروا في العمل، فيحبسون بين الجنة والنار حتى يقضي الله فيهم ما يشاء)) (البيضاوي) : ((لم يدخلوا الجنة وهم يطعمون)) (الآية ٤٥) يصلون إلى الله : ((ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين)) في النار (الآية ٤٦) فيستجيب الله لهم : ((ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون)) (الآية ٤٨) . وهذا هو تعليم النصرانية الأولى عن ((المطهر)) وهو محل غير الجنة والنار ، فيه يُحيس ويتطهر من خلص من النار (الآية ٤٦) ويطمع أن يدخل الجنة (الآية ٤٥) عندما يأذن الله ويقول ((ادخلوا الجنة)) (٤٨) . فيكون القرآن شاهداً على صحة هذا التعليم وقدمه عندهم .

(٣) الآية ٥٥ ((إن رحمت الله قريب)) : ما وجه تذكير الخبر ؟

قصة صالح في ثمود (٧٢ - ٧٨). قصة لوط (٧٩ - ٨٢)^١. قصة شعيب في مدين (٨٤ - ٩٢)^٢.

حديث الآخرة (٩٣ - ٩٩): العبرة بمثل الأولين.

ختام: (١٠٠ - ١٠١) ((تلك القرى نقص عليك من أنبائها)) .

*

السورة الثالثة منها: (١٠٢ - ١٧٥) **قصة موسى**^٣.

مطلع: توحيد رب العالمين (١٠٢).

القصص - موسى في مصر، ومعجزاته فيها (١٠٢ - ١٣٦)^٤.

(١) قصة لوط (٧٩ - ٨٢) تظهر كأنها دخيلة على السياق لاختلاف أسلوبها منذ مطلعها عما قبل وعمّا بعد . حوار لوط وقومه تجهله التوراة وله مثيل في مدراس رباح على التكوين (٥٠ : ٩) .

(٢) الآية ٨٧ في تهديد مدين لشعيب إشارة إلى تهديد فريش محمداً بإخراجه من قريتهم أو يعود في ملتهم . ويظهر من قصص الأولين في الأعراف (٥٨ - ٩٢) أن تاريخ البشرية يقتصر بعد قوم نوح على قوم هود وصالح وشعيب الذين جعلهم خلفاء على الأرض بعد نوح (٦٨ و ٧٢) بالإضافة إلى قوم موسى .

وقصة هود في عاد (٦٣) وصالح في ثمود (٧١) وشعيب في مدين (٨٣) من القصص العربي القليل الذي دخل القرآن . وهو يدل بتواتره على أنه جاء العرب أنبياء قبل محمد ، وقصصهم معروف في الجزيرة فليس محمد ((النبي الأمي)) الوحيد . ونلاحظ أن نوحاً (٦٠) وموسى (١٠٣) بشرُوا قبل القرآن برب العالمين . وهو اسم الجلالة الشائع عند عرب الشمال حتى تدمر قبل القرآن .

(٣) قصة موسى تتفق فاصلة مع ما قبلها وتختلف نظاماً : آياتها أقصر وأشد أسراً . ولعلها السورة الأصيلة . وزيادة التفصيل فيها دليل النفوذ الإسرائيلي في هذا العهد .

(٤) الآية ١٠٣ ((وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين)) : بحسب القرآن الدعوة لرب العالمين من عصر موسى وقد آمن بها سحرة مصر (١٢٠) وتوفوا مسلمين (١٢٥) .

- الآية ١١٦ عصا موسى تتلقف أي تبتلع (الجلالان) عصيهم ؛ قابل ؛ (خروج ٧ : ١٢) .

- الآيات ١١٠ - ١٢٥ قصة موسى مع سحرة مصر (قابل يونس ٨٠ طه ٦٠ شعراء وغيرها) أقرب إلى التلمود منها إلى التوراة : في التوراة لا يطلب السحرة أجراً (١١٢) ولا يتحدّون موسى (١١٤) . ولا تذكر التوراة أن السحرة آمنوا برب موسى وأسلموا حتى هددهم فرعون بالتقطيع والصلب - بل ورد مثل ذلك في ((المدراس)) أي التفسير القصص للكتاب عند اليهود . والآية ١٢٤ تجعل الاضطهاد بعد دعوة موسى .

- الآيات ١٢٧ - ١٢٨ ((عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض)) . قال البيضاوي ((هو وعد لهم بالانصره وتذكير لما وعدهم من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم ، وتحقيق له ، وقد روي أن مصر إنما فتح

- الخروج من مصر. كتابة الألواح على الجبل^١. قصة العجل^٢. اختيار السبعين^٣.
- يعترضُ السياق حديث ((النبي الأمي)) (١٥٦ - ١٥٧) وهو مقم من المدينة^٤.
- يُتم حديث موسى (١٥٨ - ١٥٩): وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً^٥. معجزة الاثنتي عشرة عيناً، والغمام والمن والسلوى.

لهم في عهد داود عليه السلام). التوراة والتاريخ بجهلان توريث اليهود مصر؛ إنما الأرض التي أورثهم اله هي (مشارك الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) (١٣٦) أي الأرض المقدسة فلسطين.

- الآية ١٣٠ «فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات»: الأعراف تذكر خمسا من معجزات موسى، والإسراء والنمل تحصيان تسعة؛ وهي في التوراة عشر (خروج ٧ و٨). طوفان نوح يصير من معجزات موسى. واختلفوا في تفسيره بالموت أو الطاعون أو الجدري أو الماء غزا الحرث.

(١) الآية ١٤٤ «وكتبا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء». لا تذكر التوراة عليها سوى الكلمات العشر فقط (خروج ٣١: ١٨ و ٣٤: ١) وتنص على أنهما لوحين لا غير.

(٢) قصة العجل (١٤٦ - ١٥٣) هنا يظهر أن هارون هو الذي صنع لهم العجل (١٤٩ قابل خروج ٣٢) وفي غيرها «أضلهم السامري» (طه ٨٥). ظاهر الآية ١٥٣ أن الألواح لم تنكسر (خمر ٣٤: ١).

والآية ١٤٧ تقول إنه «جسد له خوار» أي «صوت يُسمع» (الجلالان) والتوراة تجهل ذلك (خروج ٣٢: ٤) قابل مدراش تنحو ما على الخروج (١٩).

(٣) الآية ١٥٤ «واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا» أي «من قومه، ليعتدروا من عبادة أصحابهم العجل» (الجلالان) - والسبعون في التوراة جعلهم موسى ليقضوا بين بني إسرائيل (خروج ١٨: ٢٥).

(٤) الإيتان (١٥٦ - ١٥٧) عن النبي الأمي، دخيلتان على السياق، من المدينة: حديثهما يقطع قصة موسى؛ والآية ١٥٥ تجعل الحسنه في الدنيا والآخرة في اليهودية «إنا هدنا إليك» بينما الآية ١٥٦ تجعلها للذين يتبعون النبي الأمي؛ والآية ١٥٦ خطاب تشريعي لليهود: ولم يكن في مكة تشريع، ولا تقويم لتشريع اليهود، ولا دعوة موجهة لهم. فكيف أقحم ذكر الإنجيل معهم؟ (١٥٦). والآية ١٥٧ خطاب من النبي لليهود والنصارى والمشركين العرب، وفي مكة ليس من دعوة لأهل الكتاب، بل هو معهم أمة واحدة. والنبي الأمي يؤمن بالله وكلماته، وعلى قراءة «وكلمته» أي عيسى (البيضاوي) ففي هذه الآية ١٥٧ تقرّب من النصارى بينما الآية ١٥٦ فيها ابتعاد عن اليهود وتمييز عنهم «تعريضاً لليهود وتنبهياً لهم على أن من لم يؤمن به لم يعتبر إيمانه» (البيضاوي). أخيراً يتخذ محمد في مكة وفي الأعراف (١٨٢ و ١٨٧) صفة نذير لا صفة نبي.

والنبي ((الأمي)) في لغة القرآن تعني العربي الذي لا كتاب له «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم» (سورة الجمعة). «الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل»: والنبي المكتوب في التوراة بعد موسى هو من الإسرائيليين لا من الأميين «يقيم لك الرب إلهك نبياً من بينكم، من إخوتكم مثلي» (التثنية ١٨: ١٥) والنبي المكتوب في الإنجيل بعد المسيح، ليس نبياً بل هو الروح القدس الفارقليط: قال المسيح «وأنا أسأل الأب فيعطيك فارقليط آخر ليقم معكم إلى الأبد روح الحق الذي ستعرفونه لأنه يقيم عندكم ويكون فيكم (إنجيل يوحنا ١٤: ١٦) فالفارقليط روح الله يقيم مع الرسل ويكون في نفوسهم، ولا يأتي بعد ستمائة سنة ونيف في الحجاز. فالآية (١٥٦) دعوة للنصارى للإيمان بالنبي الأمي، وهذه الدعوة ليست من مكة. والإيتان من المضائق ما بين التوراة والإنجيل والقرآن.

(٥) الآية ١٦٠ «وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً»: أنت العدد وجمع المعدود، والأصل «اثني عشر سبطاً».

- يقطع السياق أيضاً حديث القرية (١٦٠ - ١٦١) وحديث القرية حاضرة البحر^١ التي جعلها فيها قرده (١٦٢ - ١٦٥) وحديث تشتيتهم في الأرض وسومهم سوء العذاب، ووراثة الكتاب ودراسته (١٦٦ - ١٦٩) وهذا الحديث كله من المدينة بأسلوب البقرة الذي يستفتح الآيات ((بإذ)) .

- يختم قصة موسى بمعجزة نتوء الجبل فوقهم (١٧٠): اذكروا ما في الكتاب لعلمكم تعقلون!

*

السورة الرابعة منها: (١٧١ - ١٨٣) ((لله الأسماء الحسنى: فاقصص القصص)) .

- ١- توحيد (١٧١ - ١٧٣) ميثاق الله على بني آدم: ((ألسْتُ بربكم)) .
 - ٢- قصص بلعام (١٧٤ - ١٧٧): أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب.
 - ٣- حديث الآخرة (١٧٨): ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس.
- ختام : لله الأسماء الحسنى - ما بصاحبهم من جنّة (١٧٩ - ١٨٣) .^٢**

*

السورة الخامسة منها: (١٨٤ - ٢٠٥) ((وهذا بصائر من ربكم)) .

مطلع: (١٨٤) حديث الإيمان عن ملكوت السماوات والأرض، والأجل القريب.

- ١- حديث الآخرة (١٨٦ - ١٨٧) يسألونك عن الساعة أيان مرساها^٣؟
- ٢- قصص (١٨٨ - ١٨٩) حمل حواء الأول، وأصل الشرك،^٤
- ٣- توحيد: حملة على الشركاء (١٩٠ - ١٨٩) ألهم أرجل، أم لهم أيد أم لهم أعين أم لهم آذان ° ؟

(١) الآية ١٦٣ حديث القرية حاضرة البحر حيث مسخ الله فيها بعض اليهود قرده : تجهلها التوراة .
والآية ١٧٠ معجزة تظليل بني إسرائيل بجبل فوق رؤوسهم تجهلها التوراة .
(٢) الآيات ١٨١ - ١٨٢ هي بالحرف الواحد في سورة القلم ٤٤ - ٤٥ .
(٣) الآية ١٨٦ الكناية بالساعة عن يوم الدين تعبير إنجيلي (متى ٢٤ : ٣٦) .
(٤) الآية ١٨٨ ((فلما أثقلت دعوا الله ربهما)) جمع وثنى معاً والعائد واحد ، آدم وحواء . ثم ((فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء)) ينسب القرآن أصل الشرك إلى آدم وحواء، بوحى الشيطان ، بعد سقوطهما من الجنة: كيف يستقيم هذا الحديث مع قولهم بنبوّة آدم وعصمته ؟
(٥) الآية ١٩٣ - ١٩٤ هذه الحملة على الشركاء لها مثيل في أشعيا النبي وفي سفر الحكمة .

خواتيم السورة: (١٩٨ - ٢٠٥) أعرض عن الجاهلين^١: إذا لم تأتهم بأية قالوا: لولا اجتبيتها^٢. هذا بصائر من ربكم.

*

السورة الأربعون: الجن (٧٢) إيمان نفر من الجن بالتوحيد القرآني.

فذلكة: فيها قسمان يتفقان رويًا ويختلفان موضوعاً وخطاباً وزماناً. والسورة محكمة.

١ - ١٥ قصة إيمان نفر من الجن بالتوحيد القرآني^٣: كانوا مثل بعض الناس يشركون^٤ ويقولون: لن يبعث الله أحداً (٧) فلما سمعوا الهدى آمنوا به (١٣).

- يعترض السياق زيادة للتفسير يدل عليها اختلاف الروي (٤ - ٦).

١٦ - ٢٨ دعوة إلى التوحيد في الإيمان والصلاة: إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً

- يعترض السياق زيادة (١٦ - ١٧) تختلف موضوعاً عما سبق، وخطاباً عمّا يلي.

*

الحادية والأربعون: يسن (٣٦): بشرى لأهل الذكر، وإنذار للأمينين.

فذلكة: السورة من سورتين متداخلتين يجمعهما روي واحد، ويفصلهما اختلاف الخطاب الذي يقصد تارة أهل الذكر (الآية ٦) وتارة العرب، القوم الذين ما أنذر أبؤهم (الآية ١١). ونقل

(١) الآية ١٩٧ ((خذ العفو)) فيها خمسة أقوال: منسوخة بالزكاة المفروضة، أو بالأمر بالغلظة على الكفار. بل هي الزكاة المفروضة. لا بل هو أمر بالاحتمال وترك الغلظة فهي محكمة (النحاس ١٤٧). أما قوله: ((واعرض عن الجاهلين)) فقد نسخه في براءة بأية السيف.

(٢) الآية ٢٠٢ فيها تحدّ للنبى أن يجترح معجزة: ((وإذا لم تأتهم بأية قالوا: لولا اجتبيتها)) عنده وحي لا معجزة، فلا يردّ التحدي بعد.

(٣) ينقل السيوطي في (أسباب نزول) الآية الأولى: ((أخرج ابن الجوزي عن سهل بن عبد الله أنه رأى في ديار عاد شيخ الجن يصلّي نحو الكعبة في جبّة عليه منذ سبعماية سنة لقي فيها عيسى ومحمداً عليهما السلام فأمن بهما)). وهكذا فالجن أمنت بتوحيد عيسى قبل إسلام محمد، وعمر جبّة شيخ الجن يشير إلى أنه لبسها منذ إيمان الجن بالمسيح وتوحيده.

(٤) الآية ((إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً)): كيف ينسجم هذا الأمر مع ذكر نبي أو ولي مع الله، في الأذان أو الشهادة أو الصلاة؟

(٥) في الآيات ١٦ و١٨ و١٩ لِمَ تعود الضمائر؟ قال الجلالان: يعود الضمير في ((كادوا)) إلى الجن. وموضوع الخطاب كله ينفي ذلك، فالعائد لغويّاً واحد، ومعنوياً مختلف. - والآية ٢٣ ((ومن يعص الله ورسوله)) تعبير مدني مما يوحي بأن الآية أو القسم كله من المدينة. والآية ٢٧ تصرح بأن الله يرسل ملائكته أمام كل نبي وخلفه ((رصداً عليه حتى يعلم أن قد أبلغ رسالات ربه)).

الطبري الأحاديث التي تروي أنها نزلت في وفد النجاشي إلى النبي ؛ وفي السورة إشارة إلى تلك الأحاديث : في قوله ((إنما تنذر من اتبع الذكر)) (١١) وفي مثل أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون (١٣) أي رسل عيسى ، وفي اسم الجلالة الرحمان (١١ و ٥٢) ونداء ((يا بني آدم)) (٦٠) . والسورة محكمة . في الترمذي سماها النبي ((قلب القرآن)) وفي البيهقي ((سورة يس تدعى في التوراة: المُعمّة ، تعم صاحبها بخيري الدنيا والآخرة)) (الإتيقان ١ : ٥٦) .

*

السورة الأولى منها : (١ - ٣٢) ، بشرى لأهل الذكر .

مطلع : (١ - ٤) إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم^١ .

١- توحيد (١١ - ١٢) بَشْرُ أهل الذكر بمغفرة وأجر كريم .

٢- قصص أصحاب القرية (١٢ - ٢٩) إنطاكية ، مع رسل عيسى ، وحماية حبيب النجار لهم (الجلالان)^٢ .

ختام : (٣٠ - ٣٤) سيحاسب الله المستهزئين بالرسول ، والذين لم يعتبروا بمثل الأولين .

*

لسورة الثانية منها : (٣٣ - ٣٨) : إنذار المشركين: عهد الله على بني آدم بالتوحيد .

مطلع : (٥ - ١٠) تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوماً ما أنذر آبائهم فهم غافلون .

١- توحيد (٣٢ - ٤٦) برهانه من معجزات الخليقة: إحياء الأرض الميتة (٣٣) خلق الإنسان والحيوان أزواجاً (٣٦) الليل والنهار (٣٧) دورة الشمس والقمر كل في فلك يسبحون^٣ (٤٠) آية فلك نوح والبواخر (٤١ - ٤٥)^٤ :

ختام التوحيد: إعراضهم (٤٦) - الآية ٤٧ مقحمة على السياق .

(١) ((يس)) مثل ((طه)) معناه: يا رجل ، بلغة الحبشة (الإتيقان ١ : ١٤١) .
(٢) ينقل الطبري أيضاً أحاديث ترى فيهم رسل عيسى إلى انطاكية ، وترى في الذي أزرهم وحماهم حبيب النجار . فهل هو أغابوس الذي يذكره سفر أعمال الرسل ؟ (١١ : ٢٨ و ٢١ : ١٠) .
(٣) الآية ٤٠ ((كل في فلك يسبحون)) فقوله ((كل)) يعني إن للشمس والقمر ، والنهار والليل أيضاً ، فلكاً خاصاً فيه ((يسبحون)) ؛ واقتضت الفاصلة أن ينزل غير العاقل منزلة العاقل .
(٤) الآية ٦٠ تسمى عبادة الأصنام ((عبادة الشيطان)) كما عند بولس الرسول (١ كورنثس ١٠ : ٢٠) .

٢- حديث الآخرة (٤٨ - ٨٢): متى هذا الوعد؟ - بعد صيحة ونفخة بالصور (٤٨ - ٥٤) أصحاب الجنة في شغل فاكهون (٥٥ - ٥٨) محاكمة المجرمين: ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان؟ (٥٩ - ٦٨) - والآيات (٦٩ - ٨٠) مقحمة على السياق^١. فلا يحزنك قولهم متى: هذا الوعد (٧٦ - ٧٧). وقالوا: من يحيي العظام وهي رميم؟ - الذي أنشأها أول مرة، بخلق جديد (٧٨ - ٨٢).

ختام : (٨٣) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه ترجعون!

*

الثالثة والأربعون: فاطر (الملائكة) - ٣٥ - الله فاطر السماوات والأرض.

فذلّة : سورة في سورتين بروي مؤتلف مختلف .

والسورة فيها أي مكي من أزمنة مختلفة يدل عليها اختلاف الروي أو النظم .

قبل فيها من المنسوخ موضع ولا ناسخ فيها .

السورة الأولى منها : (١ - ٣٨): دعوة إلى التوحيد.

مطلع: (١) الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة ورسلًا^٢.

- الآيتان ٢ و٣ مقحمتان، يدل عليهما اختلاف الروي.

١- حديث الآخرة (٤ - ١٠) وعد الله بالنشور.

- الآية ٨ مقحمة يدل عليها اختلاف الروي^٣. والآية ١٠ تقطع السياق.

٢- توحيد (١١ - ٢٤) براهينه: آيات الله في الإنسان (١١) - الآية ١٢ مقحمة

(١) الآية ٦٩ ((وما علمناه الشعر)) : جواب على تهمتهم له ((شاعر مجنون)) أي به جنة توجي إليه ؛ فنفي الشعر عن القرآن رداً لتهمة الوحي الشيطاني ، وليس المقصود به نفي كل شعر عن القرآن كما حاول (أصحاب الإعجاز) أن يتوهموا ويوهموا : فهل تتناقض النبوة والشعر ، والزبور كله شعر، وأنبياء الكتاب أكثرهم شعراء ، والمفصل في القرآن شعر على طريقة الزبور ولو لم يتبع أوزان العروض . وهل نفي الشعر عن محمد كمال فيه ، وقومه أكثرهم شعراء ؟ بل القرآن الأول شعر ، بدون عروض ، لا يُنال ، وهذا كمال .

(٢) الآية ١ تميّز الملائكة بعدد أجنحتها .

(٣) الآية ٨ جاء عليها في (أسباب النزول للسيوطي) : ((قال النبي ص اللهم أعزّ دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل ، فهدى الله عمر وأضلّ أبا جهل فنزلت)) . وقوله ((فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)) تظهر غيرة محمد على هداية قومه .

يدل عليها اختلاف الروي^١ - آيات الله في الطبيعة (١٣ - ١٤)^٢ الآيات ١٥ - ١٨ خطاب مستقل - والآيات ١٩ - ٢٤ مقحمة لاختلاف النظم: إن أنت إلا نذير!^٣

٣ - قصص (٢٥ - ٣٢) مثل المكذبين الأولين، والمؤمنين الأولين^٤ - الآيتان (٢٧ - ٢٨) مقحمتان بروي مختلف، وتقطعان السياق^٥.

٤- حديث الآخرة من جديد (٣٣ - ٣٧): آخرة المؤمنين: دار المقامة^٦ (٣٦ - ٣٧) آخرة الكافرين: نار جهنم (٣٦ - ٣٧).

ختام : الآية ٣٨ عالم الغيب عليم بذات الصدور.

*

السورة الثانية منها: (٣٩ - ٤٥): حملة على الشركاء.

مطلع: (٣٩) الكفر مقت عند الله وخسارة.

(١) الصفة في الآية ١٢ ((عذب فرات)) ترد ثلاث مرات في القرآن . والآية تذكر آية الله في تمييزه البحر إلى عذب ومالح .

(٢) في الآية ١٤ ((يوم القيامة يكفرون بشركهم)) : فهل تقوم الشركاء لتكفر بناديبها ؟ وفي الآية ١٥ - ١٨ الإنذار موجه ((إلى المؤمنين الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة)) (لاحظ فيها أيضاً عطف الماضي على المضارع) .

(٣) الآية ٢٣ ((إن أنت إلا نذير)) : هذه صفة محمد في هذا العهد . والآية ٢٤ ((وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)) : تجعل رسالة كل رسول قومية ، والرسالة العامة للعالمين غير ضرورية .

(٤) الآية ٢٥ ((جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر والكتاب المنير)) : ٢٢ : ((قد يراد بها الكتاب ذاته والعطف لتغاير الأوصاف (البيضواوي) وقد يراد بها التوراة فالزبور فالإنجيل ويكون وصف ((الكتاب المنير)) خاصاً بالإنجيل .

(٥) الآية ٢٧ ((غرابيب سود)) : ((الغرابيب شديد السواد)) يقال كثيراً أسود غرابيب ، وقليلاً غرابيب أسود)) (الجلالان) .

والآيات ٢٨ - ٣٠ مدح أهل الكتاب الذين يسميهم العلماء ((إنما يخشى الله من عباده العلماء)) أي أهل العلم ، وهم أهل الكتاب كما تفسرها الآية ٢٩ ((إن الذين يتلون كتاب الله)) .

(٦) الآية ٣٥ تسمى الجنة ((دار المقامة)) في هذا الموضوع الوحيد .

١- توحيد: (٤٣ - ٤٠) ماذا خلق الشركاء؟ وما يستطيعون؟ (٤٠ - ٤١) ^١ تمنّوا النذير فجاءهم فاستكبروا (٤٢ - ٤٣) ^٢.

٢- قصص (٤٤ - ٤٥) مثل الجابرة الكفرة قبلهم، الله يؤخر هؤلاء إلى أجل مسمى.

ختم السورة : مبتورة.

الرابعة والأربعون: مريم (١٩) القصص المسيحي الأكبر.

فذلكة: جاء في الإتقان (١ : ١٩) « ينبغي أن يمثل لما حمل إلى الحبشة بسورة مريم ، فقد صح أن جعفر بن أبي طالب قرأها على النجاشي . أخرجه أحمد في مسنده » . فهي إذن دستور إيمان القرآن الأول بالمسيح . وحملها إلى الحبشة وقراءتها على النجاشي وبلاطه دليل على وحدة الإيمان المسيحي بين جماعة محمد والأحباش النصارى . وهي تمثل ذروة التأثير المسيحي في النبي والقرآن . فبعد الهجرة العابرة التي لم تأت بالنصرة الوافرة ، عدل النبي في سياسته الدينية وبرز نفوذ التأثير الإسرائيلي في القرآن .

والسورة وحدة متكاملة يدل عليها وحدة النظم ووحدة الروي حتى تكاد تكون شعراً . وقد ألحق بها سورة بروي مختلف . قال ابن خزيمة : سورة مريم فيها من الناسخ موضعان ومن المنسوخ خمسة مواضع ؛ لم يصح منها موضع .

وقصص سورة مريم يجمع القصص المسيحي مطوّلاً إلى القصص الإبراهيمي والقصص العربي (إسماعيل) وقصص ما قبل التوراة (إدريس) : مما يدل على وحدة التوحيد في مكة بقيادة التوحيد المسيحي .

مطلع: كهيعص ^٣.

(١) الآية ٤٠ « أم أتيناهم كتاباً فهم على بينة منه » في ادعاء الشرك ؟ هذا التحدي يوحى بأن النبي عنه كتاب يستوحى منه التوحيد ، ويتحداهم به ، وهذا انتساب ظاهر إلى الكتاب وأهله (قابل ٢٩ و ٣٢ و ٢٥ و ٢٨ و ٣٠) . في الآية ٤١ « إن أمسكهما » بمعنى « ما » . هذه الحملة على « الشركاء » تشبه حملة أشعياء المجلجلة في فصوله ٤٠ - ٥٠ فالحجاج ذاته .

(٢) الآية ٤٢ « لنكونن أهدى من إحدى الأمم » قول المشركين العرب هذا ، من قصد : اليهود أم النصارى ؟ - (أسباب النزول للسيوطي) تقول كانت اليهود تستفتح به على النصارى ، فأخذ العرب عنهم . وفي هذا إشارة إلى النفوذ الإسرائيلي الذي بدأ يتغلب على محمد .

(٣) كهيعص : « الله أعلم بمراده بذلك » (الجلالان) . في العبراني تعني : « كذا أمرني » (أن أكتب فكتبت) . في سورة مريم يبدأ القصص بدون مطلع ، بحسب العادة ، من دعوة للإيمان بالله أو اليوم الآخر .

١- ذكر ميلاد يحيى (١ - ١٤) ذكرُ رحمت ربك عبده زكريا^١ ... فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم^٢ ... يا يحيى ... وآتيناه الحكم^٣ صبياً، وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً^٤ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً^٥ .

٢- ذكر ميلاد المسيح من مريم، وهي بتول، (١٥ - ٤٠) وفيه نسان:

النص الأصلي (١٤ - ٣٣) على نظم السورة وروبيها:

(١) الآية ١ ((ذكر)) اختلفت فيه القراءات . والأصل عندنا ((اذكر)) كما في مطلع قصص مريم (١٥) وإبراهيم (٤١) وموسى (٥١) وإسماعيل (٥٤) وإدريس (٥٦) . الآية ٣ ((ولم أكن بدعائك)) أصلها ((بدعائي إياك)) . والآية ٥ ((واجعله ربّ رضيعاً)) على وزن فعيل بمعنى المفعول : مرضياً . والآية ٧ ((وقد بلغت من الكبر عتياً)) أصله عتوا ، فكسرت التاء للتخفيف وقلبت الواو ياءً ، وذلك لمناسبة الفاصلة .

ما بين ميلاد يحيى في القرآن وإنجيل لوقا وجوه شبه : في تسميته : لم نجعل له من قبل سميّاً (مريم ٩) ما من أحد في عشيرتك يدعى بهذا الاسم (لوقا ١ : ٦١) ؛ اسمه يحيى (مريم ٦) فطلب لولحاً وكتب عليه : اسمه يوحنا (لوقا ١ : ٦٣) ؛ وكانت امرأتى عاقراً وبلغت من الكبر عتياً (مريم ٧) فإني أنا شيخ وامرأتى قد طعنت في أيامها (لوقا ١ : ١٨) . وبينهما أيضاً وجوه خلاف : قال أينك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً (مريم ٩) ها أنت صامتة لا تستطيع الكلام إلى يوم يكون ذلك (لوقا ١ : ٢٠) فخرج على قومه من المحراب فأوحى إلى قومه أن سبحوا بكرة وعشيا (مريم ١٠) - أوحى بالكلام أو بالإشارة ؟ - فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم وكان يشير إليهم وبقي أبكم إلى ما بعد ميلاد يوحنا (لوقا ١ : ٢٣) .

(٢) الآية ١٠ ((فخرج على قومه من المحراب)) : كلمة حبشية تعني الهيكل، أو المسجد (الإنتقان ١ : ١٣٩) ((فأوحى إليهم)) : الوحي يكون بحسب طبيعة الموحى والموحى إليه ، وهنا يكون أصلاً بالكلام ، وأيته ((ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً)) ؛ قيل أوحى بالإشارة .

(٣) الآية ١١ ((وآتيناه الحكم صبياً)) يعني الحكمة وفهم التوراة ، وقيل النبوة : احكم الله عقله في صباه واستنباهه (البيضاوي) ورد لفظ ((الحكم)) بحرفه مراراً في القرآن ، وهو اللفظ العبراني الآرامي ذاته ، أي الحكمة .

(٤) الآية ١٢ ((وزكاة)) لها في القرآن المكي معنيان : الطهارة أو الصدقة (الزمخشري) وهنا الطهارة ، إذ أي صدقة في الولادة والطفولة ؟ يؤيدها وصفه في آل عمران ((حصوراً)) (٣٩) .

(٥) الآية ١٤ ((وسلام عليه)) : سلم الله عليه في هذه الأحوال لأنها أوحش المواطن (الزمخشري) وهو السلام ذاته على عيسى في مولده وموته وبعثه حياً : وهذه شهادة على إيمان القرآن الأول بحقيقة موت المسيح وبعثه . والفارق أنه ((سلام)) بحق يحيى ، بينما هو ((السلام)) بحق عيسى . قال البيضاوي ((سلام عليه يوم ولد : من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم ؛ ويوم يموت : من عذاب القبر ؛ ويوم يبعث حياً : من عذاب النار وهول القيامة)) .

واذكر في الكتاب مريم^١ إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً^٢ ...
 أعود بالرحمان منك إن كنت تقياً^٣.
 إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً^٤ ...

(١) في قصة مولد المسيح ، بين الإنجيل والقرآن ائتلاف واختلاف . الائتلاف الأكبر في الشهادة الواحدة فيها بتولية مريم في الحبل والولادة ، ثم في الأوصاف المميزة لشخصية المسيح في النص الأصلي (١٤ - ٣٣) . ويظهر الاختلاف : على مكان البشارة « مكاناً شرقياً ، وراء حجاب » (مريم ١٥) وهي في الإنجيل في الناصرة (لوقا ١ : ٢٦) ؛ وعلى مكان الولادة : مكاناً قصياً عند جذع النخلة (مريم ٢١ - ٢٢) والإنجيل ، في بيت لحم (لوقا ٢ : ٤) في مذود (٢ : ٧ و ١٢) . وذكر الأكل بمعجزة من النخلة اليابسة ، والشرب بمعجزة من جدول سري ، وصوم مريم عن الكلام ، ونطق يسوع من المهد : كلها معجزات لم يذكرها الإنجيل ؛ ولكن لها أمثالها في الأناجيل المنحولة : فإنجيل متى المنحول يذكر الأكل من النخلة اليابسة ، والنهر الجاف (ف ٢٠) ؛ وإنجيل الطفولة المنحول ينقل كلام يسوع لأمه ساعة مولده « أنا يسوع الذي ولدته ابن الله ، الكلمة » (ف ١٩) فهذا القصة النصراني حمله الرهبان إلى الشعب في تطوافهم على ديار العرب ، حتى وصل الحجاز ونزل به القرآن . وأم المسيح هي الأنثى الوحيدة في القرآن التي ذكرها باسمها والتي كلمها الملائكة واستنباها الله .

(٢) الآية ١٥ « إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً » : يوم البشارة خرجت من عند أهلها ، بينما سورة آل عمران تقول إنها كانت في المحراب أي الهيكل (٣٧) قبل أن تأتيها الملائكة بالبشارة (٤٥) .
 (٣) الآية ١٧ « أعود بالرحمان منك » قالتها من غاية عفافها (البيضاوي) « إن كنت تقياً » إما جواب الاستعاذة ، وإما مستأنفة ، وعلى الأول الزمخشري « أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة فإني عاندة به منك » : وهذا لا يصح لأنه إن كان تقياً : مستأنف ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله » ؛ بل جواب الشرط محذوف لأن الملاك قاطعها ليثبت تقواه بأنه رسول الله .
 (٤) الآية ١٨ « لأهب لك » تعددت فيها القراءات . قال الزمخشري : « في بعض المصاحف : إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك » ؛ وفي البيضاوي : « لأهب لك أي لأكون سبباً في هبته لك بالنفخ في درعك » وهذا تفسير مادي لقوله « ونفخنا فيها من روحنا » والنفخة ليست من جبريل بل من الله مباشرة ينفخ الله من روحه فيها ، وهي كناية عن إلقاء الله كلمته إلى مريم (نساء ٧٠) وزاد البيضاوي « ويجوز أن يكون حكاية لقوله سبحانه ، ويؤيده قراءة أبي عمرو وابن كثير عن نافع ويعقوب بالياء : يهب » . - وقوله « غلاماً زكياً » : مزكى بالنبوة (الجلالان) - كلا بل مزكى قبل الحبل به ، فالزكاة بالنبوة للنبي الأمي (سورة الشرح) والزكاة وهو صبي ليحيى . قال البيضاوي « زكياً : طاهراً من الذنوب ، أو نامياً على الخير أي مرتقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح » : فهو الطاهر منذ الحبل به ، وقبل مولده ، وابن الطاهرة التي لم يمسه بشر وهذه الطاهرة منذ الحبل لم ينلها سوى المسيح بحسب شهادة القرآن .

قال ربك هو عليّ هيين! ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً^١ ...
فحملته، فانتبذت به مكاناً قصياً^٢.

فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة. قالت يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسياً^٣.
فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً^٤.

(١) الآية ٢٠ ((آية للناس)) : علامة لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا (البيضاوي) المراد بالآية العبرة والبرهان على قدرة الله . وبالرحمة ، الشرائع والألطف التي نزلت معه (الزمخشري) فالمسيح وحده بين الأنبياء آية للناس منذ مولده المعجز ، وبرهان على كمال قدرة الله فيه ، وعلى كماله هو في شخصه، لذلك جعل القرآن مولده المعجز آية شخصه ورسالته : فهو آية للناس ليؤمنوا (رومة ١ : ١٦ - ١٧) ورحمة للعباد يهتدون بإرشاده (البيضاوي) إذ في المسيح ظهرت نعمة الله المخلصة لجميع الناس (تيطس ٢ : ١١) وتجلّى لطف الله مخلصنا ومحبه للبشر ، ورحمته (تيطس ٣ : ٥ - ٥) . ((وكان أمراً مقضياً)) : تعلق به قضاء الله في الأزل أو كان أمراً حقيقياً (البيضاوي) : فالمسيح آية الله في خلقه ، في قضاء الله الأزلي وفي تحقيقه .
(٢) الآية ٢١ تذكر الحمل بالمسيح ، ولا تذكر مدته . فتضاربت الآراء في مدة الحمل : والحمل والتصوير والولادة في ساعة (الجلالان) وعن ابن عباس : كانت مدة الحمل ساعة واحدة : كما حملته نبذته (الزمخشري) أي كما حملته بمعجزة : يرون في طريقة الحمل معجزة ، وفي مدة الحمل معجزة أخرى ، وفي طريقة الولادة معجزة ثالثة ، ولم تتجمع هذه المعجزات في مولد رسول سوى المسيح . زاد الزمخشري ((وما من مولود ألا يستهلّ (أي يصيح عند ولادته) غيره)) . وهذه معجزة رابعة . وفي عدم استهلال المسيح بالصراخ في مولده دليل على المعجزات الخارقة في ولادته وفي زكاته وطهارته في الحمل والولادة .

(٣) الآية ٢٢ ((فأجاءها)) منقول من جاء وتغير بعد النقل إلى الالغاء (الزمخشري) . ((المخاض)) : وجع الولادة (الجلالان) لا صلة لهذا المخاض بوجع الولادة ، قال البيضاوي ((المخاض بفتح الميم أو كسرهما، مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج)) وقال الزمخشري ((من تمخض الولد في البطن)) وعن الصحاح : ((تحرك الولد في بطن الحامل)) ، دون ذكر الوجع في الأصل . قابل إنجيل متى المنحول ف ٢٠ .

(٤) الآية ٢٣ ((فناداها من تحتها)) في ضمائر الفعل والظرف غموض . قال البيضاوي والزمخشري ((فناداها، أي عيسى وقيل جبريل كان يقبل الولد)) : عيسى يكلم أمه ساعة الولادة ، معجزة خامسة لم ينلها سواه ؛ أو جبريل يقوم مقام القابلة ، وهذا أيضاً شرف للمسيح وأمّه لم ينلها سواهما . وقوله ((من تحتها)) من تحت مريم إن كان النداء من المسيح ، أو من تحت النخلة إن كان النداء من جبريل : وفي القرآن لم تحضر الملائكة وجبريل ولادة سوى ولادة المسيح . نطق يسوع منذ مولده يجهله الإنجيل ، وتجده في (إنجيل الطفولة) المنحول .

- وقوله ((سرياً)) : نهر ماء كان قد انقطع (الجلالان) جدول ماء : هكذا روي مرفوعاً ، وقيل سيد من السراة (البيضاوي) سرياً أي نهراً أخرجه الله لتشرب منه ، وقد ورد اللفظ في معلقة ليبيد ، وقيل المراد عيسى (الزمخشري) : إخراج نهر بمعجزة لتشرب منه مريم وأبناها معجزة سادسة لم ينلها سواهما . وزاد الزمخشري : ((فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تُسلى بالسري والرطب ؟ قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث أنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث أنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأن مثلها بما قرفوها به بمعزل ، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع في شأنها)) . معجزتا النخلة والماء في (إنجيل متى) المنحول .

وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنبياً .
 فإمّا ترين من البشر أحداً، فقولني إني نذرت للرحمان صوماً ...
 يا أخت هارون^٣ ... كيف نكلم من كان في المهد صيبياً .

(١) الآية ٢٥ ((هزّي بجذع)) : الباء زائدة لأن الفعل لا يتعدى بالحرف . ((تساقط)) فيه تسع قراءات حسب الزمخشري . والبيضاوي يعدد سبعة . ((روي أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر وكان الوقت شتاء فهزتها فجعل الله لها رأساً وخصاً ورطباً ، وتسليتها بذلك لما فيه من المعجزات الدالة على براءة ساحتها فإن مثلها لا يتصور لمن يرتكب الفواحش . والمنبهة لمن رآها عليه على أن من قدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء قدر أن يحبلها من غير فحل وإنه ليس بيدع من شأنها)) (البيضاوي) . وهذه معجزة سابعة لم ينلها سواها في أمهات المرسلين .

(٢) الآية ٢٦ ((ترين)) قال الجلالان : حذفته منه لام الفعل وعينه ، وألقت حركتها على الراء وكسرت بياء الضمير لالتقاء الساكنين)) . والآية ٢٧ ((فقولني إني نذرت للرحمان صوماً فلن أكلّم اليوم أنسيّاً)) ظاهر الآية من المضائق في القرآن : إذا قصد الصوم عن الطعام فقد جاء ((فكلي واشربي)) وإن قصد الصوم عن الكلام ، فقد أمرها أن تقول لمن يسألها : ((فقولني إني نذرت للرحمان صوماً)) . المقصود الصوم عن الكلام فقد قرئ ((صمتاً)) تعارض باللفظ لا تعارض بالعمل كما توضحه الآية ٢٩ ((فأشارت إليه)) . وقوله : ((من البشر أحداً)) يقطع الروي ، فلو قال ((فإمّا ترين آدمياً)) لا ينسجم الروي .

(٣) الآية ٢٨ ((يا أخت هارون)) : هو رجل صالح أي يا شبيهته في العفة (الجلالان) ؛ يعنون هارون النبي ص . وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الأخوة ، وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة، وقيل هو رجل صالح أو طالح كان في زمانهم شبهوها به تهكماً أو لما رأوا قبل من صلاحها ، أو شتموها به (البيضاوي) ؛ كان هارون أخاها من أبيها ، وقيل هو أخو موسى ص . كانت من أعقابها في طبقة الأخوة وبينها وبينه ألف سنة وأكثر ، وعن السدي : كانت من أولاده ، وإنما قيل يا أخت هارون كما يقال يا أخت همدان أي يا واحداً منهم ؛ وقيل رجل صالح أو طالح شبهوها به ، أو شتموها به)) (الزمخشري) . والأحاديث عن النبي أنه قصد هارون أخا موسى : ((إنما عنوا هارون النبي)) كما نقله الثعلبي والطبري ؛ وعن مسلم والنسائي والترمذي عن المغيرة بن شعبه ((بعثني النبي ص . إلى نجران فقالوا لي : أرأيتم شيئاً يقرؤونه (يا أخت هارون) وبين موسى وعيسى ما شاء الله من السنين فلم أدر ما أجيبهم ، فقال لي النبي ص . هلاً أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم من قبلهم)) . وروى الطبري من طريق ابن سيرين : ((نُبئت أن كعباً قال : إن قوله تعالى (يا أخت هارون) ليس بهارون أخي موسى : فقالت له عائشة : كذبت)) . إذن ليس بأخيها من أبيها . وليس برجل صالح أو طالح من زمانها . فالمقصود هارون النبي أخو موسى ، بنسبة عصبية أم معنوية . قال الزمخشري ((لم ترد إخوة النسب)) ؛ وموسى أولى بالنسبة المعنوية من هارون . بقي أنه مشكل ، ومن المضائق في القرآن .

(٤) الآية ٢٩ ((من كان في المهد صيبياً)) كان زائدة (البيضاوي) زيدت ليستقيم الروي - وليست تامة أو دائمة لأن حالة الصبي لا تدوم .

قال: إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً
وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً.
والسلام عليّ يوم ولدت، ويوم أموتُ ويوم أبعثُ حياً.
النص الإضافي (٣٥ - ٤٠) مقم على السياق يدل عليه اختلاف النظم والروي ٤.

(١) الآية ٣٠ ((قال إني عبد الله)) : قيل : أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً (البيضاوي) . معجزة نطق المسيح منذ مولده معجزة امتاز بها المسيح عن العالمين والمرسلين ، وهي معجزة عاشرة في سورة مريم . ((إني عبد الله)) : هذا لقب الأنبياء والأولياء في الكتاب ، (قابل سفر الأعمال : ((فتاك القدوس يسوع)) ٤ : ٢٧ و ٣٠) ؛ أنطقه الله به لأنه أول المقامات (البيضاوي) . ((أتاني الكتاب)) : الإنجيل (الزمخشري والبيضاوي) . في مكة لا يميّز القرآن بين التوراة والإنجيل ، بل يسمي كليهما الكتاب ، مما يدل على أن البيئة المكية كانت حنيفية في توحيدها بتأثير النصرانية ، وبدل أيضاً على أن التوحيد في مكة لم يكن خاصاً بملّة بل كان عاماً . ((وجعلني نبياً)) : ((أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً ، نظراً في ظاهر الآية)) (الزمخشري) ميزة أخرى للمسيح أنه ولد نبياً ، بينما يحيى آتاه الحكم صبيّاً ، ومحمد لم يصّر نبياً إلا في كهولته مثل سائر الأنبياء ؛ وهذه معجزة حادية عشرة تقررها سورة مريم ، مثل آل عمران ((تكلم الناس في المهد)) .
ومعجزة نطق يسوع منذ مولده (٣٠) بجهلها الإنجيل ولها مثل في (إنجيل الطفولة) العربي المنحول حيث يخاطب المسيح أمه حين ولادته : ((أنا يسوع ابن الله ، الكلمة ، الذي ولدته ... أرسلني الله لخلص العالم)) .

(٢) الآية ٣١ أجمل وصف لنبي وصف به القرآن شخصية المسيح : فهو المبارك في كل زمان ومكان ، امتاز بالصلاة والطهارة مدى الحياة ، ولذلك سمّاه الصوفيون ((سيد الأولياء)) و ((خاتم الأولياء)) (ابن العربي : الفتوحات المكية ٤ : ٢١٥ ؛ ٢ : ٥٥) . ((أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحداً)) (الزمخشري) استنبأه طفلاً وكلفه طفلاً ، وهذا التكليف في الطفولة معجزة أخرى ثانية عشرة للمسيح .

(٣) الآية ٣٢ ((السلام)) قال الزمخشري : اللام للتعريف أو للجنس : جنس السلام عليه في المواطن الثلاثة وهي أوحش المواطن ، وفيه تعريض باللعنة على متهمي مريم ، ومتهمي عيسى أيضاً في مولده وموته ومبعثه . وفي هذا السلام نبوة من المهد على موت المسيح وبعثه حياً ، يؤيد صدق هذه النبوة معجزة نطقه في مهده : معجزة في نبوة ، ونبوة في معجزة .

(٤) هذا النص مقم من المدينة على السياق ، فيه حملة على النصارى لجعلهم المسيح ابن الله (٣٥ - ٣٦) وحملة على اليهود لكفرهم بالمسيح ، ولم يقم في مكة جدال بين محمد والكتابين (الزمخشري) ولم يكن النبي ليهتم في مكة بأحزاب اليهود والنصارى وهو لا يميز في مكة بين الكتاب والإنجيل (مريم ٣٠) . وما كانت هذه الجملة لتتلى أمام النجاشي الذي به يستجيرون . ونرى أن الآيات ٣٧ - ٣٩ تقصد أحزاب اليهود لأنها في عنفها نابية عن موقف القرآن الودّي العام مع النصارى حتى آخر ساعة (مائدة ٦٤) . وقوله في الآية ٣٥ ((كن فيكون)) أصلها ((كن فكان)) إنما عدل عن الأصل لضرورة الفاصلة .

في النص والإضافي ، تعارض بين نظرتين : في العهد الأول من القرآن المكي يقرب من النظرية

- ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون^١ .
 - حملة على النصارى^٢ لتأليه المسيح وجعله ابن الله (٣٥ - ٣٦) .
 - حملة على اليهود لكفرهم بالمسيح (٣٧ - ٤٠)

*

- ٣- ذكر إبراهيم، الصديق والنبى (٤١ - ٥٠)^٣ .
 ٤- ذكر موسى المُخلص، والرسول النبى (٥١ - ٥٣)^٤ .

اليقوبية التي كانت منتشرة في الحبشة واليمن الغربي ، وأطراف الشام ومكة بأن في كلمة الله أو قول الحق وعيسى ابن مريم وحدة شخصية وطبيعية . وفي النص الإضافي كما في سائر القرآن المدني يقرب من النظرية النسطورية التي كانت سائدة في الحيرة ونجران واليمن الشرقي والطائف والمدينة بأن كلمة الله والمسيح عيسى ابن مريم شخصان متميزان جمعهما اتحاد طارئ لا وحدة شخصية ، لذلك لا يصح أن يقال عن عيسى ابن مريم أنه إله أو ابن الله ، ولا عن مريم العذراء إنها أم الله . أما المسيحية الحقّة فلم تصل إلى الحجاز ولم تظهر في القرآن وفي حملاته .

الآية ٢٣ الولادة عند « جذع النخلة » في القرآن لها مثيل في إنجيل متى المنحول (ف ٢٠) .
 (١) الآية ٣٤ « ابن مريم » لقب إنجيلي (مرقس ٧ : ٣) تورية لأموثها البتولية . والآية ٣٤ « قول الحق » تعددت فيه القراءات والحركات . هذا لقب آخر للمسيح انفراد به على الأنبياء والمرسلين . وقد ورد أيضاً في الأنعام . قال الزمخشري « وارتفاعه على أنه خير أو بدل ، وأما انتصابه فعلى المدح إن فُسّر « بكلمة الله » وإنما قيل لعيسى كلمة الله وقول الحق لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها ، وهي قوله « كن » من غير واسطة أب . ويحتمل إذا أُريد « بقول الحق » عيسى ، أن يكون الحق اسم الله عز وجل » . وفي هذا اللقب صدق لقول المسيح في إنجيل يوحنا « أنا الصراط والحق والحياة » (١٤ : ٦) . بهذين اللقبين (كلمة الله وقول الحق) ميّز القرآن المسيح على المرسلين والعالمين : بهذا حاجّ النساطرة سائر النصارى .

(٢) يرد القرآن قول النصارى عن المسيح إنه ابن الله : من العقل « ما كان لله أن يتخذ من ولد » ؛ ومن النقل عن لسان المسيح : « إن الله ربي وربكم » (يوحنا ٢٠ : ١٧) .

(٣) الآية ٤١ « صديقاً نبياً » : الصديق على الفاعل أي المبالغ في التصديق لجميع الأنبياء وكتبهم - هو جد التوحيد المنزل فليس قبله كتب يصدق بها - أو على المفعول أي الجامع لخصائص الصديقين والأنبياء حيث خاطب أباه تلك المخاطبات . وخطاب إبراهيم لأبيه من الأدب الرفيع المعجز في المجاملة واللفظ والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن ، ولذلك استهل كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً . (عن الزمخشري) . والآية ٤٩ لا تذكر إسماعيل في جملة أولاد إبراهيم ، مما يوحي بأنه لم يتجه القرآن بالإسلام بعد اتجاهها قومياً بل لم يزل على الوحدة الكتابية في أمّة واحدة كما بقي طيلة العهد بمكة . وهذا الجدل لا تذكره التوراة ؛ بل ورد مثيله حرفياً في القصص العبراني (كتاب اليبوبيل ١٢ : ٥) .

(٤) الآية ٥١ « مُخلصاً : بالفتح أي الذي أخلصه الله ؛ وبالكسر ، أي الذي أخلص العباد من الشرك والرياء ، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله . والرسول ، هو الذي معه كتاب من الأنبياء . والنبى هو الذي ينبئ عن الله وإن لم يكن معه كتاب » . (الزمخشري) . وقوله « رسولاً نبياً » « قدم رسولاً مع أنه أخص وأعلى » (البيضاوي) والأصل ، نبياً رسولاً ، عدل عن الأصل لضرورة الفاصلة .

- ٥- ذكر إسماعيل، صادق الوعد، والرسول النبي^١ (٥٤ - ٥٥).
٦- ذكر إدريس، كان صديقاً نبياً، ورفعناه مكاناً علياً^٢ (٥٦ - ٥٧).
خاتمة القصص، والسورة الأصلية (٥٨): أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين.

*

ملحق بسورة مريم من أزمنة مختلفة (٥٩ - ٧٤).

ملحق أول (٥٩ - ٦٣): حملة على ((خُلف)) أنبياء الكتاب الذين أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات - ولم يكن في مكة خلاف مع أهل الكتاب^٣.

ملحق ثانٍ (٦٤ - ٦٥): وما ننزّل إلا بأمرك ربك فاعبه واصطبر لعبادته^٤.

ملحق ثالث (٦٦ - ٧٤): حملة على منكري البعث من المشركين^٥.

*

(١) الآية ٥٤ «رسولاً - إلى جرهم - نبياً (الجلالان) . لا تذكر التوراة لإسماعيل نبوة أو رسالة بل تقول: « قال لها (لأمه) ملاك الله : ها أنت حامل وستلدين ابناً وتسمينه إسماعيل . ويكون رجلاً وحشياً، يده على الكل ، ويد الكلّ عليه . ويسكن بيازاء جميع إخوته » . (تكوين ١٦ : ١٠ - ١٢)

(٢) الآية ٥٦ « ادريس : كان اسمه أخنوخ » (الزمخشري) سبط شيت ، وجد أبي نوح ، واسمه أخنوخ « (البيضاوي) . وفي تفسير رفعه خلاف . جاء في التوراة « وسلك أخنوخ مع الله ، ولم يوجد بعد لأن الله رفعه » (تكوين ٥ : ٢١ - ٢٤) رفعه الله مثل النبي إلياس (٢ ملوك ٢ : ١١) . كان صديقاً (حكمة ابن سيراخ ٤٤ : ١٦ و ٤٩ : ١٤) وكان نبياً (رسالة يهوذا ١٤) وذكر له تقليد اليهود كتباً نبوية « وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة » (الزمخشري) .

(٣) الآية ٦١ « جناب عدن : لما كانت الجنة (٦٠) مشتملة على جنات عدن ، أبدلت منها » (الزمخشري) وهذا الغموض في التمييز بين الجنة التي هي السماء ، وجنات عدن التي كان فيها آدم قبل خطيئته ، منتشر في القرآن كله : فإبليس وجنده هبطوا من السماء إلى جهنم ، ومع ذلك يدخل إبليس جنة عدن لإغواء آدم وحواء .

(٤) تروي أسباب نزول الآية ٦٤ أنها نزلت في ظرف من ظروف إبطاء الوحي ، لعلّه في السؤال عن أصحاب الكهف (السيوطي) .

(٥) والآية ٦٩ « لننزعنّ أئهم » اختلف في إعرابه . « عتياً » مقلوب من « عتواً » لضرورة الفاصلة . والآية ٧١ - ٧٢ « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » قال الزمخشري : « التفات إلى الإنسان يعضده قراءة (وإن منهم) أو خطاب للناس من غير التفات . فإن أريد الكفار خاصة فالمعنى بين؛ وإن أريد الجنس كله فمعنى الورود دخولهم فيها وهي جامدة . وعن جابر : سمعت رسول الله ص. يقول : الورود الدخول ، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم . وأما قوله

السورة الثانية من مريم (٧٥ - ٩٩) .

حملة رائعة بنظم مختلف، وروي مختلف على من ادعى للرحمان ولداً:

١ - سيرون ما يوعدون: إما العذاب في الدنيا، وإما الساعة! (٧٥ - ٧٧).

- تقطع السياق حملة على من اعتز في الكفر بالمال والولد (٧٨ - ٨١).

٢ - رد على الذين ((اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً)) (٨٢ - ٨٨).

وهو رد ثان على الذين قالوا: ((اتخذ الرحمان ولداً))^٢ (٨٩ - ٩٦).

٣ - ((إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً)) (٩٧).

ختام: ((وإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً)) (٩٨).



تعالى (أولئك عنها مبعدون) فالمراد عن عذابها . وقوله ((كان على ربك مقضياً)) أي كان ورودهم واجباً على الله ، أوجبه على نفسه وقضى به وعزم على أن لا يكون غيره)) . ويزيده وضوحاً قوله : ((ثم ننجي الذين اتقوا ، ونذر الظالمين فيها جثياً)) إنه يقول ((فيها)) لا حواليتها : فالجميع يدخلونها ، ثم ينجو منها المتقون ، ويبقى فيها الظالمون . يقابل سورة مريم ما جاء في سورة الحجر ((وإن جهنم لموعدهم أجمعين)) (٤٥) - راجع عليها أسباب النزول للسيوطي - ويقابلها سورة التكاثر كلها ((لتروى الجحيم ثم لترونها عين اليقين)) . وفي هذه الحقيقة القرآنية صورة للعقيدة المسيحية الأولى : هناك حال ومحل في الجحيم يتطهر فيه الاتقياء بالنار قبل دخولهم الجنة ، وقد سموا هذا المحل (المطهر) تمييزاً له من سائر طبقات الجحيم .

(١) الآية ٨٨ ((لا يملكون الشفاعة ، إلا من اتخذ عند الرحمان عهداً)) جاء في الزمخشري : الواو في (يملكون) ضمير أعاد على لفظها بالإفراد ضمير (اتخذ) وهو مستنكر لأنه إجمال بعد إيضاح . ويجوز أن تكون علامة للجمع كالتي في (أكلوني البراغيث) ومحل (من اتخذ) رفع على البذل أو على الفاعلية .

(٢) والآية ٨٩ ((وقالوا اتخذ الرحمان ولداً)) أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله (الجلالان) . الحملة مكية تقصد مشركي العرب لا الكتابيين الذين لم يكن معهم جدل في مكة كما يظهر ذلك من الآية ٩٨ ((وإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً)) أي كفار مكة كما يقول الجلالان ذاتهما .

البحث الثاني:

القصص القرآني التوراتي (من طه إلى الحواميم)

الخامسة والأربعون: طه (٢٠) سورة الكليم: ((هل أتاك حديث موسى)) .

فذلكة : من المتواتر أن الزعيم القرشي عمر بن الخطاب - وهو العامل الأكبر بعد النبي على توطيد الإسلام - قد أسلم بعد سماعه شيئاً من القرآن ، قد يكون من سورة طه . فكان إسلامه، مع حمزة عمّ النبي ، الفتى الشجاع ، سبباً في بدء رجوع المسلمين من الحبشة . سورة طه تحمل آثار تطور النبي من الجبهة المسيحية إلى الجبهة الإسرائيلية : استفتاح السورة بلغز ((طه)) - ومعناه بلغة الحبشة ((يا رجل)) (١) - وإحلال اسم الجلالة ((الرحمن)) الاسم الكتابي الإسرائيلي المسيحي المنتشر في الحبشة والجنوب العربي بدل اسم ((الله)) العربي الحجازي المكي ، والإكثار من ذكر أسماء الله الحسنى (طه ٨ أعراف ١٧٩ إسراء ١١٠ الحشر ٢٤) لحمل أهل مكة على قبول اسم الوحي الكتابي ، الرحمن ، دلائل على الأصول المسيحية . واستفتاح قصص هذا العهد في مطلع السورة بقوله ((هل أتاك حديث موسى)) (طه ٩) وإيراد قصة موسى مطولاً كما وردت في سفر الخروج من التوراة ، دلائل أخرى على الاتجاه الجديد .

وسورة طه وحدة متماسكة في النظم والروي ، وما شدّد عن نظمها وروبيها فهو دخيل عليها من أزمنة أخرى . قال ابن خزيمة ((طه فيها من الناسخ موضع، ومن المنسوخ ثلاثة مواضع)) .

مطلع: (١ - ٣) طه^١ ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى^٢ ، فلا تجهر بالقول.

١- **توحيد** (٤ - ٨): الخالق، ومالك الكل، هو الله، الرحمن: له الأسماء الحسنى^٣.

(١) الآية ١ ((طه)) : يا رجل، بلسان الحبشة ، وقيل بلسان النبطية (الإتيقان ١ : ١٤٠) .
(٢) الآية ٢ ((ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)) نزلت لما قالوا : ((لقد شقي هذا الرجل بربه)) (أسباب النزول للسيوطي) . وفي هذه الآية إشارة إلى الهجرة إلى الحبشة .
الآية ٤ ((تنزيلاً)) وقرئ ((تنزيل)) وقد اختلفوا في تصويب النصب .
الآية ٥ ((الرحمن على العرش استوى)) : قام عليها جدل كلامي طويل في كيفية الاستواء . قال الزمخشري : هو ((استعارة للملك)) . وفي هذه الآية صدى لكلمة التوراة : ((واستراح الله في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمله)) (تكوين ٢ : ٢) .
(٣) الآية ٧ ((إن تجهر بالقول)) معناه ((لا)) : لا يزال النبي على خطته في الدعوة الخفية المحدودة . وقوله ((وأخفى)) فيه خلاف ، هل هو اسم أو فعل .

٢- قصص:

أولاً: حديث موسى (٩ - ٩٨)¹.

أ - دعوة موسى في الوادي المقدس « طوى » ² (٩ - ٤٧) الدعوة: إني أنا الله ³ (١٤) إن الساعة آتية (١٥). معجزة الدعوة: العصا، اليد البيضاء: « اذهب إلى فرعون إنه طغى » (٢٤).

- هنا يعترض السياق، بنظم مختلف وروي مختلف:

إشراك هارون بأمر موسى (٢٥ - ٣٥).

ثم يكمل الحوار (٣٦ - ٣٨).

- فيفسره مقطع بنظم مختلف وروي مختلف ° (٣٩ - ٤٠).

(١) قابل قصة موسى في سورة طه مع سفر الخروج: تشابه في الدعوة: بين طه ٩ - ١٥ وخ ٣ : ١ - ٦ ومعجزة العصا: طه ١٨ - ٢٤ وخ ٤ : ٢ - ٧ وتهيب موسى للدعوة: طه ٢٥ - ٢٩ وخ ٤ : ١٠ - ١٢ وطلب معين له: طه ٣٠ - ٣٦ وخ ٤ : ١٣ - ١٧، وحداثة موسى الخارقة: طه ٣٧ - ٤١ وخ ٢ : ١ - ١٠ قتل المصري: طه ٤١ وخ ٢ : ١١ موسى في مدين: طه ٤٢ - ٤٣ وخ ٢ : ١٥ بعثة موسى: طه ٤٤ - ٥٨ وخ ٤ : ١٩ - ٢١ تحدي سحرة مصر: طه ٥٩ - ٧٨ وخ ٧ : ١٤ - ١٦ عبور البحر الأحمر: طه ٧٩ - ٨١ وخ ١٤ : ٥ - ٣١ المن والسلوى: طه ٨٢ - ٨٤ وخ ١٦ : ١٦ - ١٣ في سيناء: طه ٨٥ - ٨٦ وخ ١٩ : ٣ - ٩.

(٢) الآية ١٢ « إنك في الوادي المقدس: طوى » جاء في التوراة: « ساق موسى الغنم إلى ما وراء البرية حتى أفضى إلى جبل الله حوريب، فتجلى له في لهيب نار » (خروج ٣ : ١) .

(٣) الآية ١٤ - ١٥ توحى بأن تعليم القرآن عن التوحيد هو من موسى .

(٤) الآية ٢٤ والآية ٤٣ بنص واحد، تدل على تداخل قصتين في سور واحدة: الأولى إرسال موسى وحده، والثانية مع أخيه - وبعد الآية ٤٣ يدخل هارون في حوار موسى مع ربه ، وهذا دليل على تعديل طارئ على السورة الأصلية .

(٥) الآية ٣٩ « أن أقذفيه في التابوت ، فاقذفيه في اليم ، فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي » قال الزمخشري: « والضمانر كلها راجعة إلى موسى ، ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت ، فيه هجئة لما يؤدي إليه من تنافر النظم . فإن قلت: المقذوف في البحر هو التابوت ، وكذلك الملقى إلى الساحل . قلتُ ما ضرَّك لو قلت: المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت حتى لا تفرَّق الضمانر فيتنافر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن ، والقانون الذي وقع عليه التحدي ، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر » . هنا يتهرب الزمخشري من هجئة ليقع في غيرها : مزج المجاز بالواقع دون قرينة .

ب - عند فرعون^١ (٤٧ - ٧٧): دعوة فرعون إلى التوحيد، وعتق بني إسرائيل (٤٧ - ٦٠) موسى والسحرة^٢: إيمان السحرة برب هارون وموسى^٣ (٦١ - ٧٦).

ج - خروج بني إسرائيل: معجزة البحر والمن والسلوى^٤ (٧٧ - ٨٤).

- قصة السامري^٥ (٨٥ - ٩٩) مقحمة على السياق^٦.

ملحق^٧: حديث الآخرة (٩٩ - ١١٤) يقطع القصص، وفيه مقطعان كلٌّ منهما

(١) الآية ٤٧ ((فأتياه فقولا)) ينتقل الحوار فجأة من مدين إلى قصر فرعون بدون قرينة ، لذلك نفضّل القراءة على الماضي : ((فأتياه فقلا)) .

(٢) الآية ٦٣ ((إن هذان لساحران)) من مشاكل لغة القرآن ولذلك اختلفت فيه القراءات : ((إن هذين لساحران . إن هذان لإساحران . إن هذان ساحران ، أن تفسيرية)) والمشكل في القراءة المشهورة .

(٣) الآية ٧٠ إيمان السحرة برب هارون وموسى تجهله التوراة ، وهو من تفسيرات التلمود ... أخر موسى لضرورة الفاصلة .

الآية ٧٤ - ٧٦ ((إنه من يأتي ربه مجرماً)) : جاء في الزمخشري : ((قيل في هذه الآيات الثلاث: هي حكاية قولهم. وقيل خير من الله لا على وجه الحكاية)) .

(٤) الآية ٨٢ ((واني لغفار لمن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)) : أليست الهداية فيما سبق ، فما معنى الزيادة ؟

(٥) بنظم مختلف وروي مختلف ؛ ويختلف الروي من جديد في حديث هارون ، فيرجع إلى (٢٥ - ٣٥). ولم يكن ليقص حديث السامري في أيام تعظيمه لبني إسرائيل .

(٦) الآية ٩٦ ((قبضت قبضة من أثر الرسول)) أي أثر حافر فرس جبريل ... زينت لي نفسي أن أخذ قبضة من تراب ما ذكر وألقيها على ما لا روح له يصير له روح ، ففعلت)) (الجلالان): هل يصح أن يرى السامري جبريل ، يأخذ قبضة من أثر الرسول ويحبي العجل بمعجزة فيصير له خوار ، وهو يسعى ليضلّ بني إسرائيل ويحملهم على الشرك ؟؟ - وصانع العجل في التوراة هو هارون (خروج ف ٣٢) . ولعل اسم السامري تعريب اسم سمائيل الوارد في التلمود : ((وخرج العجل خائراً فرأه الإسرائيليون . فقال رابي يهوذا : إن سمائيل كان مختفياً في داخله يخور لفتنة إسرائيل)) (فرقا رابي اليعازار ٤٥) . وفي طه تتوالى المعجزات لتأييد شرك السامري : يرى جبريل ، يقبض من أثر فرسه كأن له فرساً ، ويلقي هذا الأثر في فم العجل فيحبي ويخور . وما ورد في طه لا ينسجم مع الأعراف (١٤٦ - ١٤٩) حيث لا ذكر للسامري وموسى يتهم أخاه هارون ويذله بسبب عبادة العجل . ويظهر أن القرآن في (طه) مزج قصة العجل على أيام موسى وهارون بقصة العجل على أيام ملك السامرة الأول يا ربعام ، الذي لقبه اليهود فيما بعد بالسامري لأنه كان يقول عن عجله : ((هذا إلهك يا إسرائيل الذي أخرجك من مصر)) (سفر الملوك الثالث ١٢ - ٢٨) .

(٧) هذا الملحق قد يكون أصيلاً في السورة ، ختاماً لقصة موسى . ولكن اختلاف الروي فيه ، وخروجه عن المألوف في أسلوب القصص من تتابعه دون فاصل كبير يوحيان بأنه مقحم على السورة .

بروي مختلف: الأول (١٠٠ - ١٠٤) وختام الآية ١١٢؛ والثاني (١٠٨ - ١١٤) وختام الآية ١١٤^١. ويقطع المقطعين سؤال معترض عن الجبل بروي آخر (١٠٥ - ١٠٧).

ثانياً: قصة سقوط آدم (١١٥ - ١٢٣): الوعد بالهدى منذ السقطة الأولى^٢.

الآية ١١٦ معترضة تبدأ قصة سجود الملائكة لآدم، وتتركها ميتورة أو سقطت القصة.

٣- حديث الآخرة (١٢٤ - ١٢٩): الكافر يُحشر أعمى^٣.

ختام السورة (١٣٠ - ١٣٥) نصائح للنبي (١٣٠ - ١٣٢) رد اعتراض: ((أولم تأتاهم بينة ما في الصحف الأولى)) (١٣٣ - ١٣٥).

*

* *

السادسة والأربعون: الواقعة (٥٦) ((هذا نزلهم يوم الدين))

فذلكة: سورة من العهد الأول بموضوعها، وصف يوم الدين، وأسلوبها، القسم القومي بمواقع النجوم (٧٥). وربما وضعت في العهد الثاني بسبب تعليمها عن تقدم السابقين في جنات النعيم. واختلاف الموضوع، وأسباب النزول، ويوحيان بأن السورة مجموعة ثلاث سور، مع أي دخيل بروي مختلف. والسورة فيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ موضع.

*

السورة الأولى منها: (١ - ١٢): في القيامة ((كنتم أزواجاً ثلاثة)) .

المطلع: (١ - ٣) مستقبل: ثلاث فواصل بروي مختلف - والجواب محذوف في القيامة أصناف الناس ثلاثة: أصحاب اليمين، وأصحاب المشأمة، والسابقون.

*

(١) الآية ١١٤ ((ولا تعجل بالقرآن)) فيها تحذير للنبي عن استباق الوحي . وقيل إنها منسوخة بقوله : ((سنقرئك فلا تنس)) .

(٢) الآية ١٢٣ ((فإما يأتينكم مني هدى)) : هذا صدى لتعليم النصرانية عن وعد الله بالمخلص الهادي منذ جنة عدن (قابل تكوين ٣ : ٥) .

(٣) الآية ١٢٤ ((ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا)) : هل يعيش الكافر، ((كل كافر)) معيشة ضنكاً ؟ ((ونحشره يوم القيامة أعمى)) . والآية ١٠٧ نحشره بصيراً بعيون زرق ((ونحشر المؤمنين يومئذ زرقاً)) :

والعين الزرقاء عندهم كناية عن العين الشريرة . قابل سورة ق ٢١ ((بصرك اليوم حديد)) .
(٤) هذه السورة، بحسب الترتيب الحالي، ترد مطلعاً للسورة كلها .

السورة الثانية منها : (١٣ - ٧٤) أصحاب اليمين وأصحاب الشمال^١.

١- أصحاب اليمين (١٣ - ٤٠) نعيمهم: سُررٌ، ولدان، كأس، فاكهة، لحم، حور عين.

النص الأصلي (١٣ - ٢٤) - فاصل زائد بروي مختلف (٢٥ - ٢٦) - النص الإضافي^٢ (٢٧ - ٤٠) بأربعة أنواع مختلفة من الفواصل.

٢- أصحاب الشمال (٤١ - ٥٥) أهل ((الحنث العظيم)) : أكلهم من الزقوم وشربهم من الحميم - الآية ٥٥ ختام.

٣- براهين التوحيد^٣ (٥٧ - ٧٤) : المنى، الزرع، ماء المزن، النار من الشجر^٤.

خاتمة السورة الثانية (٧٤): ((فسبح باسم ربك العظيم °)) .

*

السورة الثالثة منها : (٧٥ - ٩٦) المقربون وأصحاب اليمين والمكذوبون^١.

(١) هذه هي السورة الأصلية : يميز فيها الناس يوم الدين إلى فئتين ، أصحاب اليمين وأصحاب الشمال تصديقاً لتعليم الإنجيل (متى ٢٥ : ٣٢) . بينما المطلع ، والخاتمة يقسمان الناس إلى ثلاثة أصناف ، لذلك وبسبب اختلاف الروي اعتبرناهما سورتين مستقلتين ، جمعنا في السورة الوحيدة التي يميّز فيها القرآن أصحاب اليمين إلى فئتين : أصحاب الميمنة والسابقين .

(٢) الآيتان ٤ و٤٠ جاء في أسباب النزول للسيوطي عن عمر لما نزل ((ثلثة من الأولين وقليل من الآخرين)) أنه قال : يا رسول الله ثلثة من الأولين وقليل منا ؟ فأمسك آخر السورة سنة ثم نزل ((ثلثة من الأولين وثلثة من الآخرين)) فنسخت الثانية الأولى . - ولا نسخ في الخبر .

والآية ٣٦ تصف الحور ((أكاراً عرباً أتراباً)) قال الزمخشري أي في سن الثالثة والثلاثين ، أي في سن صعود المسيح إلى السماء (قابل إنجيل يوحنا المنحول ١٠) .

(٣) هذا الفاصل (٥٧ - ٧٤) قد يكون مقحماً على السورة من غيرها، وقد يكون موضعه في مطلع السورة بحسب العادة ، فصار تقديم وتأخير ؛ ويرد في الترتيب الحالي خاتمة للسورة الثانية .

(٤) الآية ٦١ ((نحن قدرنا بينكم الموت ... وننشدنكم في ما لا تعلمون)) قال الجلالان ((من الصور كالقردة والخنازير)) : أليس في هذا التفسير للآية ركيزة لاعتقاد النسخ والمسح بعد الموت ؟

(٥) الآية ٧٤ ((فسبح باسم ربك العظيم)) قال الجلالان ((باسم : زائدة)) - فما الفائدة ؟

(٦) الآية ٧٧ ((إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون)) قال البيضاوي ((كتاب مصون وهو اللوح المحفوظ)) . ولكن قوله عن مسّه (٧٩) وتنزيله (٨٠) يؤيد تفسير الجلالين إنه المصحف . وقوله ((لا يمسه إلا المطهرون))

مطلع: (٧٥ - ٨١) قسم بمواقع النجوم على تنزيل قرآن البعث.

- الآية ٨٢ مقحمة نافرة،^١

- ١- برهان البعث (٨٣ - ٨٧) من عجزهم على إرجاع روح الميت إذا بلغت الحلقوم.
 - ٢- أصناف أهل القيامة (٨٨ - ٩٤) المقربون^٢ وأصحاب اليمين والمكذبون الضالون.
- ختام:** (٩٥ - ٩٦): إن هذا لهو حق اليقين: فسبح باسم ربك العظيم^٣ .

*

* *

السابعة والأربعون: الشعراء (٢٦) دعوة للإيمان برب العالمين.

فذلكة: في هذه الفترة يتخذ الله في دعوة التوحيد تارة صفة الرحمان وطوراً صفة ((رب العالمين))، اسم إله التوحيد عند عرب الشمال، وفي تدمير خصيصاً. والصفة الكتابية ظاهرة على هذه السورة: من أسلوبها الذي جاء بقصص سبع، وهو العدد المقدس عند أهل الكتاب، ومن دعوة التوحيد ذاتها باسم ((رب العالمين)) التي كان يقوم بها يهود الشتات في مهاجرهم تقريباً إلى أقوامها، ومن التصريح عن مصدر هذه الدعوة: ((وإنه لفي زبر الأولين، أو لم يكن لهم أية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)) (١٩٦ - ١٩٧) فهذه الآية وأمثالها تدل على أن النبي يدعو في ظل النفوذ الإسرائيلي عليه، مصدرأ واستشهاداً. وهذه الصفة الكتابية للسورة كلها توحى بمعنى آية المطلع وما يشبهها من سور العهد: ((تلك آيات الكتاب المبين)) أي الكتاب المقدس؛ وتنزيل رب العالمين بلسان عربي مبين (١٩٢ - ١٩٥) هو قراءة مفصلة مصدقة للكتاب الأول ذاته في تعليم الإيمان بالله واليوم الآخر. ((وقع في تفسير الإمام مالك تسميتها بالسورة الجامعة (٤))) .

والسورة من النوع المقسوم مقاطع تنتهي بلازمة مرددة تظهر وحدة السورة (٥) .

قبل والسورة فيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ ثلاثة .

قال البيضاوي ((لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث فيكون نفياً بمعنى نهي . أو لا يطلبه إلا المطهرون من الكفر . وقرئ المتطهرون، والمطهرون من أظهرة أي طهره، والمطهرون أي أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم أو الإلهام)) . والمعنى المقصود هو ((الذين طهروا أنفسهم من الأحداث)) (الجلالان) وعادة الوضوء قبل مس القرآن عادة إسرائيلية أيضاً فاليهود لا يمسون التوراة قبل غسل أيديهم، وتجليل مصحف التوراة بغطاء أو سواه .

- (١) الآية ٨٢ ((وتجعلون رزقكم)) مقحمة لا تمت إلى السياق بصلة (راجع أسباب النزول للسيوطي) .
- (٢) الآية ٨٨ ((فأما إن كان من المقربين فروح وريحان)) قال الجلالان ((هل الجواب لأما أو لأن أو لهما: أقوال)) .
- (٣) الآية ٩٦ تعيد خاتمة السورة الثانية من الواقعة، مما يدل أيضاً على أنهما سورتان، لا لازمة مكررة .
- (٤) الإتيان ١ : ٥٦ .
- (٥) يسمى باللغة الأجنبية genre strophique، وإن لم ينطبق عليه التحديد بتمامه.

مطلع: (١ - ٩) اعراضهم عن كل ذكر من الرحمان مُحدث: والله قادر أن يخضع أعناقهم بمعجزة^١. ينتهي باللازمة التي ستردّد: ((إن في ذلك لآية ... وإن ربك لهو العزيز الرحيم)) (٨).

١- قصة موسى (١٠ - ٦٩): يبشر مصر برب العالمين: فيؤمن به سحرته^٢. ويختم باللازمة.

٢- نبأ إبراهيم (٧٠ - ١٠٤) يبشر أباه وقومه برب العالمين^٣ (٧٠ - ٨٩) استطرده (٩٠ - ١٠٤): ذكر هلاك الضالين والغاوين، وخصامهم في النار - يختم باللازمة.

(١) الآية ٤ ((إن نشأ ينزل عليهم من السماء آية)) : هذا تصريح بأن المعجزة المطلوبة منه لم تأت بهم بعد : وهم لا ينكرون قدرة الله على المعجزات ، ولكن يطلبون تأييد نبيّه بمعجزة خارقة للعادة ، لا بآيات الله في خلقه العادي مثل أصناف النبات (٧) أو تاريخ الأمم . وقوله ((فظلت أعناقهم لها خاضعين)) أصلها خاضعة ، فانزلها منزلة العاقل لضرورة الفاصلة .

(٢) الآية ٨ ((إن في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم بمؤمنين)) ، نقل الجلالان : ((كان : قال سيبويه إنها زائدة)) : فما إعجاز زيادتها وهي تصف حالا حاضرة ، لا ماضية ولا مستقبلة ، بخلاف ترديدها بعد قصص الأولين .

(٣) الآية ١٥ ((إنا معكم مستمعون)) : على الفاعل أو المفعول ؟ فيه غموض ، والمقصود : ((إنا معكم لأقوالهم لمستمعون)) . والآية ١٦ ((فأتيا فرعون فقولا)) على الأمر ، وأصله ، على رأينا القراءة على الماضي لاستئناف الحوار مع فرعون ((فأتيا فقولا : إنا رسول رب العالمين)) ؛ فالدعوة للتوحيد باسم رب العالمين ، من موسى ، ومن جميع الأنبياء من بعده ، كما تنص السورة ، وذلك قبل القرآن . والآية ٢١ ((فوهب لي ربي حكما)) اللفظ العبراني السرياني ذاته وهو يعني ((الحكمة)) أي النبوءة والرسالة . والآية ٢٢ ((وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل)) قال الجلالان : ((تمنها أصله تمن بها . عبدت : أي اتخذتهم عبيداً . وقدّر بعضهم أول الكلام همزة استفهام للإنكار)) . والآية ٢٩ تهديد موسى بالسجن تجهله التوراة وله مثيل في القصص التلمودي (مدراش رباح على الخروج ١٥ : ٣) وفيه يسمي فرعون موسى ابن عمران : فألقاب عمران ، وامرأة عمران ، وابنه عمران كلها تلمودية وتقصد عائلة موسى . الآية ٣٢ ((فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين)) أي حبة عظيمة (الجلالان) ، قابل سفر الخروج ٧ - ١٠ ، وفي سورة النمل (١٠) ((جان)) أي الصغير من الحيات . الآية ٤٦ ((فألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون)) ((٤٦ - ٤٨)) في التوراة ((فقالت السحرة لفرعون : هذه اصبع الله)) (خروج ٨ : ١٩) وقد استطرده التلمود إلى تفصيل قولهم بالإيمان برب موسى وهارون (مدراش على الخروج ١٥ : ٣) وإنهم ((أول المؤمنين)) (الشعراء ٥٢) . الآية ٦٠ ((وأورثناها بني إسرائيل)) الضمير يشمل ما قبله أي الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم في مصر ، بعد إغراق فرعون وقومه (الجلالان) والتوراة تنص على سلب المصريين قبل الترحيل أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً ، بالحيلة والاستعارة (خروج ١٣ : ٣٦) لا بتوريتهم مقامهم وكنوزهم .

(٤) الآيات ٧٥ - ٧٨ ((أفرايتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وأباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين)) : بقوله ((فإنهم)) ينزل الأصنام منزلة العاقل ، وبقوله ((إلا رب العالمين)) ظاهر الآية في أسلوبها يستثني الله من الأصنام .

٣- قصة نوح (١٠٥ - ١٢٢) تأتي بأسلوب تعريض مجال محمد مع قومه. ويختم باللازمة.

٤- قصة هود في عاد (١٢٣ - ١٤٠). ترد بأسلوب مدروس: قابل ١٠٨ - ١٠٩ مع ١١٦ - ١٢٧ ويختم باللازمة.

٥- قصة صالح في ثمود (١٤١ - ١٥٩). فيها أيضاً تعريض بحال محمد. ويختم باللازمة.

٦- قصة لوط في قومه (١٦٠ - ١٧٥) بأسلوب قصة هود. ويختم باللازمة.

٧- قصة شعيب مع أصحاب الأيكة في مدين (١٧٦ - ١٩١) بالأسلوب المدروس ذاته. ويختم باللازمة.

خاتمة: (١٩٢ - ٢٢٧) مصدر القرآن^١: تنزيل رب العالمين، في زبر الأولين، ويعلمه علماء بني إسرائيل (١٩٢ - ٢٠٩).

- وما تنزلت به الشياطين التي تنزل على كل أفاك أثيم^٢ (٢١٠ - ٢٢٣).

- وما هو شعر الشعراء الهائمين^٣ (٢٢٤ - ٢٢٧).

- الآيات ٢١٣ - ٢٢٠ تقطع السياق فهي مقحمة، والآيات (٢٢٤ - ٢٢٧) ملقحة لا صلة لها بالسياق (٤).

(١) الآيات ١٩٢ و١٩٦ و١٩٧ عن مصدر القرآن: إنه تنزيل رب العالمين بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبر الأولين (الجلالان: كتب الأولين كالتوراة والإنجيل) ويعلمه علماء بني إسرائيل: فكيف هو تنزيل جديد وكيف هو في الوقت ذاته في زبر الأولين؟ وما دخل علماء بني إسرائيل في القرآن، وكيف يعلمون أن القرآن في زبر الأولين؟ ألا يوحى تسلسل الآيات بالقول، مهما كان هذا القول غريباً، إن التنزيل الأول كان في الكتاب، فنقل علماء بني إسرائيل معناه إلى النبي، فنزل به الروح الأمين بلسان عربي مبين: فيقتصر التنزيل الجديد على اللسان العربي المبين، لذلك جعله معجزة له. على كل حال، هذه التصاريح الواضحة تؤكد صلة القرآن المصدرية بالكتاب، وتؤكد دور علماء بني إسرائيل في تثقيف محمد، ودعاه في دعوته، في هذا العهد. الآية ٢٠٨ ((وما أهلكنا من قرية إلا ولها منذرون)): هل أرسل الله أنبياء منذرين إلى كل قرى العالم؟ إن فعل أو لم يفعل، فما الحاجة بعد إلى رسالة موسى وعيسى ومحمد إلى العالمين؟ أم كانت رسالاتهم قومية لا أكثر؟

(٢) الآيات ٢١٣ - ٢٢٠ تقطع سياق الحديث عن استحالة تنزيل الشياطين؛ ولما نزل قوله ((وانذر عشيرتک الأقربين)) دعا بني هاشم وبني عبد المطلب وأنذرهم جهاراً، رواه البخاري ومسلم (الجلالان). وجاء في أسباب النزول للسيوطي: ((أخرج ابن جرير الطبري عن ابن جريح قال لما نزلت (وأنذر ...) بدأ بأهل بيته وفصيلته فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) - هذا الحديث مع السياق يدلان على أنها مقحمة. وهذه الآيات والأحاديث تدل على أن رسالة محمد لم تنزل قبلياً.

(٣) الآيات ٢٢٤ - ٢٢٧ أسباب النزول للسيوطي توحى بأنها مستقلة عن السورة ومقحمة عليها: أخرج الطبري أنه تهاجى رجلان وكان مع كل واحد منهما غواة وهم السفهاء فأنزل الله (والشعراء يتبعهم الغاؤون) فلما نزلت جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت فقالوا: يا رسول الله، لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء، هلكننا؛ فأنزل الله (إلا الذين آمنوا ...). ومنهم من يجعلها مدنية، فيزيدنا تأكيداً بأنها مقحمة (الإتقان ١: ١٦).

الثامنة والأربعون : النمل (٢٧) « سورة سليمان » : دعوة للإيمان برب العالمين.

فذلكة : يظهر أن السورة من سورتين ، جمعت بينهما وحدة النظم والروي : الأولى « سورة سليمان » (١) والثانية القصص الذي يليها ، لتوارد الأثار بأن السورة اسمها أيضاً « سورة سليمان » (الإتقان ١ : ٥٦) وأنها مكية استثنى ابن عباس آخرها ، وعن جابر ، إنه نزل منها بمكة نحو أربعين آية ، والباقي بالمدينة . لا بل القسمان من مكة . وقصصها له مطالع مختلفة (٧ و ١٥ و ٤٥ و ٥٤) مما يوحي بأنه مجموعة لا وحدة فنية .

*

السورة الأولى منها : (١ - ٥٩) الدعوة لرب العالمين.

مطلع : (١ - ٦) القرآن ، آيات الكتاب المبين ، هدى وبشرى للمؤمنين بالآخرة^١ .

١- قصة موسى (٧ - ١٤) رب العالمين يعتلن لموسى أنه هو الله^٢ .

٢- قصة سليمان (١٥ - ٤٤) مطلعها (١٥ - ١٧) من أوتي كل ما توتاه الملوك والأنبياء ، وأزيد: منطق الطير ، وجنود الأنس والجن والطير^٣ .

(١) المطلع ، وهو دعوة للإيمان بالآخرة ، يتميّز عن القصص وهو دعوة للإيمان برب العالمين . وفي الآية الأولى « تلك آيات القرآن وكتاب مبين » يصف القرآن بأنه الكتاب المبين ، مما يوحي بأن القرآن قراءة للكتاب ، وتعريف « القرآن » ولما ينزل كله بعد ، يدل على أن آيات القرآن المذكور هي آيات الكتاب المبين ، يفسر ذلك قوله « وإنه لفي زبر الأولين » .

(٢) يظن المستشرق بلاشير أن مطلع السورة من المدينة ، وفاته أن الدعوة لليوم الآخر مكية ، وأسلوب المطلع الذي يظهر صلة القرآن بالكتاب هو ميزة العهد الثاني بمكة . والآية ٩ « يا موسى : أنا الله » وفي التوراة « يهوه » أي « أنا الكائن » : فالله الذي يُعبد في الحجاز هو رب العالمين الذي اعتلن لموسى . والآية ١٠ « العصا كأنها جان » (الجلالان : حية خفية) بينما هي « ثعبان » أي حية عظيمة (شعراء ٣٢) . الآية ١١ فيها تعريض بماضي موسى وقتله المصري . والآية ١٢ مطلعها بعثة موسى ، وخاتمها ختام قصته « في تسع آيات جحدوا بها : مما يدل على أن قص موسى عند فرعون سقطت في هذه السورة . ثم لم يتعلق قوله « في تسع آيات » ؟

(٣) الآيات ١٦ - ١٧ تجهل التوراة أن سليمان علّم منطق الطير والنمل ، ولا تعرف له جنوداً من الجن والطير ، ولكن هذا القصص له مثل في التلمود ، قابل (ترحوم شاني) : « وكان تطيعه الشياطين والطير والحيوانات والأرواح الشريرة » ، كذلك (مدراش بامدبار ١٤) « قال رابي يهوذا عن رابي يوسيف : كان العالم كله يعين سليمان على بناء الهيكل ، حتى الأرواح والشياطين والملائكة » . وطوى هذا القصص الإسرائيلى الشعبي الجزيرة حتى وصل الحجاز ، فقال الشاعر « بينون تدمر بالصفاح والعمد » .

حوار النمل^١ (١٨ - ١٩) - الهدهد جاسوس ورسول سليمان إلى سبأ (٢٠ - ٣٧) عفريت من الجن يخطف عرشها العظيم (٣٨ - ٤٠).

- معجزة العرش، واللجة، وإسلام بلقيس^٢ لإله سليمان (٤١ - ٤٥).

٣- قصة صالح في ثمود^٣ (٤٥ - ٥٣).

٤- قصة لوط (٥٤ - ٥٨).

- ختام السورة الأولى: ((قل الحمد لله وسلام على عباده المصطفين)) (٥٩).

*

السورة الثانية منها: (٥٩ - ٩٣) الدعوة للإيمان بالله واليوم الآخر.

مطلع: (٥٩) ((الله خيرٌ أمّا يشركون)) ؟

١- براهين الخالق في خليقته (٦٠ - ٦٤).

٢- براهين البعث (٦٥ - ٦٤).

- البعث غيب الله وهم يقولون عنه: أساطير الأولين (٦٥ - ٧٠).

- متى هذا الوعد؟ إنه من غيب الله (٧١ - ٧٥).

(١) حوار النمل (١٨ - ٢٠) له مثل في التلمود (مجموعة بين المدرش ج ٥ ص ٢٢) ومصدره تشبيهه من أمثال سليمان (٦ : ٦) .

(٢) قصة بلقيس تختلف في الكتاب عنها في القرآن : جاءت راضيةً تسمع حكمته لا لكي تُسلم معه (قابل سفر الملوك الثالث ف ١٠ و ٢ أيام ١ - ٩) . وقصة ملكة سبأ في القرآن لها مثل في التلمود ؛ في الترجوم الثاني لكتاب استير ، حيث يذكر جنود سليمان من الطير والأرواح والجن والعفاريت ويذكر الصرح الذي حسبته لجة فكشفت عن ساقيهما ، والعرش العظيم ؛ ولا ذكر في الكتاب لمعجزة العرش ولا لمعجزة اللجة ولا لسائر هذه الخوارق ؛ بل ورد أمثالها في القصص التلمودي الشعبي أي المدرش ، والترجوم الذين يتناقلهما اليهود في مهاجرهم . وكذلك قصة الهدهد تسرد بإسهاب في ترجموم شاني على سفر استير .

الآيات ٣٠ - ٣١ كتاب سليمان إلى ملكة سبأ يستفتح بالبسملة القرآنية، ثم يدعوها وقومها إلى الإسلام : فهل البسملة القرآنية كانت شائعة قبل محمد ؟ وهل دعوة الإسلام في الكتاب ، كانت موجهة لغير أهل الكتاب قبل القرآن ، منذ موسى إلى داود ، إلى سليمان ؟ وهل دخل إسلام سليمان ملكة سبأ منذ عهد بلقيس ؟ الآية ٤٠ تذكر ((الذي عنده علم من الكتاب)) أي ((أصاف بن برخيا كان صديقاً يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب)) (الجلالان) فكيف خفي هذا الاسم عن سليمان، وهل كان في زمانه وفي رعاياه من هو أعلم منه ؟ ولم لم ينزل هذا الاسم الأعظم في القرآن ؟ (٣) قصص هذه السورة لها مطالع مختلفة (٧ و ١٥ و ٤٥ و ٥٤) فهي إذن مجموعة لا وحدة فنية .

- الآيات ٧٦ - ٧٩ مقحمة تقطع السياق، ولا خلاف في السورة مع بني إسرائيل.

- ومن أشرط الساعة خروج دابة الأرض^١ (٨٠ - ٨٢) والحشر^٢ (٨٢ - ٨٦) ونفخة الفزع في الصور (٨٧ - ٩٠).

ختم السورة (٩١ - ٩٣) إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، وأمرت أن أكون من المسلمين، **وقل الحمد لله**^٣ (مثل خاتمة السورة الأولى).

*

* *

التاسعة والأربعون: القصص (٢٨): ((يا موسى: إني أنا الله رب العالمين)) .

فذلكة: السورة منسجمة النظم والروي . ولكن بما أن الموضوع الثلاثي فيها من توحيد وقصص وحديث الآخرة يتكرر ، نرى فيها سورتين متماثلتين عن موسى الكليم ، وخصمه قارون .

السورة الأولى منها: (١ - ٧٠) قصة موسى كاملة.

مطلع: (١ - ٣) تلك آيات الكتاب المبين^٤: نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم^٥ يؤمنون.

(١) من أشرط الساعة خروج دابة الأرض ((تكلم الناس بالعربية ، وبخروجها ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يؤمن كافر من بعدها)) (الجلالان) واسمها الجساسة . هل هذه الدابة صورة للوحش المذكور في سفر الرؤيا (١٣ : ١١ و ١٩ : ١٩) وإن اختلف عملها : الدابة تعمل لله ، والوحش يعمل ضد الله . ولكن في سفر الرؤيا الوحش رمز ، وفي القرآن الدابة رسول من رسل الله ، وهي من غرائب القرآن .

(٢) ٨٦ ((ألم يروا أنا جعلنا الليل ...)) معترضة تقطع السياق .

(٣) في الخاتمة الآية ٩١ فيها محاولة للجمع بين الإسلام وعبادة رب مكة ولم تطهر بعد من الأصنام .

الآية ٩١ ((إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة)) : إذا كان رب مكة إله التوحيد فما معنى دعوة القرآن ؟ وإذا كان رب مكة غيره فكيف يؤمر محمد بعبادته ؟ إنما ذلك تساهل جديد ، كالذي في سورة قريش لإيلاف قريش ، ويأتي جوابه في سورة القصص ٨٦ - ٨٨ ((ولا تكونن من المشركين ، ولا تدع مع الله إلهاً آخر)) .

الآية ٩١ ((وأمرت أن أكون من المسلمين)) ظاهر الآية أن المسلمين قبل محمد وهو ينضم إليهم .

((وأمرت أن أتلو القرآن)) ظاهر الآية أن القرآن (أي الكتاب) موجود ويؤمر بتلاوته .

ويختم السورة الثانية (٩٣) كما ختم السورة الأولى (٥٩) بالحمد لله . وبقول ((سيريكم آياته)) : إذن المعجزة المطلوبة لم تأت بعد .

(٤) الآية ٢ ((الكتاب المبين)) هو كتاب موسى الإمام (أحقاف ١٢) فالتعريف للعهد والجنس ، ويدل عليه قوله ((نتلو عليك من نبأ موسى)) .

(٥) الآية ٣ ((لقوم يؤمنون)) يتلى القرآن في هذا العهد على المؤمنين .

- ١- **القصة:** مولد موسى منة على بني إسرائيل^١. الله يوحي رسالته إلى أمه^٢.
 ١٤ - ٢١ موسى يقتل مصرياً فيأتمرون به فيهرب.
 ٢٢ - ٢٨ موسى في مدين: زواجه من ابنة شيخها^٣.
 ٢٩ - ٣٥ ظهور الله لموسى: ((يا موسى إني أنا الله رب العالمين^٤)) .
 ٣٦ - ٤٢ رسالة موسى عند فرعون. قصة الصرح^٥.
 ويختتم بقوله: ((ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى)) (٤٢).
 ٢- **استطراد** (٤٣ - ٦١) جدل على رسالة محمد:
 ٤٤ - ٥١ اعتراض أول: ((لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ... قالوا: سحران تظاهراً^٦) .

(١) الآية ٥ ((نريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ...)) : مديح رائع لبني إسرائيل يشعر بأن النبي متضامن معهم .
 (٢) الآية ٧ ((وأوحينا إلى أم موسى)) الله يوحي إليها خلاص ابنها ورسالته . والتوراة (خروج ٢) تجهل ذلك .
 والآية ٨ - ٩ تذكر أن التي التقطت موسى امرأة فرعون ، ويسمونها آسية ؛ والتوراة تنص أنها ابنة فرعون (خر ٢ : ٥) .
 (٣) الآية ٢٣ الآية تذكر أن بنات شيخ مدين كن اثنتين ، والتوراة تقول سبعاً (خروج ٢ : ١٦) . وقصة الزواج بالاستخدام تذكرها التوراة ليعقوب عند خاله لابان ، لا لموسى في مدين .
 (٤) الآية ٣٠ ((أنا الله رب العالمين)) تقابلها في التوراة : ((أنا الكائن)) (خروج ٧ : ١٤) فدعوة القرآن لله رب العالمين من موسى .
 (٥) الآية ٣٨ قصة الصرح الذي يطلبه فرعون ليطلع إلى إله موسى تجهلها التوراة . هل في ذلك تمثيل للأهرام أم لبرج بابل ؟
 والآية ٤٢ ((واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة)) : اللعنة تلحق فرعون وجنوده إلى يوم الدين .
 (٦) الآية ٤٦ ((لتندر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك)) : ألا يذكر القرآن أنبياء العرب صالحاً وهوداً وشعيباً، ويقول عن إسماعيل جد عرب الحجاز والشمال إنه ((كان رسولاً نبياً)) في مكة لجرهم (مريم ٥٤) وإنه بنى لهم الكعبة مع إبراهيم أبيه (البقرة) .
 الآية ٤٨ ((لولا أوتي مثل ما أوتي موسى)) يتمسك أهل مكة بالعقيدة الكتابية أن المعجزة دليل النبوة، ولذلك ما زالوا يطالبون محمداً بمعجزة مثل موسى أو مثل الأنبياء الأولين . فكان موقفه من طلبهم سلبياً .
 والآية ٤٩ ((وقالوا : سحران تظاهر)) : تظهر تضامن التوراة والقرآن في تعليم محمد وفي موقف الشعب الواحد منهما .

- ٥٢- ٥٣ حديث مقم بين الاعتراضيين: إسلام أهل الكتاب من قبل القرآن،^١
٥٦- ٦١ اعتراض ثانٍ: ((وقالوا: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)) .
٣- حديث الآخرة (٦٢- ٦٩) محاسبة الشركاء والمشركين في يوم الدين.
ختام: (٦٨- ٧٠) ما كان للمشركين الخيرة في شركهم. ((هو الله له الحمد، وله الحكم وإليه ترجعون)) .

*

السورة الثانية منها: (٧٠- ٨٨) قصة قارون خصم موسى.

- ١- براهين التوحيد (٧١- ٧٣) آية تعاقب الليل والنهار. الآيات ٧٤- ٧٥ مقحمة^٢.
٢- قصة قارون (٧٦- ٨٢) بغى بكنوزه فخسف الله به الأرض^٤.
٣- حديث الآخرة (٨٣- ٨٤): الدار الآخرة للمتواضعين، والعاقبة للمتقين.

(١) الآيات ٥٢- ٥٣ تروي (أسباب النزول) للسيوطي أنها نزلت في أصحاب النجاشي النصارى: وهذه شهادة يقولها المسيحيون في القرآن ((إنا كنا من قبله مسلمين)) ويؤيدها القرآن؛ وهذا أجمل مديح لهم، وأصدق وصف على صحة إسلامهم. ويتم المديح بإعطائهم أجرين على إيمانهم والمسلمين أجراً ((فاشتد ذلك على الصحابة فأنزل الله في الحديد)) فأمنا بالله ورسوله يؤتكم كفتلين من رحمته ((فجعل لهم أجرين مثل أجر مؤمني أهل الكتاب)) (السيوطي) فانتظروا التعديل حتى المدينة (في سورة الحديد).
والآية ٥٥ ((وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ... وقالوا: سلام)) . قال النحاس: فيها أربعة أقوال: الأول إنها منسوخة بالنهي عن السلام على الكفار. ومنهم تأولها بإباحة السلام عليهم. وقيل منسوخة بآية السيف. وقيل هذا قول جميل، وليس من جهة السلام فهي محكمة.
(٢) الآية ٥٩ ((وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً)) مثل قوله ((لتندر أم القرى وما حولها)): فكل النصوص في مكة توحى بأن رسالة محمد قومية حجازية.
وفي قوله: ((إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا)) تعطي السبب الحقيقي البعيد لمقاومة قريش محمداً في دعوته: إنهم رأوا وراءها دعوة استعمارية كتابية، أو بالحري ردة فعل شرقية فارسية تقضي على استقلال الحجاز: فالمقاومة المكية للنبي كانت اجتماعية في العهد الأول فصارت سياسية في الثاني.
(٣) الآيات ٧٤- ٧٥ تجمعها وحدة الأسلوب مع الآيات ٦٢- ٦٥.
(٤) قصة قارون في القرآن تختلف عما ورد عنها في التوراة: في القرآن بغى بثروته، وفي التوراة ثورة على موسى وطمع في الكهنوت الهاروني اللاوي (سفر العدد ١٦). والآية ((وأتينا من الكنوز ما إن بمفاتيح لتنؤ بالعصبة أولى القوة)) تعبير مقلوب أصله: ((وأتينا من الكنوز ما إن العصبة أولى القوة لتنؤ بمفاتيحه)) . وقصة مفاتيحه لها ما يماثلها في التلمود البابلي: ((مفاتيح كنوزه كانت حمل ثلاثماية جمل)) (سنهدرين ١١٠).

ختام: (٨٥-٨٨): تحذير للنبي من تساهله مع المشركين بعبادة « رب هذه البلدة » (نمل ٩١)'.^١

وينتهي مثل السورة الأولى من القصص: « له الحكم وإليه ترجعون » .

*

* *

السورة الخمسون: الإسراء أو « بني إسرائيل » (١٧): « **الرحمان هو الله** » .

فذلكة : تظهر سورة الإسراء كمجموعة متفرقات تضمها وحدة النظم والروي . ويتخللها أي مدني . وتكرار براهين التوحيد والبعث جعلنا نميز فيها ثلاث سور، ما عدا الدخيل المقحم عليها . قيل والسورة فيها من الناسخ موضعان ومن المنسوخ ثلاثة ٢٣ و ٣٤ و ١١٠ .

*

قسم مبتور (١-٨) آية الإسراء^٢ (١) مستقلة بذاتها عمّا قبلها وعمّا بعدها في النسق والترتيب التاريخي .

(١) في السورة السابقة (نمل ٩١) تساهل النبي مع قريش « بعبادة رب هذه البلدة » فأخذت التحذيرات تتوالى عليه في السور التالية من هذا التفريط في التوحيد . هنا في الآيات (٨٦ - ٨٧) قال البيضاوي : « فلا تكوننّ ظهيراً للكافرين بمداراتهم ، والتحمل منهم والإجابة إلى طلبهم ، ولا تكونن من المشركين بمساعدتهم ، هذا وما قبله للتوبيخ وقطع إطماع المشركين عن مساعدته لهم » .

(٢) آية الإسراء : تذكر إسراء النبي من مكة إلى بيت المقدس ، ولا إشارة فيها إلى معراج النبي إلى السماء . لا بل في الآية (٩٣) من الإسراء نفي قاطع للمعراج : « أو ترقى في السماء : ولن نؤمن لرقيقك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ! - قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً : تحديهم وإقرار النبي ببشريته العاجزة تصريح متبادل بنفي فكرة المعراج .

وهل كان الإسراء المذكور بالروح أم بالجسد ؟ - تصاريح القرآن والحديث أنه كان « رؤيا ليل » : تنص الآية أن الإسراء كان « ليلاً » فإذا كان معجزة له ، فهذه المعجزة لم يشاهدها أحد ، وقد جاء في الإتيان (١ : ٢٢) « أخرج الحاكم عن جابر حديثاً مرفوعاً إلى النبي : أصدق الرؤيا ما كان نهاراً ، لأن الله خصني بالوحي نهاراً » . - مع ذلك نلاحظ أن هذا الحديث يناقض نزول القرآن في ليلة مباركة ، في ليلة القدر . وتنص السورة أيضاً أن رؤيا الإسراء مثل رؤيا شجرة الزقوم في مقر جهنم : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة في القرآن ، ونخوفهم » - قابل أسباب نزول الآية (٦٠) للسيوطي . الإسراء وشجرة الزقوم هما رؤيا ليل للتخويف لا للمعجزة ، والأخبار عنهما « للفتنة » لا للإعجاز . وهذا التقارب بين آيتي الإسراء وشجرة الزقوم يظهر أنهما مجازاً لا أمراً واقعاً .

وفي السورة تصريحان عن منع المعجزات عن محمد ، مبدئياً : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون (٥٩) » مهما كان السبب فهو يصرح بأن المعجزات منعت عنه ، لذلك كل محاولة لاكتشاف معجزة

- حملة من المدينة على تبني إسرائيل: لتفسدُن في الأرض مرتين! (٢ - ٨).

*

السورة الأولى منها: (٩-٢١). ((لا تجعل مع الله إلهاً آخر)) .

مطلع: (١٩-١١) إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم.

١- توحيد (١٢-١٥) وجعلنا الليل والنهار آيتين.

٢- قصص عابر (١٦-١٧) وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح.

٣- حديث الآخرة (١٨-٢١) يمدّ الله بعبائهم من يريد العاجلة، ومن يريد الآخرة ليوم الحساب.

خاتمة (٢٢): لا تجعل مع الله إلهاً آخر.

*

في السيرة النبوية مناقض لهذا المبدأ ، الذي جاء لتفسير الإسراء والزقوم ((بالرؤيا للتخويف)) ؛ والمنع واقعياً في هذا الإقرار ((قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً)) (٩٠- ٩٣) وهو جواب على تحديهم بمعجزة مثل الأنبياء الأولين .

وآية الإسراء ليرى آيات الله تتنافر موضوعاً مع تحذير النبي من فتنتهم له إذ رقّ لهم لما طلبوا منه أن يتمسح بآلئهم (أسباب نزول الآية ٧٣) ؛ ولا مع تحذير النبي من الركون إلى الشرك المعروض عليه في الآيات (١١٠- ١١١) : فمن جهة إسراء ومعراج إلى رؤية الله ، ومن جهة تحذير من الشرك !؟
والحديث يؤيد هذه الشواهد القرآنية : جاء في السيرة على لسان عائشة: ((ما فقد جسد رسول الله ص. ولكن الله أسرى بروحه)) : والإسراء بالروح ليس بمعجزة يشاهدها الناس ويكون بها التحدي .

وآية الإسراء مستقلة بذاتها عن سورتها لأن الآية التي بعدها تبدأ قصة موسى ، ولا صلة لها بالسورة التي قبلها في النسق (النحل) أو في ترتيب النزول (القصص) : فالآية مقحمة يدل عليها اختلاف حركة الروي فيها عن سائر السورة ؛ ويدل عليها اسم السورة الأصيل ((بني إسرائيل)) ، فقد نقل البخاري عن ابن مسعود : ((قال النبي ص. إن بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء ، هنّ من العتاق الأول وهن من تلادي)) (دروزة القرآن المجيد ٦٨) .

أخيراً جميع التواريخ تشهد بأنه لم يكن في القدس ((مسجد أقصى)) سوى كنائس النصارى ، لأن هيكل سليمان بقرب الصخرة الشهيرة قد هدمه الرومان منذ القرن الأول ، ولم تقم له قائمة من بعد ، حتى عيد الملك بن مروان : فإلى أيّ مسجد حضر إلى القدس ؟ هل أسري به إلى كنائس النصارى في القدس ؟ - فالآية دخيلة كما ترى ، وهي صدى لإسراء إيلياس النبي إلى سيناء ليرى الله (١ ملوك ١٩) وصدى لمعراج إيلياس إلى السماء في عربة من نار (٢ ملوك ٢ : ٣٠) .

(١) هذه الحملة على بني إسرائيل (٢ - ٨) هي من المدينة إذ ليس في مكة خلاف مع اليهود ، خصوصاً في هذا العهد الثاني ، وهي لا تنسجم مع موقف الوحدة التامة معهم في مكة ولا مع وحدة التوحيد التوراتي القرآني ، والثناء العاطر على أهل الكتاب في آخر السورة (١٠٥ - ١٠٩) .

تشريع أخلاقي من المدينة (٢٣ - ٣٩) « وحي من الحكمة » :

الوصايا العشر القرآنية^١:

« وقضى ربك: ألا تعبدوا إلا إياه (٢٣)

« وبالوالدين إحساناً (٢٣- ٢٥)

« وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذّر تبذيراً (٢٦- ٣٠).

« ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق (٣١).

« ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً (٣٢).

« ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق (٣٣).

« ولا تقربوا مال اليتيم (٣٤).

« وأفوا الكيل، وزنوا بالقسطاس (٣٥).

« ولا تقف ما ليس لك به علم (٣٦).

« ولا تمش في الأرض مرحاً: إنك لن تبلغ الجبال طويلاً! (٣٧).

خاتمة : (٣٩) ذلك ممّا أوحى إليك ربك من الحكمة.

*

السورة الثانية منها: (٣٩ - ٩٨): « لا تجعل مع الله إلهاً آخر » .

مطلع (٣٩): لا تجعل مع الله إلهاً آخر » . تحذير متواتر.

١- توحيد (٤٠ - ٤٨) تهكم بالشرك: أفصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة أنثاً ؟ (٤٠).

- برهان التوحيد: قل لو كان معه آلهة لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً (٤٢ - ٤٤).

- دعوة: إنهم ينفرون من ذكر الله وحده (٤٥ - ٤٨) فقل لهم يقولوا التي هي أحسن (٥٣) - (٥٧).

(١) هذا التشريع الأخلاقي القرآني ، هو صورة للكلمات العشر التي نزلت على موسى في التوراة ، وهو تشريع مدني كما يشير إلى ذلك الجلالان في تفسيره . وقيل إن الآية ٢٣ « رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » منسوخة بقوله : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى » وقيل الآية محكمة يستثنى منها الكفار .

- الآيات (٤٩- ٥٢) حديث الآخرة، مقحم بروي مختلف يقطع السياق.

٢- قصص (٥٨- ٨١):

ناقاة صالح (٥٩). (بدء الآية ٥٩ والآية ٦٠ مقحمتان تقطعان السياق).

قصة سجود الملائكة لآدم (٦١- ٦٥): لإبليس خيل ورجل لمحاربة بني آدم^١.

- استطراد (٦٦- ٧٢) مقحم لاختلاف الروي:

إقحام أول بروي مختلف (٧٣- ٧٧): فتنة النبي عن

الوحي^٢ (٧٣- ٧٥) مؤامرة عليه (٧٦- ٧٧).

إقحام ثانٍ بروي آخر (٧٨- ٨٠): تهجد النبي^٣

(٧٨- ٧٩) دعاؤه في الهجرة (٨٠) ثم هتاف النصر يوم دخول مكة (٨٠).

(١) الآية ٦١ ((لأحتنكن ذريته إلا قليلاً)) أي لأستأصلن . وفكرة القليل من الخالصين فكرة نبوية تظهر مع أشعيا ، ويسألون عنها المسيح في الإنجيل : ((يا رب أقليلون الذين يخلصون ؟)) (لوقا ١٣ : ٢٣ قابل رومة ٩ : ٢٧) .

والآية ٦٥ ((إن عبادي الصالحين ليس لك عليهم سلطان)) لا تأتلف مع قوله عن النبي وهو أفضل الصالحين : ((أعوذ بك ربّي من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون)) .
(٢) الآية ٧٣ ((وإن كادوا ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره)) : جاء في أسباب النزول للسيوطي: ((رجال من قريش بينهم أبو جهل وأمّية بن خلف أتوا رسول الله (ص) فقالوا : يا محمد تعال تمسح بآلهتنا وتدخّل معك في دينك ، وكان يجب إسلام قومه فرق لهم ، فنزلت)) . وهذا التساهل معهم تحذر منه الآيات (١١٠ - ١١١) .

وهذه الفتنة التي تذكر سورة الإسراء هي الرابعة ، وقد سبقها الفتنة الأولى (لإيلاف قريش : فليعبدوا رب هذا البيت) والفتنة الثانية في سورة النجم (حديث الغرانيق) والفتنة الثالثة التي تشير إليها خواتيم سورة النمل (٩١) . وآيات القصص (٨٥ - ٨٨) وآيات الإسراء (٧٣ - ٧٥) احتوت تحذيراً للنبي بأن لا يظاهر ولا يوادّ المشركين وإن لا يدعمهم بصدّونه عمّا أنزل إليه ، وبأن يأتي بأيّ شيء فيه أيّ معنى من معاني إشراك أحد غير الله . وطلبهم أن النبي ص. كان يختلج في نفسه مسائرة الزعماء شيئاً ، رغبة في كسبهم إلى صفه)) (دروزة : سيرة الرسول ١ : ١٩٧) .

(٣) الآية ٨٧ ((أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ، وقرآن الفجر)) : هذه الوصية صورة عن عادة رهبان عيسى في صلاة الغروب وصلاة الفجر أو السحر ، وتلاوة الكتاب فيهما .

والآية (٧٩) تجعل صلاة الليل وتهجده ((نافلة)) للنبي بعد أن كان فريضة (المزمّل ١- ٣) قال الجلالان : ((نافلة أي فريضة زائدة لك ، دون أمتك ، أو فضيلة على الصلوات المفروضة)) .

وقوله ((عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً)) : يرى الجلالان في المقام المحمود ، مقام الشفاعة في

فصل

٣- جدل على الرسالة والرسول (٨٢ - ٨٩).

القرآن شفاء ورحمة (٨٢ - ٨٤) - سؤال على الروح^١ (٨٥-٨٧).

جدال في إعجاز القرآن: يتحدّى بالإعجاز^٢ (٨٨-٨٩) فيردونه طالبين معجزات حسية (٨٨-٩٣).

جدال على الرسول: أبعث الله بشراً رسولاً؟ (٩٤-٩٥) - قل كفى بالله شهيداً يوم الحشر (٩٧-٩٨).

*

القضاء، من حديث أبي هريرة . والمعنى لا يقتضي ذلك ، قال البيضاوي ((هو مطلق كل مقام يتضمّن كرامة)) . وقوله ((عسى)) للتقريب لا للجزم ، والمقام المحمود لا يعني الزلفى ، والقربى من الله ، والشفاعة عنه ، لأن كل مقام في الجنة محمود .

(١) الآية ٨٥ ((ويسألونك عن الروح ؟ - قل الروح من أمر ربي !)) : جواب أم تهرب من الجواب؟ ولذا قال بعضهم: مضى محمد ولما يدر ما الروح)) .

وقوله ((وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)) تدل على أن العلم المنزل في القرآن قليل، جاء على قدر ما تستطيع أن تستوعبه البيئة الحجازية البدائية ؛ وهذا العلم القليل هي التوحيد لا غير ، والتوحيد السلبي ((لا إله إلا الله)) لا التوحيد الإيجابي الذي يكشف حياة الحي القيوم في ذاته السامية.

(٢) الآيات ٨٨ - ٩٣ تتحدّى المشركين لأول مرة بإعجاز القرآن ، كما في سورتي هود ويونس . وتحصر الإعجاز في بيانه ((صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل)) ؛ وكان في سورة القصص جعل الإعجاز في الهدى الذي هو الكتاب فيه سواء : ((فأتوا بكتاب من عند الله أهدى منهما أتبعه)) . ونظرية القرآن الأصلية أن إعجازه في هداه لا في بيانه ؛ وفي الهدى له إمام (أحقاف ١٢ هود ٧) عليه أن يقتدي به (أنعام ٩٠) . والتحدّي الجديد بالإعجاز في (الإسراء) كفروا به للحال ((فأبى أكثر الناس إلا كفوراً)) . وردوا عليه التحدي بمثله طالبين منه معجزة حسية مثل الأنبياء الأولين (٩٠ - ٩٤) فأقر بعجزه عن مثلها ((قل سبحانه ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً)) وردّ هذا العجز إلى ميدان إلهي وقضاء رباني منع المعجزات عنه لأنه ((كذب بها الأولون)) (٨٨) : والقرآن يذكر تكذيب البشرية لجميع الأنبياء ، مع ذلك أعطى الله كل نبي معجزة آمن به الناس بسببها ، فلم لم يمنعه الله عنهم بسبب التكذيب المتواصل المتجدّد مع كل نبي، ولم ينزل المنع إلا مع النبي محمد ؟ وهذا المنع عن كل معجزة (٨٨) يمنع أن يُرى في الإعجاز معجزة (٨٩) بل هو ((شفاء ورحمة للمؤمنين)) (٨٢) كما أن رؤيا الإسراء ورؤيا شجرة الزقوم ((فتنة للناس وتخويف)) (٦٠) : ((وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً)) (٥٩) . أخيراً عقب بعضهم على تحديّ الجن بالإعجاز فذكر تفسير الجلالين لحديث الغرائيق في سورة النجم بأن الجن ابتدرت به لسان النبي ولم ينتبه حتى نتهه جبريل .

السورة الثالثة منها : (٩٨- ١١١) الرحمان هو الله.

١- حديث الآخرة (٩٨- ١٠٠): البعث خلق جديد.

٢- قصص (١٠١- ١٠٤) موجز سيرة موسى^١.

٣- توحيد (١٠٥ - ١٠٩) إيمان أهل الكتاب بالدعوة القرآنية: أروع شهادة على وحدة الدين معهم^٢.

ختم السورة (١١٠- ١١١): ((ادعوا الله، أو ادعوا الرحمان: أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى^٣)) .

*

* *

الحادية والخمسون: يونس (١٠) ((إن ربكم الله)) .

فذلكة : جاء في الإتقان : ((من أولها إلى رأس أربعين مكي ، والباقي مدني)) (١ : ١٥) : قصص السورة وجدلها كله من مكة . وهذا القول يوحى بأن السورة مجموعة ثلاث سور ، كل منها كاملة بتوحيدها وقصصها وحديث الآخرة فيها ؛ ومتى تكرر هذا التقسيم الثلاثي تعددت السورة ولو جمعت بينهما وحدة النظم والروي . وقيل في السورة من المنسوخ سبعة مواضع ولا ناسخ فيها .

*

السورة الأولى منها: (١- ٣٠) ((إن ربكم الله يبدأ الخلق ثم يعيد)) .

مطلع: (١- ٢) ((أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم)) ؟ فلا يأبه لتهمة السحر .

(١) ((فأغرقنا ومن معه أجمعين)) تنص على غرق فرعون مع جيشه ، والآية ٩٢ من يونس تنص على إيمان فرعون قبل غرقه وعلى ((نجاته ببدنه)) .

(٢) الآيات ١٠٥ - ١٠٩ تنفي الثناء العاطر على إيمان أهل الكتاب بدعوة القرآن ، وفي مطلع السورة (٢ - ٨) حملة على كفرهم .

(٣) الآية ١١١ ((قل ادعوا أي أو ادعوا الرحمان: أيأ ما تدعوا ، فله الأسماء الحسنى)) : بهذه النظرية يحاول القرآن أن يجعل أهل مكة والحجاز الذين يجهلون ((الرحمان)) أن يستسيغوا الاسم ، لأنه أفضل الأسماء الحسنى . روى الترمذي أنها تسعة وتسعين تجدها في تفسير الجلالين على هذه الآية . لاحظ استعمال ((ما)) لله وهي لغير العاقل .

١- توحيد (٣- ١٢) خلق ثم استوى على العرش يدبّر الأمر^١ - قدّر منازل القمر. اختلاف الليل والنهار^٢ (٣- ٧).

عاقبة الكفر النار، والإيمان الجنة (٨- ١٠).

استطرد: استعجالهم العذاب، كعجلتهم إلى نسيان الله بعد كشف الضرّ عنهم (١١- ١٢).

٢- قصص (١٣- ٢٤) «أهلكنا القرون وجعلناكم خلائف في الأرض»^٣ (١٣- ١٤).

يقطع السياق ردّ على ثلاث شبهات (١٥- ٢١): ائت بقرآن غير هذا أو بدله^٤ (١٥- ١٧) ويقولون هؤلاء شفعاؤنا (١٨- ١٩) ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ - فقل إنما الغيب لله، فانتظروا^٥ (٢٠).

- «هو الذي يسيركم في البر والبحر... دعوا لله مخلصين له الدين»^٦ (٢١- ٢٣): شركهم عناد.

(١) الآية ١ «تلك آيات الكتاب الحكيم» يعني الكتاب المقدس ، بدليل قوله في السورة ذاتها أن القرآن تفصيل الكتاب وتصديقه (٣٧) .

والآية ٣ «ثم استوى على العرش يدبّر الأمر» ظاهر التعبير أن الاستواء كان بعد خلق السماوات والأرض ، قيل «ثم» تعود إلى «يدبّر» وشهير الجدل الذي قام بينهم في حمل الاستواء على الحقيقة ، فيكون لله جسم ، أو على المجاز بمعنى الاستيلاء والاقترار .

(٢) الآية ٧ «إن الذين لا يرجون لقاءنا» لقاء الرب في القرآن للحساب لا للروية والمشاهدة .

(٣) الآية ١٤ «ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لنتنظر كيف تعملون» ظاهر التعبير قام عليه جدل في هل علم الله سابق لعمل المخلوق أم لاحق .

(٤) الآية ١٦ «فقد لبثت فيكم عمراً من قبله» : «حدّدوا هذا العمر بأربعين سنة» ، إلى بدء الكهولة ونضوج العقل والوجدان .

(٥) الآية ١٩ «كان الناس أمة واحدة» في التوحيد . فاختلفوا ، تلك نظرية التوراة في قصة برج بابل. والآية

٢٠ «ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ - قل إنما الغيب لله ، فانتظروا» هذان التمني والتحدّي يوحيان بأن

معجزة الإعجاز في السورة السابقة (إسراء ٨٨ - ٩٣) وفي هذه السورة (٣٨) لم تعجزهم ولم تقنعهم ولم

يرضوا بها معجزة ، بل أصروا على معجزة حسية كالأنبياء السابقين : وهذه في علم الله وقدرته لا في علم محمد وقدرته «إنما الغيب لله» . وهو ينتظرها معهم .

(٦) الآية ٢٢ «وجرين بهم» فيه التفات عن الخطاب ، وعن المفرد (الفلك) إلى الجمع، وتغلب العاقل على

غير العاقل ، وأصله «وجرت بهم ريح طيبة» .

- ((إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء)) . ويختم القصص ((كذلك نفصل الآيات)) (٢٤).

٣- حديث الآخرة (٢٥- ٣٠) ((للذين أحسنوا الحسنى وزيادة^١، وجزاء سيئة بمثلها)) .
خصام الشركاء يوم الدين. ويختم ((ورُدُّوا إلى الله ، مولا هم الحق)) .

*

السورة الثانية منها : (٣١- ٦٥) ((ذلكم الله ربكم بدأ الخلق ثم يعيده)) .

١- توحيد (٣١- ٤٤) - الله يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ويدبر الأمر (٣١- ٣٣).

- هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده، مثل الله؟ أو يهدي إلى الحق مثل الله (٣٤- ٣٦).

استطرد: رد شبهة خامسة: ليس القرآن افتراءً بل تفصيل الكتاب وتصديقه: فأتوا بسورة مثله!^٢ (٣٧- ٤٤).

٣- حديث الآخرة (٤٥- ٥٦) - يوم الحشر يخسر من يكذب بقاء الله. ولكل أمة رسول^٣ (٤٥- ٤٧).

- ويقولون: متى هذا الوعد؟ - لكل أمة أجل (٤٨- ٥٢).

(١) الآية ٢٦ ((للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)) ، أراد بعضهم أن يرى في هذه الزيادة رؤية الله في الجنة - وفاتهم أن الزيادة من جنس المزيد عليه ، كما يدل النص السابق (للذين أحسنوا، الثواب الحسن) واللاحق ((لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة)) .

(٢) الآية ٣٧ ((وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله)) يرد تهمة الافتراء عن القرآن بأنه تفصيل الكتاب وتصديق الكتاب لإنذار العرب : هذا هو جوهر القرآن المكي ، وهذا هو هدفه - وتحديدهم ((بسورة مثله)) في معرض رد تهمة الافتراء ، يقصر إعجاز القرآن على تصديق الكتاب وتفصيله . ووصف القرآن بتصديق الكتاب وتفصيله ، يتخطى الانتساب للكتاب المقدس ، إلى الوحدة التامة معه .

(٣) الآية ٤٧ ((لكل أمة رسول)) يردّد القرآن كثيراً هذه الفكرة ، فعقيدته أن رسالته ورسالة كل رسول قومية: ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا)) (نحل) : إذن لا رسالة عالمية ، وقومية الرسالة تحد رسالة موسى وعيسى ومحمد ، إذ من حق كل قوم على الله أن يبعث فيهم رسولا ((فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط)) لذلك يحصر محمد رسالته في أمّ القرى ، مكة ((وما ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا)) .

- ويستنبئونك: أحق هو؟ - إن وعد الله حق (٥٣- ٥٦).

ختام (٥٧- ٦٥) - يا أيها الناس جاءكم من ربكم موعظة وشفاء وهدى ورحمة، وهو خير مما يجمعون (٥٧- ٥٨).

والآية ٥٩- ٦٠ مدنية وتقطع السياق: في تحليلهم وتحريمهم.

- ما تفيضون فيه من نجوى هو من كتاب مبين (٦١).

- للمؤمنين، أولياء الله، البشرى في الدنيا والآخرة، ذلك هو الفوز العظيم (٦٢- ٦٥).

السورة الثالثة منها: (٦٦- ١٠٩).

١- **توحيد** (٦٦- ٧٠) **الله مَن في السماوات والأرض، والشرك ظن وتخَرَّص (٦٦)** (٦٧-).

- رد اعتراض سادس: قالوا اتخذ الله ولداً - سبحانه هو الغنيّ! (٦٨- ٧٠).

٢- **قصص** (٧١- ١٠٣) - نبأ نوح (٧١- ٧٤) عاقبة من كفروا برسالته الهلاك^١.

- ثم بعثنا من بعده رسلاً (٧٤).

- ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئيه^٢ (٧٥- ٩٧).

(١) الآية ٧٢ « وأمرتُ (نوح) أن أكون من المسلمين » : فالإسلام إذن هو التوحيد المنزل في الكتاب ، وهو من عهد نوح .

(٢) الآية ٧٥ تجعل بعثة موسى لفرعون وملئه ، والتوراة تحصر بعثة موسى ببني إسرائيل (خروج ٥ : ١ - ٥) . وفي قوله « وتكون لكما الكبرياء في الأرض » تعريض بنفسية زعماء مكة تجاه محمد : فهل كانوا يظنون أنه يتخذ النبوة سبيلاً إلى السيطرة والملك ؟ والتوراة تقول : « لماذا تبطلان الشعب عن أعماله ، إذ هبا إلى عملكما » .

- والآية ٧٨ « تبوءاً لقومكما في مصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلةً » والتوراة تنص على أن الله أمرهما بإخراج بني إسرائيل من مصر ؛ ويختلف المفسرون في تحديد تلك القبلة .

- والآية ٨٤ « وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ، فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » تحدد الإسلام أنه الإيمان بالله ، وتجعل الإسلام رسالة موسى بألفي سنة قبل محمد والقرآن . وهذا الإسلام هو الذي اهتدى إليه فرعون حين غرقه : « قال آمنْتُ أن لا إله إلا الذي آمنْتُ به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين » (٩٠) فإسلام محمد والقرآن هو الذي آمنْتُ به بنو إسرائيل : هل أصرح من هذه الإشارة إلى وحدة العقيدة والملة في هذا العهد الثاني من مكة بين محمد وبني إسرائيل ؟

آية الشك (٩٤) وآية التكذيب (٩٥) معترضتان^١ قال الجلالان أنهما مدنيتان.

- العبرة بإيمان قوم يونس^٢ (٩٨-١٠٣).

ختام (١٠٤-١٠٩) قل يا أيها الناس لا أعبد الذين تعبدون من دون الله^٣ (١٠٤-١٠٧).

قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه (١٠٨).

واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين^٤ (١٠٩).

*

* *

والآية ٩٣ تخالف سائر القصص القرآني والتوراتي : ((اليوم ننجيك ببندك لتكون لمن خلفك آية)) قال الجلالان ((ببندك أي جسدك الذي لا روح فيه)) وكذلك البيضاوي : فأية آية في نبذ الماء جثة غريق؟ تقول التوراة : ((ورأى إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر)) (خروج ١٤ : ٣١) فالمقصود بنجاة فرعون وحده ببندنه دون قومه ، نجاته حياً ، بسبب إسلامه عند الغرق . وإسلام فرعون ونجاته تجهلها التوراة ، وقد ورد مثلها في التلمود (فرقا رابي اليعازر ٣٤) . وآية القصص ((فأخذناه وجنودَهُ فنبذناهم في اليم)) (٤٠) لا تتسجم معها . ولم يرد في التوراة خبر عن غرق فرعون وأيد التاريخ العام قول التوراة بأن فرعون موسى لم يغرق لأنه لم يخرج بذاته مع جيشه .

(١) الآية ٩٤ ((فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك ... فلا تكونن من الممترين)) هذه الآية أعظم آية في القرآن على بشرية النبي وضعفه البشري ، وتوضح بأن محمداً كانت تتنابه نوبات شك ((مما أنزل إليه)) ؛ وهذا لا يطعن في عصمة النبوة لأن العصمة في البلاغ لا في الأحوال النفسية من خطيئة أو خطأ قد يتعرض لهما النبي كسائر البشر . وفي حالات الشك البالغة يُحيله الوحي إلى أهل الكتاب ليطمئنوه : وهذه أعظم وأخطر مظاهر تلمذة النبي في هذه الفترة لأهل الكتاب . وإذا كانت هذه الآية مدنية تكون حالات الشك في نفس النبي دامت حتى المدينة ؛ ولكن لا نظن ، لأن الهجرة كانت استقلالاً عن أهل الكتاب .

(٢) قصة يونس في القرآن أقرب إلى التلمود (فرقا رابي اليعازر ف ١٠) منها إلى التوراة (سفر يونس) والآية ٨٩ ((أفأنت تكره الناس أن يكونوا مؤمنين)) تقابلها ((لا إكراه في الدين)) (البقرة) ، وتنقضهما وتنسخهما آية السيف (براءة ٦) .

(٣) بعد إحالته في شكوكه إلى أهل الكتاب وجلائها لديهم، جاء الإعلان باتتهاء محنة النبي ، وقتنتهم له في أربع محاولات (قريش ، النجم ، النمل ، الإسراء) : ففي أقواله ((لا أعبد الذين تعبدون . أمرت أن أكون من المؤمنين . أقم وجهك للدين حنيفاً . لا تدع من دون الله ما لا ينفك ولا يضرّك)) تقويم لاستسلامه لهم في سورة النمل (٩١) ودمجه بين الإسلام و ((عبادة رب هذا البلدة)) : انتهت الفتنة وبدأت فترة الشك وفي الآية ٩٤ أول مظاهرها (قابل هود ١٠٥) . لاحظ قوله : ((أمرت أن أكون من المؤمنين)) فهو مثل قوله : ((أمرت أن أكون من المسلمين)) : فالمؤمنون المسلمون كانوا قبله في مكة وهو ينضم إليهم . وهذا دليل آخر على انضمام محمد إلى أهل الكتاب في مكة وتضامنه معهم .

(٤) الآية ١٠٩ ((واصبر حتى يحكم الله)) منسوخة بالأمر بالجهاد ، وبالغظة لهم ، وبآية السيف في براءة .

التانية والخمسون: هود (١١) « ولا تعبدوا إلا الله » .

فذلكتة : السور الثلاث (الإسراء ٨٨ يونس ٧٧ هود ١٣) مجموعة واحدة ، من فترة واحدة يقوم فيها الجدل بين النبي وأهل مكة المتحزبين عليه ، على صحة رسالته وقرآنه : يتحدونه بمعجزة حسية مثل الأنبياء الأولين فيتحداهم بمعجزة خطابية ، إعجاز القرآن ، في ظل انتسابه إلى كتاب موسى الإمام (هود ١٧) واستشهاده بأهل الكتاب على صحة الانتساب والنسب، كأن إعجازه في «تصديق الكتاب وتفصيله» .

وسورة (هود) وحدة فنيّة متماسكة بأقسامها على فاصلة واحدة ، وكل ما فيها يخالف رويها الأصلي ، فهو دخيل عليها من سور أخرى سقطت . لذلك نلاحظ فيها سورتين متداخلتين وبروي مختلف .

قبل في السورة من المنسوخ أربعة مواضع ، ولا ناسخ فيها . والنحاس يعتبرها محكمة .

*

السورة الأولى منها : (١- ١٢): « لا تعبدوا إلا الله » .

١- **توحيد:** لا تعبدوا إلا الله، وتوبوا إليه، إليه مرجعكم (١- ٤). الآية (٥) مستقلة. الإنسان في الضراء يؤوس كفور، وفي السراء فرح فخور (٩- ١١).

٢- **قصص (٦١- ٩٤)** ممزوج في السورة الثانية.

*

السورة الأصلية منها: (هود في جملتها) « لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون؟ » .

١- **براهين التوحيد (٦- ٢٤):**

- الله هو الخالق، والباعث من الموت، والرازق كل حي يدب على الأرض (٦- ٨).

- تشجيع للنبي (١٢) ورد تهمة الافتراء بالتحدي بإعجاز القرآن (١٣- ١٤) ثم بالاستشهاد بكتاب موسى الإمام، وبأهله الذين هم على بينة من ربهم^٢ (١٥- ١٧).

(١) تنصدر سورة هود بمقطعين بروي واحد مختلف عن سائر السورة ، لعلهما لاختلاف الروي من سورة سقطت ؛ وربما قصص إبراهيم وصالح وشعيب (٦١ - ٩٦) تابع لها .

(٢) الآيتان ١٢ و ١٣ تعجيز مشركي مكة للنبي بطلبهم منه معجزة حسية مثل الأنبياء الأولين ، وتهمتهم له بافتراء القرآن بلغا من نفس محمد مبلغاً ضاق به صدره حتى أوشك أن « يترك بعض ما يوحى إليه » ، ودخله الشك في صحة قرآنه وإعجازه : « فلا تك في مرية منه » (١٧) .

وجوابه لهم على طلب معجزة : « إنما أنت نذير » (١٢) إقرار رائع بسيط يدل على أنه نذير لا صانع معجزات . أن محمداً نذير للعرب يفصل لهم كتاب موسى الإمام (١٧) وليس بمجترح خوارق كالأنبياء الأولين .

وجوابه على تهمة الافتراء ، تحديهم بإعجاز القرآن « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١٣) ثم الاستشهاد بأهل الكتاب « الذين هم على بينة من ربهم » ، « ويؤمنون بالقرآن » (١٧) ويشهدون بمطابقة

- ليس الافتراء على الله في توحيد القرآن، بل الافتراء بالشرك (١٨- ٢٤).
- ٢- قصص: سبعة^١ من أنبياء القرى (٢٥- ١٠٣).
- قصة نوح (٢٥- ٤٩) - فيها تعريض بحالة محمد من قومه^٢. الآية ٣٥ مقحمة.
- قصة هود في عاد (٥٠- ٦٠). ويتغير الروي في آخر القصة (٥٧- ٦٠).
- قصة صالح في ثمود (٦١- ٦٨) بروي مختلف، مما يدل أنها مقحمة على السورة^٣.

القرآن لكتاب موسى الإمام (١٧) لذلك لا تكن يا محمد في شك من صحة القرآن الذي يتلوه عليك ، ولا من مطابقته للكتاب الإمام (١٧) .

هذه هي المرة الثالثة على التوالي التي يتحدّى بها النبي أهل مكة المتحزبين عليه بإعجاز القرآن (إسرائ ٨٨ يونس ٣٧ هود ١٣) . ولكن هذه المرة يأتي التحدي (هود ١٣) محصوراً من طرفيه بأيتين (١٢ و ١٧) توضحان مده : على تحديهم له بمعجزة حسية ، يضيق صدره ، ويشك من أمره ، ويوشك أن يترك بعض ما يوحى إليه (١٢) ؛ ثم يطمئن بشهادة أهل الكتاب على مطابقة قرآنه لكتاب موسى الإمام ، كما يتلوه شاهد منه (١٧) . قال الزمخشري : ((يتلوه أي يقرأ القرآن (شاهد منه) أي شاهد ممن كان على بيعة من ربه ، كقوله (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) أو كقوله (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) . وقال البيضاوي ما معناه : ((من كان على بيعة من ربه (مؤمنو أهل الكتاب) وهو يتلو القرآن عن كتاب موسى الإمام ، أولئك (إشارة إلى من كان على بيعة من ربه) يؤمنون بالقرآن ، وإن كفر به أهل مكة وأحزابهم)) . فالإعجاز في مطابقة القرآن لكتاب موسى الإمام ، كما يشهد بذلك أهل الكتاب . وهذه المطابقة وهذه الشهادة تدلان على أن محمداً كان في هذا العهد في ظل النفوذ الإسرائيلي : يتخذ كتاب موسى إماماً للقرآن وقوله ((فلا تك في مرية منه)) - الجلالان : أي القرآن - تدل على أن محنة الشك لم تبرح بعد نفس النبي : وكيف ينسجم هذا الشك في القرآن مع التحدي بإعجازه ؟

(١) العدد ((سبعة)) موجود وغير مذكور ؛ وهو عدد كتابي مقدس .
(٢) الآية ٢٧ ((وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا)) تعريض بتحقير قريش للمسلمين ولم يرد في التوراة أثر لهذه المجادلة ، ولم تذكر أنّ أفاضلهم كفروا به وأراذلهم اتبعوه ؛ بل الجميع مالوا عنه ولذا أغرقهم الله بالطوفان .

وتختلف قصة نوح (٢٥ - ٤٩) عما في التوراة (تكوين ٨ - ٩) التي تذكر خلاصة من الهلاك لصلاحه ، وتجهل غرق أحد أبنائه وحوار نوح معه قبل غرقه (٤٤ - ٤٧) فالتوراة لا تعرف لنوح سوى ثلاثة أولاد كلهم نجوا . والمقصود بالربع الهالك كنعان وهو الابن الرابع لحام . والمتشابه في ذلك لعنة نوح لابنه حام في شخص الحفيد (تكوين ١١ : ٢٥) كما استغل الحادث القصص التلمودي في العداوة الدائمة بين بني إسرائيل وكنعان فجعله في عداد الهالكين ، مثل القرآن (قابل مدراش تنحومه على التكوين ٩) .
(٣) قصص صالح وإبراهيم ولوط وشعيب (٦١ - ٩٦) بروي مختلف ، ربما كان من السورة الأولى في هود .

- قصة إبراهيم (٦٩- ٧٦) موصولة بقصة لوط (٧٧- ٨٢). على الروي المختلف ذاته^١.
- قصة شعيب في مدين (٨٣ - ٩٦) - على الروي المختلف ذاته. وفيها تعريض بحال محمد من قومه^٢.
- قصة موسى مع فرعون (٩٧ - ١٠٩) على الروي المختلف ذاته. ختام القصص (١٠١- ١٠٣).
- ٣- حديث الآخرة (١٠٤- ١٠٩): الآخرة يوم مجموع مشهود، مؤخر لأجل معدود (١٠٤- ١٠٦).
- الأشتياء للنار والسعداء للجنة (١٠٧- ١٠٩).

ختام السورة (١١٠- ١٢٣) تحذير للنبي وتشجيع وتسليية.

- ((فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ... فاستقم كما أمرت ومن تاب معك^٣؛ ولا تركتوا إليهم (١١٠- ١١٤).))

- ((أقم الصلاة: إن الحسنات يذهبن السيئات^٤)) (١١٥).

- (١) سورة هود تنص (٧١ - ٧٣) على أن ضيوف إبراهيم لم يأكلوا من ذبيحته، وأوجس منهم خيفةً، وكانت امرأته قائمة معهم فيشروها بإسحاق ومن بعده يعقوب . والتوراة (تكوين ١٦ : ١ - ١٦) تقول إن إبراهيم استأنس بضيوفه وأكلوا من طعامه ، ولم تكن سارة قائمة معهم بل ((كانت سامعة من باب الخيمة)) على عادة الشرقيين ، وكانت البشرى بإسحاق لإبراهيم لا لسارة . والآية ٧٣ تسمى آل إبراهيم ((أهل البيت)) ، فأطلقوه فيما بعد على آل بيت محمد .
- (٢) الآية ٨٩ ثم ٩١ تعريض بحال قريش من محمد ((قالوا : يا شعيب إننا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك)) .
- (٣) الآية ١١٢ ((فاستقيم كما أمرت)) قال الزمخشري ((وعن ابن عباس : ما نزلت على رسول الله ص. في جميع القرآن آية كانت أشد ولا أشق عليه من هذه الآية ؛ ولهذا قال (شيبتي هود) . وعن بعضهم : فقلت ما الذي شيبك منها ؟ قال : ((فاستقم كما أمرت . ثم قال : ((أفنقر إلى الله بصحة العزم)) .
- (٤) الآيات ((فلا تك في مرية (شك) مما يعبد هؤلاء)) (١١٠) ((فاستقم كما أمرت)) (١١٢) ((ولا تركتوا إلى الذين ظلموا)) (١١٤) ((إن الحسنات يذهبن السيئات)) (١١٥) والأحاديث السابقة عنها، كلها توحى بأن حالة الشك في نفس محمد مما يعبد هؤلاء (١١٠) ومن القرآن (١٧) حتى يضيق صدره ويوشك أن يترك بعض ما يوحي إليه (١٢) ما زالت تنتابه في نفس الوقت ، وفي السور (الإسراء ويونس وهود) التي فيها يتحداهم بإعجاز القرآن : شكوك متواترة ، وتحذّر بالإعجاز متواتر ؛ موقفان متعارضان غامضان .

- واصبر مثل أولي البقيّة الذين كانوا يnehون عن الفساد (١١٦ - ١١٨).

- ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة: نقصّ عليك ما نثبت به فؤادك (١١٩ - ١٢٣).

*

* *

الثالثة والخمسون: يوسف (١٢) « أحسن القصص » .

فذلّكة : جاء في الإتقان (٢ : ٩٦) « طلب الصحابة من النبي أن يقصها عليهم فنزلت مبسوطه تامة . رواه الحاكم في مستدرّكه » . والسورة وحدة فنيّة رائعة يبلغ القصص القرآني فيها ذروته ، فهي « أحسن القصص » (٣) لذلك يليق مقارنة إعجازها (٨٩) بإعجاز القصة في التوراة ، خصوصاً في المشهد الذي يعرف أخوته بنفسه (الآية ٨٩ = تكوين ٤٥ : ١ - ٥) . والقصص القرآني فيها أقرب إلى القصص التلمودي منه إلى التوراتي .

قيل إن الخوارج تنكر صحة السورة وتعتبرها قصة غرام لا تليق بنبوة يوسف .

وقيل إن السورة محكمة .

المقدمة: (١ - ٣) هذه السورة من آيات الكتاب . وهي « أحسن القصص » .

الموضوع: - خيانة إخوة يوسف^١ له (٤ - ٢٠).

- إغراء امرأة العزيز ليوسف^٢ (٢١ - ٣٤).

(١) الآية ٦ : يعقوب يعرف مستقبل ابنه وهو صبي « يعلمك من تأويل الأحاديث » : كيف يتفق ذلك مع حزنه الشديد المتواصل عليه ؟ (٨٤) والتوراة لا تذكر ذلك وقد ورد في القصص التلمودي (فرقا رابي اليعازر ٣٨ ومدراش تنحومه على التكوين ٢) .

- الآية ٨ - ١٠ نقد الأسباط لأبيهم على حزنه له مثيل في التلمود (مدراش رباح على التكوين ٨٤) .

- الآية ١٥ « وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا » : هل استنبا الله يوسف وهو صبي ؟ والآية (٢٢)

تقول « ولما بلغ أشده أتيناه حكماً وعلماً » أي النبوة .

- الآية ١٨ يعقوب يشك في صدق أولاده « قال بل سولت لكم نفسكم أمراً ، فصبر جميل » ؛ والتوراة

لا تذكر ذلك وقد ورد مثيله في القصص التلمودي (كتاب سفر يم ٢١) .

- الآية ٢١ « أو نتّخذة ولدأ » : قاله الذي اشتراه ليتبناه كما تبني قبله اسينات لأنه كان عقيماً ؛ ورد

مثل هذا في القصص التلمودي (ترجوم يوناتان على التكوين ٤١ : ٤٥) لا في التوراة التي توحى بأنه اتخذه عبداً .

(٢) الآية ٢٣ « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » : له مثيل في (مدراش رباح على التكوين ٨٧ : ٥٠).

- الآية ٢٤ « ولقد همت به ، وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه » قيل ظهرت له صورة أبيه لتمنعه عن

- سجن يوسف، ونبواته في الحبس^١ (٤٢- ٣٥).
- يوسف يفسر أحلام فرعون فيرقيه^٢ (٤٣- ٥٧).
- يوسف يتعرّف إلى أخوته^٣ (٥٨- ٩٨).
- يعقوب (أي إسرائيل) في مصر^٤ (٩٩- ١٠٢).

الخاتمة (١٠٢- ١١١): « ذلك من أنباء الغيب ... تصديق الذي بين يديه ° » .

*
* *

الفحشاء . هذه المعجزة لا ذكر لها في التوراة : والتوراة تنص على تمنع يوسف الدائم ، والقصاص القرآني له مثيل في القصاص التلمودي : جاء في (مدراش أبجير) : « أراه الله صورة أبيه وللحال انطفأت شهبوته » .
- الآية ٢٦ « قال هي راودتني عن نفسي ، وشهد شاهد من أهلها » قيل الشاهد هو اسينات . لا تذكر التوراة الحادث ولا الشهادة ، وقد وردا في القصاص التلمودي (يلكوت على التكوين ١٤٦) . وكيف يصح من يوسف أن يهيم بها وهو نبي أتاه الله حكماً وعلماً (٢٢) وهو من عباد الله المخلصين (٢٤) ؟ - تأولوا المشكل فقالوا : فيه تقديم وتأخير ، والأصل : « ولقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه ، لهمّ بها » وعلى هذا فالهمّ بها منفي عنه .

- الآية ٢٩ « يوسف أعرض عن هذا » تعني أنه برأ يوسف ووبخ زوجه ؛ والتوراة توحى بأنه صدّقها وحبسه (تكوين ٢٩) .
- الآية ٣٠ - ٣٤ قصة عواذل مصر لامرأة العزيز (بليخة أو زليخة) وتقطيع أيديهنّ في الوليمة لا تذكرها التوراة ، وترد مطوّلاً في القصاص التلمودي (مدراش تنحومه على التكوين ٥ أو مدراش هاجدل ٣٩ : ١٤) .

(١) هذا الفصل يرد كما جاء في التوراة (تكوين ٤٠ : ١ - ٢٣) لكن قوله « فأفساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين » لا تعرفه التوراة : كيف ينسى النبي يوسف ذكر ربه ؟
(٢) هذا الفصل أقرب إلى التلمود (مدراش رباح على التكوين ٩١) منه إلى التوراة .
(٣) الآيات ٨٩ - ٩٠ إخوة يوسف يعرفونه قبل أن يظهر لهم ذاته . قابل إعجاز المشهد في التوراة .
(٤) الآية (١٠٠) « وخرّوا له سجداً » كيف يسمح يوسف بأن يسجد له أبوه ؟ لعل السجود للمخلوق يعني الإكرام الفائق .

- والآية (١٠١) « توقّني مسلماً » تدل على أن إسلام القرآن هو إسلام التوراة منذ موسى، ويوسف .
(٥) الآية (١٠٢) « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » والآية (٧) تقول « لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين » مما يدل على أن قصة يوسف كانت معروفة شائعة ! - يزول المشكل إذا فهمنا « بالغيب » النازل في الكتاب الإمام لقوله « ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه » (١١١) لا الموجود في اللوح المحفوظ في السماء . وهكذا يكرر القرآن في هذا العهد أنه تصديق الكتاب المقدس وتفصيله للعرب في إسلامه وقصصه .

تعليق على قصة يوسف : ما بين القرآن والتوراة اختلاف في تفصيلها :

الرابعة والخمسون: الحجر (١٥) ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)) .

فذلكة : سورة الحجر وحدة فنية رائعة بنظمها ورويها وتقسيمها الثلاثي المعهود من توحيد وقصص وحديث الآخرة يتخللها ردود على أقوالهم وتأييد للنبي .

قيل فيها من المنسوخ خمسة مواضع ، صح منها اثنان ، ولا ناسخ فيها .

مطلع (١ - ١٥) موقف المشركين المتعارض:

- في التوراة يعقوب يرسل يوسف إلى إخوته ليستطلع اخبارهم ، وليس هم الذين طلبوه مكرأ من أبيهم (الآية ١٢) .
- لم يتداولوا في قتل يوسف إلا بعد إرساله إليهم .
- لا تنص التوراة على الوحي الإلهي ليوسف وهم يلقونه في الجب (الآية ١٥) .
- يعقوب يصدق أولاده ، ويكي على ابنه ولا يظن ((إن نفسهم سولت لهم أمرا)) (الآية ٢٠) .
- القرآن ينص على أن يوسف أيضاً ((هم بها)) لقوله بأن ((النفس أمارة بالسوء)) ؛ والتوراة تنزّهه عن ذلك (تكوين ٣٩ : ٩) .
- التوراة تقول بأن يوسف ترك قميصه بيدها وهرب ، والقرآن يذكر بأنها ((قدت قميصه من دبر)) (٢٥) .
- لا تعرف التوراة معجزة ظهور صورة يعقوب ليوسف ليردعه عن الشر (٢٤) .
- في التوراة يصدق العزيز امرأته ويحبس يوسف ؛ وفي القرآن يطلب إليه أن ((يعرض عن هذا... ثم بدا لهم ليسجنته حتى حين)) (٢٩ و ٣٥) .
- لا تعرف التوراة وليمة امرأة العزيز لعاذلاتها من نساء مصر .
- لا تذكر التوراة أن يوسف تمنع عن الامتثال بفرعون حتى يجمع فرعون نساء القصر فتعترف امرأة العزيز أنها هي التي راودته عن نفسه (٤٩ - ٥٠) .
- في التوراة فرعون يجعل يوسف على خزائن مصر ، وفي القرآن ((قال اجعلني على خزائن الأرض)) (٥٢) .
- في القرآن إخوة يوسف يعرفونه قبل أن يظهر لهم ذاته ((قالوا أأنك لأنت يوسف)) (٣٠) .
- وقصة القميص يرسله يوسف ليفتح به عيني أبيه (٩٣) لا تذكرها التوراة ؛ وقد أوردت قصة القميص عند إلقاء يوسف في الجب .
- وقصة سجود أبوي يوسف له (١٠٠) لا ترد في التوراة .
- قصة يوسف من القصص التوراتي التلمودي الذي كان شائعاً بين العرب ، كما شاع عند غيرهم إلى اليوم في الأوساط الشعبية ، وردده القرآن ((للسانين)) كما كان متداولاً بينهم للذكرى والعبارة .

تارة « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين^١ (١-٥) ».

وتارة « قالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر، إنك لمجنون ... وقد خلت سنة الأولين بالاستهزاء^٢ (٦-١٥) ».

١- **براهين التوحيد** (١٦-٢٧) بروج السماء (١٦-١٨) رواسي الأرض (١٩). ومعاش الإنسان (٢٠-٢١) والرياح اللوايح (٢٢): الله هو المحيي والمميت (٢٣). يعرف خلقه وأوقاتهم وطبائعهم (٢٤-٢٧).

٢- **القصص** (٢٨-٨٤).

قصص الملائكة، وسجودهم لآدم^٣ (٢٨-٥٠).

قصص إبراهيم ولوط^٤ (٥١-٧٧).

(١) الآية ١ « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » يميّز بين الكتاب والقرآن ، ويجعل القرآن قرآناً وبياناً للكتاب وذلك مثل قوله « تفصيل الكتاب » أي الكتاب المقدس . والكتاب والقرآن - بالعبرية « مقراً » - مترادفان عند اليهود .

الآية ٢ « لو كانوا مسلمين » للإسلام معنيان في القرآن : في المكي يعني الإسلام العام وهو التوحيد المنزل في الكتاب ؛ وفي المدني يعني الإسلام الخاص ، الطائفي ، الذي تميّزت به « الأمة الوسط » (بقرة ١٤٣) .

(٢) الآيات ٦ و٧ بما أن محمداً إلى الآن لم يأتيهم بمعجزة مثل الأنبياء الأولين ، كظهور الملائكة له « لو ما تأتينا بالملائكة ! » اتهموه بالجنون أي به جنّة . فيجيبهم بأن الاستهزاء سنة الأولين الكافرين بالأنبياء . وعلى طلبهم « لو ما تأتينا بالملائكة » يجب : إذا نزلنا الملائكة « ما كانوا مُنتظرين » (الزمخشري: تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي) . وسورة مريم تشهد بأن رؤيتهم ممكنة وواقعة « فتمثل لها بشراً سوياً » . والآية ٩ « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان (الجلالان) . كيف ينسجم ذلك مع قوله بالتبديل « وإذا بدلنا آية مكان آية » (نحل ١٠١) والنسخ والنسيان (بقرة ١٠٦) والحقيقة الإلهية خالدة لا تبدل ولا تنسخ ؟ جاء في الزمخشري أيضاً : « قيل الضمير في (له لحافظون) لرسول الله ص كقولهِ: « والله يعصمك » .

(٣) الآية ١٨ « الأامن استرق السمع » الشيطان الرجيم يستمع إلى غيب السماء ويسرقه (قابل صافات ٧ الملك ٥) - والكتاب لا يذكر شيئاً من ذلك . وورد مثله في التلمود (كتاب حيكاه باب ٦ ف ١) إنهم ينصتون من وراء حجاب ليطلعوا على الغيب . تؤكد سورة الحجر ثلاث مرات (٢٦ و ٢٨ و ٣٣) إن الإنسان خلق « من صلصال ، من حمأ مسنون » (طين أسود متغير) : هل ينسجم الوصف التحقيري مع كرامة خلق الإنسان ، من طين جبله الله بيده ، على حد تعبير التوراة المجازي ؟

الآية ٣٩ يتحدى إبليس الله « بما أغويتني لأغوينهم أجمعين » .

(٤) الآية ٥٣ « قالوا (لإبراهيم) إنا نبشرك بغلام » وفي سورة هود (٧٤) كانت البشرى مباشرة

لامرأة إبراهيم .

إشارة إلى قصص أصحاب الأيكة^١ (٧٨- ٧٩).

قصة صالح مع أصحاب الحجر، ثمود (٨٠- ٨٤).

٣- حديث الآخرة (٨٥- ٨٦) إن الساعة لآتية.

الآيات ٨٧- ٩٣ ثلاثة مقاطع مستقلة مقحمة من أزمنة مختلفة^٢.

ختام: (٨٧- ٩٩): ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين^٣)) .

*

* *

(١) قصة أصحاب الأيكة إشارة بين قصتين طويلتين ، قوم لوط وأصحاب الحجر : مما يوحي بأن القصة سقطت وقوله ((وإنهما)) فيه غموض لكثرة الإيجاز ، أو بسبب سقوط القصة وقال الزمخشري ((إنهما ، يعني قرى قوم لوط وأصحاب الأيكة ، وقيل الضمير للأيكة ومدین لأن شعبياً كان مبعوثاً إليهما)) .

(٢) الآيات ٨٧- ٩١ قد تكون مكية أو مدنية بحسب مفهومها .

الآية ٨٧ ((سبعا من المثاني والقرآن العظيم)) لهم فيها أقوال . قال الزمخشري ((سبع آيات وهي الفاتحة أو سبع سور وهي الطوال)) : فتكون الآية مدنية . كلمة (قرآن) في هذه الآية ٨٧ وفي الآية ٩١ قد تعني الكتاب المقدس ، ويسميه هنا باسمه العبراني ((القرآن أي المقرآ)) . وهذه التسمية تلقي ضوءاً على كثير من الآيات المكية الاستفتاحية الغامضة فتكشف عن معناها بأن المقصود بها الكتاب المقدس . وفي هذه الحال تكون كلمة (المثاني) نقل لكلمة عبرية ثانية هي (المشنه) على حد قول المستشرقين نلدكه ولامنس .

والآية ٨٨ مقطع ثان مقحم فيه تأديب للنبي مزدوج : نهي عن حد أغنياء مكة ، وأمر بالتواضع مع المؤمنين . وهذه الآية توحى بأن محمداً بدأ يشعر بأن الصلاة لا تكفي وحدها لنشر التوحيد ، فلا بد له معها من العزة والمال ؛ فردعه الوحي . ولاحظ أن محمداً لا يتخذ إلى الآن سوى صفة ((نذير)) (٨٩) .

والآية ٩٠- ٩١ ((كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين)) قد تقصد أهل الكتاب ، وقد تقصد أهل مكة (جميع المفسرين) إذا عنت أهل الكتاب فالآية مدنية لأنه لا خلاف معهم في مكة ؛ وفي هذه الحال ((القرآن)) تعني الكتاب المقدس ، فيكون لفظ (القرآن) منقول من العبرية بطريق السريانية ((مقرا = قرآن)) . وقوله ((كما أنزلنا)) يرفع الغموض فلا ينسب تنزيلاً إلى أقوال المشركين .

(٣) والآية ٩٤ ((فاصدع بما تؤمر)) إجهز به وأظهره . هنا التطور الثالث في الدعوة بمكة : كانت سرية فنزل ((وأنذر عشيرتك الأقربين)) فدعاهم ؛ ثم نزل : ((فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)) فعمم الدعوة حتى اضطره إلى الهجرة إلى الطائف .

وقوله : ((أعرض عن المشركين)) منسوخة بآية السف .

والآية ٩٧ ((ولقد نعلم أنك ليضيق صدرك بما يقولون)) تشير إلى تضايق النبي من تهمهم له وتحديهم المتواصل له بالمعجزة ؛ ثم يأمره بالتسبيح والسجود ليخلص من ذلك الضيق ، ومحنة الشك والتردد التي تشير إليها هذه الآيات (٩٤ و ٩٧) .

الخامسة والخمسون: الأتعام (٦) إثبات الرسالة، والتوحيد لرب العالمين.

فذلكلة : في هذه السورة يبلغ الجدل مع المشركين ذروته ، على الرسالة والرسول . والسورة متبعضة أي فيها أي مكّي ومدني ؛ والمدني يظهر من إقحام الجدل مع أهل الكتاب ، في الجدل مع المشركين ، ولا جدل مع أهل الكتاب في مكة (الزمخشري) ويظهر أيضاً من التشريع فيها ولا تشريع في مكة . ولتوارد الترتيب الثلاثي المعهود (توحيد ، قصص ، حديث البعث) ترى فيها أربع سور ، ولو جمعها نظم واحد وروي واحد .

قيل : فيها من المنسوخ ثلاثة عشر موضعاً ؛ صح منها سبعة ؛ ولا ناسخ فيها .

*

السورة الأولى منها : (١-٤٥) « قل إنما هو إله واحد » .

مطلع : (١) الحمد للخالق الذي فصل الظلمات عن النور.

١- **براهين التوحيد (٢-٢١).**

أ - هو الذي خلقكم من طين، وأرسل السماء مدارراً، وأجرى الأنهار، وأهلك المعرضين عن آياته (٢-٦).

يعترض السياق رد على شبهة أولى: لو أنزلنا عليك كتاباً من السماء بقرطاس لقالوا: سحر مبين^١ (٧).

ثم رد على شبهة ثانية: « وقالوا لولا أنزل عليه ملك - لو أنزلنا ملاكاً لجعلناه رجلاً » (٨-١١).

ب - له ما في السماوات والأرض، وله ما سكن في النهار والليل، وهو يُطعم ولا يُطعم (١٢-١٤).

(١) - في (الإسراء) تحدوه بتنزيل كتاب يقرؤونه ؛ فيجيب هنا (الآية ٧) بأنه لو تمت المعجزة ، لقالوا : ما هذا إلا سحر .

- في الآية ٧ و ٩١ ، يستعمل كلمة قرطاس وقرطيس ، للمرة الوحيدة في القرآن . والكلمة منقولة عن اليونانية (الإتنان) .

- الآية ١٩ « لأنذركم به، ومن بلغ » أي ومن بلغه القرآن ، يحدد مدى التعبير قوله في الآية ٩٢ « وهذا كتاب أنزلناه لتتذر به أم القرى وما حولها » فقد تجاوزت الدعوة مكة إلى القرى المجاورة .

يعترض السياق تصريح عن إسلام محمد: ((أمرت أن أكون أول من أسلم)) من هذه الأمة (١٤ - ١٨).

ج - شهادة الله وأهل الكتاب بالتوحيد^١ (١٩ - ٢١).

٢- حديث الآخرة (٢٢ - ٣٢).

أ - يوم الحشر يحاسبهم على شركهم فيعتذرون: ((والله ربنا ما كنا مشركين^٢)) (٢٢ - ٢٤) - وفيه رد لشبهة ثالثة.

ب - يوم عرّضهم على النار يندمون على قولهم ((ما هذا إلا أساطير الأولين^٣)) (٢٥ - ٢٨) وفيه رد على شبهة رابعة.

ج - يوم لقاء الله في الحساب يكفرون بقولهم: ((إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين)) (٢٩ - ٣٢) وفيه رد على شبهة خامسة.

٣- العبرة بنبي المرسلين في الأمم الغابرين (٣٣ - ٤٤).

أ - لا تحزن لتكذيبهم إياك، فقد كُذِّبت رسل من قبلك جاءك نبؤهم (٣٣ - ٣٤). ثم يذكر سبب حزنه وتكذيبهم له: عجزه عن إرضائهم بمعجزة (٣٥ - ٣٦) مع تعجيزهم المتواصل له بطلب المعجزة ((لولا نزل عليه آية^٤)) (٣٧).

(١) الآية ٢٠ ((الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)) الضمير للقرآن ((وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به)) (١٧) كما يقتضي السياق . فتكون شهادة على صلة القرآن المصدرية بأهل الكتاب . ولذلك قالوا : الضمير للنبي أي يعرف أهل الكتاب صحة نبوة محمد كما يعرفونه صحة نسبة أولادهم إليهم ؛ قال الزمخشري ((وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته)) .

(٢) الآية ٢٢ ((والله ربنا ما كنا مشركين)) هذا قسم في الدين - وأهل الآخرة مُلجئون إلى الصدق - مُلجأون على براءة أهل مكة من الشرك ؛ وهو تمثيل لحالهم في الدنيا، فقد ((كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون)) (٢٤) . وهذا هو جوهر الخلاف بين النبي وأهل مكة : يصممهم بالشرك ، وهم يتبرؤون من الشرك ، ويعتبرونه زلفى إلى الله .

(٣) الآية ٢٦ ((ينهون عنه وينؤن عنه)) قال الجلالان ((نزلت في عمه أبي طالب كان ينهي عن أذاه ولا يؤمن به)) . وفي أسباب النزول : ((نزل في عمومته وكانوا عشرة ، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر)) .

(٤) الآية ٣٤ ((ولقد جاءك من نبي المرسلين)) سقط المُخبر عنه ، كما في الآية ٣٧ ((ولكن أكثرهم لا يعلمون))

استطرد: حشر الحيوان والطير، فهم أمم أمثالكم^١ (٣٨) . ويختم المكذبون هم بكم عمي (٣٩).

ب - متى جاء العذاب أو أتت الساعة حينئذ تدعون الله وحده (٤٠ - ٤١).

ج - فتح الله على الأمم الغابرة، ثم أخذهم بالضرأء، لعلهم يتضرعون إليه فقسفت قلوبهم فهلكوا (٤٢ - ٤٤).

ختام السورة الأولى: ((ففُطع دابر القوم الذين ظلموا ! والحمد لله رب العالمين)) (٤٥).

*

السورة الثانية منها: (٤٦ - ٩٤) ((قل إنني نهيئت أن أعبد الذين تدعون من دون الله)) .

١- حديث التوحيد (٤٦ - ٧٣): الله هو القاهر فوق عباده.

الآية ٣٥ : قال الجلالان ((إن استطعت أن تبتغي سرباً في الأرض أو مصعداً إلى السماء ، فتأتيهم بأية مما اقترحوا : فافعل ! المعنى إنك لا تستطيع ذلك ، فاصبر حتى يحكم الله)) . قال الزمخشري: ((إن استطعت أن تبتغي منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ، أو سلماً في السماء فتأتيهم منها بأية فافعل ! يعني إنك لا تستطيع ذلك . والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بأية من تحت الأرض أو من فوق السماء لآتى بها رجاء إيمانهم)) . (الزمخشري، وكذلك في البيضاوي) . في هذه الآية أبلغ وصف لرغبة النبي البالغة في إجتراف معجزة لهم ، وعن عجزه البالغ عن المعجزة . وهنا يتدخل الوحي ذاته في تعجيز النبي عن عمل معجزة . وهذه الآية ، مع إسراء (٥٩) تضعان حداً نهائياً لعجز محمد المبدئي والفعلي عن المعجزة . هو قضاء من الله ، لا مهرب منه ولو نزل إلى تحت الأرض أو صعد إلى السماء : هنا يُضاف تعجيز الله لمحمد على تعجيز الناس له . وهاتان الأيتان (أنعام ٣٥ وإسراء ٥٩) تفسران المقصود بإعجاز القرآن في سور (الإسراء ويونس وهود) : إنه ليس بمعجزة إلهية ، بل تعجيز لهم عن مثله ، واستشهاد على مطابقتة للكتاب الإمام الذي يفصله لهم . وبعد هذا الموقف القرآني الصريح كيف يمكن قبول الخوارق التي ينسبونها للنبي في السيرة والحديث وأسباب النزول والآثار والاختبار؟؟ وسنجد في آخر السورة موقفاً آخر يؤيد الأول ، وهو فلسفة القرآن بعدم جدوى المعجزة للإيمان : ((كذب بها الأولون)) ثم ((يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها)) (١٥٨) .

الآية ٣٧ ((وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه)) ! هذا هو تمنيه الدائم عليه ، وتحديدهم الدائم له . (١) الآية ٣٨ فيها تعليم مزدوج: إن الحيوانات التي تدب على الأرض أو تطير في السماء هي أمم مثل البشر، وسوف تحشر في يوم الدين للحساب . قال الزمخشري : ((أمم أمثالكم مكتوبة أرزاقها وأجالها وأعمالها كما كتبت أزرأقكم وأجالكم وأعمالكم ما تركنا في اللوح المحفوظ من شيء ، من ذلك ، لم نكتبه ثم (إلى ربهم يحشرون) ، يعني الأمم كلها من الدواب والطير ، فيعوضها وينصف بعضها من بعض ، كما روي أنه يأخذ للجماء من القرناء)) . وحشر الحيوان مثل الإنسان خاص بالقرآن .

أ - لا خلاص من عذاب الله إلا بالإيمان، فلا معجزة عندي ((إن أتبع إلا ما يوحى إلي))
(٤٦ - ٥١).

- يعترض السياق تأديب للنبي ورد شبهة سادسة: لا تطرد فقراء المسلمين لقول
الزعماء: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا! (٥٢-٥٥).

ب - قل إنني نهيتُ أن أعبد شركاءكم، وإنني على بينة من ربي، وما عندي ما تستعجلون
به من المعجزة أو العذاب (٥٦-٦٧) وفيه رد على شبهة سابعة.

يعترض السياق تأديب للنبي: أعرض عن المستهزئين بالقرآن ودينهم^٣ (٦٨-٧٠).

ج - قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا؟ إن هدى الله بالإسلام هو الهدى
(٧١-٧٣).

٢- قصص التوحيد: (٧٤-٩٢): إسلام إبراهيم وذريته.

أ - إسلام إبراهيم بتأمله في ملكوت السماوات والأرض^٤ (٧٤-٧٩) حجة إبراهيم على
قومه (٨٠-٨٣).

(١) الآية ٥٠ صورة أخرى مثل الآية ٣٥ عن عجز النبي عن المعجزة لأنه ليس عنده خزائن الله ولا يعلم

الغيب وليس بملاك : إنه ((يتبع ما يوحى إليه)) لا غير .

(٢) الآية ٥٢ ((ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي)) : تأديب للنبي : ((روي أن رؤساء من
المشركين قالوا لرسول الله ص. : لو طردت هؤلاء الأعد (يعنون فقراء المسلمين وهم عمار وصهيب وبلال
وخباب وسلمان) ورائحة جبابهم، جلسنا إليك وحادثناك)) (الزمخشري) (وأراد النبي ص. ذلك طمعاً في
إسلامهم)) (الجلالان) فنزلت الآية ٦٦ ((لست عليكم بوكيل)) قيل نسختها آية السيف في براءة. قال النحاس :
إنها خبر وليس من نسخ في الخبر .

(٣) الآية ٦٨ ((اعرض عنهم ، ولا تعقد)) تأديب آخر للنبي بعدم مجالسة الذين يخوضون في آيات الله . ورد
الأمر مراراً وكان ((الشيطان ينسبه)) إياه . فنزل ((ولا تقعد مع الظالمين)) : ((وقال المسلمون: إن قمنا كلما
خاضوا ، لم نستطع أن نجلس في المسجد وأن نطوف)) (الجلالان) فنزل للحال تعديل الأمر وتفسيره بأنه ((
ذكرى)) لهم (٦٩) ، ولذا قيل نسخت الآية ٦٩ الآية ٦٨ .

والآية ٧٤ تجعل اسم والد إبراهيم ((أزر)) وهو في التوراة تارح . والقرآن يجعله مشركاً ، بينما
التوراة توحى بأنه كان موحداً لأنه هو الذي هاجر بإبراهيم ولوط إلى حران (تك ١١ : ٣١) .

(٤) الآيات ٧٥-٨٠ مقطع رائع في إسلام إبراهيم . ولكن فيما هذه الآيات تجعل إسلام إبراهيم أمراً طبيعياً من
تأمله بملكوت الله في الطبيعة كما في القصص التلمودي (قابل يوسيفوس : تاريخ اليهود ١ : ٧) ، تجعله
التوراة بدعوة خاصة من الله .

والآية ٨٤ تجعل أيوب من ذرية إبراهيم مثل داود وسليمان ويوسف وموسى . وسلسلة الأنبياء لا ترد
بحسب تسلسلها التاريخي .

ب - إسلام ذرية إبراهيم: ((اجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم: ذلك هدى الله)) (٨٤-٨٨).

ج - ((أولئك الذين آتيناهم الكتاب، أولئك الذين هدى الله ، فبهدهم اقتد)) !

((وهذا كتاب مصدق الذي بين يديه، ولتنذر أمّ القرى وما حولها)) (٨٩-٩٢).

الآية ٩١ من المدينة: رد على شبهة ثامنة ((ما أنزل الله على بشر من شيء)) .

٣- حديث الآخرة (٩٣-٩٤): عذاب الهون وشماتة الله يوم الدين جزاء الظالمين.

أ - افتراء الوحي أظلم الكفر (أول الآية ٩٣) - وفيه ردّ على افتراء مسيلمة، ورد على شبهة ثامنة لهم.

ب - الظالمون يذوقون عذاب الهون في غمرات الموت (كمال الآية ٩٣).

ج - شماتة الله بهم يوم الدين: لقد جنتمونا فرادى ! وما نرى معكم شفعاكم! (٩٤).

*

السورة الثالثة منها: (٩٥-١٣٥): ((وجعلوا لله شركاء: الجن)) .

١- براهين التوحيد (٩٥-١٨٠).

أ - ((يخرج الحي من الميت. فالق الأصباح. أنشأكم من نفس واحدة. أنزل من السماء

ماء فأخرج به نبات كل شيء)) (٩٥-٩٩).

(١) الآية ٩٠ ((أولئك الذين هدى الله فبهدهم اقتد)) ((أولئك)) (٩٠) بدل ((من أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة)) (٨٩) : يجب على محمد أن يقتدي بهدى الكتاب وأهله أي ((الأنبياء المذكورون ومن تابعهم ، فاخص هداهم بالافتداء ، ولا تقتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول)) (الزمخشري والبيضاوي) وهذه الآية تدل على الوحدة القائمة بين محمد وأهل الكتاب ، وبين القرآن وكتاب موسى الإمام .

(٢) الآية ٩١ قد تكون مكية أو مدنية بحسب نسبة القول ((ما أنزل الله على بشر من شيء)) : قال الزمخشري: ((والقائلون هم اليهود . وقيل القائلون قريش)) . وأخرج الطبري عن مجاهد : ((وقيل القائلون قريش)) على قراءة الباء في (يجعلونه) .

والآية ٩٢ ((لتنذر أم القرى وما حولها)) تحصر نزول القرآن ورسالة محمد في مكة وما حولها أي جعلها قومية . وإلى الآن لم تتجاوز الدعوة حدود مكة .

والآية ٩٣ تجعل افتراء الوحي على الله أظلم إثم ، بينما جعله الكهف (٥٥) في الاعراض عن آيات الله ، وتخصه البقرة (١٠٨) في ((من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه)) .

ب - ((وجعلوا لله شركاء الجن ... قد جاءكم بصائر من ربكم!)) (١٠٠ - ١٠٥). في الآية ١٠٥ ((وليقولوا: درست)) : شبهة عاشره يجيب عليها ((لنبينه لقوم يعلمون^٢)) .

ج - ((اتبع ما يوحى إليك، واعرَض عن المشركين)) (١٠٦ - ١٠٨).

٢- جدل في ضرورة المعجزة للإيمان (١٠٩ - ١٢٧).

أ- أقسموا أن يؤمنوا إذا جاءتهم معجزة! - لو أنزل الملائكة وقام الموتى ما كانوا ليؤمنوا^٣! (١٠٩ - ١١٣).

ب - الحكم في الإيمان هو كتاب الله في التوراة والقرآن (١١٤ - ١١٧) وفيه رد على شبهة حادية عشرة^٤.

ج - الجدل في الدين من شياطين الإنس والجن: من يرد الله أن يهديه يشرح صدره

(١) الآية ١٠٠ تصف معنى الشركاء : إما جنّ ، وإما بنين لله وبنات ! على النظرية الأولى يجيب بأن الله خلق الجن فلا تُعبَد معه ! وعلى النظرية الثانية يجيب ((أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة)) ! كل ولادة تنسب إلى الله في القرآن هي جسدية تناسلية ، فلا مجال عنده للولادة المعنوية أو الروحية العقلية .

(٢) الآية ١٠٥ ((وكذلك نصرّف الآيات ، وليقولوا : درست ، ولنبينه لقوم يعلمون)) : فقولهم ((درست)) اعتراض منهم بفسر معنى (نصرّف الآيات) . ولكلمة (درست) عدة قراءات أشهرها ما حفظه الجلالان: ((دارست أي ذاکرت أهل الكتاب ؛ وفي قراءة ، درست ، أي كتبت الماضين ، وجئت بهذا منها)) . والآية والسورة كلها لا تردان على هذه التهمة ، لا بل تؤيدانها : فقوله ((ولنبينه)) يعود الضمير إلى المقدر في (درست) لا إلى الآيات مباشرة ؛ فوحدة المعمول تظهر أن قوله ((لنبينه)) غاية درس الكتاب : درس الكتاب لنبينه للناس . وفي الآية ١١٤ توضيح لما غمض من الآية ١٠٥ . فهو لا يرد على شبهة الدرس بل يؤيدها . والآية ١٠٦ ((اعرض عن المشركين)) نسختها آية السيف .

(٣) في الآية ١١١ ((ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ... ما كانوا ليؤمنوا)) صدى لقول الإنجيل : ((بما أنهم لا يسمعون من موسى ولا من الأنبياء ، فإنهم وإن قام واحد من الأموات ، لا يؤمنون)) (لوقا ١٦ : ٣١) ... بلغ الإحراج ذروته بهذا القسم .

(٤) الآية ١١٤ : شبهتهم أن المعجزة هي الحكم في الإيمان ، فيقول ليست المعجزة ، هي الحكم بل شهادة الله. والدليل أن الله يشهد في القرآن ، هو شهادة أهل الكتاب له بأن القرآن منزل لأنه تفصيل الكتاب ((أنزل إليكم مفصلاً ، والذين أتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)) . ففي هذه الآية تأكيد ضمنى لشبهة الدرس والمدارسة والتدريس والتبيين : ففي الآية ١١٤ شهادة على الوحدة القائمة بين القرآن المكّي والكتاب، وبين محمد والكتابين : القرآن تصريف وتفصيل للكتاب .

للإسلام بدون معجزة^١ (١٢٢- ١٢٧) وفيه رد على شبهة ثانية عشرة. - والآيات (١١٨- ١٢١ أولها) (تشریح مدني^٢ .

٣- حديث الآخرة (١٢٨- ١٤٠): حساب الإنس والجن يوم الحشر.

أ - ((يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ... (١٢٨ - ١٢٩) .

ب - ((يا معشر الأنس والجن ألم يأتيكم رسل منكم^٣ ؟ .. (١٣٠) .

ج - ((إن ما توعدون لآتٍ ... وستعلمون من تكون له عاقبة الدار)) (١٣١- ١٣٥) .

*

السورة الرابعة منها: (١٣٦- ١٥٣): تشريع الحلال والحرام من المآكل (من المدينة).

١- حملة على التحريمات الشركية التي ما أنزل الله بها من سلطان^٤ (١٣٦- ١٤٤) .

(١) الآية ١٢١ ((ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق)) قال النحاس ((فيها أربعة أقوال: الأول إنها منسوخة بقوله : ((وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم)) . ومنهم من قال هي محكمة ، فلا يحل أكل ذبيحتهم إلا أن يذكر اسم الله عليها . والقول الثالث أن تؤكل إذا نسي أن يُسمي . والرابع أن تؤكل مهما سمّي، واحتج بعضهم لهذا القول بأن القاسم سئل عن ذبيحة النصراني هل تؤكل إذا سموا عليها بغير اسم الله ؟ فقال: نعم ولو قالوا عليها اسم جرجس ؛ وهو أيضاً قول عطاء ومكحول : قد علم الله ذلك منهم وأباح ذبائحهم. ونقلوا عن علي بن أبي طالب : إذا سمعت النصراني يقول ((باسم المسيح)) فلا تأكل ، وإذا لم تسمع فكل . وقال آخرون ((ما لم يُذكر اسم الله عليه)) هو الميتة ؛ وما سواها يؤكل . وقال قوم أيضاً : يؤكل ما ذبح النصراني لكنائسهم لأنه من طعامهم الذي أحله الله)) .

(٢) الآية ١٢٤ وإذا جاءتهم آية (مثل آية الإعجاز) قالوا : لن نؤمن حتى تؤتي مثل ما أوتي رسل الله ! - الله أعلم حيث يجعل رسالته)) : إصرار على طلب المعجزة الحسية مثل سنة الأنبياء الأولين، ورفض للمعجزة الإعجاز الخطابية (قابل ١٥٨) .

(٣) الآية ١٣٠ ((يا معشر الأنس والجن : ألم يأتيكم رسل منكم ، يقصون عليكم آياتي ؟)) - هل للجن رسل منهم ينقلون إليهم آيات الله ووحيه ، كما للبشر رسل منهم ؟ وإذا كان الجن ، بنو إبليس الذي فسق عن أمر ربه وهلك ، فهل بعد هو وبنوه أو جنوده قابلون للوحي والخاص بعد ذلك ؟

(٤) الآية ١٤١ ((كلوا من ثمرة إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا)) : أي ((زكاته من العشر أو نصفه ، ولا تسرفوا بإعطائه كله فلا يبقى لعيالكم شيء)) (الجالان) . قال النحاس : ((للصحابة والتابعين الفقهاء فيها خمسة أقوال : قال بعضهم إنها منسوخة بالزكاة المفروضة ، أو بالسنة : العشر أو نصف العشر. وقالوا بل هي الزكاة المفروضة . وقال بعضهم إنها محكمة ويراد بها غير الزكاة ؛ ومنهم من قال هي على الندب . وختم أبو جعفر النحاس : الآية منسوخة لأنه ليس أحد منهم أوجب الزكاة في كل ما ذكر في الآية)) .

- وقد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً ((١٣٦) (١٤٠)).

- تهكّم لاذع على طريقة تحريمهم: ((قلّ الذكر حرّم أم الانثيين)) ؟ (١٤١ - ١٤٤).

٢- تقويم قرآني لتحريم المشركين العرب (١٤٥ - ١٥٠).

- ما حرّم على المسلمين ((الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله)) (١٤٥).

- ما حرّم على اليهود (مقم على السورة): (١٦٦).

- ردّ شبهة للمشركين: ((لو شاء الله ما أشركنا، ولا حرّمنا من شيء)) (١٤٧ - ١٥٠).

٣- التشريع القرآني الأخلاقي (١٥١ - ١٥٣) - هي صيغة أخرى لوصايا الله العشر (الإسراء ٢٣ - ٣٩).

((قلّ تعالوا أتّل ما حرّم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً !
وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله
وإذا قتلتم فاعدلوا ولا تقربوا الفواحش ما ظهر وما بطن وأوفوا الكيل والميزان بالقسط
وإن هذا صراطي مستقيماً وبعهد الله أوفوا وإذا قتلتم فاعدلوا ولا تتبعوا السبل)) .

*

(١) الآية ١٤٥ قال النحاس (في الناسخ والمنسوخ ١٤٢) : ((تحريم الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله ، فيها خمسة أقوال : قالت طائفة هي منسوخة لأنه وجب منها أنه لا محرّم إلا ما فيها ، فلما حرّم النبي الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير ، نسخت هذه الأشياء فيها . (إذن منسوخة بالسنة) . وقالت طائفة الآية محكمة ، ولا حرام من الحيوان إلا ما فيها ، وأحلّوا ما ذكرنا وغيره من الحيوان . وقالت طائفة هي محكمة ، ولا حرام من الحيوان إلا ما فيها ، وأحلّوا ما ذكرنا وغيره من الحيوان . وقالت طائفة هي محكمة وكل ما حرّم رسول الله ص داخل فيها . وقالت طائفة هي محكمة وكل ما حرّم رسول الله ص مضموم إليها داخل في الاستثناء . والقول الخامس هي جواب على سؤال ، وقد حرّم رسول الله غير ما في الآية)) . وهكذا فتشريع الآية من المتشابه . وتحريمات الآية ١٤٥ هي ما ورد في التوراة (سفر الأحبار ١١ : ٤ والثنية ١٤ : ٨ لحم الخنزير ١٤ : ٢١ الميتة ، الأحبار ٣ : ١٧ الدم المسفوح) . والتوراة في تشريعها أكثر تفصيلاً في أنواع المحرمات . وكان تحريم لحم الخنزير شائعاً عند العرب قبل الإسلام . وأباح محمد لحم الجمل للعازة إليه في الجزيرة وكان محرماً على اليهود (قابل تفسير البيضاوي على آل عمران ٨٧) . وأول تشريع أصدره رسل المسيح : ((أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم، والمخنوق، والفحشاء)) (أعمال الرسل ١٥ : ٢٩) . فشريعة القرآن أقرب إلى الإنجيل منها إلى التوراة ولذلك سماها شريعة ((الأمة الوسط)) (بقرة ١٤٣) لأنها وسط بين الشريعة اليهودية والمسيحية (نساء ٢٥).

خواتيم سورة الأنعام (١٥٤- ١٦٤) « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها »

١- مقطع مقحم من المدينة^١: القرآن كتاب منزل مثل التوراة والإنجيل اللذين غفلتم عن دراستهما (١٥٤- ١٥٧).

٢- فلسفة حجب المعجزة عن محمد: « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها^٢ » (١٥٨).

(١) الآية ١٥٤ أطناب في مديح كتاب موسى الذي نزل « تماماً على الذي أحسن، وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة » ولذلك جعله إمامه ، وبه أمر أن يقتدي (٩٠) . فأقحموا عليها تعديلاً لها الآيات (١٥٥ - ١٥٧) ويختلف موقفها عن موقف السورة كلها : في السورة أمة واحدة وتنزيل واحد ، وهنا أمتان وكتابتان ، ولم يأت هذا التمييز إلا في المدينة - وقد نزلت رداً على قولين للعرب : الأول كنا غافلين عن دراسة الطائفتين قبلنا وعن كتابتيهما ؛ وفيه جواب آخر لقولهم للنبي « درست » (١٠٥) أجاب : درسنا الكتاب « لنبيته » للناس ؛ وهنا كأنه يقول : درست لأبين لكم لأنكم غفلتم أنتم عن دراسة كتب الله . والقول الثاني : « لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم » : فقد نزل إليكم الكتاب فاتبعوه .

(٢) الآية ١٥٨ « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيماناً » جواب على قولهم في الآية ١٢٤ « لن نؤمن حتى تأتي مثل ما أوتي رسل الله » . كان محور الجدل في سورة الأنعام على صحة رسالة محمد ، وضرورة المعجزة للإيمان بها عملاً بسنة رسل الله الأولين . فختم الجدل بهذه الفلسفة : لا ينفع الإيمان مع المعجزة ! طلبوا في (الإسراء) تنزيل كتاب عليهم من السماء ، أو ظهور ملاك معه يؤيده ؛ فأجاب في (الأنعام) : لو نزل كتاب مخطوط في قرطاس من السماء لقالوا : سحر مبين ! (٧) ؛ ولو ظهر ملاك « لجعلناه رجلاً » فضاعت معجزة ظهوره (٩) . وأخرجوه بالمعجزة التي يطلبون ، أو بالعذاب الذي يتوعددهم به فقال : ظهورهما سبب بلاءهم ، لعنادهم (٣٧) ، واسترسل في الإقرار عن عجزه عن المعجزة أو تدخّل الوحي لتعجيزه المطلق : لو ابتغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء ، لما استطاع أن يأتيهم بمعجزة (٣٥) لأنه بشر يوحى إليه ، وليس بملاك ، وليس عنده خزائن الله ، ولا يعلم الغيب (٥٠) « واقسموا جهد إيمانهم : لئن جاءتهم آية فيؤمنن بها ! - قل : إنما الآيات عند الله ! وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون ؟ » (١٠٩) ويستدرك ليقول : « وإذا جاءتهم آية (مثل إعجاز القرآن) قالوا : لن نؤمن حتى تأتي مثل ما أوتي رسل الله » من المعجزات الحسية (١٢٤) فيجيب : « ولو أنزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ، ما كانوا ليؤمنوا » ! (١١١) . تجاه رفضهم لمعجزة الإعجاز ، ولعجزه عن معجزة حسية كالأنبياء الأولين ، قال : « الله أعلم حيث يجعل رسالته . فمن يرد الله أن يهديه لشرح صدره للإسلام » بدون معجزة (١٢٤) . وأخيراً بعد أن طال انتظاره وانتظارهم ختم بهذه الفلسفة : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك (كما جرى مع الأنبياء الأولين) : يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها : لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها » (١٥٨) فلا ينفع الإيمان مع المعجزة !!! هذا الموقف الأخير يحدّد معنى ومدى معجزة الإعجاز في السورة السابقة (الإسراء ، يونس ، هود) ومعنى كل معجزة ينسبونها إلى النبي في القرآن والحديث والسيرة : لا ينفع الإيمان مع المعجزة . والكتاب كله ، مع كل الأنبياء ، يسند صحة الرسول وصحة دعوته إلى معجزة إلهية حسية يراها ويلمسها الشعب ليؤمن أنها من الله .

٣- ((إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ! قل إنني هداني ربي...
ملة إبراهيم حنيفاً)) (١٥٥- ١٦٢).

٤- أخيراً ((قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين! بذلك أمرت وأنا
أول المسلمين)) (١٦٣- ١٦٥).

*

* *

(٣) الآيات ١٥٥ - ١٦٢ يميل المفسرون إلى أنها تقصد أهل الكتاب ، وينقلون الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن : ((افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية ؛ وافتترقت النصرى اثنتين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة ؛ وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة)) ! (الزمخشري) . هال بعضهم أن يكون أكثر المسلمين مثل غيرهم في الهاوية فأخرجوا القراءة على هذه الصورة ((فارقوا)) أي تركوا دينهم ، والحديث على هذه الرواية للترمذي : ((افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة ، وهي الناجية ؛ وافتترقت النصرى لثنتين وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة . قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي)) وأخرجه ابن حبان والحاكم ورواه الطبراني ((حاشية على الزمخشري) . بحسب هذه الصيغة الأخيرة يكون الإسلام فرقة كتابية مثل اليهود والنصارى ، لا ملة مستقلة قائمة بذاتها ، وهي الناجية دونهم جميعاً .

وقال بعضهم الآية ١٥٥ تقصد كل البدع ، وخصه بعضهم بالخوارج .
ونميل نحن إلى أن الآية ١٥٥ تقصد المشركين وحدهم لقوله ((لست منهم في شيء)) لأنه لا يمكن أن يتبرأ من الكتابيين ، ولا من فرق المسلمين في كل شيء . وسورة الأنعام شاهد عدل : لأنه بهدى الكتاب وأهله يجب أن يقتدي (٩٠) فالكتاب ((إمامه)) الذي جاء ((تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء)) (١٥٤) . وعليه تكوين الهداية في الآية ١٦١ - ١٦٢ إلى ((ملة إبراهيم)) الكتابية كما توحيه كل سورة الأنعام ، لا الحنيفية التي كان عليها قبل البعثة ، ولا حنيفية ((الأمة الوسط)) (بقرة ١٤٣) التي سيكون عليها في المدينة .
والآية ١٥٥ ((لست منهم في شيء)) نسختها آية السيف .

وهكذا تكون الشهادة الكبرى للنبي ، في الأنعام والقرآن المكي كله ، لا المعجزة ، أو الإعجاز ، بل استشهاده بأهل الكتاب وشهادتهم له بمطابقة القرآن للكتاب الإمام في الملة : ((إن أمتكم هذه أمة واحدة)) (أنبياء ٩٢) وفي الهدى ((أولئك الذين هدى الله فيبدهم أقتد)) (أنعام ٩٠) . فالقرآن ((كتاب مبارك مصدق الذي بين يديه)) (٩٢) . وإذا اتهموه بدرس الكتاب الذي بين يديه ((وليقولوا : درست)) (١٠٥) يؤكد أنه درس ((لنبينه لقوم يعلمون)) للذين ((غفلوا عن دراسته)) (٨٦) . فالقرآن هو الكتاب نفسه نزل إليهم مفصلاً كما يشهد بذلك ويؤمن به أهل الكتاب : ((أغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين أتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)) : فشهادتهم ، بعد شهادة الله ، تكفيه (١١٤) لذلك يتبرأ في الختام من شيع المشركين ، وينضم إلى ((ملة إبراهيم)) وكتابه ((الإمام)) ويفصله للعرب ويصرف آياته لهم . وهذا هو الصراط المستقيم أو الدين القيم في مكة (١٦٢) الذي هدى الله إليه إبراهيم وسائر الأنبياء ((وذرياتهم وأخوانهم : اجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ! ذلك هدى الله ، يهدي به من يشاء من عباده)) (٨٧ - ٨٨)
وإليه اهتدى محمد (١٦١ - ١٦٢) .

السادسة والخمسون: الصافات (٣٧) أخلاص المرسلين لرب العالمين.

فذلكة: السورة من سورتين مختلفتين بالنظم والروي: الأول في العهد الأول، بقسمها الاستفتاحي (والصافات صفاً)؛ والثانية من هذا العهد، يرد فيها حديث شجرة الزقوم (٦٢) كما في الإسراء (٦٠) وتمنيهم ذكراً مثل الأولين (١٦٨) كما في سورة الأنعام (١٥٧). وإنما أقحموا السورة الأولى على الثانية لذكر الصافات (١) والصافين (١٦٥) فيهما. والسورة الثانية هي أيضاً من سورتين متداخلتين: الأولى ينتهي تعليمها وقصصها وخاتمتها بلازمة ((إلا عباد الله المخلصين)) . والثانية بلازمة أخرى ((إنا كذلك نجزي المحسنين: إنه من عبادنا المؤمنين))، لذلك أترنا تمييزها من دون اتباع النسق الحالي.

قيل: لا ناسخ في السورة، وفيها من المنسوخ موضعان صح منهما الآية ١٠٢.

*

السورة الأولى منها: من العهد الأول (١-١١) ((إن إلهكم لوحد)) .

١- توحيد (١-٦): الملائكة تشهد والخليفة تشهد أن إلهكم لوحد .

٢- قصص الشيطان المارد الذي خطف حديث السماء (٧-١٠).

ختام (١١) فاستفتهم أهم أشد خلقاً من الملائكة والجن حتى ينكروا التوحيد الذي آمن به أولئك؟ إنهم طين.

*

السورة الثانية منها: (١٢-٧٤ ثم ١٣٣-١٦٠) ((عباد الله المخلصين)) .

١- حديث الآخرة (١٢-٦٧).

- ليس البعث سحراً، ولا التوحيد شعراً: إنكم لذائقو العذاب الأليم إلا عباد الله المخلصين (١٢-٤٠).

(١) في السورة الأولى الملائكة ((الصافات)) (١) إناث؛ وفي السورة الثانية الملائكة ((الصافون)) (١٦٥) المسبحون ذكور، كما يظهر من صيغة الجمع. ثم لما حمل على جعل الملائكة إناثاً (١٥٠-١٥٣) أبان أن الصافات هم الصافون.

الآية ١٩ ((إنما هي زجرة واحدة)) وفي ص ١٥ والصاخرة ٣٣ والقارعة ١ - ٢ ((صحية واحدة)) وهي صوت البوق في القيامة (أنعام ٧٣) الذي يتبعه زلزلة الأرض (سورة الزلزلة). قابل في العهد الجديد سفر الرؤيا (٦: ١٣) والرسالة الثانية إلى تسالونيكيا (٤: ١٦).

- جنات النعيم هي الفوز العظيم لعباد الله المخلصين^١ (٤١-٤٧).

٢- قصص التوحيد (١٣٣ - ١٤٨): قصة لوط (١٣٣ - ١٣٨) وقصة يونس (١٣٩ - ١٤٨).

٣ - حديث التوحيد (١٤٩ - ١٦٠) بحسن تلخيص: ((فاستفتهم: أربك البنات ولهم البنون؟ (١٤٩-١٥٠).

((ألا أنهم من افكهم ليقولون: ولد الله! ... أصطفى البنات على البنين)) ؟ (١٦١) - (١٥٥).

((أم لكم سلطان مبين: فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين^٢ (١٥٧ - ١٥٨).

ويختتم حديث التوحيد باللازمة: ((سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين)) (١٥٩-١٦٠).

خاتمة السورة الثانية (١٦١) كفروا بالذكر الذي تمنوه، إلا عباد الله المخلصين.

*

السورة الثالثة منها: (٧٥ - ١٣٢ مع ١٧١ - ١٨٣) ((إنه من عبادنا المؤمنين)) .

١- خلاص نوح من الكرب العظيم (٧٥ - ٨٢) ((إنا كذلك نجزي المحسنين: إنه من عبادنا المؤمنين)) .

٢- خلاص إبراهيم من قومه^٢ (٨٣ - ٩٨) ومن محنة ذبح ابنه^٤ (٩٩ - ١١١): ((كذلك نجزي المحسنين: إنه من عبادنا المؤمنين)) .

(١) حديث شجرة الزقوم (٦٢ - ٦٧) استطراد ، لأن حديث النار مضى في المقطع الأول ، (١٢ - ٤٠٠) وهو في سبيل وصف نعيم عباد الله المخلصين . وهو رد على أبي جهل ، مقحم هنا ، قال : ((زعم صاحبكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ؛ وأنا ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد)) (السيوطي : أسباب النزول) فأجاب ((إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم)) (٦٤) . فاتعظ الناس بها فقال إنها ((فتنة)) (صافات ٦٣ إسرائ ٦٠) .
(٢) الآية ١٥٧ ((أم لكم سلطان مبين (على أن الملائكة إناث وبنات الله ، وقد ولد الله) : فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين)) : ألا يعني هذا التحدي انه هو ، عنده كتاب له فيه سلطان مبين على التوحيد ؟ - وهذا الكتاب ، ليس هو القرآن ، فلم يُجمع بعد ، بل هو كتاب موسى الإمام الذي يستشهد به دائماً .
(٣) الآيات ٨٣ - ٩٩ إبراهيم يحطم أصنام أبيه : لم ترد القصة في التوراة ، وجاءت في القصص التلمودي (مدراش رباح على التكوين ٣٨ : ١٩) .
(٤) الآية ١٠١ - ١١٢ يظهر أن الذبيح غير إسحاق ، والتوراة تنص بصراحة ما بعدها صراحة على أنَّ الذبيح كان إسحاق : ((خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق فأصعده محرقة)) (تكوين ٢٢ : ٢) .

الآيتان (١١٣- ١١٤) مزيدتان مقحمتان بعد اللازمة.

٣- خلاص موسى وهارون وقومهما من الكرب العظيم (١١٥- ١٢٢): «إنا كذلك نجزي المحسنين: إنه من عبادنا المؤمنين» .

٤- خلاص الياس من عبادة بعل (١٢٣- ١٣٢): «إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين» .

ختام (١٧١- ١٨٣): عباد الله المرسلون هم المنصورون: فتولّ عنهم إلى حين فسوف يبصرون! يستعجلون العذاب، سيحل بهم: فتولّ عنهم إلى حين، فسوف يبصرون!

*

* *

السورة السابعة والخمسون: لقمان (٣١) «العروة الوثقى: إسلام الوجه لله» .

فذلكة : هذه السورة شاهد آخر على قيام التوحيد العربي قبل القرآن في أفراد وفئات . والسورة فيها سورتان تختلفان نظماً وروياً . والثانية ، سورة لقمان ، فيها قسمان ، الأول وصية لقمان بالتوحيد لابنه ، والثاني استطراد في براهين التوحيد ، على ضوء الكتاب المنير .

قبل لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ موضع ، لم يصح .

*

السورة الأولى منها: (١- ١١): حكمة القرآن: ماذا خلق الشركاء؟

مطلع: (١- ٥) المحسنون، أهل الصلاة والزكاة والإيمان بالآخرة.

١- خبر (٦- ٧) من الناس من يشتري لهو الحديث ويولّي عن آيات الله مستكبراً.

٢- حديث الآخرة (٨- ٩) وعد الله بجنات النعيم للمؤمنين المحسنين.

٣- براهين التوحيد (١٠): السماء بغير عمد، رواسي الأرض تمنعها أن تميد، الحيوان، الماء، والنبات^١.

ختام (١١): هذا خلق الله: فأروني ماذا خلق الذين من دونه.

*

(١) الآيات ١٧١ - ١٧٤ و ١٧٥ - ١٧٩ مقطعان بلازمة واحدة: «قول عنهم حتى حين ، وأبصرهم ! فسوف يبصرون» .

ثم أليس في التولي عنهم إلى حين دعوة وإشارة إلى الهجرة القادمة إلى الطائف ؟
(٢) الآية ١٠ « وألقى في الأرض رواسي ، أن تميدَ بكم » : الجبال تمنع الأرض أن تتحرك وتقلب بما عليها (؟) . في الأنبياء ٣٢ « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً » وهنا يصفها بأنها « بغير عمد » .

السورة الثانية منها: سورة لقمان (١٢ - ٣٤) ((إن الشرك لظلم عظيم)) .

١- حكمة لقمان (١٢ - ١٩): وصية لقمان لابنه في سبع وصايا^١ (١٢ - ١٩). تقطعها الآيتان ١٤ - ١٥ طاعة الوالدين واجبة، ولكن لا طاعة لهما في معصية الله.

٢- توحيد: حكمة الكتاب المنير: العروة الوثقى هي إسلام الوجه لله (٢٠ - ٣٣). من يجادل في الله يجب أن يجادل بحسب الكتاب المنير^٢ (٢٠ - ٢٤).

يقرون بأن الله هو الخالق؛ أجل وهو الغني الحميد (٢٥ - ٢٨) - الآية ٢٧ مقحمة على السياق.

الله يدير الكون، وهو العليُّ الكبير (٢٩ - ٣٠).

معجزة الفلك في البحر: في حال الغرق يخلصون الدين لله (٣١ - ٣٢).

٣- حديث الآخرة: اخشوا يوم الله ، إن وعد الله حق (٣٣).

ختم السورة (٣٤): مفاتيح الغيب الخمسة بيد الله العليم الخبير.

*

الثامنة والخمسون: سبأ (٣٤) ((إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله)) .

فذلكة: كان استفتاح السور (من ٤٧- ٥٧) بمثل قوله ((تلك آيات الكتاب الحكيم)) فجاء في هذه بالحمد لله . والسورة في أولها وآخرها بروي واحد متقارب ، تقطعها سورة أخرى بروي آخر (٢٤ - ٤٤) .

قيل : لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ موضع ، ولم يصح .

*

(١) لقمان من حكماء العرب الموحدين قبل القرآن . وهذا الفصل من القرآن شاهد عدل على وجود التوحيد القرآني بين العرب قبل القرآن بشهادة القرآن ؛ وحكمة لقمان في القرآن قريبة من حكمة أحيقار في العبرية والعربية والأرمنية . ومنهم من يقول بأن لقمان أجنبي : ((من لقمان هذا ؟ ما هويته ؟ وما قومه ؟ وأية مدينة تمثلها حكمته ؟ وفي أي عصر كان ؟ - لم يصل العلم إلى تحقيق ذلك بعد ، وقد اضطربت الأقوال فيه اضطراباً كبيراً . وبيروي بعضهم حديثاً عن النبي ص.)) سادة السودان أربعة : لقمان والنجاشي وبلال ومهجع . وعلى كل حال فالذي نستنتجه من هذا أنهم مجمعون على أنه ليس عربياً ، وأنه أدخل على العرب حكمة أمة أخرى ((أحمد أمين : فجر الإسلام ٦٣) ولكنه استعرب وعرب التوحيد معه .

(٢) الآية ٢٠ ((من الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)) : الكتاب المنير هو الكتاب المقدس ، وفيه العلم والهدى اللذين بهما يجادل النبي المشركين ، وفيه أيضاً أن إسلام الوجه لله (وهذا تحديد الإسلام) هو العروة الوثقى .

السورة الأولى منها: (١- ٢١ ثم ٤٤ - ٥٤) أهل الشكر، وأهل الكفر.

مطلع (١): الحمد لله في الأولى وفي الآخرة.

١- توحيد (٢- ٩) الله يعلم ما في الأرض وما في السماء (٣).

رد على اعتراض أول:

((قالوا: لا تأتينا الساعة - قل بلى وربى لتأتينكم: علمها في كتاب مبين (٣- ٥).

الآية (٦) تعترض السياق: ((ويرى الذين أتوا العلم، الذي أوتي من ربك هو الحق)).

رد على اعتراض ثان: ((هل ندلكم على رجل ينبئكم، إذا مَرَّقتم كل ممرَّق، إنكم في

خلق جديد - إنهم في ضلال بعيد: تصرَّف الله في الخليقة دليل على قدرته على خلق جديد بالقيامة (٧- ٩).

٢- قصص (١٠- ٢١):

أهل الشكر: غرائب أحوال وحكم داود وسليمان: ((اعملوا آل داود شكراً)) (١٠- ١٤).

أهل الكفر: سبأ اعرضوا عن شكر الله وكفروا فأرسل عليهم سيل العرم^٣ (١٥- ٢١).

ختام السورة الأولى (٤٤- ٥٤): ((إن هو إلا نذير بين يدي عذاب شديد)) !

(١) الآية ٦ فيها شهادة أهل الكتاب ، الذين أتوا العلم المنزل ، للقرآن والنبى .
(٢) هذه الغرائب في حكم داود وسليمان تجهلها التوراة ، ولها أمثالها في القصص التلمودي : قابل ترجوم شاني الأرامي على شعر استير : ((وقد سخر الله لسليمان ملك العالم من أقصاه إلى أقصاه ؛ وكشف له الغيب والأسرار ؛ وأعطاه فهماً وحكمة وعلم الأوائل ؛ وسخر له الشياطين ، وجميع الحيوانات ؛ وكانت الجن تعمل بين يديه . وفي مدراش بمدبَّار رباح (١٤) : ((قال رابي يهوذا عن رابي يوسف : جميع العالمين كانت تعمل بين يدي سليمان حتى الجن والشياطين والملائكة)) . وفي كتاب (وصية سليمان) من أصل مسيحي (Patr. Or 122 p. 1315) يظهر أن سر قدرة سليمان في ((خاتم سليمان)) السحري الذي دفعه إليه بعل زبول رئيس الشياطين ، وكان عليه ((الاسم الأعظم)) الذي إذا دُعي به الله أجاب (قابل تفسير الجالين) .
(٣) الآية ١٦ سيل العرم ((جمع عرمة وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره أي سيل واديهم الممسوك بما ذكر)) (الجالان) ويظهر أن الكلمة حميرية . كان الحادث الأول سنة ٤٥٠ والثاني ٥٤٠ ورمَّ ترميماً ضعيفاً سنة ٥٤٢ كما وصفه القرآن في الآية .

((وما آتيناهم من كتب يدرسونها^١: قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله^٢)) (٤٤ - ٤٦).

((قل ما سألتكم عليه من أجر! قل إن ربي بالحق! قل جاء الحق! قل ضلالي على نفسي!)) (٤٧ - ٥٤).

*

السورة الثانية منها: (٢٣ - ٤٤) مقحمة عليها بروي مختلف: ((الله هو العليّ الكبير)).

١- توحيد (٢٣ - ٢٨) الله هو العليّ الكبير، والعزیز الحكيم: قل أروني الذين ألحقتهم به شركاء^٣!

٢- حديث الآخرة (٢٩).

((ويقولون: متى هذا الوعد؟ - لكم ميعاد يوم يتبرأ فيه المستكبرون من المستضعفين^٤)) (٢٩ - ٣٤).

((وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً - وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى)) (٣٥ - ٣٩).

الملائكة يتبرؤون يوم الدين من الذين عبدوهم (٤٠ - ٤٣).

ختام (٤٣): ((هذا رجل حنيف عن دين الآباء! وقوله إفك مفترى! إن هذا إلا سحر مبين))!

*

* *

(١) الآية ٤٤ ((وما آتيناهم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير)) : ألا يعني هذا التعريض أنه هو عنده كتب يدرسها ، وبها هو نذير إليهم ؟ قابل جوابه على قولهم ((وليقولوا : درست)) (أنعام) .
(٢) الآية ٤٦ ((إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله)) : محور القرآن المكي وجوهه ((واحدة)) : ((إنما يوحى إلي إنما إليهم واحد)) . وإلى الآن لا يتخذ النبي سوى صفة ((نذير)) لا يقول بعد ((نبي أو رسول)) .
(٣) الآية ٢٨ ((وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)) في التركيب تقديم وتأخير ، وأصلها ((وما أرسلناك إلا بشيراً ونذيراً للناس كافة)) وهو حال من الناس قدم للاهتمام (الجلالان) . والتعبير القرآني ((الناس)) قد يعني الفرد ((يحسدون الناس أي النبي)) والمجموع القليل والكثير : فهو بحد ذاته غامض لا يُبنى عليه مدى رسالة النبي . وآيات هذا العهد صريحة بأنه أرسل ((لأم القرى وما حولها)) نذيراً ؛ ولا يتخذ إلا هذا اللقب .
(٤) الآية ٣١ ((وقال الذين كفروا : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه)) : كفرهم بالقرآن والكتاب معاً دلالة على انتساب النبي في قرآنه إلى الكتاب .

التاسعة والخمسون: الزمر (٣٩) «ألا لله الدين الخالص» .

فذلكة : في هذه السورة ذروة مع المشركين في التعبير : يحدّد المشركون موقفهم بقولهم : «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» والزلفى بمخلوق إلى الخالق ليست شركاً ! فيجيب : «ألا لله الدين الخالص (٢ و ١١ و ١٣) . والسورة فيها دخيل كثير كما يوحي به اختلاف الروي ؛ ومن تكرار المواضيع والبراهين والمواقف يُقسم مجموعها إلى سورتين : الأصلية بروي النون ، وهي الثانية في النسق ومطلعها في الاستفتاح ؛ والثانية بروي الرء أو ما يقاربه . تلاحظ خلو سورة الزمر من القصص ، ميزة العهد الثاني ، وظهور المثل فيها (٢٤ - ٢٥) وهو ظاهرة العهد الأخير بمكة .

قيل لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ أربعة مواضع ؛ وقيل لا يصح منها واحد .

*

السورة الأولى منها: - مقحمة - (٤ - ٢٤) «هو الله الواحد القهار» .

مطلع (٤): «سبحانه هو الواحد القهار» . الآيات (١ - ٣) مطلع الثانية.

١- براهين التوحيد (٥ - ١٣) خلق الكون والإنسان.

- تعاقب الليل والنهار، خلقهم في ظلمات ثلاث: فاشكروه بالإسلام (٥ - ٧).

- برهان خبرتهم: في الضيق يخلصون له الدين؛ فهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٨ - ٩) قل إنني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين^١ (١١ - ١٣).

٢- حديث الآخرة (١٤ - ٢٠): ظلل النار، وغرف الجنة.

- يوم القيامة الخسران المبين للمشركين: لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل (١٤ - ١٦).

(١) الآية ٩ «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» : يفهمون عادة الآية بمعناها اللغوي ، والعلم ومشتقاته في القرآن لها معنى اصطلاحي : العلم المنزل في الكتاب ، فأهل العلم ، والذين يعلمون هم أهل الكتاب ، ومن وافقهم في الإسلام كما في هذه الآية .

والآية (١٠) «وأرض الله واسعة» : دعوة إلى الهجرة «فهاجروا إليها من الكفار» (الجلالان) . والآيات ١١ - ١٣ روّيها يوحى بأنها من السورة الثانية وهي مقحمة هنا .

- يوم القيامة البشرى للمتقين: لهم غرف من فوقها غرف مبنية^١ (١٧- ٢٠) .

ختام : من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، بأحسن الحديث^٢ (٢٢)
- (٢٣).

*

السورة الثانية منها :- الأصلية - (١ - ٣ ثم ٢٤ - ٧٥) : الإخلاص في الدين.

مطلع (١ - ٣) : ألا لله الدين الخالص. وفيه رد على مقالة أولى ((ما نعبدهم ألا ليقربونا إلى الله زلفى)) .

١- جدال على التوحيد (٢٤- ٦٧).

- ((ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ... قرآناً غير ذي عوج)) (٢٤- ٢٩).

- إنك ميت وانهم ميتون، ويوم القيامة تختصمون على صدق الإسلام وكذب الشرك
- (٣٠- ٣٥).

- ((ويخوفونك بالذين من دونه: أليس الله بكاف عبده)) (٣٦- ٤٢) - وفيه رد على مقالة
ثانية.

- ((أم اتخذوا من دون الله شفعاء ... قل لله الشفاعة جميعاً ...)) الله يبسط الرزق لمن
يشاء، ويقدر (((٤٣- ٥١) - وفيه رد على مقالة **ثالثة** لهم^٣ .

- دعوة من **المدينة** إلى الذين أسرفوا في الشرك وجهالاته أو ارتدوا عن الإسلام^٤ (٥٢)
- (٦١).

(١) الآية ٢١ ((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء)) مقحمة على السياق تقطعه ولا تتسجم معه .
(٢) الآية ٢٣ ((الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً)) يشبه بعضه بعضاً أو كله من المتشابه ، وفي هود ((
كتاب أحكمت آياته)) فكله محكم . وفي آل عمران (٧) يأتي القول الفصل ((منه آيات محكمات هن أم الكتاب
وأخر متشابهات)) (الإتيان ٢ : ١) . ثم في الزمر يصف القرآن نفسه أنه ((أحسن الحديث)) وفي سورة
يوسف أنه ((أحسن القصص)) : فهو قصص وحديث عن الوحي .

(٣) الآية ٤٥ ((وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)) إشارة **ثالثة** إلى حديث الغرائيق في سورة النجم:
جاء في أسباب النزول للسيوطي : ((أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنها نزلت في قراءة النبي ص. النجم عند
الكعبة وفرحهم عند ذكر الألهة)) .

(٤) الآية ٥٣ ((قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم)) جاء في (أسباب النزول) للسيوطي عن ابن عباس:
((بعث رسول الله ص إلى وحشي قاتل حمزة يدعو إلى الإسلام . فأرسل إليه : كيف تدعوني وأنت

- ((الله خالق كل شيء: أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)) ؟ (٦٢- ٦٧).
- ٢- حديث الآخرة (٦٨- ٧٤): زمر إلى الجنة وزمر إلى النار.
- بعد نفخة الصعق ونفخة القيامة يأتي الحساب (٦٨).
- يوضع كتاب الأعمال للحساب: حساب النبيين والشهداء ثم حساب كل نفس (٦٩) (٧٠).
- ((وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً)) (٧١- ٧٢).
- ((وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً)) (٧٣- ٧٤).
- ختم (٧٥):** الملائكة يسبحون بحمد ربهم: الحمد لله رب العالمين.



تزعّم أن من قتل أو زنى أو أشرك يضاعف له العذاب وأنا صنعتُ ذلك ! فهل تجد لي من رخصة ؟ فأنزل الله ((إلا من تاب وأمن وعمل صالحاً)) . فقال وحشي : هذا شرط شديد ! فأنزل الله (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشأ) فقال وحشي : هذا ، أرى بعد مشيئة ، فلا أدري أيغفر لي أم لا ، فهل غير هذا ؟ فأنزل الله (يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) . قال وحشي : هذا نعم ! فأسلم)) . وقيل نزلت دعوة للمرتدين عن الإسلام .

البحث الثالث:

((الحواميم))

ينتهي العهد الثاني بمكة بمجموعة من سبع سور، متتابعة في النسق الحالي وفي الترتيب التاريخي، تسمى ((الحواميم)) لأنها تستفتح، في كل سورة منها بحرفين من حروف المعجم ((ح م)) ، قال عنها الجلالان: ((والله أعلم بمراده به)) .

*
* *

السورة الستون: حَمَّ غافر - أو المؤمن - (٤٠) ((فادعوا الله مخلصين له الدين)) .

فذلكة: سورة من سورتين ، كل واحدة بروي مختلف ، متقارب في كل منهما ، وقد امتزج المطلعان. وفي السورة دعوتان للنظر في عاقبة المكذبين (٢١ و ٨٢) .

وقيل فيها من الناسخ موضع ، ومن المنسوخ موضعان ؛ وقيل لم يصح من ذلك شيء .

السورة الأولى منها: (١ - ٦ ثم ١٥ - ٥٦): ((لمن الملك اليوم؟ - الله الواحد القهار)) .

مطلع (١ - ٦): لا إله إلا هو إليه المصير: جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق)) .

١- براهين التوحيد (١٥ - ٢٠) الله وحده مَلِكُ يوم الدين.

يوم التلاق الملك لله الواحد القَهَّار (١٥- ١٧).

يوم الأزفة الله يقضي بالحق والذين من دونه لا يقضون بشيء (١٨- ٢٠).

٢- قصص التوحيد (٢١ - ٤٥). قصة مؤمن من آل فرعون.

مطلعها: أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المكذبين (٢١ - ٢٢). ولقد أرسلنا موسى إلى فرعون وهامان وقارون^١. فقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه: أتقتلون رجلاً أن يقول ((ربي الله)) (٢٣ - ٤٦).

(١) الآية ٢٣ ((وأرسلنا موسى إلى فرعون وهامان وقارون)) - هنا يظهر أن قارون من قوم فرعون ، وهو في القصص (٤٦) من قوم موسى ، قابل في التوراة سفر الأعداد (٢٦) . وهامان في التوراة وزير أحشوروش في العراق (قابل سفر استير كله) .

(٢) الآية ٢٨ فيها تعريض بحال النبي من قريش الذين يأترون لقتل النبي أن يقول ((ربي الله)) .

- ٣- حديث الآخرة (٤٦ - ٥٢) محاجة المستضعفين والمستكبرين في النار.
ختم (٥٣ - ٥٦) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب^١ (٥٣ - ٥٤).
فاصبر واستغفر لذنبك^٢ وسبح بحمد ربك (٥٥).
إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، هم مستكبرون (٥٦).

*

السورة الثانية منها: (٧ - ١٤ ثم ٥٧ - ٨٥) ((فادعوا الله مخلصين له الدين)) .

مطلع (٧ - ١٤) حملة العرش يستغفرون للمؤمنين (٧ - ٩)

وينادون شامتين بالهالكين (١٠ - ١٤).

١ - براهين التوحيد (٥٧ - ٦٩): الله خالق الأكوان والإنسان.

خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس فادعوه مخلصين له الدين^٣ (٥٧ - ٦٥).

هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة، وهو يحيي ويميت (٦٦ - ٦٩).

٢ - حديث الآخرة (٧٠ - ٧٧) الذين كذبوا بالكتاب عاقبتهم الهلاك .

٢ - قصص التوحيد بالإشارة (٧٨ - ٨٥) من الرسل من قصصنا عليك ومنهم من لم

نقصص عليك: وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله^٤ (٧٨ - ٨١) أفلم يسيروا في الأرض

فينظروا عاقبة المكذابين (٨٢ - ٨٥).

ختم (٨٥) تلك العاقبة سنة الله في الكافرين من خلقه.

*

* *

الآية (٣٠ - ٣١) يذكر المؤمن المصري لفرعون مثل نوح وعاد وحمود : فهل قصص عاد وحمود قبل ذلك الفرعون أم بعده ؟

(١) الآية ٥٣ بنو إسرائيل هم ورثة الكتاب الذي هو هدى وذكرى لأولي الألباب ، به يجادل النبي بسلطان ، لا كالمشركين الذين لا كتاب لهم . هذه الآيات دليل آخر على أننا لم نزل في العهد الإسرائيلي من القرآن .

(٢) الآية ٥٥ ((واستغفر لذنبك)) أي ذنب؟ عصمة الأنبياء من الخطأ في البلاغ ، لا من الخطيئة والذنوب .

(٣) الآية ٦٠ ((وقال ربكم : ادعوني أستجب لكم)) - آية وحيدة في القرآن - قابل إنجيل متى ٧ : ٧ .

(٤) الآية ٧٨ ((وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله)) : مواصلة الاعتذار على عجزه عن معجزة لم يأذن بها الله .. ((وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون)) (إسراء) .

الحادية والستون : حم فصلت (السجدة) (٤١) ((إنما إلهكم إله واحد: فاستقيموا له)) .

فذلكة : سورة من سورتين ، كل منهما بروي مختلف ، وأقسام متكاملة .
قيل : لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ موضع ، وقيل لم يصح من ذلك شي .

*

السورة الأولى منها : (١ - ٣٨) ((كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً)) .

مطلع (١ - ٨) ((كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً: يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد^١)) .

١- توحيد (٩ - ١٢) تفصيل الخليفة في ثمانية أيام^٢ .

٢- قصص عاد و ثمود (١٣ - ١٨) بادت عاد بريح صرصر ، و ثمود بصاعقة لكفرهم .

٣- حديث الآخرة (١٩ - ٣٢) .

عاقبة الكافرين: حواسم تشهد عليهم (١٩ - ٢٩) .

الآيات ٢٦ - ٢٨ مقحمة تعترض السياق .

عاقبة المؤمنين: ولاية الملائكة لهم في الدنيا والآخرة (٣٠ - ٣٢) .

ختام (٣٣ - ٣٦) ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله: ادفع السيئة بالتي هي أحسن^٣
واستعد بالله من نزع الشيطان .

والآيتان (٣٧ - ٣٨) من براهين التوحيد وردت متأخرة في النسق سهواً .

(١) الآية ٣ و ٦ من (فصلت) تجعل القرآن تفصيلاً عربياً للكتاب الإمام ، وهذا التفصيل يقتصر على التوحيد ، وفي قوله : ((إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ)) فيه اعتذار عن المعجزة لتثبيت الوحي والتفصيل العربي للكتاب . وهذا المطلع كله يدل على وحدة الكتاب ووحدة الدعوة .

(٢) سورة (فصلت) تشذ عن سائر القرآن في تفصيل الخليفة : تقول أولاً بتفصيل الأرض برواسيها قبل تفصيل السماء (٩ و ١١) وهو يقول في سورة (النازعات) : أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ورفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها)) . وتفصل ثانياً أيام الخليفة بأنها ثمانية بينما هي ستة في سائر السور (أعراف ٥٢ يونس ٢ هود ٩ فرقان ٦ سجدة ٤ ق ٣٨ حديد ٤) . ثالثاً كيف يتم تنظيم الأرض برواسيها وأوقاتها وتبقى السماء ((وهي دخان)) ؟ (١١) رابعاً كيف اقتضى تنظيم الأرض أربعة أيام ، سواءً للسانين ، بينما ((فضاهن سبع سماوات في يومين)) ؟ خامساً هل النجوم في السماء الدنيا ((وزينا السماء الدنيا بمصابيح)) (أي نجوم : الجلالان) أم في سماء فوق الدنيا ؟ أخيراً الخطاب كله بصيغة الغيبة ، فما وجه الالتفات إلى المتكلم في ختام الحديث بقوله ((وزينا)) ؟

(٣) الآية ٣٤ ((ادفع بالتي هي أحسن السيئة ...)) أفضل تفصيل لمعاني آية الإنجيل : ((من ضربك على خدك الأيمن فحول له الآخر ... لا تتغلب للشر بل أغلب الشر بالخير)) .

السورة الثانية منها: (٣٩- ٥٤) « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

١- برهان البعث (٣٩- ٤٠) إن الذي أحيى الأرض بالماء يحيى الموتى.

٢- جدل في القرآن (٤١ - ٤٦) كفروا بالذكر، وهو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل (٤١-٤٣) وقد اختلفوا في كتاب موسى كما يختلفون في القرآن: « ولو جعلناه قرآناً أجمعياً لقالوا: لولا فصلت آياته؟ أأعجمي (الكتاب) وعربي (النبي)! » (٤٥).

٣- توحيد (٤٧- ٥١) إلى الله يُرد علم الساعة وعلم الخلائق (٤٧ - ٤٨) في الضراء يذكر الإنسان الله، وفي السراء « أعرض وناء بجانبه » (٤٩- ٥١).

ختام (٥٢- ٥٤) لا تكفروا بالقرآن فهو الحق^٢. ولا تشكوا في لقاء الله بالبعث فإنه بكل شيء محيط.

*

* *

الثانية والستون: حم عسق الشورى (٤٢): « وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب » .

فذلكة : هذه السورة صريحة في اهتداء النبي العربي إلى الإيمان بالكتاب « وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب » (١٥) وقيل إيمانه بالكتاب « ما كان يدري ما الإيمان ولا الكتاب وإنك لثُهدى إلى صراط مستقيم » (٥٣) . وهذا الإيمان يظهر في وحدة الدين الذي شرعه الله بجميع الأنبياء (١٣). فالسورة مكية وفيها آي مدني ، وأي مقم لا يمت بصلة إلى السياق كآية الشورى .

قيل فيها من الناسخ موضع ، ومن المنسوخ اثني عشر موضعاً ، وقيل صح منها سبعة .

مطلع مزدوج (١ - ٨): الأول مقم بروي مختلف (١ - ٦): العلي العظيم يوحى إليك كما أوحى إلى من قبلك.

الثاني أصيل (٧ - ٨): الله أوحى إليك « لتتذر أم القرى وما حولها وتذر يوم الجمع^٣ » .

(١) الآيات ٤١ - ٤٣ تظهر تضامن القرآن والكتاب في مصيرهما : شهادة أخرى على دوام النفوذ الإسرائيلي .

(٢) الآية ٥٣ « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » تعطي خطة القرآن في برهان التوحيد .

(٣) الآية ٥ « ويستغفرون لمن في الأرض » : وفي غيرها « ويستغفرون للذين آمنوا » ولذا قيل هذه تنسخ تلك . ثم أليست شفاعاة الملائكة في هذا الاستغفار ؟ فهو إقرار بمبدأ الشفاعاة .

والآية ٧ من الشورى تحصر رسالة النبي مكاناً « بأم القرى وما حولها » وموضوعاً « بالإنذار بيوم

الجمع » .

١- دعوة إلى التوحيد (٩-٣٥): لا ولي إلا الله.

- الله هو الولي وليس كمثلته شيء^١ (٩-١٢) - ردّ على اتخاذ شركائهم ثم الملائكة أولياء.

- شرع لكم من الدين ما وصّى به جميع الأنبياء: قلّ أمنتُ بما أنزل الله من كتاب^٢ وليس لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله (١٣-٢٣) - وفيه رد على مقالة ثانية لهم.

- يبسط الرزق لعبادة بقدر لئلا ييغوا في الأرض، وينزل الغيث بعد يأس منه (٢٧-٢٨).

(١) الآية ٩ « أم اتخذوا من دونه أولياء : فإله هو الولي » يستنكر ولاية الملائكة ، وهم يقولون : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » (فصلت ٣١) . والآية ١١ « ليس كمثلته شيء » قال الجلالان : « الكاف زائدة لأنه تعالى لا مثل له » ؛ وهذه الزيادة قلبت ظاهر المعنى لأنه يقتضي أن له مثلاً .
(٢) الآية ١٤ مدنية مقحمة على السياق تقطع ١٣ عن ١٥ وتحول الخطاب من المشركين إلى الكتابيين . ولا جدل معهم في مكة .

والآية ١٥ قوله فيها « لا حجة بيننا وبينكم » نسختها آيتنا براءة في قتال المشركين (٥) والكتابين (٣٠) . وقيل هذا بيان لا نسخ . وقوله : « وقل أمنتُ بما أنزل الله من كتاب » فعلُ إيمان وهداية إلى الكتاب الذي شرع فيه الله الدين لجميع الأنبياء من نوح إلى إبراهيم إلى موسى إلى عيسى . وهذه الآية توضح معنى الهداية التي تذكرها سورة الضحى ، ومعنى الكتاب الذي يستفتح به سور هذا العهد . ويتضح المعنى جلياً في الآية ٥٢ « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لَنَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (قوله لتهدى لها قراءتان على المعلوم والمجهول ، وقراءة المجهول أقرب إلى تسلسل المعاني) : فالآيتان ١٥ و ٥٢ تصرّحان بأن محمداً اهتدى بالإيمان إلى كتاب الأنبياء الذين شرع الله بهم فيه الدين للناس .

والآية ٢٠ « من كان يريد حرث الدنيا نأته منها » قيل نسخه قوله : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » .

الآية ٢٣ « إلا المودة في القربى » يرد المعنى كثيراً بدون هذا الاستثناء : فهل هو زيادة ، أم هو استغاثة بقرباته لحمايته ؟ وهل يقصد القربى الدموية من أهله ، أم القربى الروحية في الله - وفيه خلاف . وقيل هو منسوخ بقوله : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم » وفي نسخه اختلاف لقوله : « وقدموا بين يدي نجواكم صدقة » . قال النحاس (٢١١) : أول من عمل بها علي بن أبي طالب ثم نسخت .

- ومن آياته خلق السماوات والأرض (٢٦ - ٣١).

- ومن آياته الجواني في البحر كالأعلام (٣٢ - ٣٥) فليس لمن يجادل بالله من محيص.

المقطع ٣٦ - ٤٢ مزيد من المدينة، تدل عليه الزيادة المقحمة ((وأمرهم شورى بينهم)) ويدل عليه اختلاف الروي.

٢- **حديث الآخرة (٤٤ - ٤٨)** استجيبوا لربكم قبل أن يأتي يوم لا ولي فيه من دون الله (٤٤ - ٤٦) ولا مرد له من الله (٤٧ - ٤٨).

ختام (٤٩ - ٥٣) لله ملك السماوات والأرض (٤٩ - ٥٠)؛ طرق الوحي الثلاث: بروح من الله اهتدى محمد إلى صراط الله في الكتاب وآمن به^٢ (٥١ - ٥٣).

* *

الثالثة والستون: حَمَّ الزخرف (٤٣) ((**قل إن كان للرحمان ولد، فأنا أول العابدين**)) .

فذلكة : هذه السورة وحدة متكاملة في إبطال كل بنوة من الله ، مع ردود على مقالات المشركين . قيل لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ ثلاثة مواضع . وقيل لم يصح منها شيء .

مطلع (١ - ٨) يقسم بالكتاب المقدس أنه جعله قرآناً عربياً (١ - ٥).

(١) الآية ٣٨ ((وأمرهم شورى بينهم)) تقحم تشريعاً لشؤون الدولة في تشريع تعبدية وأخلاقي ؛ وقوله ((والذين إذا أصابه البغي هم ينتصرون)) تشريع الجهاد الدفاعي ، ولذا قيل هي منسوخة بأية السيف التي تشريع الجهاد الهجومي . والآية (٤٠) ((وجزاء سيئة سيئة مثلها)) تشريع مدني أقرب إلى التوراة (العين بالعين) منه إلى الإنجيل كما في الآية المكية (٣٤) من سورة فصلت ((ادفع بالتي هي أحسن السيئة ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)) : فالقرآن تشريع وسط (نساء ٢٥) للأمة الوسط (بقرة ١٤٣) .

(٢) الآية ٥١ طرق الوحي الثلاث ((تارة بوسط وتارة بغير وسط ، إمّا عياناً وإمّا من وراء حجاب)) (البيضاوي) ((وإمّا إلهاماً وإمّا خطاباً)) (الزمخشري) والقرآن يختص محمداً بالوحي بالواسطة ((وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا)) : ((يعني ما أوحى إليه ، وقيل جبريل)) (البيضاوي) وتفسير الروح بجبريل يتفق مع القرآن كله ؛ أما حديث المعراج وحديث الرؤيا فليسا بقرآن : ((وعن عائشة ر . من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية)) (الزمخشري : حديث متفق عليه) .

(٣) الآية ٢ - ٣ ((والكتاب المبين : إنا جعلناه قرآناً عربياً)) قيل القسم وجوابه واحد ، وهو القرآن ؛ ولكن انتماء القرآن صراحة في هذا العهد إلى الكتاب الإمام يفرض تمييزاً بين القسم والمقسم عليه : يقسم بالكتاب، على عادة اليهود ، إنه جعل الكتاب المذكور قرآناً عربياً . ويزيد أن أصل القرآن العربي ((في أم الكتاب لدينا)) (٤) وهو مثل قوله ((بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ)) : قيل أم الكتاب أو اللوح المحفوظ هو الذي في السماء : فكيف يمكن الاستشهاد به ؟ بل هو تعبير عبراني كنايةً عن ألواح موسى المحفوظة في

- وقد مضى مثل الأولين الذين يستهزئون بالأنبياء دون عقاب (٦- ٨).
- ١- **توحيد (٩- ٤٥):** ((وإنه ذكر لك ولقومك)) .
- أ- **براهين:** - العزيز العليم خلق السماوات والأرض، وجعل الأرض مهدياً، وجعل فيها سبلاً (٩- ١٠)
- أحيا الأرض بالمطر، وخلق الأزواج، والفلك والأنعام^١ (١١- ١٤).
- ب- **رد مقالات لهم:** - وجعلوا له من عباده جزءاً (١٥) رد على مقالة أولى.
- وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً (١٦- ١٩) رد على مقالة ثانية.
- وقالوا: لو شاء الرحمان ما عبدناهم (٢٠) رد على مقالة ثالثة.
- أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون (٢١) رد على مقالة رابعة^٢.
- بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون؛ بل كلمة إبراهيم الباقية في عقبه هي التوحيد لا الشرك. (٢٢- ٣٠) تردّ على مقالة خامسة.
- وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - أهم يقسمون رحمة ربك!^٣ (٣١- ٣٢) وفيه رد على مقالة خامسة.

تابوت العهد؛ فكما ينتسب في هذا العهد إلى كتاب موسى الإمام، ينسب قراءته إلى اللوح المحفوظ أو أم الكتاب في تابوت العهد؛ كما أن أقسامه الفلكية عادة عربية، كذلك أقسامه الكتابية عادة عبرية.

وقوله ((قرآناً عربياً)): جمع السيوطي في (المتوكلي) وفي (الإتيان) أكثر من مئة لفظة جاءت في القرآن بغير لغة العرب، ولم يكن يفهم أكثرها الصحابة أنفسهم.

(١) الآية ١٢ ((وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره)) قال الجلالان: ((ذكر الضمير وجمع الظهر نظراً للفظ ((ما)) ومعناها))؛ وقال الزمخشري ((يقال ركبوا الأنعام، وركبوا في الفلك: وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قلتُ غلب المتعدّي بغير واسطة لقوته على المتعدّي بواسطة)) . والآية ١٥ و ١٨ مثل النحل ٥٩ و ٦١ .

(٢) الآية ٢١ ((أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون)) يجادل المشركين في قولهم إن الرحمان شاء لهم عبادة الملائكة، بأنه قول لا سند له في الكتاب: مما يوحي بأنه هو يجادل ((بعلم من الكتاب المنير)) (الحج).

(٣) الآية ٣٢ ((نحن قسمنا بينهم معيشتهم، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (في المعيشة) ليأخذ بعضهم بعضاً سخرياً)): نحن جعلنا بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً ورفعنا بعضهم بالغنى فوق بعض درجات ليأخذ الغني الفقير مسخراً في العمل له بالأجرة)) (الجلالان) فهذه الآية تكرر الطبقات الاجتماعية وتسخير بعض لبعض، وتجعل هذا النظام من عمل الله . وقسمة المعيشة مثل على قسمة البنوة، ورحمة الله الكبرى .

- ((زخرف)) الكفار متاع الحياة الدنيا، والآخرة للمتقين (٣٣- ٣٥) رد على مقالة سادسة.

- من يعرض عن ذكر الرحمان، له قرين يوسوس له الشرك، فليسوا بمهتدين (٣٦- ٤٢) رد على مقالة سابعة.

ويختم بقوله: استمسك بالقرآن فهو ذكر لك ولقومك! سل الرسل أجمعنا من دون الرحمان آلهة؟ (٤٣- ٤٥).

٢- قصص التوحيد (٤٦- ٦٥) مثل للآخرين.

حديث موسى (٤٦- ٥٦) فيه تعريض بحال قريش من محمد، الذي ليس بعظيم من القريتين.

حديث عيسى (٥٧- ٦٥) ألهتنا خير أم هو؟ - وإنه لعلم للساعة.

٣- حديث الآخرة (٦٦- ٧٧) نعيم الجنة؛ وعذاب جهنم الخالد.

ختم السورة (٧٨- ٨٩) - ((لا بنوة ولا شفاعة: أم أبرموا أمراً فإننا مبرمون)) الآيات (٧٩- ٨٠) تصف مؤامرة على النبي.

(١) الآية ٤٤ ((وانه لذكر لك ولقومك)) أصرح شهادة قرآنية تجعل رسالة القرآن قومية .
 (٢) حديث عيسى فيه جوابان : أحدهما من مكة ((إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ؛ وانه لعلم للساعة)) (٥٧ - ٦٢) ؛ وجواب من المدينة : خطاب عيسى لليهود ، واختلاف الأحزاب فيه (٦٢ - ٦٥) .
 الآية ٦١ ((وانه لعلم للساعة)) لها قراءتان: ((علّم)) به يُعرف قيام الساعة - وهذا يدل على مصدر تعليم اليوم الآخر أنه من المسيح - ((علّم)) أي علامة على حضور الساعة ويوم الدين ؛ وهذا دور يلعبه المسيح قبل يوم الدين امتاز به عن المرسلين ، وانفرد به دون العالمين . وقد تناول أهل الحديث والصوفية هذا الدور الفريد : ((بوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً)) (الثعلبي : عرائس المجالس ٤٠٣) ؛ ((لا مهدي إلا عيسى ابن مريم)) (ابن ماجة : السنن ٢ : ٢٧٥) ؛ ((ولن يخزي الله أمة أنا أولها والمسيح آخرها)) (الترمذي : نوادر الأصول ١٥٦) . بحسب هذا القرآن وهذه الأحاديث ، فخاتمة الأنبياء في آخر الدنيا هو المسيح . وابن العربي يجعل المسيح خاتم الأولياء من آدم إلى آخر ولي (الفتوحات المكية ٤ : ٢١٥ و ٢ : ١٠) ويمتاز عند قيام الساعة بكونه ختم الولاية وختم النبوة معاً ((فكان أول هذا الأمر نبي وهو آدم وآخره نبي وهو عيسى . فجمع الله له بين ختم الولاية وختم النبوة)) (٢ : ٥٥) .

- قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين: فلا إله إلا الله^١ (٨١- ٨٥).

- ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة^٢ (٨٦- ٨٩).

*
* *

الرابعة والستون: الدخان (٤٤) عذاب الكفر قريب!

فذلكت: هذه السورة وحدة متكاملة ، قيل لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ موضعان ، لم يصح منهما شيء .

مطلع (١- ٦) والكتاب المبين: إنا أنزلناه في ليلة مباركة، رحمة من ربك^٣.

١- **حديث التوحيد (٧- ١٦)** - رب السماوات والأرض، يحيي ويميت.

- وعيد: يوم يأتي السماء بدخان مبين^٤، ويوم نبطش البطشة الكبرى، رد على قولهم عن النبي ((مُعلم مجنون)) .

٢- **قصص التوحيد (١٧- ٣٣)** موسى وفرعون: ((إني عدت بربي وربكم أن ترجمون)) - تعريض بحاله منهم؛ ((ولقد اخترناهم على علم على العالمين)) مديح يدل على الوحدة القائمة بين النبي وبينهم.

(١) الآية ٨١ ((قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين)) تظهر استعداد نبي القرآن لعبادة ابن الله إن صح أن لله ولداً ؛ ولكن ((أتى يكون له ولد ولم تكن له قدأط صاحبة !)) .

(٢) الآية ٨٦ ((ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة ، إلا من شهد بالحق)) قال الجلالان ((وهم عيسى وعزيز والملائكة ، يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم)) : القرآن ينفي الشفاعة ((قل لله الشفاعة جميعاً)) وهنا نستنتي ((من شهد بالحق)) .

- الآية ٨٨ ((وقبله)) على م العطف ؟ ولم يعود الضمير ؟ وما حركة البناء : الرفع أم النصب أم الجر ؟

- والآية ٨٩ ((فاصفح عنهم)) قيل نسخت بأية السيف .

(٣) الآية ٢ من الدخان : يقسم بالكتاب المقدس ((إنا أنزلناه في ليلة مباركة)) : قد يقصد القرآن ، وقد يقصد الكتاب المقدس لأنه قسم كتابي ، والليلة المباركة هي عندهم مدة بقاء موسى ستة أيام في سيناء مغموراً بالغمام المنير ((وكان سيناء مدخناً كله)) (خروج ٤٤ : ١٢ - ١٦) وقد يكون في قوله : ((فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين)) (١٠) إشارة إلى ذلك ، أو إلى اليوم الآخر .

(٤) الآية ١٠ ((الدخان المبين)) يرى فيه (الجلالان) معجزة جرت لمحمد ، وقال الزمخشري : ((واختلف في الدخان : فعن علي بن أبي طالب أنه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة . وعن رسول الله ص. أول الآيات : الدخان ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار من عدن تسوق الناس إلى المحشر)) . فاللدخان من علامات الساعة لا من دلائل النبوة . قابل سفر الرؤيا ٩ : ١ - ١٠ .

(٥) الآية ١٤ ((معلم مجنون)) وصف جامع لجميع تهمهم : دَرَسَ ، وبه جنة .

٣- حديث الآخرة (٣٢- ٥٧) عذاب الحميم، والفوز العظيم يبدأ برد مقالة لهم: إن هؤلاء ليقولون: إن هي إلا موتتنا الأولى! وما نحن بمنشرين! - إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ((٣٤- ٤٢).

- شجرة الزقوم طعام الأثيم، وشرابه عذاب الحميم (٤٣- ٥٠) يذكرها لثالث مرة.

- الفوز العظيم: جنات وعيون، لباس ديباج، وكل فاكهة، والزواج بحور عين (٥١- ٥٧).

ختم (٥٨- ٥٩): إنما يسرناه بلسانك! فارتقب أنهم مرتقبون هلاكك.

*

الخامسة والستون: الجاثية أو ((الشريعة)) (٤٥) ((إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين)) .

فذلكة : سورة وحدثها ظاهرة أو هي دعوة للإيمان بالله واليوم الآخر ، لا قصص فيها .
قل لا ناسخ فيها ، وفيها من المنسوخ موضع ، لم يصح .

مطلع (١) حَمَّ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم^١ .

١- حديث التوحيد (٢- ٢٢) آيات السماوات والأرض تشهد بالتوحيد.

- في السماء والأرض آيات للمؤمنين: خلق الإنسان والحيوان، والليل والنهار، والمطر والرياح (٢- ٥).

- استطراد: حملة على كل إفاك أثيم يسمع آيات الله ولا يؤمن بها (٦- ١٠).

- الله سخر للإنسان ما في السماء، وما على الأرض وما في البحر (١١- ١٢).

- استطراد: قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله^٢ (١٣- ١٤).

(١) الآية ١ من الجاثية ((حَمَّ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)) توضحها الآية ١٥ ((ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب)) . والآية ١٧ ((وجعلناك على شريعة من الأمر)) : فالكتاب المقصود بأقسام هذا العهد، وتقرير تنزيله ، إنما هو كتاب موسى الإمام ، وعلى النبي أن يقتدي به (أنعام ٩٠) وقد جعله ((على شريعة من الأمر)) على الطريقة التي أوصلته إلى الكتاب فأمن به ((وقل آمنتم بما أنزل الله من كتاب)) (شورى) .
(٢) قيل الآية ١٣ ((قل للذين آمنوا يغفروا)) نزلت في عمر ونسخت بآية السيف .

- استشهد بالكتاب وأهله، وتحريض للنبي على اتباعهم وترك إهداء الذين لا يعلمون^١
(٢٢- ١٥).

٢- **حديث البعث** (٢٣ - ٣٤) الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة، لا ريب فيه.

- رد أول على الدهر بين العرب: ((إن هي إلا حياتنا الدنيا! نحيا ونموت وما يهلكنا إلا الدهر))!

رد ثانٍ: ما ندري ما الساعة، إن نظنّ إلا ظنا، وما نحن بمستيقنين (٣١ - ٣٤).

خاتمة (٣٥- ٣٦): لله الحمد وله الكبرياء، في السماوات والأرض.

*

* *

السادسة والستون: حَمَّ الأحقاف (٤٦) إثبات الدعوة والرسالة.

فذلكة: هذه السورة هي آخر ((الحواميم)) السبع التي تختم العهد الثاني، الإسرائيلي، بمكة، قبل الهجرة الشخصية إلى الطائف. وقد ورد في الحواميم إشارات إلى مؤامرتهم على النبي لاغتياله والزهرى يجعلها متبعضة.

قبل لا ناسخ فيها، وفيها من المنسوخ موضعان، صح منهما واحد (٩).

مطلع (١- ٢) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

١- **جدل على التوحيد** (٣- ٢٠) ليست عباده الشركاء قربي إلى الله ولا قربانا.

أ - الله هو الخالق؛ فماذا خلق الشركاء من الأرض أم لهم شرك في السماء: ائتوني بكتاب أو إثارة من علم^٢! (٣ - ٦).

ردّ على مقالة أولى لهم: ((هذا سحر مبين))! - بل آيات بينات (٧).

(١) الآية ١٥ و ١٧ صريحة على الوحدة القائمة بين القرآن والكتاب، والنبي وأهل الكتاب، ((والأمر)) الواحد الذي بينهم ((و آتيناهم بينات من الأمر)) وبينه ((ثم جعلناك على شريعة من الأمر)) - القسم الثاني من الآية ١٦ مقم عليها، ويناقض الموقف المقم عليه، ليخفف من إطراء بني إسرائيل.
(٢) الآية ٤ يتحداهم أن يأتوا بكتاب منزل من قبل القرآن أو بقية من علم يؤثر عن الأولين بصحة دعواهم أن عبادة الشركاء تقربهم إلى الله: هنا يظهر معنى التحدي بإعجاز القرآن في (هود، يونس، الإسراء): إنه استشهاد بالتنزيل أو بالعلم المأثور؛ وفي استشهاده ((بأثارة من علم)) يؤثر عن الأولين ساوى في التحدي بين المصدرين.

رد على مقالة ثانية لهم: ((افتراء)) ! كفى بالله شهيداً بيني وبينكم! وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله، فأمن واستكبرتم^١ (٨ - ١٠).

رد على مقالة ثالثة: لو كان خيراً ما سبقونا إليه، بل هو إفك قديم - كلا بل هو ((كتاب مصدق لساناً عربياً، لكتاب موسى الإمام))^٢ (١١ - ١٢).

ب - إن الذين قالوا: ربنا الله واستقاموا، أولئك أصحاب الجنة: حكاية أبي بكر الصديق وابنه^٣ (١٣ - ٢١).

٢- **قصص التوحيد** (٢١ - ٣٢): الجن أنفسهم آمنوا بالقرآن! (خبر من هجرة النبي إلى الطائف).

- قصة هود مع قومه عاد بالأحقاف^٤ (٢١ - ٢٦).

- ((ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى اتخذوا من دون الله آلهة قرباناً إليه °)) (٢٧ - ٢٨).

(١) الآية ٩ ((ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم)) قيل نسخها قوله: ((ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) (النحاس ٢١٨) . ((كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عن المغيبات . فأجاب : إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير)) (عن الزمخشري) : ((لم يزالوا يطلبون منه معجزة لتصديقه ، فيستشهد ببني إسرائيل (١٠) وبكتاب موسى (١٢) الذي ليس القرآن منه سوى ((كتاب مصدق لساناً عربياً)) .

(٢) في الآية ١٠ يستشهد بال إسرائيل بدل المعجزة المطلوبة . وفي الآية ١٢ يستشهد بمطابقة القرآن لكتاب موسى الإمام ، فهو عنه نسخة لا يميزها سوى اللسان العربي : دليل على وحدة الكتاب ووحدة الدعوة .

(٣) قيل نزلت الآية ١٤ ((ووصينا الإنسان)) في أبي بكر وفي أبيه أبي قحافة وأمه أم الخير وفي أولاده ، ولم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالده وبنوه وبناته غير أبي بكر . والآية ١٧ ((والذي قال لوالديه : قيل نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر)) (الزمخشري) .

(٤) الآية ٢١ ((عاد بالأحقاف)) تذكر منازل قبائل عاد : ((جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء. وهي الشجر من بلاد اليمن ؛ وقيل بين عُمان ومهرة)) (الزمخشري) . وقيل هي في جنوب الجزيرة مما يلي اليمن وحضرموت على الجانب الجنوبي من الدهناء أو الربع الخالي . وعاد هو ابن نوح أو من نسله الأقربين . وفي أساطيرهم أنه تزوج ألف امرأة وولد مئة وأربعة آلاف ولد ! وشداد بن عاد هو الذي بنى ارم ذات العماد .

(٥) الآية ٢٨ ((اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة)) فيه تقديم وتأخير ((اتخذوا من دون الله آلهة ، قرباناً)) إليه تعالى . وهي مثل قوله : ((ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)) : فليست عبادتهم تأليهاً بل زلفى إلى الله ، وقربى منه تعالى .

((العهد الإسرائيلي)) _____ ٥٣١

- قصة إسلام نفر من الجن^١ (٢٩-٣٢).

٣- حديث الآخرة (٣٣-٣٤): البعث خلق جديد ووعد حق.

ختام (٣٥) فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. وقل: هذا بلاغ.



(١) الآية ٢٠ ((أنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما قبله)) - فلا يذكر الإنجيل ، وهذا دليل آخر على أن العهد لم يزل ((العهد الإسرائيلي)) الذي فيه كتاب موسى إمام القرآن (١٢) . ((والنفر دون العشرة؛ روي أنهم وافوا رسول الله عليه السلام ، بوادي النخلة عند منصرفه من الطائف . يقرأ في تهجده)) (البيضاوي) وفي هذه الرواية إشارة إلى أن سورة الأحقاف آخر ما نزل ما بين هجرة المسلمين إلى الحبشة نحو سنة ٦١٥ م وهجرة النبي الشخصية إلى الطائف نحو سنة ٦٢٠ .